كلمة الوزارة

عصام خليل
وزير الثقافة

اليوم السوري للثّقافة المقاومة

خبّأتُ تحت القلب صُرّةً من حنين الندى، وجئت سهول الشهباء، فوجدت الرجال على أهبة النصر، واقفين على مفرق الضوء سنديانا يوقظ الفجر ليذهب إلى دوامه اليومي، في صباح الخصوبة.

رأيت سيف الدّولة يضمّد خاصرة الأرض، يقود الرّجال إلى شموخهم، ويرجّ التاريخ حتى تنهض الصخور من رقودها، وتصرخ في مسارب الدهور: هنا حلب الشهباء والساعة الآن منتصف النصر إلا قليلا...

❁ كلمة السيد الوزير في فعّالية «يوم وزارة الثقافة» التي أقيمت في مدينة حلب بتاريخ ٢٢/١١/٢٠١٥م.

حلب الصامدة، حلب المقاتلة، حلب التاريخ الطالع من جذور الأرض، زعتراً وغاراً وجباهاً معممةً بالكبرياء.

حلب المضرّجة بعرق جنودها الصامدين على تخوم الموت علّمتنا، وألهمتنا معنى ثقافة الحياة، ثقافة المقاومة، فكان الاحتفال بيوم وزارة الثقافة: اليوم السوري للثقافة المقاومة.

ومن يجيد المقاومة، من يجيد الحياة كالشهباء الناهضة من ركام الرماد قلعةً للبروق الساخرة بعتم الموت، ودخان الإرهاب!؟؟

حلب ليست مدينةً من بساتينَ وأطفالٍ ذاهبين إلى المدارس، ولا تضاريس من نجومٍ وشجر، بل هي عاصمة الله عمّرها بلهاث الملائكة، على هذا التراب المقدّس، حيث الأرض أقرب ما تكون إلى السماء.

من كبرياء المتنبي، وغربة أبي فراس، وشموخ سيف الدولة، تعلمت أبواب حلب كيف تستضيف أحبّتها بالغناء و«مربّى الورد» وكيف تغسل آثار الغرباء بموج الشرايين، وصابون الغار.

حلب الشهيّة كطعام الأمّهات، ظلّت وفيةً لبراءتها، فلم تستطع صرخات الغرائز أن تستدرجها إلى حفر الموت، بقي ولاؤها لأمها سورية صلاةً ترتلها قلعتها الشامخة، وتحملها أنفاس الضحى، لتمسح نوافذ الفجر الطالع من قاسيون.

أدركت أن هذه الهجمة الضارية، تستهدف العقل، ومكوناته المعرفية، بالإلغاء والتشويه، وتدمير كل مجيد في رموزنا الحضارية، تمهيداً لفوضى الجغرافية. لكن الشهباء التي شهدت ولادة الدهر، لم تقبل بخلخلة التاريخ، وكان يقينها نجم القطب الساطع في شحوب الوقت، يهتدي بوميضه الطالعون من صلابة الصخر، إلى شباب الشجر.

هنا يتكسّر الموت، ويندحر الغبار الأسود، وتظلّ الشهباء وارفةً كلثغة طفلٍ تمنح الحياة طعم الحياة.

سواعد أبنائها، جباه أهلها، صبر أمهاتها، عناوين الزمن القادم من رحم الوجع، حامـلاً طهارة الأرض المجبولة بالفداء، سنابل خضراء... خضراء حتى الخصوبة.

تثب الكلمـات حتـى تستطيع الوصـول إلى غبـار قدميك أيتهـا الصابرة، تمتشـق اللغـاتُ قاماتها حتى تقـول حرفاً من صمودك الأسطـوري، وما تزال ابتسامتـك السّاخـرة مـن عـوادي الزمن، تجوب مـزارع الرياح، خيـولاً مدويّة الصهيل.

لم أحجّ إلى رحابك الطاهرة كوزيرٍ للثقافة! بل جئت أتتلمذ على سواعد رجالك وجباههم، أتعلم من صمود الحدائق، ومن صبر العشب، كيف نعلّم الأطفال قراءة الرّيح، وهبوب الضفائر على أكتاف الصبايا.

جئـت أتوضأ بالفجر. قبل صلاة الصبـح. على سجادة أرضك المشغولة بخطى الأنبياء.

ففي حلب كلّ نافذة مشرعة لرسالة نسمة، كلّ عصفور يقطن في غصنٍ ذابل، كلّ امرأةٍ تردم بغنائها هدير القذائف، وزير للثقافة.

ثقافة الحياة، ثقافة الشمس، ثقافة الشرايين الهادرة في مسارب الأرض، بيادر حنطةٍ، وخبزٍ ساخن.

أسمـع في حفيف ظلالك نبض قلوب الصامديـن في كويرس والكندي، وخطوات العابرين إلى مجدهم، على إيقاع الرصاص، ووصايا الأمهات.

التاريخ لا يعيد نفسه، لكن الرّجال يعيدون ملاحمهم، ويصوّبون مسار التاريخ، حتى تظلّ ملامح الوطن مغسولةً بوسامة القمم.

سيـف الدولـة الحمداني، يحطمّ على أسوارك المنيعـة، جيوش المرتزقة، بعد أن تجمّعوا من أقطار الأرض، سيولاً من الفولاذ والطمع، فحذّر جدّك المتنبي أميره سيف الدولة:

أتــوكَ يــجــرّون الحــديــد كـأنـهـم
سـروا بـجـيـادٍ مـا لـهـنّ قـوائمُ
خميسٌ بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذنِ الجــوزاء مـنـه زمـازمُ
تجـمّـع فـيـه كـلّ لـسْـنٍ وأمّـةٍ
فـمـا يُـفـهـمُ الحـدّاثَ إلاّ الـتراجـمُ

واليـوم، ألمـح عباءة المتنبي خفاقةً على شرفـات قلعتك الشامخة، يشدو لسيف دولة عصرنا بشار الأسد:

وقـفـت ومـا في المـوت شـكٌّ لـواقـفٍ
كـأنّـكَ في جـفـن الـرّدى وهـو نـائـمُ
تمـرُّ بـكَ الأبـطـالُ كـلـمـى هـزيـمـةً
ووجـهـك وضّـاحٌ وثـغـرك بـاسـمُ

اليـوم يعيـد شعب سوريـة، ملحمة الخلود، لمجـد الإنسانية كلّهـا، بانتصاره على إرهابيي العالم، الذين احتشدوا من أكثر من ثمانين دولةً، لينهشوا لحم السوريين.

اليوم تكتنز الجدّات جمر الحكايات، لتقصّ على الأجيال القادمة ألق النصر، وتلقّن الأبناء، مجد آبائهم.

المجد للحياة يكتبها الجيش السوري المقدّس بحبر الروح، ليظلَّ النخيل مورقاً في قامات الصبايا.

المجـدُ للشهـداء يقفلـون أعمارهـم علـى مداخـل البيوت، حتـى تظلّ ضحكات الأطفال آمنةً على شفاههم.

المجد للشهباء، والعزّة والنصر لسورية.

كلمة العدد

د. علي القيّم
رئيس التحرير

نور الدين حاطوم، والبحث عن التاريخ

يعدّ المفكّر والمؤرّخ الدكتور نور الدين حاطوم (١٩١٩-٢٠٠٠م) أحد أعمدة الفكر والتاريخ في الوطن العربي، فقد أثرى المكتبة العربية بعشرات المؤلفات والأبحاث والدراسات المعمّقة، التي كانت ومازالت مراجع أساسية في تاريخ الحضارة، والتاريخ الدبلوماسي، وتاريخ أوروبا، والمجتمع العربي، وفهم أدبيات التاريخ الحديث والمعاصر، ويعتبر بحق من أكثر المؤرّخين العرب، التصاقاً بالحقيقة، وأشدّهم تمسّكاً بمناهج الدقة، والاستيفاء والبحث والتحليل، والتركيز على المصادر الأساسية، لاستخلاص كل ما تحويه من مادة تاريخيّة، يمكن أن نطلق عليها «منهج الموضوعية البحتة».

مسيرته الطويلة الحافلة بالعطاء وتعامله الواعي مع التاريخ، جعلت كتاباته، دراسات ممتعة قادرة على ترك الأثر الكبير في تكوين العقل الواعي المدرك لحقائق الحياة لأجيال عدّة من الباحثين وطلاب العلم والمعرفة.. سألته مرّة: كيف تفهم التاريخ، فأجاب: أفهم التاريخ، كما يجب أن أفهمه، إنه محاولة للتعرّف على الماضي الإنساني، من خلال المخلّفات التي تركها السلف.. إنه دراسة علميّة غنية بتجارب إنسانية.. إنه فهم بأشكال مختلفة عبر العصور وكل جيل فيها شارك في بناء معبد «كلير» إلهة التاريخ، إلى أن وصل، إلى ماوصل إليه في أيامنا هذه.. إنه ذاكرة الإنسانية على توالي العصور والأزمنة، وما أنجزته من نشاطات مختلفة، من علوم وفنون وتقنية.. إنه صعب المنال، وإننا لا نصل فيه إلى نتيجة حاسمة، أو قانون مطلق، ومع ذلك نقول إنه موجود وحقيقته نسبية، والإبداع فيه دائم على ضوء الوثائق المكتشفة، والتي ستكشف في المستقبل القريب أو البعيد..

لقاءات كثيرة جمعتني بالدكتور حاطوم، وكان خلالها دائم التأكيد على العلاقة التي ربطته بعلم التاريخ منذ الصغر، حيث كان والده يقص عليه فصولاً من كتاب «بدائع الزهور» و«تغريبة بني هلال» وقصص «سيف بن ذي يزن» و«عنترة» و«ألف ليلة وليلة» و«نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين» وغير ذلك مما كان في مكتبته من كتب.. وبعد هذا الإصغاء الشيّق، بدأ يقرأ كتب التاريخ العربي الإسلامي، في فترة التعليم الثانوي، وأقبل أيضاً بنهم شديد على المطالعة، لأمهات الكتب والمخطوطات في المكتبة الظاهرية في دمشق، خلال العطل الصيفيّة، وكان لدراسته في جامعة «مونبلييه» الفرنسية، وحصوله على الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر من جامعة باريس، الفرص المناسبة لاقتناء مؤلفات كبار الأساتذة، مما زاد من مطالعاته

للتاريخ، وساعده على الغوص في أبحاثه ومؤلفاته وترجماته الشاملة الجديدة، التي قام من خلالها بالعودة إلى الكثير مما كُتِبَ ودوّن في العصور السابقة.. لقد وجد أن ما كتبه مؤرخونا القدماء، سواء كانوا شهود عيان، أم عن النقل غير المباشر، قد تأثر بعدة عوامل مختلفة، توجيهية، أو عاطفية حسب العصور التي كتب فيها، تحفل بالمدح والقدح، والأساطير والحقائق، حسب اهتمام المؤرخين الخاص، و«الأيديولوجيات» المعاصرة لهم..

لقد وجد من الضرورة بمكان، العودة إلى هذا التاريخ، والقيام بنفضه من جديد، وتأليفه بناء على دراسة علمّية نقديّة، موثّقة، وعلى ضوء ثقافتنا العصرية، ومفاهيمنا العلميَّة الجديدة، ونظرة بعيدة عن التحيّز جهد المستطاع.. والتأليف في التاريخ، بالمفهوم الحديث، ليس إعادة كتابة، ولا إكمال نواقص، وإنما دراسة علمية، وبطريقة منهجيّة خاصة بالتاريخ، ويهمّنا في هذه الفترة المريرة بالذات، أن نبرز الترابط الوثيق بين أبناء العرب على اختلاف أقاليمهم، وصلاتهم الأخوية، بعيداً عن أنظمة الحكم «كيف كانوا، وكيف كوَّنهم التاريخ، وكيف صنعوا تاريخهم، لا فرق بين مغربهم ومشرقهم، وكيف كانت علاقاتهم متواشجة لم تنقطع، على الرغم مما أحاط بهم من ظروف صعبة ومفتعلة عن طريق الحكّام، أو عن طريق الاستعمار البغيض...

الدكتور نور الدين حاطوم، كان في كل ما كتب وألَّف ودرس، واعياً ومدركاً، للمهمات الأساسية التي يجب توافرها في المؤرخ، وقد حدّدها في صفات وشروط يمكن اختصارها:

١- على المؤرخ أن يكون مثقفاً، ثقافة علميّة واسعة، لأن التاريخ موسوعة علميّة، يتناول مختلف نواحي الحياة، ويتصف بالشمول.. لأن كل شيء موضوع التاريخ، ولا توجد وقائع «تاريخية» ووقائع «غير تاريخية».

٢- أن يكون متحلياً بالصبر، نقّاداً، صادقاً بعيد عن التصديق لكل ما يعرض عليه، مهمّته شاقة وعسيرة، وعليه أن يغربل الأحداث بغربال واسع الفوهات، فلا يبقى منها إلا ما يقتضيه منطق الحوادث البشرية، وفق الطريقة المنهجيّة، وأن يقرأ كثيراً، ويجمع كثيراً، وينقد كثيراً، ويسقط كثيراً، ويكتب قليلاً... مهمته: ماذا يجب أن يطرح، وماذا يجب أن يبقي ويأخذ...

٣- أن يكون محايداً في بحثه الحر، جهد المستطاع، والحياد مبدأ يقيه من الخطأ، والاستسلام للعاطفة، والتورط في المزالق، وإذا كان من الصعب جدّاً، التزام الحياد في كتابة التاريخ القومي، فإن المنهج العلمي يحذره، ويدفعه إلى الشك، ليصل إلى ما يراه يقيناً نسبياً، وحقيقة نسبيّة.. وقضية المؤرخ، هي قضيّة وجدانيّة، وأخلاقيّة وعلميّة معاً، والنزاهة الفكرية، والشجاعة الخلقيّة، صفتان أساسيتان، مميزتان للمؤرخ.. وأول قانون يفرض عليه، هو ألا يجرُؤَ على قول شيء يعلم بأنه خطأ.. وثاني قانون هو الجرأة على قول ما يعتقد أنه حق وصواب.. وفي هذه المغامرة الفكرية تدخل شخصية المؤرخ، وعليه أن يكون مستعداً لمقاومة أحكامه المسبقة على الحوادث، إذا ثبت له ما يخالفها.. ومقاوم أحكام قرّائه، وما يتبع ذلك من أوهام.

٤- على المؤرخ أن يكون كاتباً، وفناناً، وعالماً.. كاتباً، يكتب بلغة واضحة وسليمة، وبسيطة ومفهومة.. فناناً، يعرف كيف يعرض موضوعه، ودراسته، وأحكامه.. عالماً، أي واسع الأفق، يعرف كيف يتعامل متعاطفاً مع موضوعه حسب الأصول المنهجيّة..

في ردّه على من يقول إنَّ علم التاريخ هو علم المرويّات، قال لي: الرواية التاريخيّة، إن كانت شفهيّة متناقلة بالتواتر، أو مكتوبة.. تعتبر مادة تاريخيّة، وتخضع لنقد المؤرخ وتحقيقه، وهي تعتمد على الذاكرة والحفظ، وكثيراً ما تخون الذاكرة الحادث وتشوهه، وتقوده إلى غير ماصنع

له.. أمَّا التاريخ وإن كانت له صلة بالرواية، فيظل علماً، والعلم هو البحث، عن الحقيقة وأصولها، وقد تجاوز التاريخ مرحلة الرواية، وأصبح علماً موثقاً، بحثاً ونقداً، وتأليفاً.. دأبه الحذر والشك والتحقيق للوصول إلى ما يرضى به ويقنعه من حقيقة تاريخية، وإن كانت نسبية.. أمّا الرواية فتروى على علّاتها، بعيدة عن هذه القواعد العلميّة، ولابد لها من ضوابط وأصول خاصة لتصبح مقبولة وسائغة..

بعيداً عمّا قيل عن دور علماء الاستشراق في كتابة تاريخ العرب، يرى الدكتور حاطوم أنَّ المستشرقين الذين اهتموا بتاريخ العرب، علماء لهم جهدهم الذي نقدره ونحترمه.. وقد سبقونا في ميدان التاريخ العلمي، المنهجي الحديث، وكانوا أساتذة لنا، ولكن نظرتهم في تفسير تاريخنا تختلف عن نظرتنا.. هذا إن أحسنًا الظن، ونظرة بعضهم لتاريخنا لاتخلو من أغراض استعمارية، في حينها، مهما حاولوا أن يكونوا محايدين، ولكن يجب ألا ننكر، أنهم أفادونا وعودونا على انتهاج الطريقة العلميّة، ونبهونا إلى نقاط كثيرة، قد تغيب عنّا خلال البحث والدرس.. أما الآن فقد انقضى دورهم، وأصبح لدينا في الوطن العربي مؤرخون أكفّاء بمختلف التخصصات وبإمكاننا أن نكتب وندرس تاريخنا بأيدينا، بعد أن ملك مؤرخونا ناصية الطريقة، المنهجيّة، في دراسة التاريخ وتأليفه، وأصبح بالإمكان التحرر من قيود التبّعية السابقة، والتأليف بحرية، ولكن هذا لا يمنع مطلقاً من التعاون والتبادل الثقافي، والإفادة من التجارب والخبرات وتطور العلوم والمعارف..

في رده على من يقول ويردد إنَّ ميدان التاريخ هو الماضي وحده، أو حكاية ما انقضى وفات وطواه الزمان.. كان الدكتور حاطوم يقول لي دائماً: الصلة بين الماضي والحاضر والمستقبل وشيجة، ولا يمكن أن يكون

الحاضر من دون ماضٍ، ولا مستقبل، من دون حاضر، والحاضر وليد الماضي عبر الأحقاب والقرون، ولو سألتني كيف يكون حاضر أمتنا العربية، لقلت: ارجع إلى غابرها وماضيها، ولذلك فدراسة الماضي توضح الحاضر وتفسّره، إن على صعيد الفرد، أو المجتمع، أو المجتمع الإنساني كله..

إنَّ الحاضر معقّد ومتشابك، وقد أخذ بعضه برقاب بعض، ولا يمكن فهمه إلا بالرجوع إلى الماضي، أي إلى التاريخ، ومهما قيل في التاريخ، فإن في دراسته فائدة، وإلا لما أوليناه اهتمامنا، وحملنا الأجيال الصاعدة على دراسته، وفهمه في مختلف المراحل الدراسيّة، والفائدة التي نتوخاها منه لا تظهر مباشرة، كما تظهر فائدة العلوم الأخرى، كالطب والهندسة والحقوق واللغات والآداب..

إنَّ دراسة التاريخ تؤثر في عقلنا وفي نشاطنا، فهو يكسبنا معارف كنّا نجهلها، ويعرفنا بأنفسنا وبواقعنا ومجتمعنا، ويولّد فينا رغبةً وشوقاً للقيام ببعض الأعمال المفيدة لمجتمعنا، ويجعلنا أهلاً للإسهام والمشاركة في الحياة الاجتماعية ويرينا المجتمعات وتطورها وتبدلها وتقلباتها بصورة مفاجئة، أو بحركة بطيئة، أي بانقلابات سريعة أو تطورات هادئة وعلى مهل، وفكرة التبدل والتغيير هذه تزيل من ذهننا الاعتقاد ببقاء المجتمع على حالة واحدة، وعدم تغييره والتكيّف معه والرضى به على علاّته، وطريقته النقديّة تنفي عن فكرنا التصديق العامي، بكل ما يروى ويقال ويتحدث به من صخب الأفكار من دون تمحيص أو نقد.. ولهذا يعتبر «التاريخ» من هذه الناحية عنصراً ثقافياً، ورياضة ذهنية، تدعو إلى النشاط والحركة والحيوية.. إنه يرينا حقائق المجتمع بصورة حيّة وحركية أكثر من غيره من العلوم الاجتماعية، ويدخل في إعدادنا مواطنين صالحين، ويزودنا بمعارف ومعلومات غزيرة، تكسبنا مرونة، تجعلنا أكثر تفهماً لروح الواقع..

وفي ردّه على ما توجّه للتاريخ العربي، من أنه تاريخ قادة وملوك وحروب مختلفة، يرى الدكتور حاطوم: أنَّ تاريخنا العربي، كسائر تواريخ الأمم الأخرى يهتم بحياة القبائل والأسر، والسلالات الحاكمة والقادة والحروب.. أي بكل ما يخاطب الأحاسيس ويؤثر على النفوس، ويحدث فيها الهياج العاطفي، والتغنّي بأعمال البطولات.. كان على هذا النحو «مداحه، نواحه» حسب الهوى والرغبة والأمر والطاعة والتزلّف والرياء والتقرّب من الحكام..

هذه أمور لم يخلُ منها تاريخ أمة من الأمم، ولكن إلى جانب ذلك كان لتاريخنا اهتمام آخر يتناول الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والفنيّة، أي مختلف نواحي الحياة الحضارية كل هذا كان موجوداً ومسجلاً، ولكن يجب إظهاره، في ضوء جديد، وبطريقة علميّة، وهذا ما انتبه إليه مؤرخونا المحدثون، وأولوه اهتمامهم، ولذلك نجد في عصرنا مؤلفات عديدة تتناول جميع أنماط الحياة وتفسّرها تفسيراً علميّاً، وأعتقد أننا دخلنا حديثاً في مرحلة تاريخية جديدة، في تأليف التاريخ العلمي، منذ الحرب العالمية الثانية، والفضل في ذلك يعود إلى إشعاع الروح العلميّة والوعي القومي، وقيام الجامعات، وتبنّي الطريقة العلمية الحديثة في البحث والدرس، والعمل على تكوين مؤرخين علماء، بكل ما تتضمنه هذه الكلمة من معنى علمي..

وهنا لابد من القول إن اهتمام الإنسان بماضيه، أمر طبيعي، لأنَّ هذا الماضي يؤلف جزءاً من شخصيته وهويته، وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمعات، ونظرية دراسة التاريخ للتاريخ والعلم للعلم، والفن للفن.. لم تعد مقبولة في عالم اليوم، ولم تعد الدراسات التاريخية تطلب لذاتها فحسب، بل تطلب للمنفعة المترتبة عليها، وفضلها في العيش، والإنسان

عاش قبل أن يتفلسف.. التاريخ، أصبح في عالم اليوم، وفق قول المؤرخ العالمي «ستيورات هيوز»: «يعد نفسه علماً شاملاً، وعلماً وسيطاً» وهو بحق علم موسوعي، وسعت معرفته كل شيء في المجتمعات البشرية وهذا يؤكده الدكتور حاطوم في مؤلفاته، التي يشير فيها إلى الدور الوسيط للتاريخ، فمن خلاله نتعرَّف على المجتمعات البشرية ومآسيها وآمالها وأحلامها، وكل ما يتعلّق بحياتها الماضية، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه..

لقد بدأ الاهتمام حديثاً بنواحٍ صغيرة، كأن ندرس قرية أو مدينة خلال فترة زمنية معينة، أو الحياة اليومية في بلدة من البلدان، أو قوم من الأقوام.. وهذه الدراسات المتفرقة توسع أفق المعرفة التاريخيّة التي تتضمنها المؤلفات الكبرى، وتمدّها بنسغ جديد، وتوضح كثيراً من الأشياء، كانت مجهولة، أو لا يهتم بها.. وهكذا تفرعت الاهتمامات، وانتقلت من العام إلى الخاص، ومن الكلي إلى الجزئي، وأصبح للتاريخ العام فروعه المختلفة، كفروع العلوم الأخرى.. وهذا التنوع أو التخصص، تدخل فيه شخصيّة المؤرخ وميوله واهتمامه وتعاطفه مع الموضوع الذي تهمّه دراسته، وعلى ما يبدو أن الاهتمام، منصرف حالياً إلى التاريخ الحضاري، ومايدخل تحت هذا العنوان من تفريعات لا حدّ لها..

الإقبال على قراءة التاريخ شهد في السنوات الماضية ازدياداً كبيراً، مما يدل على حب الناس للمعرفة التاريخية والحضارية، وحرص دول العالم على التباهي بتاريخها وإنجازاتها الحضارية، كما أنَّ التاريخ في الشعوب النامية اتخذ كنوع من الدفاع عن النفس، أو المغالاة بمدح شخصية الأمة واهتمام الشعوب بماضيها وحضارتها، وهذا ما جعل للتاريخ صفات جديدة لم تكن معروفة سابقاً.

❀ ❀ ❀

الأغنية العربية والمسرح الغنائي

صميم الشريف *



لا يمكن تحديد بوادر النهضة الموسيقية في الوطن العربي بتأريخ معين ولا يمكن اعتبار فترة ما بين الحربين العالميتين (١٩١٨-١٩٣٩م) وهي الفترة الأكثر ازدهاراً في حياة الفنون والآداب بداية لعصر النهضة الموسيقية، وقد يكون من الإنصاف اعتماد المحاولات الفردية التي ظهرت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر قبل اختراع الحاكي- فونوغراف - من قبل عدد من الفنانين السوريين الذين اهتموا بالمسرح

* وجدت هذه الدراسة ضمن أوراق الأديب والناقد والموسيقي الراحل صميم الشريف، وتكريماً له في ذكرى مرور عام على رحيله ننشرها كاملة..

عامة، والمسـرح الغنائي خاصة من أمثال: أبـو خليل القباني، يوسـف خياط، سليمان قرداحـي، إسكندر فـرح، بدايـة للنهضة الموسيقية التي شهدها الوطن العربي فيما بعد، وقد شدّ هؤلاء رحالهم إلى مصر على فترات، فعرضوا فنونهم في عهد الخديوي إسماعيل، وفي زمن الثـورة العرابية، وبعد فشلها، ولـم يقتصر نشاطهم على مصر بل امتد بفضل (سليمـان قرداحي) إلى تونس التي لم تكن قد عرفت المسرح الغنائي في عام (١٩٠٩م).

تأتـي أهميـة المسـرح الغنائي الذي قام علـى عاتق هؤلاء الفنانيـن في كونه الملتقى الثقافي الوحيـد الذي استقطب أهل الطرب والناس كافة من مثقفين وغير مثقفين، وفي أنه كان نقلة إبداعية من فن واحـد إلـى جملة من الفنـون، إذ ما قبل المسـرح الغنائي، كانت الموسيقى تقتصر على الغناء الجماعي في الموشحات، وعلى الغنـاء المنفـرد من قبـل ذوي الأصوات القويـة والجميلة فـي الأدوار والقصائد والموالات والطقاطيق، وعلى العزف الآلي الذي كان يـدور في مجمله على الارتجال – التقاسيـم- في العـزف المنفرد، وعلى المقطوعات المصاغة في قوالب التأليف الفارسي والعثماني من (بشارف وسماعيات ولونغـاو تحميلة) من فرق التخت الشرقي الموسيقية، فإذا أضفنا إلى هذا كله الوضع الاجتماعي للفنانين، ومحاربة رجال الدين والدولـة –على أغلب الأحيـان – للفنون عامة ولمروجيها، وافتقار الأقطار العربية –عدا مصر– للأندية الموسيقية الرسمية (أميرية) والخاصة، وللمسارح ودور اللهو، أدركنا كم عانى الرواد المبدعون في سبيل تقديم فنونهم من جهة والنهوض بالفن من جهة ثانية.

والمسـرح الغنائـي الـذي اقتبس من الأوبريت في الغرب، عرف شكله الأول على يـدي رائده (مارون نقاشـن) عام (١٨٤٨م) ورواد المسـرح الغنائي والغناء والعزف من الذين علموا أنفسهم بأنفسهم، كانوا يدركون عن وعي أن هذا المسرح سيكون النقلة الأهم في نهضة الفنون عامةً، لأنه جمع بين فنون الأدب والتمثيل والموسيقى والغناء والرقص والديكور والملابس والإضاءة، وكل ما يمت من الفنون بصلة إلى المسرح.

وهم عندما نزحوا إلى مصر – وبعضهم نزح إلى تركيا – لم ينزحوا حباً في النزوح وإنمـا لافتقـار أقطارهم إلى مـا يعينهم على إظهـار فنهم، وهؤلاء وجـدوا المناخ الملائـم لإبداعاتهـم في المسـارح ودار الأوبـرا ودور اللهو، ولاسيمـا في مدينتي

القاهرة والإسكندرية، دون أن يتعرضوا لعنت (كالذي عانوا منه في أقطارهم، ودون ازدراء كالذي صادفوه في بلدانهم، ومع ذلك فإن دمشق وحلب شهدتا نشاطاً للمسرح الغنائي ولفنون الموسيقى والغناء على فترات، وكان أبرز الفنانين الذين ظهروا في دمشق «أبو خليل القباني» الذي لقي دعماً مالياً ومعنوياً من والي دمشق «مدحت باشا» جعله يبني مسرحه الذي لم يعمر طويلاً، لأن رجال الدين والمحافظين من وجهاء دمشق الذين ناصبوا الوالي العداء بسبب ذلك، شكوه إلى الصدر الأعظم ثم إلى السلطان عبد الحميد الذي أمر بإغلاق المسرح الذي أقامه القباني في خان الجمرك في قلب دمشق.

أمَّا في حلب، فإنَّ الدعم الفني الذي جاء من أصحاب الطرق الصوفية ومن الموسرين والوجهاء والتجار وأهل الطرب جعل حلب تتقدم على دمشق حتى بلغت شأواً بعيداً وصارت كما قال (كلود شابرييه في مقال نشره في مجلة «عالم الموسيقى» إنَّها أمدت القاهرة منذ أواخر القرن التاسع بالنخبة المتميزة من فنانيها).

انسحب تأثير المسرح الغنائي الذي عرف نشاطاً كبيراً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر على العقدين الأول والثاني من القرن العشرين على الفنون كافة، وأول من تأثر بالمسرح الغنائي من المطربين الذين يغنون بمصاحبة التخت الشرقي، الفنان «سلامة حجازي» الذي عمل بنصيحة زميله «عبدو الحامولي» فاشتغل في عام (١٨٨٩م) في فرقة «يوسف خياط» المسرحية، ولكنه لم يعمل فيها سوى بضعة أشهر، إذ أغراه «سليمان قرداحي» بالعمل معه لقاء عشرين جنيهاً في الشهر.

وفي عام (١٨٨٨م) دبّ الخلاف بينهما على الأجور فاستبدله القرداحي بالمطرب «يوسف رومانو» الذي كان آنذاك من مشاهير المطربين. بينما بادر الشيخ «سلامة حجازي» إلى تأسيس فرقته المسرحية الخاصة – هي أول فرقة مصرية – ليقدم من خلالها عروضه المسرحية الغنائية في مدينته الإسكندرية، وبعد أربع سنوات على ذلك، أعلن حل فرقته بسبب الأعباء المالية التي لم يعد يستطيع تحملها، وانضم فوراً لفرقة «إسكندر فرح» لقاء ثلاثين جنيهاً شهرياً، وكان ذلك في أوائل عام (١٨٩١م).

يتبين لنا من هذا كله أنَّ بداية النهضة الحقيقية للموسيقا والغناء بدأت على أيدي روّاد المسرح الغنائي من السوريين الذين مهدوا للفنون كافة سبيل الانتشار

لتأخذ مكانتها المتواضعة قبل أن تزدهر ازدهارها الحقيقي في فترة ما بين الحربين العالميتين.

وكان الحاكي - الفونوغراف - قد تمَّ اختراعه، وعمَّ انتشاره، ووصل إلى الأقطار العربية، وكان الشيخ سلامة حجازي من أوائل الذين سجلوا أعمالهم الموسيقية والغنائية المنتقاة من مسرحياته الغنائية على أسطوانات (قصائد، مارشات) وغيرها، والتي تعطي على الرغم من تقنية التسجيل البدائية آنذاك، فكرة عامة عن أنواع الغناء والموسيقا التي كانت رائجة، وتعتبر هذه الأسطوانات مع مثيلاتها للمطرب «يوسف المنيلاوي» والتي سجلت في العام (١٩١٠م) من المراجع الهامة في التوثيق لتلك المرحلة الهامة في حياة المسرح الغنائي والموسيقى والغناء بصورة عامة.

اختلف «سلامة حجازي» مع السوري «إسكندر فرح» بعد خمسة عشر عاماً من العمل المتواصل تمثيلاً وغناءً، وإثر هذا الخلاف، قرر سلامة حجازي تأسيس فرقة مسرحية خاصة به، وفي العام (١٩٠٩م)، خرج بفرقته إلى الناس، فاستقطب الجماهير لغاية وفاته في عام (١٩١٧م)، حتى لم يبق في الساحة الفنية سوى فرقته، أمَّا الفرق الأخرى بما فيها فرقة «إسكندر فرح» فقد انصرفت عن المسرح الغنائي إلى المسرح الدرامي.

شهد العقدان الثاني والثالث من القرن العشرين، ولادة العديد من الفرق المسرحية الغنائية، وشهد أيضاً ظهور العديد من كتاب هذا المسرح والموسيقيين والمطربين الذين شدّوا من أزره. ويمكن القول دون مغالاة، إنَّ المسرح الغنائي المصري لم ينهض تماماً إلا بعد أن استكمل الفنانون الرواد السوريون خصائصه، لتقوم على أعمدته صروح المسرحين الغنائي والدرامي معاً.

ومن الفرق المسرحية التي دعمها الفنانون السوريون بعد مسرح «يوسف خياط» و«أبو خليل القباني» و«سليمان قرداحي» و«إسكندر فرح» كانت فرقة «جورج أبيض» وفرقة أمين عطا الله وفرقة «نجيب الريحاني» وقد اهتمَّ الأول بالمسرح الدرامي، وقدم في عروضه أعمالاً في المسرح الغنائي لكل من السوري «كميل شامبير» والمصري «سيد درويش» بينما انصرف أمين عطا الله ونجيب الريحاني في كل أعمالهما تقريباً إلى المسرح الغنائي الكوميدي، والكوميديا، واعتمدوا في كتابة نصوص المسرحيات والأغاني على «بديع خيري» و«يونس القاضي» وفي التأليف الموسيقي وتلحين الأغاني على كميل شامبير، وسيد

درويش اللذيــن ظلا يرفــدان مسرحيهما بأعمالهما الرائعة حتــى وفاة سيد درويش في عام (١٩٢٣م)، وعودة كميل شامبير إلى وطنــه سورية في عــام (١٩٢٢م)، وإضافةً لهــذه الفرق التي توهج بعضهــا منذ العام (١٩١٥م) وبعضها الآخــر بعد وفاة سلامة حجازي عــام (١٩١٧م)، أضاءت في سماء القاهــرة بـدءاً من العــام (١٩١٨م) ولغاية الثلاثينيــات فرقٌ أخــرى اعتمدت المسرح الغنائي بسبــب شهرة أصحابهــا في عالم الطــرب كفرقة المطربة «منيــرة المهدية» وفرقــة المطرب «صالح عبد الحي» وفرقة المطربة «ملــك» التي ابتنت مسرحاً خاصاً بهــا سمته «مسرح أوبرا ملك» الذي التهمته النيــران في حريــق القاهــرة الشهير عام (١٩٥٢م) كذلك قامت فرق أخرى اعتمدت المســرح الغنائي لرواجــه جماهيرياً ومن هذه الفرق فرق «أولاد عكاشة» وفرقة «علي الكسار» وفرقة «زكي عكاشة» وفرقة «عزيز عيد» وفرقة «أمين صدقي» وفرقة «يوسف عــز الديــن» وفرقة «فوزي منيــب» وفرقة «يوسف وهبــي» التي قدَّمت عملاً مسرحياً غنائياً واحداً من تأليف «عبد الله عفيفي» وألحان «زكريا أحمد» بعنوان «النادي» قبل أن ينصرف نهائياً إلى الدراما والتراجيديا من خلال مسرحه الجديد «رمسيس».

أغلب أعمال هذه الفــرق كتبها مبدعو المسرح الغنائي الكوميدي، ويأتي في طليعة هؤلاء الكتاب «بديع خيري» الذي كتب فيضاً منها، ثم «يونس القاشي»، حامد السيد، أمين صدقــي، توفيق الحكيم، أحمد زكي السيد، سيد والي، حبيب جاماتي وغيرهم...

بالرجــوع إلــى الملحنيــن وواضعــي موسيقى هذه الأعمال، نجد أن سيد درويش قد لحن ثلاثين عملاً من أهمها «الباروكة» «العشرة الطيبة»، «فيــروز شاه»، «شهرزاد» و«كليو باترا» التي لم يلحن منها سوى فصل واحد، إذ وافاه الأجل قبل أن ينهيها في عام (١٩٢٣م)، وقــد أتمها من بعده محمد عبد الوهاب الذي اشتــرك مع «منيرة المهدية» في تمثيلها وغنائها.

و «كميل شامبيــر» السوري الذي لحن نحــو سبعة وعشرين عمــلاً منها: «عقبال عندكــم» «النونــو» «المجــرم» «الغريــب البائس» وأوبرا «توسكا» التي قام بترجمتها عــن الإيطاليــة بنفسه ووضــع موسيقاها وألحان أغانيها كافة. و«زكريا أحمد» الذي لحن أكثــر من خمسة وأربعيــن عملاً من أشهرهــا: «الوارث» «الغــول» لعلي الكسار و«أبــو النوم» «الجوكنــدا» لمنيرة المهدية و«سالامبــو» و«بــدر البــدور» لعزيز عيد، و«الأستــاذ» و«علــي بابــا» لأولاد عكاشة،

و«ياسمين» و«حلم واللا علم» لنجيب الريحاني و«قاضي الغرام» و«عيد البشاير» لصالح عبد الحي.

وإلى جانب هذا الثلاثي العظيم الذي قامت نهضة المسرح الغنائي على أياديه، شارك عددٌ من الموسيقيين المشهورين في تلحين عددٍ من المسرحيات الغنائية، منهم الموسيقار محمد القصبجي الذي لحن مسرحيتي «كيد النسا» و«حياة النفوس» لمنيرة المهدية، واشترك مع كامل الخلعي ومحمد عبد الوهاب في تلحين مسرحية «المظلومة» لمنيرة المهدية أيضاً، ومع الموسيقي إبراهيم فوزي في تلحين مسرحية «نجمة الصباح» لمسرح نجيب الريحاني. الدكتور صبري التجريدي - طبيب أسنان - الذي اشتهر من خلال ألحانه لأم كلثوم وقد أسهم بدوره في تلحين بعض المسرحيات للمطربة «فاطمة سري» ومن أعماله في هذا الصدد مسرحية «الصياد» بالاشتراك مع «كامل الخلعي» و«الكونت زقزوق» و«ليلة من العمر» بالاشتراك مع الموسيقي «إبراهيم فوزي» و«مراتي في الجهادية» و«قنصل الوز».

والموسيقي حسن كامل لا يذكره المؤرخون سوى لماماً، وهو الذي وضع ألحان مسرحيتي الكاتب سيد والي: «الزمردة» و«عصفورة وجرادة» لمسرح «فوزي منيب» كما ألَّف ولحَّن مسرحية «عين أبوها» ومسرحية «لص بغداد» لمسرح أمين صدقي، وأعاد تلحينها ثانية من وراء نص جديد لفرقة يوسف عز الدين.

مطربة العواطف «ملك» التي اشتهرت بمسرحها وحفلاتها الشهيرة، وضعت مسرحيتين من تلحينها وتلحين الشيخ سيد زكريا أحمد هما «بنت الحطاب» و«المايسة» وترجمت أوبرا «مدام بترفلاي» لبوتشيني ولحنتها وقدمتها تمثيلاً وغناءً على مسرحها.

شهد المسرح الغنائي تراجعاً كبيراً منذ منتصف الثلاثينيات ولاسيما بعد انتشار الحاكي الكهربائي - فونوغراف - والإذاعة والمذياع والسينما، وتقدم صناعة الأسطوانات - هندسة الصوت - وما كادت سُحُب الحرب العالمية الثانية تنذر بالهبوب حتى حلّ فن الطرب للمطرب المنفرد بمصاحبة التخت الشرقي، وعروض الملاهي المتنوعة في مختلف الصالات ودور اللهو محل المسرح الغنائي، ولم يشهد انتعاشاً إلا من خلال الفرقة القومية والمعهد العالي للموسيقا التابعين للدولة، وكان بطل مسرحيات القطاع العام الحقيقي الموسيقار الراحل «زكريا أحمد»

والملحن الراحل «أحمد صدقي» وقد بدأ هذا القطاع عام (١٩٤٠م) في محاولة منه لإنقاذ المسرح الغنائي من الغياب.

المسرح الغنائي السوري شهد طفرات من خلال الأندية الاجتماعية والموسيقية في دمشق وحلب، ففي عام (١٩٢٤م) قدم كميل شامبير مع فرقة النادي الكاثوليكي في حلب عمله المسرحي الغنائي الضخم «حلب على المسرح» ومسرحيات أخرى لقيت رواجاً كبيراً.

وفي دمشق لعب نادي الفنون الجميلة من وراء أعلامه «توفيق العطري، عبد الوهاب أبو السعود وصفي المالح، ممتاز الركابي، مصطفى هلال» وغيرهم، دوراً بارزاً في المسرح الغنائي، ولاسيما مصطفى هلال الذي جمع في شخصه خصائص الفنان المسرحي والموسيقي والمطرب والملحن، فكان يمثل ويلحن بالاشتراك مع الموسيقي اللبناني «نقولا المني» ويغني مع المطربة الشهيرة «لور دكاش» الأغاني التي تتضمنها المسرحيات، وأبرز الأعمال التي قدمها النادي حتى عام (١٩٤١م) مسرحية «قيس وليلى جديدان». و«لحن الخلود» وكما حدث للمسرح الغنائي في مصر - مع الفارق - حدث للمسرح السوري على ضآلة إنتاجه، إذ التهمه إقبال الجماهير على الأفلام السينمائية العربية والأجنبية المستوردة قبل الإذاعة منذ انتشارها الواسع بعد الحاكي الكهربائي في أواخر الثلاثينيات.

يمكن القول بعد هذا إن المسرح الغنائي الذي برز في سورية، وازدهر في مصر لم تعرفه أقطار الوطن العربي في المشرق والمغرب إلا من خلال زيارات الفرق المسرحية لتلك الأقطار، كفرقة «أبي خليل القباني»، وفرقة «دار التمثيل العربي» «لسلامة حجازي» وفرقة «سليمان قرداحي» التي يعزى إليها الفضل في تأسيس أول فرقة مسرحية في تونس وبصورة عامة فإن الأقطار العربية عدا ديار الشام ومصر، لم تعرف شيئاً عن المسرح الغنائي إلا منذ ستينيات هذا القرن. وقد ورد في كتاب «أضواء على الموسيقى المغربية» ما يفيد بذلك بالنسبة للمغرب، إذ ذكر الآتي:

«إنَّ التعاون بين القطاعين المسرحي والموسيقي لم يتم بعد...» وذكر أيضاً والموسيقى المغربية لا يكاد يجمعها بالمسرح المغربي عامل رئيسي، رغم قوة الارتباط الموجودة أصلاً بين القطاعين المسرحي والغنائي...

وإذا علمنا أن الكتاب صدر في عام (١٩٧٧م)، فهذا يعني أن المسرح الغنائي في المغرب لم ير النور حتى ذلك التاريخ.

وإلى جانب المسرح الغنائي الذي يعتبر رائد النهضة الموسيقية في ديار الشام ومصر، قامت جهود فردية في التمهيد للنهضة الموسيقية والمساهمة في وضع خطوطها العريضة، وبالرجوع إلى تاريخ الموسيقى غير المدون في سورية، نجد تصديقاً لما ذهب إليه «شابربيه» في مقاله الذي أشرنا إليه سابقاً عن هجرة الموسيقيين الحلبيين المرموقين إلى القاهرة. وأول موسيقي نزح إلى القاهرة في عام (١٨٦٠م) هو الشيخ «شاكر الحلبي» الذي لقن الموسيقيين المصريين وخاصة «إبراهيم القباني» وزميله الشيخ «علي القصبجي» والد محمد القصبجي أصول الموشحات الأندلسية والحلبية ووصلاتها، فعملا من جانبهما على نشرها بين أهل الطرب.

و«شابربيه» لم يقصد «شاكر الحلبي» في مقاله، وإنما ذلك الرعيل من الموسيقيين الذين يأتي في مقدمتهم «أنطون يوسف الشوا» وولداه «سامي وفاضل» الذين عملوا جميعاً على إدخال آلة الكمان الغربية على التخت الشرقي بعد ضبط أوتارها. بما يتفق وثلاثة أرباع البعد المقام (مبطي)، فحققوا نجاحاً جزئياً في ديار الشام، ونجاحاً كاملاً في مصر ويبدو أن «سامي الشوا» لم يقصر نشاطه على مصر، إذ تدل أغلب المصادر على أنه زار مختلف الأقطار العربية، وأثر فيها تأثيراً مباشراً، محققاً لآلة الكمان الغربية مزيداً من الانتصارات في مجال استعمالاتها في الموسيقى الشرقية امتدَّ لتونس والمغرب، ويذكر «صالح الشرقي» أنَّ سامي الشوا نزل في المغرب ضيفاً على المرحوم «الفقيه البريهي» أحد رواد الطرب الأندلسي وأنه أثر في الفنانين المغاربة، وتأثر بالحضارة المغربية، وأنه أول عازف على آلة الكمان، دخل المغرب كما أن آلة الكمان الأخرى المعروفة باسم «زايد نقط» المستخدمة في الفرقة الموسيقية المغربية والتي كادت تندثر، استخدمت في المغرب للمرة الأولى في عام (١٩١٥م) قبل قدوم سامي الشوا بكمانه الغربية للمغرب بثلاثة عشر عاماً فقط.

يدين ازدهار الحياة الموسيقية، للفنانين السوريين والمصريين، فسورية ومصر هما قطبا هذا الازدهار الذي قام على المواهب والعبقريات الفردية من الدارسين الذين رفدوا الحياة الموسيقية في مصر التي قامت على الحرية الفنية بعيداً عن التزمت وسيطرة الدولة العثمانية على الفكر والفن وحرية التعبير في ديار الشام، ومن هنا شهد العقد الأول وبداية العقد الثاني من

القرن العشرين، هجرة المزيد من الفنانين السوريين إلى مصر بعد أن هاجر إليها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر عدد كبير من الفنانين الذين استقروا نهائياً في مصر بعد أن وجدوا فيها متنفسهم الحقيقي، وتعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الفنانين المصريين الذين كان من أشهرهم «عبدو الحامولي» و«محمد عثمان» و«سلامة حجازي» و«يوسف المينلاوي» وغيرهم..

استقطب معهد فؤاد الأول الموسيقي خيرة الموسيقيين السوريين للتدريس فيه، والدكتور «محمد أحمد الحفني» الذي ترأس عمادة المعهد، هو أول موسيقي مصري يدرس الموسيقى في برلين، وينال منها شهادة الدكتوراه، وكان يروم عندما تسلم هذا المنصب إلى أن يخدم الموسيقتين الغربية والشرقية وأن يكرس ما تحتاجه الثانية من علوم الأولى بما لا يتنافى طبيعتها وخصائصها، ولما كان الموسيقيون الدارسون قلة، والذين يجيدون التدوين الموسيقي نادرين، فقد عمد إلى تزويد المعهد بالخبرات الموسيقية واستقدام هذه الخبرات من العرب السوريين وغير السوريين وكان أوَّل المتعاقدين للتدريس في المعهد «جميل عويس» و«سامي الشوا» وانضم إليهما فيما بعد الشيخ «علي الدرويش» وهذا الثلاثي انصرف إلى تدريس الموسيقى الشرقية والتدوين الموسيقي، ليتخرج على أياديه عدد كبير من العازفين والملحنين الذين اشتهروا فيها فيما بعد شهرة كبيرة.

إضافة إلى المسرح الغنائي الذي لعب دوراً بارزاً في الحياة الموسيقية المصرية ودور المعهد الموسيقي الشرقي اليافع، فإن الاحتكاك بالموسيقى الغربية الذي بدأ أول ما بدأ من خلال تقديم أوبرا «ريجوليتو» لفيردي للمرة الأولى بمناسبة افتتاح دار الأوبرا المصرية في عهد الخديوي إسماعيل، فتح عيون الموسيقيين على آفاق رحبة في مجال تطوير الغناء، واستخدام الآلات الموسيقية النفخية من خشبية ونحاسية، كذلك فإن ما قام به المطرب والملحن عبدو الحامولي (١٨٤٣-١٩٠١م) من نقل عدد من المقامات التركية واستعمالها في الموسيقى العربية، جعل الموسيقيين العاملين في حقل التلحين يدركون أن الموسيقى العربية لا يمكن لها أن تعيش بمعزل عن موسيقيات الشعوب الأخرى، ولاسيما الشرقية المماثلة في خصائصها تقريباً للموسيقا العربية. لقد أسهم الاحتكاك بالموسيقا الغربية والموسيقا

الفارسية والموسيقا التركية التي هيمنت عن طريق الدولة العثمانية، في النقلة الموسيقية الهامة للموسيقا العربية من التخلف الذي رسفت فيه قروناً طويلة إلى مرحلة متقدمة، تجلت أول ما تجلت في المسرح الغنائي الذي استخدم الآلات الموسيقية الغربية وخاصة النفخية النحاسية في نطاق محدود جداً، في أواخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من القرن العشرين في أعمال سيد درويش وكميل شامبير اللذين طبقا إضافة إلى ذلك علم التوافق الموسيقي «الهارموني» بأشكاله البسيطة في العديد من الجمل الموسيقية، وذلك كي لا تنفر الأذن التي لم تعتد ذلك فيما إذا طبقاه على نطاق واسع.

يمكن القول باختصار، إن المسرح الغنائي أسهم مساهمة فعالة في تطور التخت الموسيقي، وفي رقي العديد من الألوان الغنائية مثل: «الموشح والأغنية الخفيفة (الطقطوقة) وأغاني المجموعات والحواريات» «ديالوغ» وفي القصيدة إلى حد ما، والثلاثي «تريو» الذي لم يعش طويلاً. وقد ظلّ المسرح الغنائي يقدم هذه الألوان بين فصول المسرحية، وأحياناً بين بعض مشاهدها، كفواصل استراحة بين الفصول والمشاهد، إلى أن حقق المبدعان «سيد درويش» المصري و«كميل شامبير» السوري، الهدف من وراء المسرح الغنائي، عندما دمجا الأغاني في صلب العمل المسرحي، لتغدو الأغنية وظيفة أساسية ودرامية في العمل المسرحي الغنائي.

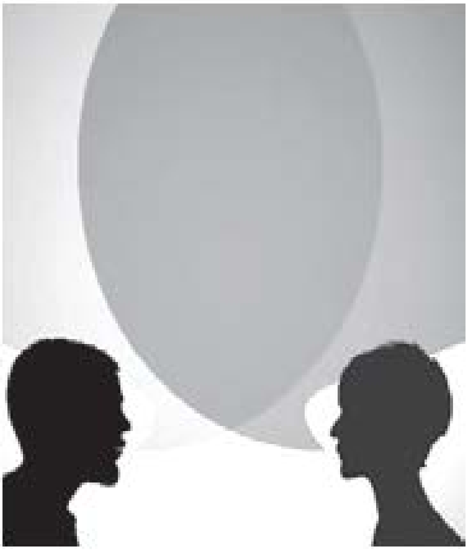
والأغنية بألوانها وأنواعها تدين للمسرح الغنائي بتطورها وتقدمها وانتقالها من طور إلى طور وانتشارها بين الناس، كذلك لعب الحاكي - فونوغراف - من وراء هدفه التجاري دوراً مماثلاً في انتشار الأغنية، إذ عمد أصحاب شركات الأسطوانات إلى تسجيل ما تجود به المسارح من أغنيات على أسطوانات، وكان من نتائج هذا العمل خدمة الأغنية والمطرب على حد سواء والترويج لهما، دون اهتمام كبير بالمستوى الفني، ثم عمدت بعد الأرباح التي جنتها والمنافسة الشديدة فيما بينهما للانتقاء بتفضيل أغنية على أخرى، ومطربٍ على مطرب، دون أن تدري أنها بعملها هذا تتيح للمبدعين منهم أن يبرزوا على حساب غير المبدعين، وتفسح المجال في الوقت نفسه لشعراء الأغنية والملحنين والمؤدين الانصراف عن المسرح إلى الأغنية المنفردة التي أخذت تحقق رواجاً أكثر من رواج الأغنية المسرحية ولاسيما في الألوان التي يفتقدها المسرح الغنائي مثل الدور.

ومع ذلك فإن المسرح الغنائي سار في العقد الثالث من القرن الماضي جنباً إلى جنب مع الأغنية المنفردة والمطرب المنفرد، حتى غدا لكل مطرب ومطربة مسرحه الخاص وحفلاته الغنائية الخاصة، وهذا الأمر دفع بالملحنين والمطربيـن إلى التنافس الذي أدى إلى ازدهار الموسيقى والغناء في سني العشرينيـات، وإلى ظهور المبدعين الذين أضاؤوا أسمـاء الأغنيـة، وارتقوا بها في سني الثلاثينيات والأربعينيات إلى مستوى لم يكن أحد يحلم به.

وقـد ساعـدت وسائل الاتصـال التي ابتدعـت آنذاك وخاصـة السينما الناطقة والإذاعـات المختلفـة التـي انتشـرت، والاحتـكاك بالفـرق الموسيقيـة الأجنبية الجوالة وعروضها الفنية ولاسيما في سني الحـرب العالميـة الثانية علـى تفتح آفاق جديـدة أمام الأغنية المنفـردة التي كانت تشق طريقهـا بسهولة ويسـر على حساب المسـرح الغنائي الذي شهد بولراً لم يعرفه منذ أنشاء علـى يدي أبي خليل القباني في سورية ومصر في الربـع الأخير من القرن التاسـع عشـر، وبلغ مداه علـى أيدي سيد درويشـن وكميل شامبير وزكريـا أحمد في عشرينيـات وثلاثينيات القـرن المنصرم، والذي لم يعـد إلى ازدهـاره ونضوجه إلا في منتصف الستينيات على أيدي الأخوين رحباني في لبنان.

كيف يمكن أن يكون الحوار مفيداً؟

د. محمد نواف الهوارنة *



الحوار هو نوع من الحديث بين شخصين أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة فلا يستأثر به أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والتعصب.

يعد الحوار أحد أشكال التواصل الشفهي لأنه عبارة عن تبادل الحديث بين فردين أو أكثر بطريقة منظمة تهدف إلى كشف وتحليل الموضوعات وتحقيق أكبر قدر ممكن من الفهم عن طريق مراجعة الكلام وتداوله بحكمة بين الأطراف المشاركة فيه، وهو أسلوب قائم

* أستاذ في كلية التربية - جامعة دمشق.

على إبداء الرأي بصراحة وموضوعية وتفاعل وإيجابية بين أطرافه، ويتطلب الموضوعية في طرح الآراء المختلفة بحيث يؤدي إلى توليد أفكار جديدة وتطوير مهارات عقلية واجتماعية لدى الأفراد المشاركين فيه.

عناصر العملية الحوارية:

لكي تتم عملية الحوار بشكل متكامل لابد من وجود عدد من العناصر الأساسية. ويمكن إجمال عناصر العملية الحوارية في أربعة عناصر هي:

١- المرسل:

وهو مصدر الرسالة ويصوغها على شكل رموز لفظية في كلمات أو رموز غير لفظية على شكل حركات أو إشارات أو صور.

٢- المستقبل:

وهو الجهة التي تُوجَّه إليها الرسالة وهو يقوم بحل وفك رموزها وتفسيرها من أجل فهم معناها.

٣- الرسالة «موضوع الحوار»:

وهو عبارة عن الرموز اللفظية التي تعبّر عن الآراء والأفكار أو الخبرات التي يلزم نقلها من المرسل من أجل تحقيق هدف أو أهداف معينة.

٤- قناة الحوار:

وهي القناة أو القنوات التي تمر من خلالها الرسالة بين المرسل والمستقبل وهي عديدة ومتنوعة مثل الصوت العادي للمرسل، والكتب والمطبوعات والخرائط والرسومات واللوحات والصور والأفلام الثابتة والمتحركة والمسجلات الصوتية والحاسبات الآلية وغيرها. وغياب أحد هذه العناصر يؤدي لخلل كبير في عملية الحوار.

خصائص البيئة الداعمة للحوار:

بيئة الحوار هي المحيط النفسي والاجتماعي والحسي الذي ينشأ فيه الحوار. لكي يوجد حوار صحيح وبنَّاء لابد من وجود بيئة تدعمه وتساعده على بقائه. يمكن تحديد الخصائص التالية للبيئة الداعمة للحوار:

- تقدر الاختلاف في وجهات النظر.
- تقدر التراجع عن الخطأ.
- مبدأ رأيي صواب يتحمل الخطأ ورأي غيري خطأ يتحمل الصواب.
- يشعر المحاور فيها بالأمن النفسي.
- تؤمن بحرية التعبير والمسؤولية.

أسس الحوار الفعَّال:

الحوار ليس هدفاً بذاته وإنما هو وسيلة للتعارف والتفاهم والتآلف والتعاون بين الناس وليس كل حوار بالضرورة يؤدي إلى نتائج فكثير من

الحوارات ليس فيها فائدة ولا تؤدي إلى نتائج وذلك لأن الحوار فيها ليس حواراً فعالاً. وحتى يكون الحوار فعالاً يشترط فيه ما يلي:

- أنْ يكون فيما يفيد وينفع.
- الاعتراف بحرية الآخرين في الاختلاف والتعبير عن آرائهم.
- الاستعداد لتبادل الآراء والأفكار مع الآخرين من أجل الوصول إلى أفضل البدائل الممكنة.
- تقبُّل كل طرف احتمال خطأ وجهة نظره واستعداده لتعديلها في ضوء ما يستجد من أدلة ومعلومات.
- تجنب الإساءة للآخرين مهما كانت حدة الخلاف معهم.
- الصمت وترك الحوار إذا جنح الطرف الآخر إلى الانفعال والغضب.
- الشجاعة في إبداء الرأي أمام المخالفين طالما يملك الأدلة والحجج القوية والشجاعة في النزول عن رأيه إذا ثبت خطؤه.
- حسن الإنصات لما يقوله الآخرين وإتاحة الفرصة لهم بطرح أفكارهم دون مقاطعة.
- إجادة استخدام فن السؤال في الوقت المناسب.
- عدم السخرية من المخالفين وعدم الاستخفاف بآرائهم.
- عدم الانسياق وراء ما يقال حتى تتوافر الأدلة والحجج الكافية.
- الدقة في اختيار الكلمات والعبارات التي تعبِّر عن رأيه.
- تجنب الخداع والمراوغة والتلاعب بالألفاظ.
- المسؤولية عما يقال إذ يجب أن يلتزم المشاركون في الحوار بالدقة والحذر.

مراحل «فنيات» الحوار:

يمر الحوار بثلاث مراحل مهمة هي: مرحلة الإعداد ومرحلة التنفيذ ومرحلة التقويم. ولكل مرحلة فنيات ومهارات خاصة بها وذلك على النحو التالي:

أولاً: مرحلة الإعداد:

ينبغي في هذه المرحلة توافر مجموعة من الفنيات التي تمكن المحاور من القيام بعدة مهام أهمها:

١- اختيار موضوع الحوار في ضوء اهتمامات المشاركين في الحوار، وفي ضوء القضايا والأحداث المعاصرة.

٢- تحديد الهدف من الحوار والتعرف على الغرض الخاص منه بطريقة إجرائية واضحة.

٣- تهيئة المشاركين والمهتمين بموضوع الحوار ذهنياً وذلك من خلال تحديد العنوان المعبِّر عن قضية الحوار.

٤- جمع المعلومات والبيانات المتصلة بموضوع الحوار.

٥- التخطيط لموضوع الحوار وتحديد النقاط الرئيسة والفرعية للموضوع واختيار النموذج الملائم لتنظيم الأفكار حسب طبيعة الموضوع.

٦- إعداد الوسائل والمعينات السمعية والبصرية والرسوم التوضيحية وغيرها من الوسائل التي تساعد في التوضيح والإيجاز والتبسيط.

٧- التخطيط لبدء الحوار وللمقدمة بما يساعد على جذب انتباه المستمعين وإيجاد نوع من العلاقة بين المتحدث والمستمع.

٨- التخطيط لخاتمة الحوار والحديث وهي الجزء الذي سينهي به المتحدث كلامه.

٩- إعداد مخطط عام للحديث وهو عبارة عن ملخص يحدد الخطوط العريضة التي يهتدي بها المتحدث أثناء الحوار.

ثانياً: مرحلة التنفيذ:

تحتوي هذه المرحلة على عدَّة فنيات منها:

١- التعريف بأطراف الحوار ويمكن أن يقوم بذلك رئيس الجلسة أو يعرِّف كل عضو بنفسه.

٢- استخدام المتحدث لطبقة الصوت المناسبة لمضمون الرسالة وتوظيف الصوت ولغة البدن لخدمة المضمون.

٣- الإنصات الجيد لكل ما يطرح أثناء الحوار وتجنب المقاطعة من دون استئذان.

٤- توزيع الأدوار بين الأطراف المشاركة بحيث لا يستأثر طرف بالحديث على حساب الطرف الآخر.

٥- استخدام الأساليب اللغوية المعبرة وذلك لتوصيل الأفكار بدقة ووضوح.

٦- الهدوء وعدم رفع الصوت أو الحماس المؤدي إلى الخطأ والزلل.

٧- الحذر من الجدال العقيم الذي لافائدة منه.

٨- تدوين الأفكار المهمة التي تطرح أثناء الحوار تمهيداً للرد عليه أو الاحتفاظ بها إذا كانت مهمة.

ثالثاً: مرحلة التقويم:

وهذه المرحلة تأتي بعد انتهاء الحوار وتشتمل على عدَّة فنيات منها:

١- تذكُّر الأفكار التي عرضت أثناء الحوار أو قراءتها إن كانت مكتوبة.

٢- مراجعة الأخطاء التي وقعت من المحاورين أثناء الحوار.

٣- تحديد النقاط الإيجابية والسلبية التي حدثت أثناء الحوار.

٤- التعرف على أسباب الأخطاء التي وقع فيها المحاور ومحاولة تجنبها في الحوارات التالية.

أمور يجب مراعاتها لإكساب الطلاب مهارات الحوار:

- أنْ يكونوا قدوة صالحة يحتذى بها في الحوار.

- أنْ يتَّخذوا الوسائل المعينة في تعديل السلوك، وعدم التركيز على جوانب القصور لدى الطلاب.

- أنْ يعطوا الفرصة بشكل أكبر للطلاب للمحاورة والتشجيع على ذلك.

- أنْ يتحلوا بالصدق في طرحهم خلال الحوار وألا يتناقضوا أمام الطلاب.

- أنْ يجعلوا الجو المحيط بالطلاب ودياً بعيداً عن التسلط.

- أنْ يتعرفوا على الدوافع الداخلية لسلوك الطلاب.

يمكن للمعلم أن يوظف الحوار تربوياً من خلال:

- العلاقات الحوارية بين المعلم والمشرف التربوي.

- العلاقات الحوارية بين المعلم وإدارة المدرسة.

العلاقات الحوارية بين المعلم والطلاب من خلال:

- إستراتيجيات التدريس المستخدمة من قبل المعلم.

- الأنشطة الطلابية.

- مادة التعبير والتربية الوطنية في إقامة حوارات طلابية.

- مجالس الطلاب الحوارية.

- المشاركة الإعلامية للمعلم والطالب.

دور المعلم في نشر ثقافة الحوار:

يحتل المعلم مكانة مهمة في الميدان التربوي لأنه هو الذي يباشر العملية التعليمية وهو القدوة الماثلة أمام الطلاب لأنه يقضي معهم وقتاً طويلاً، وتقتضي عملية التعليم اختيار أساليب التدريس المناسبة من أجل توصيل المعلومات للطلاب وتعليمهم المهارات وإكسابهم اتجاهات إيجابية في الحياة ولكي يقوم

المعلم بنشر ثقافة الحوار لدى الطلاب يفضل أن يقوم بما يلي:

١- تنمية مهارات الحوار لدى الطلاب.

٢- إشعار الطلاب بأهمية طرح آرائهم وأحقيتهم في طرحها.

٣- اتباع أساليب الحوار في طرق تدريس الطلاب.

٤- توفير مصادر المعرفة وتوجيه الطلاب إليها.

٥- احترام آراء الطلاب واجتهادهم.

٦- تشجيع المشاركة في إعداد العمل وتحمل المسؤولية.

٧- تشجيع الطلاب على التساؤل والاهتمام بالإجابة، وتوجيههم إلى المراجع والمصادر التي تساعدهم على ذلك.

٨- توفير جو من الأمان والموضوعية وحرية التعبير في الفصل.

٩- توسيع الاعتماد على المراجع والمصادر الخارجية والتخلي عن اعتبار نفسه المصدر الوحيد.

١٠- ترسيخ مفهوم المعلم والمتعلم ومشاركة الطالب في عملية التعلم.

١١- تحفيز الطلاب وتشجيعهم على إبداء الرأي والتفكير في حل المشكلات التي تواجههم.

دور المدير في نشر ثقافة الحوار:

يمكن لمدير المدرسة أن يوظف الحوار تربوياً من خلال الآتي:

أ- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة والمعلمين.

ب- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة والمشرفين التربويين.

ج- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة والمرشدين الطلابيين.

ت- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة وأولياء الأمور.

ث- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة والطلاب.

ه- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة وإدارة التعليم.

د- العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة ووزارة التربية والتعليم.

العلاقات الحوارية بين إدارة المدرسة والطالب من خلال:

- مشاركة الطالب في القضايا المدرسية التي تهمه.
- الأنشطة الطلابية.
- مشاركة الطالب في مجلس إدارة المدرسة.

دور المرشد الطلابي في نشر ثقافة الحوار:

يمكن للمرشد الطلابي أن يوظف الحوار تربوياً من خلال الآتي:

- العلاقات الحوارية بين المرشد الطلابي وإدارة المدرسة.

- العلاقات الحوارية بين المرشد الطلابي والمعلمين.

- العلاقات الحوارية بين المرشد الطلابي والطالب من خلال:

- متابعة التحصيل العلمي للطالب.
- الأنشطة الطلابية.
- متابعة مشاكل الطالب مع المعلمين.
- مشاكل الطالب الأسرية.
- المشاركة في الحوارات الوطنية.

كيف يمكن أن يكون الحوار مفيداً؟

يعتبر الحوار من وسائل التواصل الفعّالة وتزداد أهميته على مستوى الأسرة والمدرسة لأن الحوار يقرب وجهات النظر ولكي يكون هذا الحوار مفيداً ومؤثراً لابد من أمور أهمها:

١- تحديد الهدف من الحوار: إذا أردنا حواراً مفيداً لابد من تحديد هدفه وفهم موضوعه والمحافظة على هذا الهدف أثناء سير الحوار.

٢- التهيؤ النفسي والعقلي: إذا أردنا حواراً مفيداً كذلك لابد من أن يكون لدى الأطراف المتحاورة تهيؤ نفسي وعقلي واستعداد لذلك الحوار والاستعداد للعرض وضبط النفس والإصغاء والاستماع وتقبل الرأي الآخر والتهيؤ لخدمة الهدف المنشود من الحوار.

٣- عدم إصدار الأحكام: من يريد أن يكون حواره مفيداً عليه تجنب إصدار الأحكام أثناء سير الحوار وحتى وإن كان الطرف الآخر مخطئاً كي لا يتحول هذا الحوار إلى جدل عقيم بلا فائدة.

٤- محاورة شخص واحد: يجب -إذا أردنا - أن نتحاور - أن نحدد طرف الحوار الآخر والتركيز والاهتمام معه فقط فيغدو الحوار مثمراً ومحققاً لأهدافه.

٥- اختيار الظرف الزماني والمكاني: لحوار مفيد ومثمر. اختر الوقت المناسب والمكان المناسب وراعي ذلك مع من تحاوره.

إنَّ الحوار إذا أردنا أنْ يكون مفيداً يجب أن نراعي فيه جميع الجوانب التي ذكرناها سابقاً مع علمنا أن الاختلاف أمر ضروري في الطبيعة الإنسانية وأمر وارد لذا نلجأ للحوار عند اختلافنا.

مهارات إنهاء الحوار:

يمثل إنهاء الحوار جانباً مهمّاً في العملية الحوارية وهو ذو مكانة مهمة وعامل أساسي لوصول الحوار إلى تحقيق أهدافه المنشودة. والتفكير بالطرق المناسبة والشرعية والأدبية في إنهاء الحوار سواء في الأفكار أو الأداء أو العبارات واستحضارها قبل إنهاء الحوار بصورة عشوائية يسهم في قبول كل طرف ما تم تناوله في القضية أو موضوع الحوار والنقاش.

والتفكير في إنهاء الحوار يحتاج إلى مهارات ويمكننا في هذا الجانب ذِكر جملة من المهارات الحوارية الخاصة بمهارات إنهاء الحوار وهي على النحو التالي:

١- تحدد نقاط الاتفاق والاختلاف بين المتحاورين قبل نهاية الحوار.

٢- تستخلص الأفكار المهمة التي طرحت أثناء الحوار من خلال النتائج التي تمَّ التوصل إليها.

٣- يختم الحوار بخاتمة حسنة وجذابة.

٤- يوجه الشكر للأطراف المشاركة في الحوار والجمهور المستمع والمتلقي للحوار.

٥- التركيز على نقاط الاتفاق أكثر من التركيز على نقاط الاختلاف.

٦- يوظف الأسلوب الحواري الجذَّاب أثناء العملية الحوارية.

٧- تهيئ المحاور للوصول إلى نهاية الحوار.

٨- توظف الأحداث في التأثير وإقناع الآخرين.

٩- تقدِّم المقترحات والتوصيات وفقاً لما تمَّ التوصل إليه من نتائج.

١٠- تستخدم المعلومات والأرقام والإحصائيات الموثَّقة لدعم وجهة النظر والرأي والفكرة.

معوقات الحوار:

هناك عدَّة معوقات تحول دون نجاح الحوار وفعاليته ومنها:

١- المراء:

إذا حرص كل محاور على إبطال كلام محاوره والاعتراض على أي رأي يبديه لمجرد الاعتراض وتخطئة الطرف الآخر بغير وجه حقّ، فهذا مراء، إذا فسد الحوار فإنه لا يستمع إليه ولا يفاد منه.

٢- عدم القناعة بالتعددية والاختلاف:

لا شك أن التنوع هو أساس الحوار وفي الوقت نفسه هو الذي يجعل الحوار ضرورياً، والله سبحانه وتعالى

لم يجعل الناس أمة واحدة: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾هود، (١١٨). وكون الناس لم يعودوا أمة واحدة فهذا يعني التعدد والتنوع، وتعدد الآراء يأتي عادة من تعدد زوايا الرؤية وإذا لم تكن هناك قناعة بهذا التعدد وهذا الاختلاف سيفسد الحوار ويتحول إلى منازعة وشقاق.

٣- الاعتداد بالرأي والتعصب له:

يفسد الحوار إذا كان فيه تعصب واعتداد بالرأي لأن الطرفين سوف يسيران في خطين متوازيين ولن يلتقيا، لأن الذي يتعصب لرأيه يطيل الكلام في غير فائدة فتراه يبتعد أحياناً عن الموضوع ويأبى الدخول في صلبه ويتهرب من مواجهة الحقائق التي يوردها محاوره.

٤- الغضب:

بعض المحاورين سريعو الغضب ومثل هذا يصعب إقناعه بالرأي الصحيح فيفسد الحوار ويفقد حيويته، وبعض المحاورين إذا اشتد به الغضب يلجأ إلى السب والشتم فتحصل المنازعة والمخاصمة.

٥- عدم وجود قواسم مشتركة بين المتحاورين:

من عوائق الحوار عدم وجود قواسم مشتركة بين المتحاورين فتجد كل منهما يتحدث في موضوع لا يفهمه الآخر أو أنه يتحدث عن أمر لا يستطيع الطرف الآخر استيعابه، ولذلك فعدم وجود قواسم مشتركة بين الطرفين يؤدي إلى استمرار المناقشة دون فائدة.

٦- عدم الالتزام بالأسلوب المهذب في الحوار:

نظراً لأن الحوار عملية تتم بين طرفين أو أكثر والحوار عادة يتضمن طرح الآراء والأفكار لذا فينبغي لكل طرف الالتزام بالأسلوب المؤدب عند طرح الرأي والفكرة، والمحاور الذي لا يلتزم بالأدب أثناء الحوار يسهم في فشله وفساده لأن الطرف الآخر يلجأ للشيء نفسه فيقابل الإساءة بمثلها ومن هنا يفقد الحوار هدفه ويفقد المحاورين مصداقيتهما.

المراجع

- الدغيشي، فيصل محمد (٢٠٠٥م). الحوار الاجتماعي من منظور نفسي، ط(١)، الرياض، مطابع النرجس للنشر والتوزيع.
- ديماس، محمد (١٩٩٩م)، فنون الحوار والإقناع، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.
- الصقهان، عبد الله؛ الشويعر، محمد، (٢٠٠٦م)، قواعد ومبادئ الحوار الفعال ط، (٢)، الرياض: مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.
- عبد الجواد، محمد (٢٠٠٥م)، كيف تحاور أبنائك وتستمتع بهذا الحوار، القاهرة، الدار الإسلامية للنشر والتوزيع.
- الليودي، منى إبراهيم (٢٠٠٢م)، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب تعليمه، القاهرة، مكتبة وهبة.
- المغامسي، خالد محمد (٢٠٠٥م)، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية ط(٢). الرياض، مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني.

1- Bazerman, M. & Mannix, E. & Sondak, H. & Thompson, L. (1990). Negotiation behavior and decision processes in dyads group and markets. In. Carroll, J.(Ed). Applied Social psychology and Organizational Settings. Hillsdale. NJ: Erlbaum.

2- Brewer, M. (2000). Superordinate goals versus Superordinate identity as bases of intergroup co-operation. IN. Capozza, D. & Brown, R.(Eds). Social identity processes. London: Sage.

3- Carnevale, J. & Leung, K. (2003). Cultural Dimention of Negotiation. In. Hogg, M. & Tindale, S. Blackwell andbook of Social psychology: Group processes (USA): Blackwell Publishing.

المثاقفة... جدل الوحدة والاختلاف

د. صلاح الدين يونس *

لم يدرك العرب احتياجهم إلى الآخر إلا بعـــد أن أدركوا عدم كفاية ما عندهم، ســواء أكان مــا عندهم موروثــاً، أم كان مبدعاً في أزمانهــم الحاضرة، والإدراك لعــدم كفاية «العلــم» المحلــي كان أمراً مخيفــاً، وكان في الوقــت نفسه ضرورة، علــى أنه الإبداع المتعالي، أمّا إنه مخيف فــلأن الإســلام بمدوّناتــه النصّية أغلق المخيلة باتجاه الإبــداع، وأمّا إنه ضرورة فلأن الانتقالة التاريخية من نظام القبيلة إلى نظــام يشبه الدولة، لابــدّ أن يفرض



الإطلالة على العالم الخارجي، والإطلالة تقتضــي التعامل مع ثقافــة أمم وشعوب أخرى، وتقتضي الاستهداء بأشكال الدولة ومؤسساتها.

* أديب وناقد وأستاذ جامعي.

ويبدو انتقال مركز الدولة الجديدة من الجزيـرة العربية إلى الشام حدثاً تاريخياً فارقـاً؛ فالشام مختلفة مـن حيث صورة الأرض، الشام من الأرض كالشامة في الوجه تغاير ما حولهـا، فتكسبه اختلافاً مائـزاً، وتكـون - علـى الأغلـب- سِمة جمالية، والشام أيضـاً ذات إرث مختلف يمتد خلفـاً إلـى الأزمنـة النهرية حيث قامـت المستوطنـات الزراعيـة، وحول تلك المستوطنـات نشأت الحِرَف والمهن ذات العلاقة مع العمـل الزراعي، لتتكون المدن النهرية على هيئة مختلفة عن مكة ويثرب، ويمتـد التغاير السياسـي أيضاً، حتـى يصل العهـد الرومانـي بمعطياته الحضاريـة علـى المسـتوى الاقتصادي والعسكـري والسياسـي، من هنـا يتبين لنا كيـف انبنت الدولة فـي عهد معاوية (٦٦١-٦٨١م)، فلقـد انبثقت المؤسسات مـن الإرث الإمبراطـوري الروماني، ولم تنبثق مـن مخيلة أبناء قريشـ،... فأبناء قريشـ - مهما غالى ورثهـم من القدماء والمعاصريـن- لايمكـن لهـم القفز فوق العصور، أو تجاوز تاريخ الفكر.

وفي إثر انتقالـة النبي «صلى الله عليه وسلم» إلى العالم العلوي تبدأ المشكلة، على ثلاثة مستويات:

الأول، هـو النـزاع بيـن بيـت النبوة وبيـن النخـب الصاعـدة مـع الإسلام. **والثانـي**، هـو الاختـلاف الجوهري بين المدرسة «النصية» وبين مدرسة «الرأي» التي ابتدرها عمر لتغـدو السلطة خارج الاستحواذ النصـي **والثالـث**، هو النزاع المسلح بين المستوى الشعبي وبين الخليفة الأول، بعـد أن تبيّـن لتلـك الأوساط أن العـدل والمساواة لم يتحققا، وقد أُفصح عـن هذا النزاع من قبل مؤسسة الخلافة بـ«حرب الردة» وما كانت حروب الردة إلا غطاءً أيديولوجيـاً سلطوياً لفعل سياسي أساسه ثورة «الخيبـة» خيبة المنتظر من ثورة الأمـل، وفي ضوء تلـك المنازعات تنبثق ظاهرة «الرأي» في مقابل «النقل»، ويلاحظ أن ذلك سيُطَوّر على أيدي جمع مـن الفقهاء المستنيريـن بحيث يكتسب صيغة محدودة هي القياس[(١)]

ومـا كان للقياسـ أن ينبثق فجأة، فلقد عبر مـن فكرة النقـل إلى مدرسـة الرأي والقياس.والقياس أساس لعلم الكلام، وعلم الكلام قاد إلى الاعتزال، والاعتزال أفضى بدوره إلى التفلسف.

وتبدو هـذه الانتقـالات مترافقة مع مشكلة السلطة «الخلافة»، وما نتج عنها من نـزاع فائض عن الحاجة - في حينه

- بين الأطراف، حيث غدت المرجعية الإسلامية الوليدة هي إحدى المرجعيات، وليست هي الوحيدة، وفي الأطوار اللاحقة تقتضي المنازعة إعادة القراءة لـ«النص» و«الحديث» والقراءة هنا لم تعد قراءة انبهارية، وإنما هي قراءة التأويل، والقارئ المؤول لابد أن يمتلك أدوات «خارجية» إلى جانب عملية التأويل - وهي علمية معرفية - تنطلق عملية بناء المجتمع الجديد على أسس جديدة أهمها: الحاكمية «السلطة»، والمدينة «معقل الدولة»، وهنا يدخل في عملية البناء السوسيو بوليتيكي رأس المال، ونعني أغنياء قريش قبل الإسلام في المشروع الجديد، وقد أفصح عن هذا بالقول «خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام» وتبدو هذه المقولة بمثابة تسوية بين مرحلتين مختلفتين في المبدأ متفقتين على صياغة المجتمع العربي الوليد، وهذه التسوية سوّغت أيدولوجية براغماتية، تزيح - نسبياً - صرامة المبدأ، كما تسمح بالتداخل المتدرج بين «النص» وبين «الرأي» وقد استُثمرت مقولة الإمام علي: «القرآن حمّالٌ ذو أوجه» في غير ما أراده عليٌّ من العبارة.

ابن خلدون ومقولة الجدل:

يُعد ابن خلدون معْلماً من معالم النضج النظري والمنهجي في الفكر العربي الوسيط، وذلك في إثر ما تراكم من إنتاج معرفي في حقلي الثقافة العربية: الفقه وعلم الكلام، ويبدو الأمر منطقياً، بل في غاية المنطقية. أن يكون ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) بين المفكرين الذين أحالوا الحقول المعرفية المتعددة إلى فلسفة نطلق عليها اليوم «فلسفة التاريخ» على أساس من الوحدة والاختلاف.

ولم يكن ابن خلدون ليقصر جهده على حقل واحد، وفي اتجاه واحد، فقد تعامل مع المعطى التراثي المتقدم عليه - بكل حقوله وصيغه - تعاملاً شمولياً يتجاوز «اللغويّ» و«الفقيه» و«البياني» حتى يصل عتبات المؤرخ، منطلقاً من الوضعية الإجمالية للنصوص الإسلامية الأولى على أنها الشرط الضروري للبدء والمنتهى، وحيال هذا «ينبغي الإشارة إلى أن الإنتاج الفكري الخلدوني - ولا سيما في مقدمته- يخضع لمفارقة أو لتناقض منهجي يقوم على أنه يأخذ بالسببية الإجماعية الاقتصادية في بحثه السوسيولوجي، في حين يتخلى عن السببية النقدية حين يدخل حيز الأيديولوجية «العقيدة الأشعرية»[٢].

هذا التخلي منح الأيديولوجية المذكورة «الميثاقية»، لا من حيث هي متقدمة على نظيراتها أو نقيضاتها، وإنما من حيث هي منطلق لمعرفة الذات، وانكفاء عن معرفة الآخر، وهنا يفرض ابن خلدون رؤيته للجدال، وكأنها مصطلح لا يقبل الإنقاص أو الاستزادة، «الجدال هو معرفة آداب المناظرة، كيف يكون حال المستدل والمجيب وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال، ولذلك قيل فيه إنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال التي يُتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه»[٣].

من خلال النص السابق تبدو مشكلة «الأنا» و«الآخر» قائمة، من حيث ما آل إليه مشروع المثاقفة، لكن النزعة الفردية القائمة على التركيز حول الذات لابن خلدون تُطيحُ بالموضوعية التي تبناها أو دعا إليها، فهو ما يزال أسير «الأشعرية» وما دعوته للمناظرة للاعتراف بالآخر المخالف، ولكنّه يريد المناظرة لإقناع الآخر، إقناعاً قائماً على فيض الذات وعلى فقر الآخر، ومن هنا - إن لم يقتنع الآخر - فهو مخالف حقت عليه الإزاحة والإطاحة، ومن المغني الإشارة هنا إلى رأي ابن خلدون بكتاب الزمخشري (ت٥٣٨هـ - ١٠٧٥-١١٤٤م) الكشاف، ولأن المؤلف معتزلي حذر الخاصة والعامة «من مكامن الكتاب» علماً أنه يعترف بفضل صاحب الكتاب على اللغة، ويعترف بعراقته في البيان.

ولكن لماذا كان ابن خلدون حذراً من الفكر المعتزلي مشخصاً بالزمخشري؟ فمن المؤكد أن الزمخشري موسوعي اغتنى بعلوم عصره، وأغناها، فكتب في علوم القرآن «الكشاف» وكتب في علوم الحديث «الفائق» وتنبّه إلى الفكر المعجمي فألف «أساس البلاغة» ثم كتب «نوابغ الكلم»، والزمخشري من خوارزم التي كانت تنعم بالهدوء في عصر الاضطرابات «وما أظن كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في ملازمة أسباب الشرائع والدين»[٤].

ولم يكن الزمخشري ظاهرة وحيدة، فقد كان عصره مليئاً بالنوابغ، ومنهم ابن عطية الأندلسي في التفسير ت ٥٤٢هـ، والشاطبي القاسم بن فيرة ت ٥٤٠هـ في القراءات وعلوم القرآن، والبغوي الفرّاء الحسن بن مسعود (٥١٦هـ) في الحديث، والغزالي (٥٠٥هـ) في علم الكلام، والشهرستاني محمد بن عبد الكريم ت(٥٤٨هـ) في الملل والنحل، وابن طفيل (٥٨١هـ) في الفلسفة، والجرجاني عبد

القاهر في علوم اللغة (٤٧١هـ)، والإدريسي ت(٥٤٨هـ) في الطبيعيات، وابن عساكر ت(٥٧١هـ) في التاريخ.

وهذا العصر هو عصر العلوم، وعصر الأفراد والنوابغ، ومن هنا كان ابن خلدون يعيش ثنائية ضدية، طرفها الأول: الاعتراف بالعصر على أنه ناتج عن التركيب العرقي والمذهبي والفكري، وطرفها الثاني: هو موقفه المتركز حول الذات من العالم الخارجي، الذي أراده أن ينتظم في البنية المركزية التي يمثلها هو.

وما كان ابن خلدون ليعترف صراحة بأن العلوم الوافدة هي التي هيأت هذا المناخ، ولكن دعوته للمناظرة بمثابة اعتراف بوجود طرف مهم لا يمكن تجاهله، فكيف وصلت تلك العلوم إلى الحواضر العربية؟

من المؤكد أنها وصلت عن طريق «المثاقفة» التي اعتمدت الترجمة أساساً لها ومنطلقاً واللافت - هنا - الترافق العكسي بين صعود الفكر العربي على شكل موسوعي شامل وعلى أيدي أفراد، وبين بداية التراجع في وقت تبدأ فيه عملية السقوط السياسي والخروج من مركزية التاريخ، ويعد ابن خلدون الشاهد الأمثل على الخط الفاصل والفارق بين مشروع الصعود الفردي وبين مشروع السقوط المؤسساتي العربيين.

مسوغ الترجمة - الثقافة - التثاقف.

لم تكن الترجمة غرضاً ترفيهياً، حتى عند الأفراد الذين لجؤوا إليها في المراحل الأولى، إنما هي عملية استزادة من الآخر المتقدم، بعد أن تبين لأولئك الأفراد ضرورة التحول إلى معرفة أخرى، في عمليتي: «تجديد وتحويل» استراتيجيتين لتوليد الفوارق وإقحام الآخر في الذات، إنها ما يفتح الثقافة، وما يفتح اللغة على الخارج، وما يفتح النصوص على آفاق لم تكن لتتوقعها، ولا تتوفاها(٥). وبناءً عليه فإن الترجمة - في بعد أصيل من أبعادها - تصل بين لغتين، وتعرض عليهما الشروع في حوار، والحوار لا بد هو مفضٍ إلى «المثاقفة»، وهنا تغدو المثاقفة آلية لإيصال الآخر إلى الذات، مما يفرض على اللغة المواجهة مع الذات، ومع المواجهة ينكشف العالم الداخلي للغة، على أنها أبعاد متواصلة متفاصلة، ويبدو «التأويل» هنا حاجة «جوانية» لتفصح اللغة عن نفسها، فإن أفصحت كانت هي الأداة الأهم في مشكلة التثاقف.

فإذا اعُتمدت الثقافة أساساً لنشوء الحضارات - وهذا لا يعني أن للحضارة منشأً واحداً - فإن المثاقفة تقتضي التواصل بين الحضارات والتقارض بين

اللغات، وإذا تعـددت أشكال المثاقفة فهذا ما يفسر لنا تعدد الوتائـر الحضارية التي دخلـت فـي عمليـة تفاعلية فيمـا بينها، ومهما تباينت الثقافات فـإن عملية الأخذ والعطاء قائمة، ولا يمكـن لأية أمة أن تبلغ درجة الصفـر في الثقافة، ومن هنا تفصح الآلية الثقافية عن نفسها على أشكال أهمها «التواصل، الانفعال، الفعل».

فعندمـا غـزا الإسكنـدر المقدونـي الإمبراطوريـة الفارسية (٣٢٣ق.م) فرض الزواج بيـن شعـوب الإمبراطوريتين لتتم عملية الصهر الديموغرافي بالقوة الآمرة، وعندما غـزا الروم اليونـان عسكرياً كان فعـل الثقافـة عكسياً، فقد هـزم اليونان الـروم وفرضوا على المنتصـر العسكري معارفهـم، وعندما غـزا العثمانيون الشام ومصـر، (١٥١٦-١٥١٧م) فرض الطرفان المهزومان لغتهما وثقافتهما على «الفاتح» العثمانـي، ولم تكـن اللغة هـي الظاهرة الغالبة الوحيدة، وإنما فرضت آليات العمل «حـرف، مهن، فنون» نفسهـا على الوضع العثماني، وعندما جاء العرب من الجزيرة العربيـة - تحت شعار الفتح (٦٣٤-٦٤٠م) - وجدوا في البلدان المفتوحة عديداً من الثقافـات غير الشرقيـة، فتواصلوا معها اقتباسـاً، نقلاً، تمثـلاً، ثُـم أحالوها إلى ممتلك من ممتلكاتهم. ولعل الترجمة الأدبية غالبة على غيرها، وذلك لقدرة الأدب على توصيـف حالة الإنسان، وهـو عالم القيم والحرية، وعندما كان اختيار المترجم يقع - إن كان على وعي بعلم الأدب - على نص أو أثـر، فهذا يعني أن المترجَم يستحق أن يُنقـل إلى لغة أخرى لمـا ينطوي عليه من تلك القيم التي تحتاجها الشعوب،أوهي في طريقهـا إلى تبني القيم الإنسانية الكبرى، ومن الشاهد القائم على هذا حضور «وليم شيكسبير» في الآداب القومية كلها، وكذلك يحضـر الأدب الروسي فـي القرن التاسع عشر إلى آداب أوروبا، وعلى الأخص الأدب الفرنسـي، وهنا نستحضـر اهتمام أوروبا بـ «ألف ليلة وليلـة» وعلى الأخص فولتير (١٦٩٤-١٧٧٨م) الـذي واجـه المسيحية بالفلسفة المادية، وكذلك اهتمام الفلاسفة الأوروبييـن بالأعمـال العربيـة كرسالـة الغفران للمعري.

أمَّـا المثاقفة من خـارج الفن والأدب فتبدو آخذة بغيـر القيم والحرية والعدالة الإنسية، فلقـد فرض العالـم الرأسمالي الصناعـي آليـات تفكيره علـى الشعوب الأخـرى، فعندمـا سخـر الغـرب العلوم المكتشفة لصنع أدواته في التدمير الشامل فرضـ منطق القـوة أو القـوة المضادة،

فتبادل الأقويـاء الاكتشافات وخاصة بعد استخـدام الطاقة النوويـة، ولم تكن هذه القـوة وحيـدة الجانب، فهـي موظفة في الطب والصناعة وإنتـاج الأدوات، ولكنها أداة للرعـب تهدد البشريـة بالفناء، وهنا تغـدو المثاقفـة المضادة ممـراً إجبارياً للحفاظ على الوجود.

وعلـى صعيد العلـوم الدقيقـة تغدو لغات الغـرب «الإنجليزيـة - الإسبانية - الروسية - الألمانيـة - الفرنسية» ملزمة نفسهـا بالتواصـل والتبـادل المستمرين، وتبدو أيضاً مُلزمةً الأمم الطرفية بالتعرف إليهـا، أو إلى واحدة منها على الأقل، حتى تستطيـع الاستمـرار في النقـل المستمر لمنجزات العلم الحديـث ومن الذي يبدو محـالاً، الإقرار بلغة واحدة على أنها اللغة الكافيـة، بذاتها وعن غيرهـا، وإنما تجد كل لغة مثالية بعلـم أو بآخر، في زمن ما. وليس في الأزمنـة المفتوحة، فالسوريانية نقلت علوم اليونان إلـى العربية، والعربية لغـة العصور الوسطـى الرئيسة ولا سيما فـي الفلسفة مـن القرن الهجـري الثاني حتـى نهاية القرن السادس، واللاتينية هي اللغـة المثاليـة لمرحلة ما قبـل انفصال الكنائس عن الكنيسـة الأم وتشكل الدولة القومية، والإنجليزية هي لغة التجريب من القرن السابع عشر إلى اليوم، وأما اللغات الأوروبية فما تزال لغـاتٍ للعلم والفلسفة والأدب كالإنجليزية حتى اليوم وغداً.

وضمـن العلـوم نجد لغـة الرياضيات برموزهـا وتجريداتهـا، ولغـة الفيزيـاء النيوتينيـة، ولغـة الـذرة من خـلال لغة الكوانتوم، ولغـة الأحياء من عصر داروين (١٨٨٢م) وإلى اليوم، وقد أسس جاليلو لغة الميكانيـكا، لكنها انتقلت من لغته القومية إلى الإنجليزية ونظيراتها.

ومن الجدير التنويه به أن اللغة «القومية» عندما تتثاقف مـع اللغات المستعلية عليها في مجال الإنجاز العلمي والفلسفي والأدبي والتجريبي، إنمـا تمتحن نفسها في القدرة علـى التواصـل مـع العالـم الخارجي، ولايقتصـر الامتحـان علـى الترجمـة، وإنمـا يطال اللغـة وهي تجـاوز ذاتها، فتكتشف «التواتـر» بين عصورها، وتميز بين أزمنتها، فتسـرّع «المتباطئ» وتثري «المتسـارع»، لقد أدرك الخليفة العباسي عبد الله المأمـون (١٩٧- ٢١٨هـ) تركز العربية حـول ذاتهـا، وأدرك تركز الثقافة العربيـة حول «البيانية» فأمر بالترجمة عن اليونانية لإدراكه المستويات العلمية المدونة باليونانية، وأهمها في الفلسفة والطب، وقد كلف بهذه المهمة العلماء العرب النصارى.

فكان أن نقلوا علوم اليونان إلى السوريانية، ومن السوريانية نقلوها إلى العربية، في سعيٍ منهم لإغناء اللغة الوسيطة «السوريانية» وهي لغتهم الأم، ولإغناء العربية كلغة مركزية للدولة، وعندما وصلت علوم اليونان إلى النخب العربية أثارت ردود فعل متباينة، كردود الفعل العربية منذ عصر النهضة إلى اليوم حيال الوافد أو الجديد، ما إن يصل حتى يُرفض من طرف، ويُتلقى من طرف آخر، ولكن الزمن الإغريقي في القرون الهجرية التي تلت القرن الثالث كان أمضى تأثيراً، وأشمل في التلقي، وأمَّا الثمار اليانعة فكانت في القرنين الخامس والسادس الهجريين.

ويبدو مشروع المأمون في الترجمة على غاية من الأهمية لعوامل عديدة أهمها:

اعتراف رجال الدولة بأهمية علوم الأمم الأخرى هو اعتراف واضح بأن الأمة - مهما بلغت- لا تستغني عن غيرها، والثاني يكمن في المثاقفة الإدارية بين العرب واليونان بعيداً عن شرطين مستمرين للتناقض بين الأمم هما: الحروب والتجارة، والثالث هو الانعتاق من جبرية «الأحادية» التي فرضتها جماليات العربية، وهي تعيش لحظة الاندغام المستمر مع النصوص الإسلامية، ومن هنا فتحت الترجمة - في وقت مبكر - آفاق التواصل مع العالم الخارجي ممّا ساهم في حراك معرفي ما كان ليحدث لولا الإشكالات التي خلقتها المعرفة الوافدة، وخاصة في مجال التفلسف، وقد تبيّن كيف اقترن علما الطب والرياضة بالفلسفة عند الفلاسفة المسلمين، ومنهم الكندي أبو يوسف يعقوب (٧٩٦ - ٨٧٣م) الذي جمع بين المنطق اليوناني والفلسفة والذي كتب ستين رسالة أهمها رسالة في العقل ورسالة في «صناعة التأليف» ومنهم البيروني أبو الريحان محمد بن أحمد الخوارزمي (٩٦٢-١٠٤٨م) إذ جمع بين اللغة والتاريخ والأدب من جهة وبين الطب والفلك والفلسفة من جهة أخرى، ومنهم ابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله (٩٨٠-١٠٣٦م) وقد جمع بين الطب والفلسفة كما جمع بين العلوم الشرعية والعلوم العقلية، ومن آثاره القانون في الطب، والحدود في المنطق[٦]، ولم تقتصر الترجمة على نقل المؤلفات أو المدونات، بل نقلت أفكاراً -بشكل غير مباشر-، لتتوضع في الذوق العام، وما كان للذوق العام أن يتقبلها لولا أمران هما: انفتاح اللغة والثقافة العربيتين على العوالم الجديدة، والثاني هو انفتاح النصوص الإسلامية قبل أن يصادرها السياج الدوغمائي.

ويبدو أن الترجمة -كحال من المثاقفة- باتت مدخلاً إلزامياً لأي مشروع نهضوي، فالمأمون كان يبني مشروعاً موازياً من الخارج لمشروع داخلي، وهو بناء مجتمع متعدد الثقافات، متعدد اللغات، كما هو متعدد الأعراق موازياً به أحادية الداخل، ويشير المفكر جورج طرابيشي إلى هذه الفكرة على أنها لازمة للتقدم ولكن حركة الترجمة التي دشنها المأمون على إثر تأسيس «بيت الحكمة» لا تقبل المقارنة من منظور علم اجتماع المعرفة، مع حركة الترجمة التي أطلق شرارتها محمد علي «في مصر» (١٨٠٥-١٨٤٩م) فحركة الترجمة السابقة كانت تعبيراً عن واقع من التقدم، بينما جاءت حركة الترجمة اللاحقة تعبيراً عن وعي بالتأخر، ففي عصر الترجمة الأول كان العقل العربي متكوناً، بل مُتبنيناً، أمَّا في عصر الترجمة الثاني فكان العقل العربي - وما يزال- قيد إعادة التكوين، وفي عصر الترجمة الأول لم يكن ثمة مسافة فاصلة بين الترجمة والإبداع، فما كادت أولى المؤلفات الفلسفية اليونانية ترى النور بالعربية حتى كان ظهور أول فلاسفة العرب، وإن علم الكلام الإسلامي رأى النور حتى قبل أن تبدأ عملية ترجمة اللاهوت المسيحي عن السريانية، بل إن تطور علم الكلام هو الذي أوجد الحاجة إلى ترجمة علم اللاهوت.[٧] وعلى الرغم من أهمية الآراء التي يقدمها المفكر ج. طرابيشي في المبحث التراثي العربي الإسلامي إلا أن آراءه التي عرضناها تفضح عن تمركز عروبي إسلاموي.

ما من شك أن الحالة الفردية للكندي تفرض تأملات على صعيد التأسيس الفلسفي بالعربية، منطلقاً من الثروة العربية في «البيان» وما نتج عنه، ولكنه لم يكن بمعزل عن العقلانية الاعتزالية، ويبدو الكندي مهماً على صعيد الامتداد عبر «المدرسية» التي أسسها، وتلمذ له فيها أبو زيد البلخي وأبو الحسن العامري، ولكن الكندي بما أسسه بالعربية وبما امتدَّ به، لم يكن قادراً على تأسيس الدرس اللاهوتي بمفرده، وقد غيب المفكر ج. طرابيشي العوامل المثبطة للتفكير الفلسفي الباكر، والتي يمكن حصرها في ثلاثة مجالات: الأول سلطة الجمهور غير المتمرس بقضايا الفكر الفلسفي، والثاني السلطة السياسية المهيمنة، والثالث هو «إجماع الأمة»[٨] ويعد الرازي فخر الدين في (٦٠٦هـ- ١٢١٠م) المفسر الأشعري الشافعي المتكلم والفيلسوف.

معلماً واصلاً بين العربية والفارسية تأليفاً ونقلاً، وحلقة فاصلة بين الدرس المعتزلي والأشعرية، وهو من أهم من أسس للبحث في «المنقول والمعقول» وينطلق الرازي من قاعدة أساسية لتأسيس مبحثه الفلسفي وهي «لايجوز أن يكون شيء من لا شيء» داعياً بهذا الرأي إلى الآفاق الفلسفية من حيث..إن الكون مغلق وإن الكون مفتوح.. في الوقت ذاته.(٩)

ويمكن تفهم هذه العلاقة على المستوى الآخر، وهو المستوى التبادلي بين الشعوب لشؤون المعرفة والكشف والتجريب، فمن غير المنطقي أن تنهض أمة نهضة فلسفية وهي لم تكمل نشوءها السياسي بعد، وفي سياق آخر يمكن لنا التنويه بأن العلماء المسلمين الذين استعربوا بالعربية وبالإسلام، لم يكونوا عرباً، إذا استثنينا الكندي، ومن هنا نذهب إلى الاعتقاد بأن الفلسفة العربية الإسلامية، إنما نشأت تحت تأثير الترجمة عن الفارسية أولاً وعن اليونانية ثانياً، مع الإقرار بأن النمو الداخلي للعلوم العربية قد هيأت لهذا النشوء، ولاسيما نشوء علم الكلام الذي أفضى بدوره إلى التفلسف.

مشكلات الترجمة الحديثة ومجالاتها:

لا تخرج مشكلة الترجمة عن مشكلة التمويل، ولكن التمويل إن حدث فلا يعني أن الترجمة آخذة بالتقدم، فالمؤسسات القادرة على حل مشكلة التمويل تفرض شروط الاختيار والتوجه، فالمؤسسات، إمَّا تجارية، وإمَّا سياسية، وفي كلتا الحالتين لابد من الإرضاء، وفي هذه الحال تغدو الترجمة الفردية - إن تمت من النخب الإشكالية - حلاً لكثير من الخيارات الفكرية والسياسية، تلك الخيارات التي تنتمي إلى العوالم المعرفية الجديدة، وخاصة التابع منها لمراكز تقع خارج الجغرافيا العربية، فلقد تسابق المترجمون إلى نقل «الوجودية» كفلسفة نشأت في فرنسا على يد جان بول سارتر (١٩٠٥-١٩٨٩م) وقد ترجم له «الوجود والعدم» عبد الرحمن بدوي (١٩٦٦م)، ثم ترجم جورج طرابيشي. ما الأدب؟ «الأدب الملتزم» وعندما انتشرت الفلسفة الماركسية كثر المترجمون الأفراد، لكن دار التقدم الروسية كانت الأغزر والأشمل، وقدمت كتاباً مصنوعاً بطريقة عصرية وبسعر التكلفة، ولم ينجح المترجمون العرب في نقل الأعمال

الأدبية الروسية نقلاً يليق بالعمل نفسه، أو يليق بأبنية «العربية» كلغة متلقية، وأمامنا نموذجـان لترجمة «الأخـوة كرامازوف» لدوستوفيسكي، الأوّل ينقل عن الفرنسية كلغـة وسيطة، قـام بها المفكـر التربوي سامي الدروبـي، والثانـي ترجمة العمل نفسه للمصري أبوبكـر يوسف وقد تمت الترجمة عن الروسية مباشرة، والفارق بين النموذجين هـو الفارق في إتقان العربية، فالمفكر الدروبي ممـن أتقنوا الفرنسية، وممن أتقنوا العربيـة، ومن هنا كان نقله للأدب الروسـي ككل وللأخوة كرامازوف خاصـة. دقيقاً حافظاً علـى أدبية الأدب وعلى روح «الرواية».

وبالمقابل لم تكن الترجمات عن الثقافة الأمريكيـة بالمستـوى اللائـق بإبداعات الأدبـاء الأمريكيين، ومن أهـم الترجمات هنا ترجمة إحسان عباس لـ «النقد الأدبي» لستانلـي هايمن، في حين لـم تكن ترجمة الملحمة الروائية لهيرمان ميلفل موبيديك. موازية لها بالعربية.

وتعد الفلسفة الماركسية أكثر الفلسفات الأوروبية قـدرة على اختراق جدران العالم الثالث، فقد قويت على التوطن على الرغم مـن فوارق اللغات، وذلـك لأسباب عديدة، أهمهـا: ظاهرة «الاحتيـاج» الاحتياج لفكر الآخـر المخالـف التي واجهـت الوضعية الإسلامية «مـن التركة العثمانية» ومن أهم الأعمال التي واجه بها الماركسي ومن تلك الوضعية كتاب ماركس «رأس المال» الصادر عـن دار التقـدم (١٩٨٧م)، ولكـن حجـر الأساس وضعه خالد بكداش عندما نقل إلى العربية -لأول مرة- البيان الشيوعي لماركس وانجلز(١٩٣٠م).

ومـن قبـل هـذا وذاك كان المشـروع النهضـوي الذي قام به محمـد علي باشا (١٨٠٥-١٨٤٩م) يقـوم علـى تشكيل دولة قطبية فـي المنطقـة، في أحـد جوانبها معرفـي ثقافـي، وقـد أمـر بترجمـة ما يقـارب ألف كتاب في العلوم كافة، كما أمر بترجمـة خمسيـن كتاباً في مجـال العلوم العسكرية.[١٠]، وثمة ترجمة نخبوية قام بها مفكرون عرب لمفكريـن ماركسيين رعتها مؤسسات سوسيوبوليتيكية، ومثالها ترجمة المفكر السوري إلياس مرقص لكتاب جورج لوكاتش «تحطيـم العقل» بتمويـل من دار الحقيقـة (١٩٨٣م)، وترجم فواز طرابلسي لأنطـون غرامشي قضايا المادية التاريخية بتمويـل من دار الطليعة (١٩٧١م)، كما كان لـ «البنيويـة» حظها الوافر فـي الترجمة، وخاصـة -في المستـوى الأدبي- وقد راد هـذا المجال ترجمـةً وتأليفـاً د.كمال أبو

ديب الأكاديمي المعـروف، ومن الترجمات المؤسساتية الحديثة الآخذة بالتوسع، المؤسسة العربية للترجمة والثقافة والعلوم المدعومة من محمد بن راشد آل مكتوم، ومن أهم ما قدمته هذه المؤسسة كتاب «المضمر» عن الفرنسية لكاترين كيربرات أوريكيوني (٢٠٠٨م)، وتأتي أهمية الكتاب من حيث هو مفصح عن مرحلة ما بعد الفلسفات الكبرى في فرنسا والغرب، وبالمقابل تقوم بعض المؤسسات بنقل المؤلفات حول قضايا تاريخية وفي الوقت نفسه معاصرة، كالكتاب الذي ترجمه حسين علي عبد الساتر الصادر عن دار الجمل (٢٠٠٨م) وهو التشيع والتحول في العصر الصفوي لمؤلفه كولون تيرنر.

ومن اللافت قيام الأديب الناقد والشاعر أدونيس بترجمة شعرية موازية للشاعر الفرنسي سانجان بيرس الصادر عن وزارة الثقافة دمشق (١٩٧٦م)، وتعد هذه الخطوة رائدة في مجال اهتمام المبدع بإبداعات العالم الآخر.

ويمكن لنا تصنيف الترجمات الحديثة في المستويات التالية، مستوى اقتصادي سياسي، ومستوى أدبي بنسقيه: الرواية والنقد، ومستوى نطلق عليه امتداحي من الآخر لثقافتنا «روجيه غارودي- ما يعد به الإسلام» ومستوى رابع هو مستوى «المودلة» الثقافية ويمكن لنا تقديم «اللامنتمي» لكولن ولسن شاهداً على هذا المستوى.

ومهما يكن من أمر الترجمة فإن الترجمة ضرورة علمية ثقافية تقوم على جدلية «الاستغناء والإغناء» فالأمم مهما ادعت الاكتمال، إلا أنها في حاجة إلى غيرها، فالاكتمال وهْم لا يلبث أن يتراجع إلى الإقرار بـ«الحاجة»، ومن هنا تظهر مشكلة «المثاقفة» مشكلة أممية، تجد كثيراً من الحلول في الترجمة القائمة على الأساس التالي «خلق يقابل خلقاً» من لغة إلى لغة، ولا توجد أمة حكى عنها التاريخ تقدمت بعقل أحادي، أو انبثق فجرها فجأة، فلابد من مهاد عريض وعميق يؤسس للنهضة الحضارية أولاً وللثورة - العلمية - ثانياً.

الترجمة والمصطلح:

المصطلح لفظ موضوعي يؤدي معنى بوضوح ودقة، بحيث لا يقع أي لبس في ذهن القارئ أو السامع، وتشيع المصطلحات في العلوم الدقيقة والفلسفة والدين والحقوق حيث تحدد مدلول اللفظة بعناية فائقة[١١].

ولم يكن قبل عصر النهضة (١٧٩٨-١٩٤٨م) عند العرب مشكلة البحث عن المصطلح،

فالعلوم العربية القديمة ابتدرت مصطلحاتها تلقائياً من خلال التطور البياني للغة، ومن خلال تقدم الدرس الفلسفي بعد الترجمة عن اليونانية، ومع مشروع النهضة المنوه به واجهت النخب العربية المشكلة من خلال أساليب مختلفة أهمها: الترجمة «التعريب» والاشتقاق ثم النحت، ثم المجاز، وعندما أدركت النخب المسافة الفاصلة بين «المصطلح» الوافد وبين تقاليد «العربية»، لجأت إلى التضايف، فصارت تستخدم مصطلحات الأدب، مصطلحات الطب، مصطلحات السياسة...الخ، وقد تبنّت المجامع اللغوية - وفي مقدمتها - المجمع اللغوي في دمشق هذه المهمة، وهي إثراء العربية من داخلها بالثروة المصطلحية.

وفي الوقت نفسه تعثرت إمكانية المصطلح بـ -كلمة- واحدة من أجل الإفصاح عن فكرة يعز على المفردة الواحدة الإحاطة بها، وكانت المشكلة في العلوم الدقيقة أظهر منها في العلوم الأخرى، وتكاد المشكلة -هنا- تتوضع في البنية النحوية وبعدها عن نظيراتها في البنى النحوية في اللغات الأجنبية.

وَإن امتلال المصطلح سواء نقل من لغة إلى لغة، أو تم اشتقاقه من العربية، يتطلب معرفة بالاختصاص معرفة كلية وعميقة، ويوازي هذه المعرفة المعرفة باللغة، ومن هنا اشترطت المجامع اللغوية العربية لنقل المصطلح أو استنباته أن يكون في المقام الأول قابلاً للتداول بسهولة وَغير قابل للفهم الاحتمالي، وفي المقام الثاني اشترطت ثنائية متجانسة وهي البساطة والألفة، ورفضت الثنائية المقابلة وهي التركيب والغرابة، وبالمستوى نفسه اشترطت إمكانية التعميم، رغم التخصيص بمجال معرفي محدد، وفي حدود هذا المجال تبدو إشاعة توظيفه ممكنة بلا حدود.

ورغم اجتهادية المجامع العربية إلا أن المقذوفات العلمية وعلى الأخص في العلوم الدقيقة ذات وتائر عالية في النمو والانبثاق، تتجاوز وتائر المجامع في التعريب، فثمة آلاف المصطلحات لم تجد طريقها عبر التعريب، لكنها وجدت إلى العربية طريقها باللغة التي ولدت فيها نفسها، وتعد جهود المؤسسات أهم من جهود الأفراد، رغم أن جهود الأفراد ماتزال أدق، ومن أهم المؤسسات مكتب تنسيق التعريب لتوحيد المصطلح العلمي، والمعهد القومي للمواصفات الملكية الصناعية في تونس.

وقـد وصل أمر «العربيـة» كهمٍّ علمي أفقـي إلى مؤتمر القمـة العربي الدوري وبشـكل متكـرر تلقائياً، إذ تخـرج دائماً بتوصيـة مؤداها: «وجوب حضـور اللغة العربيـة فـي جميـع الميادين، بما في ذلك وسائـل الاتصال والإعلام والإنترنت وغيرها[١٢]».

والمشكلـة أصيلة في الثقافة العربية، وهـي في كل طور تظهر كحاجة ضرورية، ويبدو أن عصورنا لم تشبعها درساً، وحين تزاحمت العلوم في الساحة البغدادية بين أصيـل ووافد، وبين تليـد وطريف، أدرك المهتمون العرب من لغويين وفلاسفة أهمية توحيد المصطلح في الفلسفة قبل غيرها، فـي غاية أوسع وهـي توضيح المشكلات المعرفيـة عامة، ومـن أمثلة ذلك تعريف الفارابي (٩٥٠م) لكلمة «عرض» فالمعنى اللغوي عنده مغاير لمعناه الفلسفي «عند جمهور العرب يقـال عن كل ما كان نافعاً في هذه الحيـاة فقط... أمَّا في الفلسفة فـإن العرض يقال علـى كل صفة وصف بها أمـر، ولم تكن الصفـة محمولاً على موضوعـه، أو لم يكن المحمول داخلاً في ماهية الموضـع أصلاً»[١٣] وأما الباقلاني (١٠١٣م - ٤٠٢هـ) فيعـرف العرض من منطـق التوفيق بيـن الدلالتيـن: اللغوية والفلسفيـة «والأعراض هي التي لا يصح بقاؤهـا وهـي التي تعرض فـي الجوهر والأجسـام وتبطل في ثاني حال وجودها» تريدون عرض الدنيـا والله يريد الآخرة فسمـى الأموال عرضاً، وقـول أهل اللغة عرض بفـلان عارض من حمى أو جنون، إذا لم يدم به ذلك[١٤].

ومن مشكلات إنتاج المصطلح المعاصر هو المسافة الفاصلة بين المختص بالعلوم الدقيقة والمختص بعلوم اللغة، ومن هنا تظهـر بعض المصطلحـات غريبة غير دالة بلفظهـا على ما أريد لها، ويبدو هذا واضحاً في العلوم الطبية.

وأمَّا المشكلة الثانية فهي أن المصطلح ذو بعـد واحد لا يقبل تعـدد الدلالة، ولا التنـازع فـي الاستثمـار أو توظيفه في النص العلمي، وليسـت العلوم التجريبية بمتناول..اللغوي.. حتـى ينتج المصطلح المناسب على الوجـه الأكمل، ولعل تركز الذهنيـة العربية المعاصرة على التجربة القروسطويـة أبعدها عن سبل تكون تلك الظاهرة، وقطع عليها سبلا لتكون الجديد، فالفلاسفـة المسلمـون خـلال القرون الهجرية من الرابع وإلـى السابع اشتقوا مصطلحاتهـم من خـلال ثنائية متلازمة في تكوينهم هي: البيانية والتفلسف.

المراجع

١- طيب تيزيني، من اللاهوت إلى الفلسفة، ج١، وزارة دمشق، ٢٠٠٢م، ص٧٥.
٢- المصدر السابق، ص٩٦.
٣- ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٦.
٤- ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢، ص٤٦٨.
٥- عبد السلام بن عبد العالي مجلة الوحدة، المجلس القومي للثقافة العربية، ع٦١ - ٢٦(١٩٨٩م)، ص ٨ (الترجمة والمثاقفة).
٦- راجع الموسوعة العربية الميسرة، القاهرة ج١، ط(١٩٨٧م).
٧- الترجمة والأيديولوجية المترجمة، الوحدة، العدد، (١٩٨٩م)، ص ٢٠.
٨- للاستزادة راجع من اللاهوت إلى الفلسفة العربية الإسلامية، طيب تيزيني دمشق وزارة الثقافة (٢٠٠٥م)، ص١١٠-١١٩.
٩- رسائل فلسفية للرازي مترجمة عن الفارسية، ترجمها المستشرق بول كروس عن المؤلف ناصر خسرو، دار الآفاق الجديدة (١٩٧٣م)، ص٢٢٤.
١٠- محمد ضاري حمادي، حركة التصحيح اللغوي في العصر الحديث، دار الرشيد، (١٩٨٠م)، ص٢٩٢.
١١- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ط١، (١٩١٩م)، ص٢٥٢.
١٢- قرارات المؤتمر كما صدرت عن الجامعة العربية، الرياض، (٢٠٠٧م).
١٣- الفارابي، كتاب الحروف، ص٦٥-٦٦.
١٤- الباقلاني، الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق محمود محمد الخضيري، دار الفكر العربي، القاهرة (١٩٤٧م)، ص٤٢.

الثقافة التائهة والمجتمع الحائر

ديب علي حسن *



إنه عصر الثقافة، لا عصر المال والاقتصاد، وما يجري على الساحة العالمية من صراعات وحروب، إنما هو صراع ثقافي بلبوس مختلف، هكذا لخص الأمر أحد المفكرين الغربيين متسائلاً: كيف للعالم أن يتحدث عن صراع أو صدام حضارات، والحقيقة أن ما يجري هو صراع ثقافي كما أسلفنا، ولم يكن يريد هنتنغتون شيئاً اسمه صراع الحضارات، كما ترجم إلى اللغة العربية، إنما هو صراع ثقافي، لايمكن لحدوده أن تقف عند مكان ما، بل تعود إلى

* كاتب وإعلامي سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

الماضي لتشمل الحاضر وتعمل من أجل كسب المستقبل، وكل جهة تزج بما لديها في هذه الساح لعلها تحقق ما تريد أن تصل وتفرض ثقافتها وقيمها، وبالتالي يعني هو احتلال للعقل والقيم والمبادئ، وهو بالمحصلة ما نراه الآن على أرض الواقع، وإذا كانت الدروب إلى فرض ثقافات وقيم جديدة تتخذ أشكالاً أخرى تلوذ في النهاية بالحروب ومن ثم العمل على تنفيذ الأمر على الواقع بالوسائل التي تتخذ من اللغة والتاريخ وما في القائمة وسائل وأدوات، إذا كان ذلك قد حصل ومضى ولم يؤت بثمار جيدة، فإنما الآن نحن أمام ما سميناه في مرحلة ما الغزو الثقافي، لتتبدل التسميات فيما بعد مع تطور الوسائل والأدوات إلى أن تصل إلى مفهوم ومصطلح (الحرب الناعمة).

الحرب الناعمة هذه تجلت حقيقة واقعة لا مفر منها، ووسائل خوضها أكثر فتكاً ودماراً من أي سلاح آخر لأنها تستهدف العقول والبنية الفكرية والاجتماعية والقيم، وبالتالي إحلال قيم جديدة محلها، ومن ثم السيطرة التي أطلق عليها البعض السيطرة الصامتة، وهي الأشد وطأة من أي سيطرة أخرى، وما الاقتصاد والعلاقات الخارجية إلا أدواتها الأولى، وعلى الطرف الآخر، نعني به حائط الصد، لابد من الحديث عن الثقافة وقدرتها على المواجهة، والقيام بعملية التحصين التي يجب أن تكون بمواجهة ما نراه، سواء اتفقنا على أنه غزو ثقافي، أو أنه حرب بأدوات ناعمة، من هنا تبدو الحقيقة المرة التي علينا أن نقف أمامها ونطرح الأسئلة التي يجب أن تطرح شئنا أم أبينا، أين جدران الصد هذه، وإلى أي حد هي مرتفعة وصلبة وقوية في وطننا العربي؟

هل بنيناها وأعلينا البنيان، هل نوليها الاهتمام الذي يجب؟ ولماذا أغفلنا الترميم فيها وإعلاء البنيان، وصرفنا النظر عنها إلى كل ما هو زائف وزائل؟ ومن ثم ما النتيجة النهائية التي وصلنا إليها؟ ولماذا استطاع الآخرون تحطيم الجدران والتسلل إلى عقر الدار، والعمل على احتلال البنية الفكرية والثقافية والتربوية وتغيير الاتجاهات والمفاهيم؟ كيف حدث ذلك ولماذا؟ وأين دور الثقافة والمثقفين؟

الثقافة تحدد مستقبل العالم

إذا ما كانت الثقافة بهذه الأهمية، وهي الساحة الأشد اشتعالاً الآن في العالم، فما الذي نقصده بالثقافة، وما تعريفها، كيف نفهمها؟ مما لاشك فيه أن مصطلح الثقافة لم يستقر بعد على تعريف محدد أبداً، بل يختلف المفهوم بين مفكر وآخر، وباحث

وآخــر، وربما نقف في البحــث على مئات التعريفات له، وكل تعريف منها يحمل شيئاً من الآخر، لكنه يذهــب أبعد من الأول إلى حدود جديدة، ويضيف معاني أخرى تتأتى من توسع الدلالات والإضافات التي يحاول الدارســ إلحاقها بهــذا المفهــوم الواسع والشامــل، نحاول هنا فــي هذه العجالة أن نقف علــى بعض ما جاء فــي الإجابة عن السؤال السابق: ما الثقافة؟

في كتابه: تأويل الثقافات، يقف كليفورد غيرتز عنــد المصطلح ويقدم مفهوماً واسعاً ومتعدداً ومتشعباً، يــرى غيرتز أن من أقدم التعريفــات وأشدهــا رسوخــاً وثباتــاً كان التعريف الذي قدمه إدوارد بورنيت تايلور في بداية كتابــه: الثقافة البدائية إذ يقول: (تلك الوحدة الكلية المعقــدة التي تشمل المعرفة والإيمان والفن والأخلاق والقانون والعادات، إضافة إلى أي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بوصفه عضواً في مجتمع).

ومع تطــور الدراســات الإنثروبولوجية قدم علماء آخرون تعريفات جديدة للثقافة كما يقــول كليفورد غيرتــز، إذ قدم عالما الإنثروبولوجيا، كروبــر وكلايد كلوكون في كتابهما: الثقافة مراجعة نقدية للمفهومات والتعريفــات، قدمــا تعريفــاً يتــراوح بين السلوك المثقف إلى الأفكار في العقل إلى التركيب المنطقي إلى آلية الدفاع النفسية، ومــا إلى ذلــك، إلا أن التعريــف المفضل عندهما كمــا يشير غيرتز وعند الكثير من الدارسيــن في هذا الحقل هــو: إنَّ الثقافة عملية تجريدية وبعبارة أخرى أكثر تحديداً (تجريد مستخلص من السلوك).

ويشيران إلى أنها ليست سلوكاً، إنما هي تجريد بالقول ويدللان على ذلك بالقول: لو كانــت الثقافة بنفسها سلوكاً لكانت بما هي كذلك موضوعاً لعلم النفس، وبذلك استنتجا بأن الثقافة: هي تجريد مأخوذ من السلوك الملموس ولكنها ليست سلوكاً بذاتها.

والثقافــة تعرضــت للتطــور كما يرى غيرتز ويدلل على ذلــك بالإشارة إلى نشأة الكتابة وتطورها، وكذلك تطور المجتمعات، وغير ذلك، وبناء على تعريف غيرتز للثقافة فإن العوامــل البيولوجية (الخاصة بالفرد) والعوامــل الثقافيــة الآتيــة مــن المجتمع والمحيط الثقافي تمارس دورها في تشكيل الشخصيــة الإنسانيــة، ولا يمكــن الفصل بين هذيــن العاملين في تطــور الشخصية الإنسانية أبداً.

وبنــاء علــى هــذا التأثير، يذهــب إلى الحديث عن نظريــة المركزية في الثقافة، وهي مصدر العنصرية الغربية، التي جعلته يشعــر بالتفوق حســب ادعائه ويتحدث عن

نظرية المركز، وطبعاً لا ينكر غيرتز أنَّ سبب ذلك يعود إلى الاستعمار الغربي الذي كان السبب في نشأة مصطلح (التمحور الثقافي العرقي)، حيث أخذ الرجل الأبيض ينظر إلى الآخر على أنه ذو ثقافة وتراث مختلفين عن تراثه، وأصحابهما متخلفون وهمجيون، وعلى الأبيض أن يعمل على تطويرهم وفرض ثقافته التي يرى أنها هي الأجدر والأصح والأكثر حضارة وقدرة على الاستمرارية.

ويخلص إلى القول: إنَّ الانتشار الثقافي بين متماثلين ليس غزواً ثقافياً أبداً، إنما الغزو الثقافي لا يكون بين متساويين، وبالتالي، فإنَّ الاستعمار الغربي بما قام به ويقوم هو غزو ثقافي، عن سابق قصد وتصميم لأنه يرى الآخر أقل شأناً ثقافياً، لا بل يراه متخلفاً، ومهمته أن يطوره ولو غزواً.

إذا كانت تلك رؤية غيرتز للثقافة في كتابه (تأويل الثقافات) فإننا نجد من الأهمية بمكان أن نقف عند تعريف ومفهوم آخر أكثر جدة وحداثة هو لعالم الأنثروبولوجيا: آدم كوبر، في كتابه (الثقافة التفسير الأنثروبولوجي) إذ يعنون مقدمة كتابه: حروب الثقافة، ويقتبس من ريموند وليامز قوله: لا أعلم عدد المرات التي تمنيت فيها لو أنني لم أسمع إطلاقاً بالكلمة الملعونة، يعني حروب الثقافة).

ويرى أن الأكاديميين الأمريكيين يشنون حروباً ثقافية (لكن عدد القتلى قليل) إذ يحض السياسيون على حدوث ثورات ثقافية، يترجمها الباحث شارحاً بالقول: إننا نبيع الآن الثقافة، وهم يعرفون ذلك، وليس عليك أن تشرح ذلك لهم، إذ ليس هناك من طلب بيع الثقافة وحدها، فالثقافة تحكم الغصن عندما نتكلم أكثر عن تحفيز سلوكية الزبون.

وعلى هذا الأساس، فإن آدم كوبر يقرر بشكل قاطع: إن الكل منغمس في الثقافة الآن، وقد كانت الثقافة بالنسبة للإنثروبولوجيين يوماً تعبيراً عن عالم الفن، أما الآن فإن المواطنين الأصليين يتكلمون ثقافياً معهم.

وخلاصة ما يراه آدم أن مستقبل العالم برمته يعتمد على الثقافة، فقد أعلن صاموئيل هنتينغتون سنة (١٩٩٣م) في مقالة تنبؤية في مجلة الشؤون الخارجية، أن طوراً جديداً في التاريخ العالمي قد بدأ لن تكون فيه الأسباب الأصلية للنزاعات اقتصادية أو أيديولوجية أولية، فالانقسامات الكبرى بين الجنس البشري، وأسباب النزاع السائدة ستكون ثقافية، وقد توسع هنتينغتون بالفكرة في كتاب جديد له إذ أشار (الاختلافات الرئيسة في التطورات

السياسية والاقتصادية بين الحضارات متجذرة بوضوح في ثقافاتهم المختلفة).

والثقافة، والهوية الثقافية تقوم بتشكيل أنماط الترابط أو التفكك والنزاع في عالم ما بعد الحرب الباردة، والسياسات المحلية في هذا العالم الجديد هي سياسات العرقية والسياسة الدولية هي سياسة الحضارات، فصدام القوى العظمى سيحل محله صدام الحضارات.

تحت المجهر

لم تبق الثقافة ضمن المفاهيم التي عرضنا لها، إنما أخذت أشكالاً جديدة، وتفرعت عنها دراسات نقدية جديدة انتشرت في الغرب، وكانت البدايات من بريطانيا، إذ خرجت من رحم الدراسات الأدبية عموماً، وما يسمى الليفسية خصوصاً نسبة إلى الناقد المعروف ايغرليس، وبالنسبة للثقافة حسب مفهومه ليست مجرد نشاط متعة أو إمضاء لوقت فراغ، بل تهتم بتكوين أفراد ناضجين، ويضيف سايمون ديورنغ، في كتابه الدراسات الثقافية مقدمة نقدية، ترجمة دكتور ممدوح يوسف عمران (عالم المعرفة الكويتية العدد٤٢٥) يضيف: تهتم بتكوين أفراد ناضجين ذوي إحساس بالحياة حقيقي ومتوازن، وهذا اللون الجديد من الدراسات ينظر إلى أنواع مختلفة من النصوص ضمن إطار الممارسة الثقافية، أي العمل والإنتاج وتجليات الحياة اليومية للكائن البشري التي تتأثّر بأبعاد اقتصادية وبالطبقة والعرق والجنوسة والسياسة وبالحاجة والرغبة.

وبناء على ذلك يمكن أن نعرض مفهوم الثقافة إذ يرى سايمون ديورنغ: المواد الثقافية وفقاً للدراسات الثقافية هي في الوقت نفسه نصوص أي لها معنى وأحداث وتجارب ينتجها ميدان قوة اجتماعية مكون بشكل غير متساو من تيارات نفوذ وهرميات اجتماعية للعديد من أنواع الأبعاد والدمج والمتعة، ومن ثم تقذف عائدة إليه وهي أيضاً مؤسسات اجتماعية بعضها مرتكز في الدولة، وبعضها الآخر في السوق، أو فيما يسمى المجتمع المدني. تنتقل الثقافات عبر الحدود الجغرافية فتندمج وتفترق، وهي تجسر الانقسامات السياسية والاجتماعية وتقوضها وأحياناً تقويها أيضاً، تولد التكنولوجيا ت الثقافية وتموت ويتعرض رأس المال والأزياء لمد وجزر عبر أشكال ثقافية مختلفة وتصبح بعض الأجناس متخصصة ومتطرفة ويكتسح العالم بعضها الآخر.

يلاحظ الدارس أنَّ سايمون يشير إلى مخاطر الثقافة عبر جمل سريعة وقصيرة، فالثقافات تموت وتندثر، وهذا طبيعي، ولكن ماذا عن إحلال ثقافة محل أُخرى، وماذا عن الثقافات التي تجسر الهوة، أين هي في عالم اليوم؟ أهي موجودة حقيقة أم أنه يتحدث عن جسر الهوة بين أجيال المجتمع الواحد؟

الثقافات التي تفرق هي التي تسود الآن، وكنا قد أشرنا سابقاً إلى أن الصراع بين الحضارات هو صراع ثقافي فالأمريكيون يريدون ثورات ثقافية، ولكن أية ثورات تلك التي يريدونها، علام يريدونها أن تثور؟ أسئلة يجب أن تطرح وعلى الدراسات الثقافية أن تجيب عليها، وتحللها وتعري عناصرها، وتفككها إلى مفرداتها الأولى لتظهر واضحة وجلية، ولتكشف أن ما نراه الآن من نكبات حلت بالأوطان، ومن شغب عالمي ينفذه رعاع دجنتهم الثورة الثقافية الأمريكية حسب مبادئ تكنولوجيا السلوك الإنساني، التي أطلقها عالم النفس السلوكي الأمريكي في كتابه الشهير، الذي حمل العنوان نفسه، وفيه نظريته حول تدجين الإنسان وتحويله، وجملته الشهيرة في هذا المجال معروفة (قل لي أي مجتمع داجن تريد لأعده لك).

وطبعاً لا نذهب إلى القول: إنها عملية بسيطة وتحوُّل سريع، فلربما استمر الأمر عقداً من الزمن حتى يؤتي أكله كما يريد أصحاب الثورات أو المخططون لها، عبر ما اصطلحنا على تسميته الحرب الناعمة والتي ميدانها الثقافة بمجالاتها المختلفة كلها، ووسيلتها الأساس الإعلام الذي لم يعد بإمكانك أبداً أن تفصله عن المفهوم الثقافي والتربوي، لا بل تداخلت وتشابكت المفاهيم، واستثمرت نتائج التطور في كل مجال، حتى صرنا عملياً في اندماج كلي لا يمكن أن تعرف فيه الثقافي من الإعلامي ومن التربوي، إلا بالتفكيك والتحليل والعودة إلى المفردات الأولى التي تشكل هذا الحامل الخليط ذا الرسالة الهادفة من قبل مرسليه.

هذه الرسالة الكلية التي يمكن أن نسميها الحرب الناعمة، أو الغزو الثقافي، خطط لها مفكرون غربيون وينفذه ساسة ومراكز دراسات وأبحاث تعمل ليلاً نهاراً، وهنا أيضاً نشير إلى أن سكينر خصص جزءاً من كتابه تكنولوجيا السلوك الإنساني لما أسماه: تصميم الثقافة يرى سكينر أن الثقافة شبيهة بالفضاء الخارجي المستخدم في دراسة السلوك، إنها مجموعة من ظروف وطوارئ

التعزيـز، لكنها لم ينظر إليها ضمن هذا المفهوم إلا منذ عهد قريب، إن تكنولوجيا السلوك التي تنبثق عن هذا المفهوم هي من الناحية الأخلاقيـة محايدة، ولكنها حين تطبق على تصميم للثقافة فإن بقاء الثقافـة يصبح قيمة لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار، إنَّ من يقتنعون بضرورة العمل لصالح ثقافتهم يحتاجون إلى أن يتنبؤوا ببعض المشكلات التي ينبغي حلها، غير أن كثيراً من الملامح الموجودة في ثقافة ما لهـا تأثير واضح على قيمـة بقائها، تستعين بالتصاميم التي توجد في الأدب اليوطوبي بمبادئ مبسطة معينة، ولديها ميـزة التأكيـد علـى قيمة البقـاء: هل ستنجـح اليوطوبيا؟ وبالطبـع إن العالم أكثر تعقيداً غير أن العمليات نفسها تتم الممارسـات للأسبـاب نفسها، ويضيف سكينـر: إن استخـدام العلم في تصميم الثقافة يلقـى مقاومة على العموم، يقال مثلاً إنَّ العلم غير ملائم، وإنَّ استخدامه قد يكون له نتائـج مدمرة، وأنه لن ينتج ثقافة يحبها أعضـاء الثقافات الأخرى، وفي كل الأحوال سيرفض الناس بطريقة أو بأخـرى أن يسيطر عليهـم، إن إساءة استخـدام تكنولوجيـا السلـوك مسألة خطيرة، ولكنه يقرر:

إن كل سيطرة هي فـي حقيقتها شيء متبادل والتبادل ما بين السيطرة والسيطرة المضادة أمر ضروري لتطور الثقافة، لكن هذا التبـادل تعكره آداب الحرية والكرامة التي تفسـر السيطرة المضـادة على أنها قمع لممارسـات السيطرة وليس تصحيحاً لهـا. وقد تكون نتيجة هـذا نتيجة مدمرة وعلى الرغم من النتائـج الرائعة لثقافتنا، فإنه قد يثبـت أن فيها صدعاً قاتلاً وعند ذلك قد تقوم ثقافـة أخرى بتقديم خدمة أعظم للمستقبل.

تـرى هـل يحق لنـا أن نسـأل: ما هي الخدمـة الأعظـم التـي ستقدمهـا ثقافة لأخـرى إن كانت ستحل محلهـا، أليس في الأمر إشارات خفية إلى تفضيل ثقافة على ثقافـة، وإحـلال الثقافـة الأمريكية محل ثقافات العالم الأخـرى، وقد بدأ ذلك منذ تأسيس الولايات المتحـدة وإزهاقها أرواح الملاييـن من الهنود الحمـر، ودثر ملامح ثقافتهم إلى غير رجعة، واليوم تفعل الشيء نفسه مع العالم، من خـلال محاولة أمركة العالـم عبر وسائـل متعددة أشرنـا إليها، سواء كانـت عسكرية في البدايـة، وصولاً إلى الحرب الناعمـة التي بدأت مع مدافع هوليـود والسينما التي غـزت العالم، وبعد ذلك عبر وسائل الإعـلام الأخرى ووسائل

التواصل الاجتماعي ومحو الذاكرة الثابتة وتحويلها إلى ذاكرة من رمل تمحوها متى تشاء، وما يجري على الأرض من تخريب للآثار وتدمير معالم الثقافات من قبل المجموعات الإرهابية يصب في خدمة هذا الغزو الثقافي وأمركة العالم.

متاهات الثقافة العربية:

انشغل المفكرون العرب كما غيرهم بالشأن الثقافي، وقدموا دراسات هامة جداً في هذا الإطار، لكنها للأسف وكما العادة ظلت حبراً على ورق، وبدا أن العمل في الشأن الثقافي والتنظير له أمر غير مرغوب به، لا بل إن العاملين فيه أنفسهم بدوا في الآونة الأخيرة بحالة فصام حقيقي، إذ كيف لمفكر أو عالم اجتماع أن يعبر أنه اكتشف جذوره الإثنية فجأة، أو أنه من انتماء طائفي محدد، وهو الذي كتب وقدم ونظّر في الفكر والثقافة؟

أسئلة كثيرة يمكن أن تطرح وتبحث عن إجابات لحال الثقافة والمثقفين العرب، والأسئلة الأكثر مرارة هي التي تتولد اليوم إذ لنا أن نسأل: أهو عجز ثقافة أم عجز مثقفين، إن الأمر في الاثنين معاً؟ مما لاشك فيه أن الثقافة والمثقفين العرب ظلوا في إطار الفعل النظري، ولم يكن البناء الثقافي والمعرفي والعلمي التنويري همهم الأساس، ولابأس هنا أن نذكرهم بالرواية التي تقول إنَّ إمارة قديمة ظلت لسنوات طويلة تعمل على بناء سور حول تخومها، يمنع قدوم الأعداء ويحصنها من أي غزو، وبعد أيام من إنجاز السور، لم يجد الغزاة كبير عناء لدخول الإمارة، لأنهم دخلوها من الباب الرئيس، إذ فتح لهم على مصراعيه، ويعلق قائلاً: لقد قضوا عقوداً من الزمن يبنون سوراً من حجارة، ولكنهم نسوا أن يبنوا الحارس الذي فتح الباب أمام الغزاة، نسوا أن يبنوا الإنسان ويرفعوا أسواره، فكان ما كان.

تأسيساً على هذه الواقعة التي تنطبق على سور الصين العظيم إذ بقي الصينيون القدماء مئة عام يبنونه، لكنهم بعد أيام تعرضوا لغزو همجي ومن بواباته، فكان أن أعادوا بناء وتأهيل من بنى السور، ثقفوا الإنسان، وأعادوا صقله لتزداد قيمه وحبه لأرضه ووطنه، واليوم في ظل التقنيات وأحدث أسلحة الفتك والدمار المنجزة غربياً، ولاسيما في الولايات المتحدة، لم يعد أي قيمة تذكر لأي قوة باطشة تواجه الغزو العسكري، إلا قيمة واحدة، وسلاح واحد هو الوعي والمعرفة، والثقافة التي تعتبر الحصن الأول والأخير، وخط دفاع

إذا ما تحطم فلا قيمة لأي مواجهة أبداً، ولابد من إعادة البناء من جديد لهذا الخط الذي تدمر.

في القرن الحادي والعشرين، الذي يرى أحد أهم المشتغلين بعلم الاجتماع (آلان تورين) أنه أي القرن الحادي والعشرين هو قرن الثقافة، فقد أخذ هذا المفهوم عودة غير مسبوقة إلى الساحة الفكرية المعاصرة لدرجة أنه أخذ يحتل مكانة مركزية تذكرنا بالمكانة الفائقة التي احتلها مفهوم الاقتصاد في دراسة العولمة ونشوء النظام العالمي الجديد في تسعينيات القرن المنصرم، وحسب ما قاله الدكتور رشيد الحاج صالح في عالم الفكر الكويتية العدد الأخير وتحت عنوان: العودة من المجتمع إلى الفرد، المقولات الثقافية لفهم عالم ما بعد الحداثة عند آلان تورين، وطبعاً استشهاداً به، أي لتورين: يضيف صالح قائلاً: ونقلاً عن تورين: إنَّ أصحاب النقد الثقافي يعزون هذه العودة إلى التفكير ما بعد الحداثي في مشكلات العالم والحضارات المعاصرة تبين أن أصل تلك المشكلات يعود إلى الاختلافات الثقافية بين الجماعات الأمر الذي أدى إلى ظهور كثير من الصراعات الثقافية، كما تبين لهم أن المقولات الاقتصادية كثيراً ما فشلت في تفسير المشكلات المعاصرة وفهمها لأن الإنسان كما اتضح لهم كائن ثقافي بالدرجة الأولى، وليس كائناً اقتصادياً، وأن الحقوق الثقافية أهم بكثير من الحقوق الاقتصادية.

عودة مضللة:

نعم إن مفهوم الثقافة والمثقف الذي استهلك من النقاش عبر التاريخ منذ أن كان ما لم يستهلكه أي مفهوم آخر، يعود بقوة ليجدد أدواته ويشحذ معانيه من جديد، وليكون بالوقت نفسه وبشكل غير مباشر أداة من أدوات السطو والهيمنة وتفكيك الأمم والدول وإعادتها إلى الفردية التي لا يمكن ضبطها أو السيطرة عليها، حتى غريزة القطيع قد تكون صعبة فيها، وهذا على ما يبدو عمل عليه آلان تورين صاحب كتاب: براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، إذ يقول تورين: لم يكتف تيار النقد الثقافي الجديد بطرد المقولات الاقتصادية بوصفها مقولات غير قادرة على تفسير مشكلات عالم ما بعد الحداثة، بل طرد المجتمع لمصلحة الفرد، فقد تبين لأعلام هذا التيار أن النزعة الاجتماعية المفرطة أو التحليل الاجتماعي الذي يعطي الأولوية للمجتمع أو مؤسساته جعل من الفرد كائناً

تابعاً للمجتمع ومعاييره، ومدافعاً عن الأمة أو القوميــة أو الهوية، قــد تسبب بنسيان الفرد وتشيئه، بل وتحوله إلى مجرد سلعة تباع وتشترى في عصر العولمة المتوحشة، وعلى هذا الأساس فــإن التحليل الثقافي يسعــى إلى إعــادة الفردية علــى حساب الانتماءات القومية والدينية والاختلاف علــى حســاب الاندمــاج، والمثقــف الفاعل على حســاب المثقف الأدائي، وكذلــك عودة التواصــل الثقافي على حساب صراعات الثقافات، والاعتراف بالاختــلاف علــى حســاب المساواة، وهذا يتطلب إصــلاح الحداثة والعلوم الاجتماعيــة والمؤسســات التعليمية واستبــدال المقــولات السياسيــة والاجتماعيــة والاقتصاديــة بمقولات ثقافية وصــوغ تصورات هــي الأقدر على فهــم وتفسير ما يحدث اليوم في العالم المعاصر.

وخلاصــة توريــن المشبوهــة، العالم المعاصر أخذ يضيــق ذرعا بالاختلافات الثقافية وإن الفرد وجــد نفسه بعد أكثر من قرنيــن مــن الحداثة مغتربــاً داخل مجتمعه ومهيمنــاً عليه من قبل الأحزاب والأمــم والقوميــات والهويــات والأديان وكل المؤسســات الاجتماعيــة فضلاً عن المصالــح الاقتصادية العابــرة للقارات، ولم يحقق الفــرد فرديته، والخلاصة: إنَّ الثقافة هي التي تصــوغ وعينا بالسياسة والاقتصــاد والاجتماع وإنهــا تلعب دوراً مهماً في التطورات الاجتماعية والسياسية وكذلك في تطوير وتنمية هوية الفرد.

التيه..!

مــاذا لــو أنَّ تورين قــام بدراسة حال المجتمع العربي وحــال ثقافاته ومثقفيه؟ ألــم يكن أراح نفسه من عنــاء الدعوة إلى الفردية ولربمــا غير آراءه كلهــا، أمام ما كان سيجده من عالــم الفردية والفرد في مجتمعاتنــا وإلى أين ستقود، وربما لم يكن ليجرؤ على طــرح مفهوم المثقف الأدائي، مقابــل المثقف الفاعــل، أو العضوي كما طرحه غرامشــي، فالواقع غيــر التنظير الفكري والمعرفي، وعلــم الاجتماع الذي يدرس في الغرب الوقائع ويحلل ويستشرف سيبدو عاجزاً أمام مجتمعاتنا، لأنَّ الفردية الصارخة تتجلى فينا بأشنع وأبشع صورها، لا، بــل تصل إلى حد الفصــام، ولا يمكن الخجــل من القــول: إن أي فــرد فينا هو مجموعــة أفراد متناقضين تماماً، لا هوية معروفــة تارة هو في المدرسة وتارة أخرى في المسجد أو السوق، وفي كل مكان يحمل

تناقضاته النافرة المنفرة، لا الجدلية العملية، ويتجلى ذلك عدواناً ورفضاً للآخر، لا سلوكاً معرفياً ولا تنويرياً، حتى لتخال أننا في غابة وحوش لا قرار لها.

أخفقت ثقافتنا ومناهجنا التربوية والتعليمية، وحتى إبداعنا ومفكرينا وتاهوا في سراديب ما ينتجه الغرب، فالكثيرون منهم مجرد رجع صدى، لا صوت ولاهمس، فقط ببغاوات تردد ما يملى عليها، فكان الإخفاق على الصعيدين، صعيد المثقف العضوي الفاعل، المؤثر (يفترض هكذا) والمثقف الأدائي، الذي يعني صاحب التخصص الدقيق والعالي بأي نوع من المعارف، لكنه غير فاعل في مجتمعه، من حيث الرأي والقيادة، هذا المشهد المأساوي نراه في الجامعات التي كانت منابر فكرية.

إذ كان بإمكانك قبل عقود من الزمن أنْ تعدد عشرات الأسماء لأساتذة جامعيين هم أعلام في الرأي والفكر، سواء كانوا مختصين بالعلوم النظرية أم التطبيقية، الآن هل أنت قادر على أن تشير إلى ثلاثة أسماء لأساتذة جامعيين ينتجون فكراً ومعرفة، ولهم تأثيرهم الفكري في المجتمع؟

والسؤال المر: ما فائدة طبيب عالي التخصص يجري عملاً جراحياً ناجحاً لقلب، ومن ثم ينخرط وراء الفكر الإرهابي ويقوده العرعور ليقتل آلاف الأرواح ويملأ قلوباً أخرى بالحقد والموت؟

وما فائدة أستاذ جامعي سوربوني يعيش الطائفية المقيتة، وعالم آخر يكتشف فجأة هويته الطائفية؟ ما نفع هذا الركام من الشهادات الجامعية العليا، آلاف شهادات الماجستير والدكتوراه من كلياتنا ولكلياتنا لم تحسن أن تغيِّر من واقعنا شيئاً، لا بل إنَّ بعض أصحابها كانوا أكثر جهلاً من رعاة في البادية.

هل من طالب جامعي الآن يعنى بالفكر والندوات، وقد تحولت جامعاتنا إلى مدارس خاصة، ساد الآني الزائف محل الحقيقي، الصورة الزائفة هي التي توجه وتحدد، وعقم حقيقي في تربيتنا ومناهجنا، أدى إلى الجمود والانحطاط الذي نعيشه، والحرب العدوانية على سورية وجدت منافذها من بواباتنا وأسوارنا على الرغم من علوها تحتاج إلى المزيد لأننا أمام عدو يعرف كيف تقتحم المنافذ والأبواب، ويخطط لكسر جدران الصد وقد نجح في الكثير مما خطط له، ونحن مازلنا نتغنى بالحجر، نتغنى ببناء الإنسان ولا نفعل شيئاً، إنه عجز مزدوج عجز مثقفين وثقافة، عجز في البنية التي يجب أن تدرس جيداً وتوضع ملامح جديدة تؤصل الحقيقي وتطرد الزائف.

ملامح من الثقافة العربية

إنَّ نظرة سريعة لواقع الثقافة العربية تشي أنها ليست بخير أبداً، ما ينطبق على الثقافة هو تحصيل حاصل ينسحب على حال المثقفين، وهنا يمكن أن نشير إلى دراسات كثيرة تناولت واقع الثقافة والمثقفين، ولكن ذلك كان من عقود، وما أحوجنا الآن إلى دراسة جديدة تقرأ بعين ناقدة كل ما جرى ويجري، تبين وتحلل وترسم ملامح الثقافة التي يجب أن ننتجها كعرب، من الدراسات الهامة التي يجب الإشارة إليها ما قدمه المرحوم الدكتور عبد الله عبد الدائم، في كتابه الهام: العرب والعالم وحوار الحضارات، وقد توقف عند التحديات التي تواجه الثقافة العربية، وقد قسم التحديات إلى قسمين الأول ذاتي وأشار إلى ست ملاحظات.

١- الثقافة العربية الإسلامية لم تنجح حتى اليوم في صنع حداثتها، لعدم إدراكها الواضح للفرق بين التغريب والتحديث.

٢- الثقافة العربية عريقة، ولكن غالباً ما يكون ذلك عبئاً ثقيلاً معرقلاً للتجديد والتجويد والتحديث ذلك إذا لم يحدث التجديد فإنّ الاندثار مصيرها.

٣- ذات نزعة ماضوية، نعيش ثقافة الماضي.

٤- المشاركة الجماهيرية في بناء الثقافة محدودة.

٥- محاولات تجديد الثقافة العربية الإسلامية، لم تتم من داخلها، بل تتم غالباً من خلال الاصطدام بثقافة الغرب.

٦- التخطيط للثقافة العربية، لا يتم من الحاضر ومن داخلها، بل من خطط ونماذج جاهزة.

أمَّا التحديات الخارجية التي يشير إليها فهي ذاتها التحديات التي يواجهها العرب في مختلف جوانب حياتهم، وهي تحديات حضارية ومعرفية وإنسانية.

عود على بدء

ثمة مرارة لا تفارقنا، ونحن نقف على مفترق الطرق في هذا العالم المحتفي بإنجازاته الثقافية والمعرفية، مرارة الانكفاء والانحسار ليس الأمر أبداً ببعيد، فالمفكرون العرب هم أحد أسباب اليقظة العربية التي خلصتنا من نير المستعمر العثماني، والمفكرون والمثقفون العرب أحيوا اللغة العربية وأعادوا إليها رونقها وصفاءها وخلصوها من كل ما علق بها من شوائب، وجعلوها لغة العلم والمعرفة، وقدموا نتاجاً علمياً ومعرفياً، وأدبياً حقيقياً، كانت رسالتهم تنويرية بكل

ماللكلمة من معنى، حتى وهم خارج حدود الوطن وفي المهجر القصي، دفعوا الأثمان باهظة وما تراجعوا، ويكاد المرء يقر بكل ثقة أنهم المرحلة الأكثر نضارة وجمالاً في تاريخنا المعاصر، من حيث القدرة على الفعل والمتابعة، إنه لأمر محزن أن نكون ونحن في القرن الحادي والعشرين أمام نكوص حقيقي للثقافة والمثقفين العرب، عودة إلى الكهوف والمغاور ودهاليز التاريخ ومماحكات لا طائل منها.

ثقافتنا العربية حال مثقفينا، في واد غير ذي زرع، نبدو معلقين بماض لا نريد أن نفارقه، نرفض الحياة وثقافتها وننحدر نحو ثقافة أنتجها من هم في المقابر أخذوا أدوارهم ورحلوا، ربما كانوا في أيامهم من الأهمية بمكان وكانت ثقافتهم صالحة لزمانهم، لكنها الآن تبدو باردة سقيمة ميتة مهيضة الجناح، ومع ذلك يصر بعضهم على أن تبقى هي الحكم والمرجع، لا يغادرها أبداً، بل يريد أن يفصل زماننا على مقياسها.

ثقافة ماضوية في جلها، والحداثية منها، لا تعرف بعداً ولا عمقاً أبداً تسعى وراء الزائف، الصورة السريعة والإيقاع غير المستقر وغير المتجذر، تأخذ من كل جهة نتفاً لتبدو شوهاء، ساهمت وسائل الإعلام في تزييفها وضياعها، والنتاج الثقافي غير حقيقي، على الرغم من الركام في إصدار الكتب والمجلات، فالأصالة بعيدة كل البعد عن الدراسات والأبحاث الحقيقية، وإلا كيف نفسر عجز هذه الثقافة والمثقفين عن تقدير وقراءة الخطوط العريضة لما حل بالوطن العربي من ثورات خراب وتدمير؟

ثقافة يسعى جلُّ صناعها نحو المال الخليجي الذي أفسد الثقافة وجعلها سلعة تباع وتشرى، أفسدتها جوائز قيمتها ملايين الدولارات تُمنَح وصحف نشرها حسب الأكثر التزاماً بما تحدده من مهاجمة هذا البلد أو ذاك.

هي ثقافة منغلقة على ذاتها، فالحدود الرقابية والسياسية تفعل فعلها، وإن حدث وتفاعلت فثمة رفض للجدي منها، إذ تبدو صفة التعصب والانغلاق ملازمة للكثير من الثقافات التي تنتج، فلا تكاد تهدأ معركة تجعلك تسأل: أحقاً هؤلاء مثقفون؟

الثقافة العربية، تبدو الآن في مرحلة عجز حقيقي، بالمحصلة هي صورة للعجز التربوي والمعرفي، والسياسي. وعجز المجتمعات العربية عن اللحاق بركب الحضارة، واستثمار قدراتها بمختلف المجالات، لم يعد ثقافة حرية واستقلال

كما كان في مطلع القــرن العشرين، بل هو الحنيـن إلى القرن ووصايتـه مهما كان الثمن، لـم نعد نسمع مثقفـاً عربياً يقول: نحن عرب قبل أي صبغة دينية أو سياسية، ولـم نسمع من يتحدث عن ضرورة النهوض الوطني والقومي، بل انكفأ الخطاب الفكري ليتحول إلى حديث أقليات وإثنيات، وتقسم حتى المقسم، وكأننا فـي متاهات جاهلية بل أشـد جهالة، ثقافة لا تعرف كيف تحول القول إلى فعل، ابتعدت عن الواقع والحياة لتصبح تابعة لأي شيء إلا المجتمعات التي نشـأت فيها، دروب التنويـر أغلقت تماماً، وثمـة سؤال يخطر فـي البال: ما فائدة كل الركام المعرفي من صحف ومجلات وكتب وموسوعات وآلاف شهـادات الدكتوراه من السوربـون وغيرها ونحـن نعيش القهقرى ولا نعرف دروب الغد ألا يمكن الإيجاز والقول إنها ثقافة تائهة في مجتمعات حائرة؟

المراجع

١- الثقافات،كليفورد غيرتز، ترجمة دكتور محمد بدوي، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، بيروت (٢٠٠٩م).
٢- الثقافة التفسير الأنثروبولوجي، آدم كوبر، ترجمة صباح صديق الدملوج، بيروت المنظمة العربية للترجمة، (٢٠١٢م).
٣- براديغما جديدة لفهم عالم اليوم، آلان تورين، ترجمة جورج سليمان، بيروت، المنظمة العربية للترجمة (٢٠١١)م.
٤- الدراسـات الثقافيـة مقدمة نقدية، سايمون ديورنغ، ترجمة ممدوح يوسـف عمران، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٥، (٢٠١٥م).
٥- تكنولوجيا السلوك الإنساني، ب ف سكينر، ترجمة عبد القادر يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٢، (١٩٨٠م).
٦- العرب والعالم وحوار الحضارات، عبد الله عبد الدائم، دمشق دار طلاس (٢٠٠٢م).

مشاهد تراثية بين الانفتاح والظلمة ابن قتيبة أنموذجاً

د.ماجدة حمود *



تعايش لدى ابن قتيبة مشاهد وهبت حياتنا إشراقة الحضارة، وأخرى جللتها ظلمة الهمجية!! لهذا فإن إعادة قراءة التراث، تتيح لنا كشف ذواتنا وفهمها على حقيقتها عبر لقائها بالآخر، فتتبين تألقها حين انفتحت عليه، ومدى بؤسها حين انغلقت في جدران ظلمتها!

* ناقدة وأستاذة في الأدب المقارن في جامعة دمشق.

وبذلــك تنبع النظــرة للآخر من أعماق الــذات، فتصبح الصورة التــي نشكلها عنه مرآة تعكــس رؤيتنا لأنفسنــا، فحين ننظر بعين القداسة لذواتنا، وننزهها عن الخطأ نبدأ عملية تشويه الآخر من دون وعي منا، فنعلي شــأن الذات على حسابه، ونمعن في إظهار سلبياتــه، فيطغى صوت الذات على الأصوات الأخرى، عندئذ يحل التوتر محل التواصل الإنساني، وينتفــي مبدأ التعارف الذي نادى بــه الإسلام **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾**(١).

إنَّ حكمة خلق الله بشراً متنوعين تتجلى في روعة لقائهم وتواصلهم، وبذلك يضفي التنوع جمالاً على العلاقات الإنسانية وغنى لها، خاصة حين يؤسسها التقوى، التي من معانيهــا خشية الله والسعي لمرضاته عبر ممارسة القيم التي دعا القلوب لتؤمن بها، ومن هذه القيم (مبدأ العدل) الذي يتجسد عمليــاً عبــر مســاواة الآخر مــع الذات، والابتعاد عن الظلم، فــلا يتمّ إلغاء الآخر أو تشويهه!

تطمح هــذه الدراسة إلــى فهم الذات ونقدهــا عبــر تعاملهــا مــع الآخــر، كي نستطيــع كشف مــدى تشوههــا وتعصبها، ومــدى محاربتها لهذا التشــوه انطلاقاً من المبــادئ الإنسانية التي دعا إليها الإسلام! لهذا سنحــاول الإجابة على هــذا السؤال: **هـل اتسعت آفـاق المسلمين وطبقـوا مبدأ التعارف الإسلامي؟ وتخلصوا من التعاليم القبلية المتعصبة؟**

وقــد اخترنا للإجابة عن هــذا السؤال كتاب ابن قتيبــة (المتوفى ٢٧٦ هـ) «عيون الأخبار» الذي قدّم لنا (عبر أربعة مجلدات) صــوراً متنوعة وصادقة لعصــره، ولعصور سابقة وعتهــا ذاكرته، التي يمكن أن نعدّها امتــداداً لذاكرة أمــة، فتجسدت لنا ملامح شخصيتهــا، مما أتاح لنــا فرصة معايشتها في لحظات انفتاحها ولحظات نكوصها!

ويمكــن المرء أنّ يلاحــظ أنَّ الآخر قد شكل حافــزاً لتأليف هذا الكتاب، فقد أراد ابن قتيبة أن يكمل دور الجاحظ في الدفاع عن العرب والرد علــى الشعوبية، على حد رأي الناقد إحسان عباس!

ولما كان أكثر الشعوبيين من الكتاب، فقــد حاول ابن قتيبة أن يؤلف لهم كتباً، منها «الشعر والشعــراء» «أدب الكاتب» و«عيون الأخبار» و«المعــارف»(٢) يقرّب إليهــم المعرفة ويسهّل عليهــم تناولها، ويجنبهــم صعوبة الكتــب المتخصصة، فجمــع فيها شيئــاً من حكمــة الفرس

والعرب، فذلك أدعى إلى تآلفهم، وأقوى أثراً في صرف المثقفين الشعوبيين عن الكتب الفارسية الخالصة، لعله بذلك يجعل المعرفة أساس الحوار مع الآخر والتقارب معه!

أثر الإيمان في التعامل مع الآخر:

إنَّ المتأمل في نصوص التراث يلاحظ صراعاً مسكوتاً عنه بين قيم الإسلام السمحة، وبين قيم القبيلة المتعصبة للنسب، إذ تأبى قيم الإيمان تقييم الإنسان بنسبه وعرقه أو جنسه أو بما يملك من مال أو سلطة، وبذلك تتجسد أمامنا معاني الآية الكريمة ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ فحين يمتلئ قلب الإنسان بالإيمان يستطيع أن ينبذ التعصب والكراهية، ويمارس في حياته انفتاحاً على الآخر، عندئذ يحلّق في آفاق الموضوعية التي تسمح له أن ينصف ذاته والآخر معاً!

لعل الزواج أبرز جانب يظهر فيه توتر العلاقة الاجتماعية (بين الأنا والآخر) لهذا يمكننا أن نعدّه مقياساً يجسد مدى حساسية العرب في قبول الآخر، واختباراً يجسّد مدى تعاملهم معه على أساس الندية الإنسانية، التي تجسد امتثالاً لمبدأ التقى الذي دعا إليه الإسلام!

وقد وجدنا في «عيون الأخبار» أن بعض المسلمين لم يستطيعوا تطبيق مبدأ التكافؤ الديني والأخلاقي في الزواج بل سعوا إلى التكافؤ العرقي، لهذا وجدنا سلمان الفارسي حين يخطب ابنة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوافق على تزويجه، لكن ذلك يشقّ على ابنه (عبد الله بن عمر) فيشكو ذلك إلى عمرو بن العاص، فقال (**أنا أردّه عنك راضياً، فأتى سلمان فضرب بين كتفيه بيده، ثم قال: هنيئاً لك أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع بتزويجك، فالتفت إليه مغضباً، وقال، أبي يتواضع؟! والله لاأتزوجها أبداً**).[٣]

تلفت نظرنا صفة التواضع التي ألحقها عمرو بن العاص، الذي عرف بأنه من دهاة العرب، بقبول الخليفة تزويج ابنته من فارسي! فكأنه يرسل رسالة للآخر توحي بأن العربي يقدم تنازلاً عرقياً بقبوله مثل هذا الزواج، عندئذ أحس سلمان الفارسي بأن كرامته قد مسّت، فرفض هذا الزواج، ليعيد الاعتبار لمكانته التي حققها له الإسلام!

نلاحظ هنا أننا لا نستطيع أن نربط المرونة في التعامل مع الآخر بالأجيال الشابة دائماً، كما قد يتبادر إلى الذهن، فالأب (الخليفة) أكثر مرونة في التعامل مع

الآخر من الابــن، وبالتالي يمكننا أن نقول: إنه أكثر تجسيــداً لروح الإسلام، فالمشكلة لا تتعلــق بالأجيال هنا، وإنمــا هي مشكلة إيمــان يتغلغل فــي القلب، فيتجلــى سلوكاً منفتحــاً علــى الآخر! وهكذا يبــدو لنا أن تجسيد الإيمان في الحياة العملية من أكبر التحديات التي تواجه البشر!

وفــي مشهــد آخــر تتــوارى هــذه الحساسيــة العرقيــة، فنعايشــ انفتــاح الشخصية المؤمنة التي تلغي كل الفوارق، فقد خطب بــلال الحبشــي لأخيه امرأة من بني حسل من قريشــ، فوجدناه يعتز بنسبــه الجديد للإسلام، الذي رفعه حتى رأى نفسه نداً لأعــرق نسب عربي «**نحن مــن قد عرفتــم، كنا عبديــن فأعتقنا الله، وكنــا ضالين فهدانــا الله، فقيرين فأغنانا الله، وأنــا أخطــب لأخي خالــد فلانة، فإن تُنْكحــوه فالحمد لله، وإن تردوه فالله أكبر، فأقبل بعضهم على بعض فقالوا هو بلال، وليــس مثله من يدفع، فزوّجوا أخاه، فلما انصرفــا قــال خالد لبــلال: يغفر الله لك! ألا ذكــرت سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله (صلــى الله عليه وسلم) قــال: مه! صدقت فأنكحك الصدق**».[٤]

استطاعــت قيم الإسلام أن تقضي على أي إحساس بالمهانة، لدى بلال الحبشي، إذ محت عزة الإيمان كل الصفات السلبية التي يعلي من شأنهــا المجتمع القبلي عادة، فلم يعد عبداً فقيراً ضالاً! وقد أكسبته هذه العزة ثقة بالنفس، جعلته يصرِّح بما كان عليه في الجاهلية (ذل العبودية، وقهر الفقر، وبؤس الضلالــة) دون أن يحس بالضعة، بل غمره الإيمان بشعور الندية، لهذا تجرأ وطلب أن يناسب أعرق قبيلة عربية (قريش).

يلاحظ هنا أن (بلال) كان يتوقع الرفض والاستعلاء عليه، لهذا قــال لهم (إن تردوه فــالله أكبــر) كأنه يلمــح إلى أنهــم بذلك يرفضــون قيمة أعلى مــن كل قيم القبيلة، هي الإيمان بالله، التي تختزل قيم الإسلام ومثلــه العليا، خاصة تلك التي تجعل الناس سواسيــة كأسنان المشــط لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقــوى! لهذا إن رفضوا مصاهرتــه استعلاء، فــإن الله أكبر منهم، عنده تعرف المكانة الحقيقية للبشر.

الملاحظ أن (بــلال) رفض أن يتباهى بماضيه الكفاحي في الإسلام، إذ وقف إلى جانب الرسول (صلــى الله عليه وسلم) في مواجهــة الكافرين، رأينــاه يتباهى بما هو أهــم بإيمانــه بقيم الديــن الإسلامي التي قضت على أي شعور بالعبودية للبشر، فبات يحس المرء بالأخــوة الإنسانية التي توحِّد الناس جميعاً!

إذن نستطيع أن نعايش هنا روعة الإيمان الذي يهب الإنسان ثقة بالنفس، تجعله قوياً يذكر ماضيه، الذي قد يراه الآخرون معيباً، دون وجل (عبد، ضال، فقير) ولا يذكر ماضيه الذي هو مصدر فخر له (كفاحه مع الرسول صلى الله عليه وسلم) فلم يعد يهتم بإعلاء شأنه، إذ تجاوز بفضل الإسلام عقد نقصه! فقد رفعه الإيمان إلى منزلة تجعله نداً لأعرق نسب عربي، لهذا وافقت قريش على تزويجه إيماناً بقيم الإسلام، واحتراماً لدور بلال في نشر الدين الجديد، خاصة أنه لم يتباهَ بهذا الدور.

وهكذا بدا لنا تطبيق قيم الإسلام السمحة في قضية التزاوج بين مدّ المنفتحين وجزر المتعصبين، أي بين من كان إيمانهم أقوى من عصبيتهم، وبين من كانت عصبيتهم أقوى، في حين وجدنا علاقة الجوار مع الآخر في المشاهد التي وثقها ابن قتيبة محكومة بقيم الإسلام السمحة، فكان التعامل مع الآخر في الحياة اليومية يتم بعيداً عن عقيدته، وبذلك تجسدت لنا قيم الانفتاح بأجلى صورها، فتمّ احترام إنسانية الإنسان بغض النظر عن معتقده! **(قال رجل لسعيد بن جبير: المجوسي يوليني خيراً فأشكره، ويسلم علي فأردّ عليه، فقال سعيد: سألت ابن عباس عن نحو هذا، فقال لي: لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه مثله)**.[٥]

هنا نجد الإنسان العادي المخلص لدينه تؤرقه العلاقة مع الآخر المختلف (المجوسي) خاصة أنه يعيش في مكان يجمع بين أعراق مختلفة ومعتقدات متنوعة، لهذا يلجأ إلى رجل الدين (سعيد بن جبير) ليفتيه في شؤون حياته اليومية، ويرشده إلى الطريق القويم، فيذكر له الفقيه حديثاً يسنده إلى (ابن عباس رضي الله عنه) وهو ابن عم النبي (صلى الله عليه وسلم) الذي يبين له أن مبدأ المعاملة بالمثل هو دليل المسلم في علاقاته مع الجوار! وزاد الأمر وضوحاً حين أورد مثالاً (بصيغة المتكلم) ليرسخ وجهة نظره بمثل حي يجعل من نفسه بطلاً له، إذ لو عامله فرعون (وهو أحد رموز الكفر) بالحسنى لرد عليه بالمثل، وبذلك يتمّ تعزيز قيم التواصل والمحبة مع الآخر بغض النظر عن إيمانه بدين الإسلام أو عدمه! والملاحظ أن هذه الفتوى أتت على لسان أحد أقرباء الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي لازمه، وتعلم على يديه حتى لقبه بـ(حبر الأمة) وبذلك يؤسس ابن قتيبة لثقافة الانفتاح على لسان أحد المجسدين لروح الإسلام وفقهه.

التعصب وتشويه الذات والآخر:

عايشنا في كتاب «عيون الأخبار» مشاهد تكرّس الانفتاح على الآخر، وفي الوقت نفسه عايشنا مشاهد تشوّه العلاقات الإنسانية لكونها تقوم على التعصب، الذي قد يصل حداً يثير الرعب، فيتمّ تجريد الإنسان من إنسانيته، حين يدور حول ذاته مقدساً لها ومحتقراً كل من يخالفه الرأي أو الجنس أو العرق!! وبذلك ينغلق على ذاته مستبعداً أي إحساس بالآخر، مما يؤدي إلى قتل نوازع الخير في النفس البشرية، فتصبح الحياة أشبه بغابة من الوحوش، يأكل فيها القوي الضعيف.

لعل أشد أنواع التعصب التي يعاني منها العرب إلى اليوم هو التعصب القبلي، الذي نلاحظ اختلاطه بالتعصب المذهبي، لذلك لم نجد تطبيقاً عملياً لحديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) «اختلاف أمتي رحمة» بل كثيراً ما بدا الاقتتال السياسي في التاريخ الإسلامي مؤسساً على تعصب قبلي، لهذا كانت بعض القبائل هواها مع الإمام (علي كرّم الله وجهه) مثل تغلب وبعض القبائل هواها مع الأمويين مثل القيسية!!

يقدم لنا كتاب «عيون الأخبار» مشهداً مفزعاً لتعصب الإنسان ضد أخيه، فقد أخبر رجل من الأزد أنه كان مع (**أسد بن عبد الله بخراسان، فبينا نسير معه، وقد مرّ نهر، فجاء بأمر عظيم لا يوصف، وإذا برجل يضربه الموج وهو ينادي: الغريق الغريق! فوقف أسد وقال: هل من سابح؟ فقلت نعم، فقال ويحك الحق الرجل! فوثبت عن فرسي، وألقيت عني ثيابي، ثم رميت بنفسي في الماء، فمازلت أسبح حتى إذا كنت قريباً منه، قلت: ممن الرجل؟ قال: من تميم، قلت امضِ راشداً، فوالله ما تأخرت عنه ذراعاً حتى غرق!!!، فقال ابن عياش، فقلت له: ويحك أما اتقيت الله غرّقت رجلاً مسلماً!! فقال: والله لو كان معي لبنة لضربت بها رأسه**).[٦]

حدث هذا المشهد بعيداً عن الأرض العربية (خراسان) حيث من المفترض أن الغريب للغريب نسيب، خاصة حين يكون الغرباء أبناء ثقافة واحدة! لكن الثقافة الواحدة لم تكن شفيعاً للغريب، بل كانت نقمة بسبب التعصب القبلي، الذي بدا أقوى من أي إحساس بالغربة، بل لعله أقوى من أية ثقافة، المفزع في هذا كله أنه أبعد أي حس إنساني!!!

إننا لا ننفي هذا الحس لدى الأزدي، لأن نية الإنقاذ موجودة لديه (هبط عن الفرس، وخلع ثيابه، ثم ألقى نفسه في النهر لينجد الغريق) لكن المأساة في أن النجدة كانت

مشروطة بقيم التعصب، لذلك سأل الغريق، قبل أن يمدّ يده لينقذه، عن انتمائه القبلي، وحين اكتشف أنه من قبيلة معادية (تميمي) رفض إنقاذه!

نلمس في هذا المشهد صراعاً بين وجهتي نظر (القبلية) و(الدينية) فمثل هذا التصرف غير الإنساني يلقى نقداً واستنكاراً من رجل متدين، لذلك يخاطبه بلغة دينية (أما اتقيت الله قتلت مسلماً) إذ خالف الأزدي مبدأً إسلامياً أكد عليه القرآن ﴿**مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾(٧).

لا يجدي الحوار مع ذلك المتعصب، لأنه يعيش قيماً تربّى عليها منذ طفولته، يكاد يكون من المستحيل تغييرها، لهذا حين يتم تذكير الأزدي بانتهاكه لقيم الدين، يبدو غير مبالٍ، بل يجيب إجابة تدل على تمكن التعصب من روحه (والله لو كان معي لبنة لضربت بها رأسه) فهو لم يكتفِ برفضه إنقاذ المخالف له في الانتماء القبلي، بل هو على استعداد لضربه لو كان يملك ما يسعفه من أدوات!!! فالتعصب هنا يؤدي إلى مواقف في غاية البشاعة، إذ تتنافى مع القيم التي أجمعت عليها الإنسانية، ويحوّل الإنسان إلى وحش يترك المختلف عنه يغرق، بل يتمنى لو يعاجله بالضرب، كي يسرع في موته، بدل أن يفكر بإنقاذه!!!

تزداد صورة التعصب القبلي بشاعة، حين تصل إلى أقرب الناس، حتى يبدو التعصب أقوى من روابط الدم التي لايستطيع المرء تجاهلها عادة، فقد لاحظنا في مشهد آخر (**رجلاً من الأزد كان يطوف بالبيت، وجعل يدعو لأبيه، فقيل له: ألا تدعو لأمك؟ فقال: إنّها تميمية!!**) وبذلك يصل التعصب إلى ذروته، حين يتنكر الابن لروابط الدم، فيصل به الأمر حدّ عقوق أمه التي تنتمي إلى قبيلة تخالف القبيلة التي ينتمي إليها الأب، ومرة أخرى يتغلب التعصب على تعاليم الدين، التي تدعو إلى بر الوالدين، وخاصة الأم.

وقد لاحظنا في «عيون الأخبار» كيف يتحوّل التعصب العرقي لدى العربي إلى تعصب لغوي، فوجدنا وصف من يتحدث غير العربية في بلد عربي بالخسة (**قال الأصمعي... ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا: رجل شممت منه رائحة نبيذ في محفل، أو سمعته يتكلم في مصر عربي بالفارسية، أو رأيته في الطريق ينازع في القدر**)(٨).

لكننا نلاحظ أن روح العالم الموضوعي لدى الأصمعي تحدّ من جموح هذا التعصب،

إذ وجدناه يقيّد صفة الدناءة بعدم معرفة الشخص، أي أنه يؤكد ضرورة عدم التسرع وإطلاق هذا الحكم الخطير على عواهنه! لهذا قال «**ثلاثة تحكم عليهم بالدناءة حتى يعرفوا**» فيذكر استثناء يتفق والمنطق، فقد يكون الشخص لا يعرف العربية، فهل من الموضوعية أن نحكم عليه بالدناءة لكونه يتحدث لغة لا يعرف سواها!؟ كما يبين أهمية المعاشرة اليومية، فهي الحكم على رفعة الإنسان أو خسته!!

إنَّ التعصب مرفوض بأشكاله كافة، لكن عالم اللغة (الأصمعي) بدا متحمساً للعربية، لكونها ترتبط بالمقدس الديني (لغة القرآن الكريم) لذلك استمدت قداستها منه، حتى أصبحت خدمة المقدس اللغوي دافعاً لإيجاد كثير من العلوم في الحضارة الإسلامية!

قد نلتمس العذر للأصمعي الذي وهب حياته لخدمة اللغة العربية، لكننا لن نجد عذراً لأولئك المتعصبين عرقياً، الذين نأوا عن روح الإسلام الذي يربي الإنسان على مبدأ المساواة فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، لهذا نستغرب ماجاء في «عيون الأخبار» بأن الزنج (**شرار الخلق وأردؤهم تركيباً، لأن بلادهم سخنت فأحرقتهم الأرحام..**)[٩].

يبدو التعصب ضد الزنج من ناحية اللون (أردأ الناس تركيباً) وقد انسحب على أخلاقهم (فهم أكثر الناس شراً) وبذلك استشرى التعصب وبلغ أذاه شكل الإنسان وباطنه!

رغم هذه الصفات السيئة التي لازمت صورتهم من الناحية الشكلية والأخلاقية، إلا أن ذلك لم يعمِ بصيرة العربي عن الحق، فلم يلحق بهم كل الصفات السلبية، إذ يذكر صفة إيجابية للزنج وهي أنهم «**أطيب الأمم أفواها... وإن لم تستن (تستخدم السواك)...**».

وقد أثبت الطب الحديث اليوم صحة هذه الرؤية، إذ يبدو أن العرق الذي ينتمي إليه الزنوج يجعل أسنانهم تقاوم النخر والتسوس، وكذلك تقاوم لثتهم الالتهاب، يضاف إلى ذلك طبيعة نظامهم الغذائي الذي يبتعد عن السكر الاصطناعي، لهذا تحافظ أفواههم على طيب الرائحة! وبذلك لم يشوّه التعصب الصورة بشكل مطلق، فهم أردأ الخلق، لكنهم أطيب الأمم أفواها!!! وهكذا خففت الرؤية الموضوعية للآخر من غلواء التعصب!

نعتقد أن بعض الناس وخاصة ذوي النفوس الحساسة كالأدباء والمفكرين فطرت على المحبة والعدل ورفض

الأنانيــة، لذلك نجدهم أقــدر على تمثل قيــم الدين السمحــة، وبالتالي أقدر على الرؤية الموضوعيــة، التي تقاوم التعصب وما يجــرّه من أحقــاد ونزعــات أنانية، وبذلك تقاوم تنزيــه الذات والانغلاق في أسوارهــا، وترفض البحث عمــا يمتّعها بعيداً عن مشاعر الآخر واحتياجاته، لذلك يمكننا القول بأن من يمتلك نفساً تنأى به عن الأنانية يكون قــادراً على بناء علاقة مشرقة مع الآخر (المختلف سواء بالجنس أم بالعرق أم بالدين...) ولعل الأدباء أقدر الناس على تجسيد هذا الرفض وتأسيس روح إنسانية منفتحة، لهذا سمعنا الشاعر العربــي في «عيون الأخبار» ينتقد ظاهرة الأنانية قائلا:

وكلّهم قد نال شبعا لبطنه

وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

إنَّ كلمــة صاحــب تمدّ ظلالهــا لتشمل الصديق ورفيق السفر والسكن، وهؤلاء جميعاً قد لا يشاركون العربي العرق والدين، خاصة إذا أخذنــا بعين الاعتبار اختــلاط الأقوام والأديان في العصر العباسي، وبذلك يؤسس الأديب العظيــم إبداعه على قيــم الانفتاح الإنساني، التي يمكن أن ندعوها بـ«العصبية الإنسانيــة»[10] فهي العصبيــة الوحيدة التي يمكــن أن تقبلها النفــس الحساسة، لكونها تنفتح على الإنسان بعيداً عن ظلمة الانتماءات الضيقة والهويات القاتلة.

الآخر المسيحي:

رسمت للسيــد المسيح (عليه السلام) صــورة رائعة في التــراث الإسلامي، إنها صورة الزاهد في الدنيا الذي يهتم بخلاص روحه، نسمعه يخاطب بني إسرائيل بقوله: (أنا الذي أنزلت الدنيا منزلها، ولا عجب ولا فخــر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا أين...؟ قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجــوع، ودابتــي رجلي، وسراجــي بالليل القمر، وصلائي في الشتاء مشارق الشمس، وطعامي ما تيسر وفاكهتي وريحانتي بقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري الخوف، وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لــي شيء، وأمســي وليس لي شــيء، وأنا طيب النفس غني مكثــر، فمن أغنى مني وأربح؟!)[11].

نلمح هنا رغبة لدى الــراوي المسلم أن يقدم للمتلقــي شخصية الزاهــد الحقيقي (المسيــح) وكــي يجعل كلامه مؤثــراً نجده يجسد لنا سيرة حياة المسيح عبر صيغة الأنا، مما يجعله قريباً من روح المتلقي، خاصة أنه يسرد تفاصيل حياته اليومية (الأكل، الشرب، الملابس، الأصدقاء أو الجلساء...).

تبدو لنا الغاية التعليمية واضحة هنا، فمن أراد طريق الصلاح فعليه أن يسلك طريق الزهد الذي سبقه إليه السيد المسيح، فيبدأ بتنقية نفسه من المفاسد (التكبر والفخر) فلا يلهث وراء متاع الدنيا، همه كل ما يرتقي بروحه (الصلاة، الصوم، الطهارة...) لهذا كانت إقامته في أماكن العبادة، يلفت نظرنا هنا قوله (بيتي المساجد) إذ أسقط الراوي المسلم لغته الدينية على لغة المسيح، فجعل المسجد نيابة عن الكنيسة، مما يؤكد الغاية التعليمية، كأنه يريد أن يبيّن أن بيت الله واحد مهما اختلفت التسمية، وبما أن الخطاب موجه للمسلمين، لهذا أباح الراوي لنفسه تغيير اسم مكان العبادة، لأن الله يسكن في قلب المؤمن بغض النظر عن دينه، أو اسم المكان الذي يتعبد فيه!!

كما يلفت نظرنا توحد المسيح الرائع مع الطبيعة، فكان يلوذ بالشمس ملتمساً الدفء في أحضانها شتاءً، ويستنير بالقمر ليلاً... كأنه بذلك يؤكد أن الإنسان كلما التصق بها ازداد قرباً من الله تعالى!

ينفتح السيد المسيح على الإنسان الضعيف، فنجده يعاشر الفقراء والمرضى، كي يقف إلى جانبهم في محنة الحياة! وبذلك يعلم البشر جميعاً كيف يرتقون بأنفسهم، فلا يلهثون وراء الأقوياء ليفوزوا ببعض المكتسبات، فراحة النفوس بأن تسلك طريق العطاء، وتبتعد عن المطامع والشهوات، عندئذ تعيش أماناً داخلياً وتحس بغنى روحي، كما أحس السيد المسيح (ع) لهذا يعرفنا بحقيقة أنه لا يوجد من هو أغنى منه وأريح، فقد استطاع كبح جماح نفسه وعوّدها الإحساس بالآخر، فعاش حياته سعيداً بفضل عطاء لا يعرف أنانية أو تمييزاً عرقياً أو دينياً.

إنَّ ما ينقص البشر هو تجسيد المثل الأعلى على الأرض، من هنا بدا ذلك حلماً يسعى إليه الإنسان عبر الأنبياء والقديسين، وعبر الفن، وقد حاول ابن قتيبة في «عيون الأخبار» تجسيد هذا المثل عبر شخصية المسيح (عليه السلام) التي ألقت أنوار روحها وسلوكها على الجميع، فمثَّل أمامنا أحد أحلام الإنسانية الكبرى وهي اجتماع المثل العليا التي تجسدها كلمة (الطيبة) بالفاعلية، وقد التحم بالواقع، فبدا السيد المسيح (الطيب الفعّال) منقذاً لأرواحنا بنقائه، كما بدا منقذاً لحياتنا بفعاليته، وهذا ما يحلم به الإنسان في كل زمان ومكان.

وقد أتاح لنا كتاب «عيون الأخبار» معايشة المثل الأعلى عبر السيد المسيح (عليه السلام) في عدَّة مشاهد، تجسد حياته اليومية، فقد (**مرّ بقوم شتموه، فقال: خيراً، ومرّ بآخرين شتموه، فقال: خيراً، فقال رجل من الحواريين: كلما زادوك شراً زدت خيراً، كأنك تغريهم بنفسك! فقال: كل إنسان يعطي مما عنده**)[١٢].

لم نجد السيد (المسيح) يتصرف بصفته إنساناً عادياً، فيردّ على الإساءة بمثلها، لذلك استغرب أحد حواريي السيد المسيح أن يقابل الإساءة بالإحسان، كأنه لايردّ الإساءة بمثلها يشجع الآخرين عليها، لكن للنبي المعلم رأياً مختلفاً، فالمعاملة مع الآخر رسالة تنبئ عن السريرة، فهي محك لما تخبئه الأعماق من جمال أو قبح، إذ كل إناء ينضح بما فيه!

من اللافت للنظر أن السيد المسيح (عليه السلام) قد احتل مكانة مرموقة في الدين الإسلامي! فقد ذكر بالاسم (٢٥) مرة في القرآن الكريم، وهناك سورة باسم أمه (مريم) ولم نجد أية سورة تحمل اسم ابنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) (فاطمة) أو إحدى زوجاته!

مثل هذه المكانة نجد صداها في الكتب التراثية التي أبدعتها الحضارة الإسلامية، فقدمت لنا أروع صورة للمسيح (عليه السلام) وأتباعه الرهبان!

وقد لمسنا في «عيون الأخبار» كثيراً من هذه الصور، ففي مشهد (دير حرملة) يلتقي أحد المسلمين براهب يبكي فيسأله: (**ما يبكيك؟ فقال: يا مسلم أبكي على ما فرطت من عمري، وعلى يوم مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي...**)[١٣].

نستطيع أن نلمح هنا تواصلاً إنسانياً يقوم على المودة والإحساس بآلام الآخر، فقد بدا لنا المسلم العادي متعاطفاً مع رجل الدين المسيحي، يهمه أن يعرف سبب بكائه، كي يخفف عنه، فيكتشف أنه يبكي على ضياع بعض أيام حياته دون أن يتمكن فيها من عمل الخير! أو دون أن يتمكن من تهذيب نفسه والارتقاء بها نحو المثل الأعلى الذي جسّده المسيح (عليه السلام)!!

نلاحظ تكرار الأسئلة التي يوجهها المسلم لرجل الدين المسيحي، مما يشي برغبة المسلم ليس فقط في التواصل مع الآخر بل فهمه أيضاً، والتعلم منه! لهذا وجدنا (زيد الحميري) يستغرب ارتداء السواد لدى الرهبان، فيسأل الراهب (ثوبان) عن معنى لبسهم ذلك الثوب، فيجيب: (هو أشبه بلباس أهل المصائب، فقلت: وكلكم معشر الرهبان قد أصيب بمصيبة؟ فقال:

يرحمك الله وأي مصيبة أعظم من مصائب الذنوب على أهلها! قال زيد: فلا أذكر قوله ذلك إلا أبكاني)[١٤].

تدهشنا حساسية رجل الدين المسيحي للذنوب، حتى ليعدّها مصيبة عظيمة، تعادل وفاة عزيز، لهذا يعلن الحداد الأبدي عليها!! كما تستوقفنا وحدة المشاعر وتفاعل الإنسان مع أخيه الإنسان بغض النظر عن دينه، فالضمير الواحد يتجلى عبر شعور بالذنب يملأ القلب ويشغل البال، لهذا بكى المسلم لبكاء المسيحي، فهما ينتميان إلى فطرة إنسانية واحدة يؤلمها الخطأ ويؤرقها الإثم!

إنَّ الإنسان كلما ازداد حساسية، وامتلك القدرة على محاسبة الذات ازداد قرباً من المثل الأعلى الذي جسده الأنبياء! فالأسس الدينية التي أتى بها الرسل تكاد تكون واحدة، لهذا لا يمكن أن يفرقنا اختلاف الدين، كما قد يظن بعض المتسرعين، الذين يحكمون على الأمور بظواهرها!

نلاحظ في مشهد آخر كيف أصبح الراهب المسيحي دليلاً يهدي المسلم إلى طريق الصواب، فقد سأل قوم ضلوا طريق السفر راهباً، فقال لهم: (ههنا، وأومأ إلى السماء، فعلموا ما أراد، فقالوا: إنا سائلوك أفتجيبنا أنت؟ قال: سلوا، ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهاد، قالوا: ما الخلق عليه غدا عند مليكهم؟ فقال: على نياتهم، فقالوا: فإلامَ الموئل؟ فقال: إلى المقدَّم، قالوا: أوصنا، قال: تزوّدوا على قدر سفركم، فإن خير الزاد ما بلغ المحلّ، ثم أرشدهم إلى المحجة وانقمع)[١٥].

إنَّ الحديث مع الراهب يهب الأمان الروحي للمسافرين، فيزدادوا رغبةً في معرفة أسرار إيمانه، والتتلمذ على يديه! فكان الدرس الأول الذي قدّمه لهم هو أن يحترموا الزمن أي مادة الحياة، التي تتوقف بموت الإنسان، لهذا أبدى رغبته في عدم إضاعة الوقت في الثرثرة، وطلب منهم الإقلال في طرح الأسئلة! فيسألونه: كيف يسلكون الطريق الصحيح؟ على أي أساس يتمّ حساب الناس عند ربهم؟ وما هو ملاذهم الحقيقي في الدنيا والآخرة؟

نجد الراهب قبل أن يرشد المسافرين إلى طريقهم الذي تاهوا عنه، فينقلهم من عالمهم الدنيوي إلى عالم آخر مخبوء في أعماقهم، لهذا يرشدهم إلى طريق الإيمان والخلاص الروحي، حين يشير إلى السماء أولا، ثم يدلهم على الطريق الصحيح لسفرهم، من هنا بدت لنا اللغة التي يستخدمها الراهب تمزج المجاز بالواقع

المعيشي؛ فيتمّ ربط خلاص الإنسان في دنياه وآخرته بالنية الطيبة والعمل الصالح؛ لهذا كانت وصيته لهم بأن يتزوّدوا في حياتهم، التي هي رحلة نحو الآخرة، بكل ما يمكن له أن يبلغهم السعادة فيها؛

أخيراً يمكننا القول بأن ابن قتيبة جسد لنا انفتاح عصره على الآخر، فلم تجد لدى المسلمين تعصّباً أعمى، مما أتاح لنا معاينة الرؤية الإسلامية الموضوعية، التي تقدم صورة إيجابية للآخر إلى جانب السلبية، كما تعلي شأن الذات منطلقة من رؤية متعصبة تارة؛ وتارة أُخرى تعلي شأن الآخر على حساب الذات منطلقة من لحظات ضعف تشوب الذات؛ كل ذلك يدفعنا للإعجاب بإنجازات المؤلف في مجال تقديم صورة الآخر، فقد حاول أن ينظر إليه بعين العدل، التي دعا إليها في مقدمة كتابه «الشعر والشعراء».

الهوامش

١- القرآن الكريم، سورة الحجرات، آية (١٣).
٢- د.إحسان عباس «تاريخ النقد عند العرب» دار الثقافة، بيروت، ط٢، (١٩٨١م)، ص(١٠٤-١٠٥).
٣- أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري «عيون الأخبار» المجلد الرابع، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص(٢٦٧-٢٦٩).
٤- ابن قتيبة «عيون الأخبار» المجلد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص(٧٣).
٥- ابن قتيبة «عيون الأخبار» المجلد الثالث دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص(١٦٥).
٦- المصدر السابق، ص(١١٢-١١٣).
٧- القرآن الكريم «سورة المائدة» آية (٣١).
٨- ابن قتيبة «عيون الأخبار» المجلد الأول، ص(٢٩٦).
٩- ابن قتيبة «عيون الأخبار» المجلد الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ، ص(١٧).
١٠-أبو حيان التوحيدي «مثالب الوزيرين» تحقيق د. إبراهيم كيلاني، دار الفكر، دمشق، ط١، (١٩٦١م)، ص(١٠).
١١-«عيون الأخبار» المجلد الثاني ص (٢٦٩).
١٢- المصدر السابق، ص(٢٧٠).
١٣- المصدر السابق نفسه، ص(٢٩٧).
١٤- نفسه، الصفحة نفسها.
١٥- نفسه، ص(٢٦٨).

محطات وآراء في الفعل الثقافي

محمود محمد أسد*



الحديث في العمق الثقافي ليس ترفاً، وليس مجرّد حديث لإملاء صفحات الجرائد والكتب. الثقافة تكوين في صلب المجتمع، وزرعُ وعيٍ في مسامات وجلد المجتمع البشري. الحديث الذي سوف أعرضه لم يأتِ من ترف، ولا يسعى للتعالي، ولا ينظر من برجٍ عاجيّ إلى عالم آخر ومغاير. الثقافة حاجة وتكوين وضرورة ومنه أنطلق ببعض المحطات من وحي المشهد الثقافي.

* أديب وناقد وباحث سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

في صَدَدِ أولويَّةِ الفعلِ الثّقافي:

سلـوكُ الأفـراد فـي مجتمعاتهـم يعكس وعيهم وتكوينهـم، ويبرز الكثيرَ من الجوانب الخفيّـةِ والحقيقيَّةِ في حياتهم، فإنَّ ممارساتِ أفـراد المجتمع في عصر مـا وفي بلـدٍ مايبرز نتاج الوعـي متمثلاً بالقيـم والمفاهيم، ويعكس قدرة المجتمع على التسلّـح بالثقافة المعرفيـة الشاملة والمكتسبـة، وهي نتاج سنـوات وقرون.. فالفعل الثقافي تفسير حيٌّ ومباشر وفاعل لمدى تجاوب الإنسان مع المقولة الثقافية وتكوينـه الثقافي الـذي يتطلَّـبُ تفسيراً ملموسـاً على أرض الواقع وإلا فإنَّهُ مُجرَّدُ حالةِ ترفٍ.

إذا كانت الثقافةُ مجموعةً من المعارف والعلوم والأعراف والعاداتِ التي اكتسبَها المرءُ بالعلمِ والتعليم والاحتكاك والتأثُّرِ بالآخـر فإنها لا تكسب أهميتها ولا تبرز ماهيَّتُها الحقيقيـة إلاَّ بفعل فاعلٍ مؤثِّرٍ ودالٍّ، يوازي بـل يفوق تلك المقولة التي طالمـا قرأها المرءُ علـى نفسِهِ أو على الآخريـن وإذا لـم يتوقَّـفْ عندها، بل اعتبرَهـا لوحةً جميلةً يزيِّـنُ بها متجرَهُ ومكتبَـهُ وعيادتَهُ بعيداً عن فهم أبعادِها، فلن تترك أثراً في ماهيةِ تكوينه السلوكي ولـن تردَعهُ، فكان حالُهُ كحـالِ مَنْ ملأ مكتبَهُ بالآيات والأقوال التي تحضُّ على الخير والأمانـة والصدق ولا يملك منها سوى الاسم.

إذا كانـت الثقافة تلـك التربة وذاك الوعاء المليء بالماء والهواء فإنَّ مردودها الحقيقـيَّ لا يكون فـي التأويل والتنظير والتوصيف والشطط من الأفكار النظرية وغيرهـا، بل تكمن أهميتها بفعلها المنتج والمثمر وربُّما يقول قائلٌ:

إنَّ القـولَ دالٌّ ممتدٌّ علـى مساحات واسعة من الزمان والمكان أفقياً وشاقولياً هذا القـول محمـولٌ على الشفـاه وفي طيِّ الكتب وهو قـولٌ نلقِّنهُ ونستشهد به، وندرِّسـه وعطـاؤه مُمْتدٌّ. وهـذا صحيح ولكنَّ تفسيرَهُ لا يكون إلاَّ بما يترك من أثر في مسـارِ سلوكنا وحياتنا. ولذلك تتوحَّدُ المقولاتُ الثقافيـة أحياناً، ولكن يختلف العمـل بها. وهذا يجعل الفـرق جلياً بين قولٍ ثقافيٍّ وسلوك ثقافيّ. فهناك قضايا ثقافيـة وفكريّـة نردِّدها على مـرِّ الأيامِ والساعـات ونتعامَلُ مـع مفرداتها كحالة ضروريـة، فتصحبنا في سهرنـا وعملنا ومسارنـا، ولكن سرعان مـا نتخلَّى عنها مـع أوّل موقف جـادٍّ أو صدمة أو تفسير حقيقيٍّ ملموسٍ لها.

وإذا أردْتَ تفسير الوعي الثقافي فانظر إلى المطارات والحدائق والشوارعِ والمكاتب ودور النشر ومناهل الثقافة.

إنَّ المقولة الثقافية سريعة الانتشار وسهلةُ التداول والوصول والنفوذ إلى الآخرين.. نحملها في حقائبنا وخزائننا وصحفنا ومكاتبنا، ولكنَّها تبدو عاجزةً مقطوعة الصلة مع المنبت الأصلي والمكان الخصبِ لها، ولذلك تتَّسِعُ الفجوة والهوَّة بين ما نحمله وما نفعله، فيتَّسِعُ الشَّرْخ، وعندها تحدث القطيعة وتتزعزع الثقة فتفقد الكلمات دلالتها، فتموت القوّةُ المؤثّرة التي يحملها سِحْرُ الكلمة، نشعر بالنشوة والطمأنينة عندما نسمع الأحاديث الرائعة وعندما نشاهد العيادات ومكاتب المهندسين والمحامين ورجال الأعمال وقد امتلأت جدرانها بالشهادات والأقوال والحكم، وتأسرنا مقولاتُ وجملُ الخطباء والأدباء والسياسيين التي تبدو محكمة الصياغة غنيَّةَ الدلالة، وبالمقابل تُدْهشك الأبنية والعمارات والصروح الرائعة ولكنك ستشعر بالصدمة عندما تراها حجارةً وخشباً بلا روح. وتصفعك بقسوة تلك الممارسات من أقرب الناس الذين تعتز بثقافتهم وتحصيلهم وحديثهم. لأنك ستسمع كلامهم الذي لا يلتقي ولا ينطبق على سلوكهم، فتستسلم لمرارة الخيبة ولعمق الحزن الدفين في أعماقك.

أهي مأساة فرد أم أنها مأساة أمم وشعوب نامت على حبِّ القول والتنظير، فراحت ترضع أقوالاً افتقدت دسمها. فلا تقسُ على نفسك خوفاً وحرصاً على ما تبقى من مشاعرك الموخوزة بإبر السلبيات فاقبض على أعصابك وأنت تستمع لطبيب ينصحك، ويلحّ عليك بالتزام مواعيد الدواء وكميّته المحددة، وهو يمسك بيده سيجارته، وقد تأخَّرَ عن موعد حضوره لساعة وعندما دخل لم يبدِ أسفاً واعتذاراً. ولمَّا جاء دورك في المعاينة راح يستمع إليك ويجسّ نبضك وهو يتحدَّث بالنقّال مع تاجر عقارات لشراء مشفى... دون مراعاة لأحاسيسك، وأرجوك أن تتماسك كثيراً، واجعلِ الأمر مجرَّد تسلية وتضييع للوقت إذا سمعت لأديب يدعو للديمقراطية والحرية والانفتاح والموضوعية. وقد جمع رجالَهُ حول طاولته وراح يتكلَّمُ عن حزبه وتجربته، وفئته ومعتقده لاغياً الآخرين. وعندما جاء دور الآخرين اعتذر مع شيء من اللباقة المفتعلة... وإذا سمح لك أبدى تذمّره وهو يقول: اختصرْ... اختصرْ... حرصاً على الوقت

الثمين وهو الذي لا يفارق المقهى ومجالس النميمة... و... و... وفي اليوم التالي يحدِّثك عن الأزمة الثقافية، وأزمة الكتابِ والكتَّاب. وهو لا يقرأ سوى برجه... ولا يجد مانعاً في بيع الكتب التي تُهدى إليه، ولا يجد الوقت لإزالة الإهداءات عنها... أليستْ هذه إحدى ممارسات ومنعكسات القول الثقافي الذي لم يجدْ تفسيراً عملياً صادقاً ومنتجاً...

ماذا تقول عن تلك المعابد والمكاتب والقصور التي أمَّها تجار البلد وامتطاها الأميون وأنصافهم دون مراعاة للضوابط والنظام... صرفوا عليها الكثير من الملايين وابتكروا أفانين الزخرفة الرائعة ولكن تراها شبه خاوية سوى أيام الأعياد والمناسبات... ألم تتضايق وأنت ترى البائسين والمرضى وقد اصطفّوا على الأرصفة والجوانب... وتوخزك تلك الكلمة: ساعدنا على بناء المساجد... ساعدْ إخوتنا البائسين والمحتاجين. أظنك تتضايق من هذا العرض المؤلم لهذه الممارسات التي لا تنمّ عن مخزون ثقافي حقيقي.

إنَّها طقوسٌ تدلُّ على فراغ ثقافي لا يملك ثوابته. فلا تبدِ أساك على تلك الحديقة وقد تحوَّلتْ لمحطة سيارات دون رادع من أحدٍ. ولا تغضب إنْ شاهَدْتَ شارعاً جميلاً نظيفاً ومن أجمل الشوارع وقد تحوَّل إلى سوق تجاري مليءٍ بالبسطات والعربات والمخلَّفات والأصوات الشاذة وكلُّ ذلك على مرأى من الآخرين الذين غضّوا أبصارهم بغربالٍ واسع الفتحات ولكنّهم صادروا بصيرتهم التي غطّيت بغشاوة المصلحة الخاصة...

وكيف يكون حالك وأنت ترى الأماكن الأثريّة العظيمة وقد أضْحَتْ سلعة وملكاً للتجار. يعبثون بها ويشيدون عليها مشاريعهم وعلى مرأى من أوصياء الثقافة وروَّادِها ورعاتها. والمصيبة العظمى عندما لاتستطيع تفسير هذه الأعمال. ولا تجدُ من يشمِّرُ عن ساعديه للدفاع عنها وتعرية هذه الأوبئة... ويؤلمك أولئك المفكّرون وقد ملؤوا الصحف والمجلات وبرامج التلفاز وعظاً وتحليلاً للآخرين ولكنهم عجزوا عن ملامسةِ همومك. وتصابُ بالتقيُّؤ وأنت ترى معاملاتهم ونظرتهم القومية للآخرين. فهاهم يديرون الوجه أمام القضايا الكبرى، ويتناسون حقوق الآخرين، فلا تسْمَعُ إلا شططاً فكرياً، وتلوُّناً وتذبذباً حسبَ العقول والأهواء وحسبَ مقتضيات المصلحة الخاصة. فلكل مجلسٍ حديثٌ

وخطابٌ، وكأنهم فصّلوا من جلود الحرباء ولكل الفصول.

الثقافة قولٌ مقرون بفعلٍ. وهي حالة أخذٍ وعطاء... الفعل يبرزها، ويرسّخها والفعل يُنبتها. ولذلك تحتاج لمن يعي دور الكلمة ودلالتها ومكانتها فالقول الجميل الذي يطربني ويدخل إلى منافذ الروحِ والعقل يحتاج لبادرةٍ من العمل المخلص كيلا تذروه الممارساتُ الخاطئة. والحديث عن النظام والنظافة أمرٌ جميلٌ وجليلٌ وأجمل منه وعْيهُ والحرصُ عليه والدفاع عنه... وتقديم الوصفات والنصائح أمرٌ عظيمٌ ولكنّه أعظمُ أثراً وتأثيراً لو شاهَدتَهُ بياناً عملياً مقروناً فيه القول بالعمل.

إنَّنا نحتاج إلى أولويّة العمل بعيداً عن الثرثرة والجدلِ للجدل فحسب، وإننا بحاجةٍ إلى فعلٍ فاصلٍ بين الجدِّ واللهو وبين الخصب واليباب...ما أحوجنا إلى المثقّف الذي يعي كلمتَهُ وموقفه! ويدرك أبعاد مواقفه، فيلتزمها سلوكاً وعملاً بعيداً عن الأنانية والذاتية المتضخّمة والمتورِّمة.

شارِعُنا وبَيتُنا ودائرتنا ومدرستنا ومساجدنا ومنتدياتنا وبرامجنا بحاجة لتجسيد الوعي الثقافي على مستوى الواقع بعيداً عن الرياء والنفاق والتدليس. فلا بدَّ من إيجاد القدوة. هذه القدوة التي أدَّت رسالتها وبَرَزَ دورها في الأزمات عبرَ العصور. فالنّاس يحسنون ديباجة القول الثقافي فلا تسمع إلّا أقوالاً مؤثّرة وغنيَّة ولكنها أقوالٌ مبقورةٌ انفصل فيها الجسد عن الروح فَنَمَتْ وتنامت التجاوزات والمخالفات على حساب القول الذي أعطاهم جواز مرور يبّررُ لهم فعل مايشاؤون...

عليك أن تجمع غضبك وتتحمَّل شَحْنَة الألم والاستغراب وأنتَ ترى رجلَ المرور يتجاوز الإشارات والسرعة وأنت تبصر وتستمع رجل القانون وهو يلتفُّ حول القانون ويفتح ثغراتٍ فيه لتلائم ميوله ومصالحه... ولن تكون سعيداً وأنت تستمع لمحاضرة أو محاور يدافع عن حق المرأة بحماسٍ زائدٍ... لها حق العمل لها حقُّ التملك... ولكنه في آخر الليل يشبع زوجته ضرباً وشتماً ويقبض مرتَّبها في أوَّل كلِّ شهر يا لها من سخريةٍ لاذعةٍ أو يا لها من مفارقة مشينة!

حصانة الأُمةِ والمجتمعِ والإنسان تكون بالتمثُّلِ السليم للقيم والدفاع عن المقوِّمات، والتمسك بالمبادئ قولاً وتفسيرها عملاً وهذه الحصانة لا تظهر إلا بالأزمات التي تكشف المعدنَ الحقيقيَّ للمثقفين.

تفاقمت الأقوال أمام شحِّ الأعمالِ، فانعدمَ الثمَر وقلَّ الفعلُ، فغابتِ المواقف وبقي الكلامُ سيِّدَ المواقف...

ليست الثقافة إلا بذوراً تنتظر من يبذرها ويرعاها ويجنيها. وليست إلا لَبِناتٍ تحتاج لمنْ يحملها ويشيِّدها لبنة فوق لبنة بعد جَبْلها بالعرق والجهد. إنّي أسمعك فتطربني وأشاهدك فتبكيني... عظمةُ المقولات في المجالس مريحٌ ورائعٌ ولكنها تندثر أمام شريط الفوضى والتجاوزات وسوءِ التوظيف. لأنها مقولات لا تتجاوز الشفاه. فنحن أمام وعيٍ شفويٍّ جميلٍ ورائع، فسَّرَتهُ الشعوب المتقدِّمة سلوكاً وعملاً منتجاً. لم تستطع فلسفته إلا من خلال سلوكها وممارساتها، فتنامى عطاءً وقوّةً وتطوّراً، ولكنَّهُ بيننا علاهُ العفَنُ، واستهلكته طاولات المقاهي وكؤوس الحانات وأرصفة الشوارع التي تئنُّ من وطأة المتسكّعين على موائد الثقافة...

في المطبخ الثّقافي:

العنوان يلفت الانتباه، ويستدعي الاستفسار عن سبب التسمية وسرِّها. وكلُّنا يعلم أنَّ المطبخَ يحملُ الكثير من الأهميةِ على مستوى الأسرة والمجتمع. فيه يُطْهى الطعام، ومنه تعبُرُ الزوجةُ إلى قلب الزوج والأولاد، وفيه تقضي سيِّدة البيت بعضاً من وقتها في سبيل تقديم وجبةٍ لذيذة تثبت فيها مقدرتها، وفي المطبخ تُشْوى اللّحومُ وتُسْلَقُ وينضجُ الطعام، ولذلك لا عجب إذا ربَطْتُ بين المطبخ المنزلي والمطبخ الثقافي لأنَّهما يسعيان إلى تقديم وجبةٍ غذائية مفيدة، وكلاهما يسعى إلى الآخر، الأول إلى معدته والثاني إلى عقله، ولكلٍّ مطبخ مُعِدُّون وروّادٌ وأدوات ومجالات.

رحلتُنا مع المطبخ الثقافي الذي يقع على عاتقه مهمّاتٌ جليلةٌ وكثيرة، وفي هذا المطبخ يكثر الطهاةُ والمتذوّقون والضيوف، فتكثر عليه الملاحظات. فإذا كانت ربَّةُ البيت تستطيعُ إرضاءَ أولادِها وزوجِها فإنَّ المهمَّةَ تكونُ أصعبَ وأكثرَ وعورةً في المطبخ الثقافي، الذي يقفُ على أعمدةٍ أساسيَّةٍ، بينها وفاقٌ وخصامٌ وبينها تواصُلٌ وتنافر، وقد يمتدُّ الوصالُ إلى درجة العشق والهيام، وقد تَصِلُ الفَجْوَةُ إلى الخصام والطلاقِ والنفور كحال الأسرة وهذا لانتمنَّاه، ولا نسعى إليه.

لموقع المطبخ الثقافي دورٌ في جذبِ الحضور، ولذلك تُراعَى أهميّةُ الموقعِ وجمالُهُ وحسنُ ترتيبِهِ. و هذا يستدعي البحثَ عن موقع متوسِّطٍ قريب، يستقطِبُ

المتابعين، ويسهِّلُ مهمّةَ الحاضرين، وفوق هــذا يتطَلّــبُ متابعةً من المشــرف عليه ليبقى بهيّاً مشعّــاً. ألا تشعر بالألم عندما ترى فرقة أجنبية صديقة تحضر إلى بعض المطابخ فلا يجدونَ مكبّراً للصوت، وفوق هذا غبارُ خشبةِ المسرحِ بدا كثيفاً وواضحاً على أرجل الراقصيــن والراقصات؟ وكم تبدو سعيــداً وأنت تحضرُ في نفسِ العام والزمــان والمدينــةِ عرضاً فنّيّــاً لفرقة أنيقة، يُدْهِشُكَ المسرحُ لأنَّكَ لا تشعر بما شَعَرْتَ به فــي المطبخ الأول. إنَّها مجرّدُ إشارة حقيقيّة.

يبدو المطبخ جميلاً إذا أُحْسِنَ اختيارُ الطبَّاخين والمشرفين، وإذا تقيَّدَ بمواعيد موائِدِهِ، وإذا أُحْسِنَ اختيارَ الأطعمةِ ونوَّعَها بما يرضــي الأذواق، فتتــوَّعُ الموضوعاتِ والمحاضرين بعيداً عــن التكرار والشّلَلِيَّة والمحسوبيّة وإرضــاءِ المصالح المتبادَلة التي بَدَتْ تظهَــرُ كثيراً، فَطبخاتُ الثقافةِ أصبَحَتْ مكشوفةً وفاحَتْ رائحتها. فقسْمٌ من المشرفين علــى هذه المطابخ بحاجة إلــى وعي ثقافي وروحٍ ثقافيّــةٍ تتغَلْغَلُ في أعماقِهم، وتعيشُ فــي أرواحهم، فالثقافة روحٌ ومعايشــة وليستْ وظيفةً للتّشْريف أو العيشِ كما يتصوَّرُ الكثيــرون من الطّهاةِ والمشرفين. هذه الــروحُ وهذا الإحساسُ الثقافــيُّ يَدْفعهــم لكســبِ ودِّ الضيــوفِ والأدبــاء، ويحضُّهــم لفَتْحِ الأبــواب أمام المتحدّثيــن والمحاوريــن، فهــمْ بحاجة لتكوين جمعيات وروابط لمطابخهم، تكون رافداً غنيّاً لهم. في كلِّ مرَّةٍ أظنُّ المشرفين قــد ملكوا المطابــخ بحجارتهــا وأدواتها ورجالها، لهم حــقّ التكلّم ولهم حقّ فَرْضِ المائــدة وتوقيتها. فــي المطابخ الثقافيّة تنضج الطبخة وتكون لذيــذة إذا التزمتِ الموضوعيّةَ والدقّةَ، ولكنَّها تحترق وتفسد إذا جاءَها إنســانٌ نَزِقٌ أنانيٌّ جامدُ الرؤية يظنُّ الحوارَ والرأيَ الآخــرَ عداوةً، فتراهُ يخافُ، ويتَلَعْثَــمُ إنْ لامَسْتَ خاطرَ طبَّاخِهِ الذي اختارَه من مطبخ آخر.

في المطابخ الثقافيّــةِ تتشعَّبُ الأهواء والآراء، وحينــاً تصــبُّ في غيــرِ مجراها الطبيعي وذلك عندمــا تتحكَّمُ بها الأهواء والمصالــحُ وتصفيةُ الحسابــات. في مثلِ هذه المطابخ تُقدَّمُ لكَ وجباتٌ لا تهضمُها معدةٌ، ولا يرضاها متــذوِّقٌ أنْعَمَ اللهُ عليه بسلامة الحواسِّ. فعليــك أن تهضمَ داءَ العظمةِ وزيادةَ الفهم ومركبَ الغرور لتكسبَ منه براءةَ فَهْمٍ تُدْخِلُكَ جنَّتَهُ.

في هــذه المطابــخ تــرى الطواويسَ وتــرى النعامات الذيــن تغافلوا عن دورك وإحساسك. كــم طبخةٍ فسدَتْ، وكم مائدةٍ

لم يذقْها أحدٌ لأنّهم وضعوا يدهم فيها ومع ذلــك ترى مشرفَ المطبخ مرفــوعَ الرأسِ وفي كلِّ لقــاءٍ إعلانيٍّ يقــولُ: إنَّ مطبخَهُ مُنوَّعٌ وغنــيٌّ وروّادُه يتزايدون ويقفون على الدورِ ولا يجــدون مكاناً لهم، بل يحجزون أماكنهم مسبقاً.

إذا تصوَّرْنا مثلَ هــذه المطابخ عرفْنا سبــبَ إفلاسِ المنابــر، وعرَفْنــا لماذا انفضَّ الــروّادُ عنهــا، وقد بقيــت فرقةُ العمــلِ الموحّدةُ تشــكّلُ جوقةً متكاملةً مع سَدَنَتِها وأُجَرائِهــا الذين لا يعرفون السيرَ في مطابخهــم، أخَذَهُــمُ التَّبْجيلُ والمدحُ وهم قلَّما يُفَرّقــون بين السَّمْنِ والزيت في المطبخ، وبين لحم العجل ولحم الدجاج.. هذه الأمور لا يميِّزُها إلّا المتذوِّقون الذين نشؤوا في المطابخ العربية الأصيلة، هؤلاءِ يستطيعــون كشفَ ما يُطْبَــخُ في المطابخ وملاحقهــا يُدْرِكــون بحسِّهــم الطّبخاتِ الناضجةَ والفاسدة، والطبخــاتِ المكرّرةَ والمستخرَجــةَ مــن الثلّاجــة، ولذلك إذا ذكرْتَ أمــام الآخرين ما يجــري وجَدْتَهُمْ تذمَّروا وحمــدوا اللّه لأنّهــم ابتعدوا عن هــذه المطابــخ وتجنَّبــوا هــذه الموائد وأراحوا أنفسهــم مِنْ هولِ المفاجآت. فلم يسمعــوا خبــرَ ذاك الألمعي الــذي نزلَتْ عليه ليلةُ القدر فَفُتِحَتْ له أبوابُ المحبّينَ والمعْجبينَ، فكثرتِ الدراسات عن إبداعِهِ وطبخاته، وراحَتْ صــورُهُ على كلِّ صفحةٍ وكلِّ لوحةٍ.. فكان مادةً غنيَّةً ولذيذةً لكثيرٍ من الطبخات الفجَّةِ التي جعلت منه شاعراً وفيلسوفــاً وباحثــاً وروائيّــاً حسب رغبته وتغمره السعــادة عندما تهدى له القصائد والكتب ويقدّم في بدايةِ كلِّ مائدة..

ومــن وراءِ الكواليس التــي تجري في زوايا المطابخ البعيــدة ودهاليزها ترتفع الأصــوات بعــد انتهــاء الوليمــة، ويكثر الحديث عن الطعــام والطبَّاخين فتقول: لمــاذا لا يقولــون رأيهم أمــام الحضور؟ ولماذا يَتَخوَّفــونَ مِنْ هــؤلاءِ الطبَّاخين؟ هــذه المطابــخُ ستبقــى مصــدرَ إفسادٍ ومصــدرَ إفلاسٍ إذا لم يُهَيَّــأْ لها عارفون مدركونَ يزرعونَ فيهــا الحبَّ والخيرَ وإلّا فإنَّهــا سوف تبقى خاويةً ومفلسةً ولا يأكلُ طبخاتِهــا إلّا أهْلُها ومَــنْ ينتظِرُ شيئاً من فضلات موائدهم..

هذه المطابــخُ تُقدِّم نَفْسَهــا بنفسِها، تراها في المنتديات والصحف والمجلّات والمراكز الثقافية.. إنَّ ثقافةَ الأمَّة ليست سلعةً ومطيَّةً للوصولِ إلى المآرب الخاصة. إنها دعوة لقراءة برامج النشاطات وللموادِّ المنشورةِ في الصحفِ وإنَّها دعوةٌ لتصفّح الأرشيفِ وجمعِ ما يُدارُ ويحاك، إنَّها دعوةٌ

للموازنة بين طبّاخي المؤسَّسات وموظّفيها الذين تتبنَّاهم وبين أولئك الأدباءِ الذين ينتزعون وجودَهم انتزاعاً فيه الكثير من المرارة والوعورة وفيه الكثير من المتعةِ والنقاءِ والإبداعِ، ولكنَّهم وجدوا الحواجزَ والموانعَ أمامهم ورغم هذا يبصمون ويحصدون الإعجاب.

إنَّها دعوةٌ لأصحابِ الضميرِ الحيِّ الذين يقدرون على التمييز والتعبير وقد حان الوقتُ لكشف سوءاتِ تجّارِ الثقافةِ وأطفالِها المشرَّدين الذين نبتوا في مستنقعاتِ الأنانيةِ والذات المريضة..

المثقّف بين التّسكّع والتّحصّن:

هي خواطر تلاحقني، وتطرق ذهني. هي خلاصات من الواقع الثقافي المعاش في أزماتِهِ المستفحلة.

إنَّها مشاهدُ حيَّةٌ عايَشْتُها عن قربٍ، ولامَسْتُها خلالَ متابعتي للمشهد الثقافي المتورِّم بالسّرطانات، والمكتظّ بالمشاحنات. لا أدَّعي شخصاً، ولا أبرِّئ نفسي.. هي مشاهد أخَذَتْ تستفحل، وتترك آثارَها السلبيّة على المشهد الثقافي الذي راح يئنُّ من وطأتِها ومن قسوة مخلَّفاتها.

للوهلة الأولى يُفترض أن يكون المشهد الثقافيُّ أكثر نقاءً وأنصع رؤيةً وصفاءً. ومن المفروض أن تكون وجباتُه دسمةً ناضجةً تتناسب مع حرارة الحدثِ والأحداث...

يقيني أن الدِّرْعَ الحصينَ لأمةٍ ثقافتُها وأن قوَّةَ الثقافة تكمنُ برجالها وفرسانها وما يحملونه من جدِّيّةٍ ومتابعةٍ وموضوعية وحصانة. فآخر دروع الأمم ثقافتُها، وآخرُ الساقطين مثقَّفوها. هذه بدهيَّة أراها لاتقبل الجدال لأن الفعلَ الثقافيَّ ذو تأثيرٍ وذو مكانة وهيبة ولا أقولُ القولَ الثقافيَّ حصراً. لأن الثقافة في النهاية تحصيلٌ وممارسةٌ وليستْ فعلاً بهلوانيًّا فيه الكثيرُ من القفز على الحبالِ والمبادئ. فالفعلُ الثقافيُّ يترك بصمةً، ويحرِّك مشهداً ويثيرُ النفوسَ وعقولَها.

في الأزمات والمحنِ يظهَرُ المعدنُ البرّاقُ الثمينُ من المعدنِ الزائف اللا منتمي إلاَّ للمصلحة والمصلحة الخاصة حصراً.

ربّما يستاءُ بعضُهم من هذه المصارحة وهذا ما حدث لي في مقالات سابقة. إلى متى يبقى المثقَّفُ متاجراً بالأقوالِ التي ينشرها هنا وهناك..؟ إلى متى تطيب له اللقاءات المتلفزةُ والغليون بيده وكلُّ شيء فيها يبدو مُبَرْمجاً وكأنه مغسول الدماغ؟

إلى متى مثقفنا العربي يُحلل المجتمع الأمريكي والإسرائيلي، ويكثرُ

من الأرقــام والأقــوال والأسماء لدرجة تجعلــك تظنُّ أنهُ يعيشــ بينهم. وعندما يصلُ إلــى الواقع العربــي ينهي الحوار وتقــفُ عبقريتــه وتجــفُّ كلماتــه وكأن الواقع لا يعنيــه. الشجاعةُ تكون بمعرفة الذات والانطلاق منها إلى الآخر.. نحن – المثقفيــن – وضعْنــا الحواجــز خوفاً علــى الكثير من المكاسب التي نجنيها من المقابــلات والزوايا الصحفية والإعلامية التي أضحت مصــدرَ رخاءٍ لنا تنتشلنا من جوعِنا وتجعلنــا نستعمل أحدثَ السيّارات والبارفانات والأقــلام والحاسبات... وقد عوَّدَتْنا على ألذّ الوجبات والأطباق الغربية وكان لها الفضلُ الكبيــر في تغيير الكثير من مفاهيمنــا ومعتقداتنــا فانتقل أحدُنا من اليمين إلــى أقصى اليمين والآخر من اليسار إلى أقصى اليمين مُلتفّاً حول نفسه ومثله وتربيته وأمّته ولكنّه يخطئ الظنَّ إن وجد الناس ساكتين أو جاهلين.

إلــى متى والمشهــدُ الثقافي يمتطيه الوصوليــون المتسلّقــون المنابــرَ هنــا وهنــاك. تتحمَّسُ لسمــاع محاضــرةٍ، عنوانها كبيرٌ وأخّاذٌ ولكن تصابُ بالخيبة وأنــت ترى الخواء الفكري، وتتألّم عندما تجدُ نفســك في زاويةٍ مهملةٍ وقد تسابق المــراؤون والأطفــالُ الصغــارُ يشيدون ويحلِّلــون ويقلِّــدون الألقــابَ يالها من مسرحياتٍ مخيِّبة!.

إلــى متى والصحف تراهــا محصورةً ومؤمَّمــة لفئةٍ تجترُّ بؤسَهــا. وقد أضحت ملكاً لهم ولمن يعزفون على وتر المصلحة، فتراهم استملكوا كلَّ شــيء. إن أرضيتهم كسبــت ودَّهــم. فاكتــبْ عنهــم، وأشِــدْ بتجربتهم. وقدِّم الإهداءات لهم، واذكرهم في المقالات وأرسلْ لهم مايحتاجون...

الواقع العربــيُّ الراهنُ يتطلب مشهداً ثقافياً منتجاً وغنياً ومؤثّراً، والواقع العربيُّ يتطلبُ مثقفاً يمســكُ بطنه، ويكسر قلمه الأمريكي ويمزِّق علبــة الدخان الأمريكية ويقاطع مقولات الغرب وثقافة الغرب التي انتشــرت كالطاعون فينــا، الواقع العربيُّ يتطلــبُ مثقّفاً ميدانيّاً بعيــداً عن الزيف والدجــل، سبيله العقلُ الراجــحُ وسلاحُهُ ثقافتُه العربية، ودرعــه مبادئه. لا يحتاج لمثقَّفٍ باحثٍ عن شهرةٍ تأتي ملطخّةً وعن صورةٍ قدمها الغربُ ملمَّعةً، تحتاج لمثقف يجوعُ، ويُلاحَــقُ، ويُحــارَبُ بلقمة عيشه، وبجــد الصــدود والمعاناة ينشــر موادَّه. ولكنه صادقٌ مع مثله وذاته وقيمه.

الواقــع العربــي يحمِّــلُ المثقّفيــن مسؤوليتهــم كاملةً، فهم دعــاةُ الفكر وهم رسُــلُ البناء إن أحسّوا وشعروا بعظمة هذا

الدور العظيم. فلنسأل أنفسنا عن فعالية المشهد الثقافي أين المثقّفون منه؟ أينَ الكلمةُ التي التقطها الإنسانُ فحرّكت مشاعرهُ؟ أين الفتوى الثقافيّة الجريئة؟ يا أربابَ الأقلام! المالُ يذهَبُ والثروة تزول ولكن ما يبقى أثمن وأعظم. تبقى الكلمة الصادقة والموقف النبيل تبقى الرسالة السامية التي آمن بها المثقفُ النقيُّ المتحصِّنُ. فشتّان بين مُتطفّلٍ على الثقافة لايملك سوى مكره وكذبه وبهتانه ومصلحته الخاصة، وبين مثقف متدرِّع بالثوابت يملك الأسمى والأبقى والأقوى. يملك ذاكرة الناس. فأيُّنا سوف يختارُ؟ وأيُّنا سوف يدرك صعوبة الاختيار..؟

أهي ثقافة أم ثقافات؟؟

يجودُ علينا معجمُ المصطلحات الحديثة، ومقولات الباحثين والمحلّلين بفيض من المصطلحات والمسمَّيات التي يفرضونها علينا في المقابلات الصحفية والتلفزيونية وراح قسم كبيرٌ يردِّدها وكأنها شيءٌ من ثوابته. في كلِّ منتدى هناك أنواعٌ لا حصر لها، قرعَتْ آذاننا أنواعٌ من الثقافات ولا أعرف مدى تقبّلها. هناك ثقافة الجوع والتجويع وثقافة السوق الاجتماعي، وثقافة الاكتفاء الذاتي، وثقافة الاختلاف وقسْ على ذلك الكثير، وربما نسمع بعد ذلك ثقافة إدارة المصطلحات السياسية الوافدة، وثقافة إدارة الدوائر ومثلها ثقافة تنظيم الحوار وقل: ثقافة إرضاء الأولاد والزوجات والسكرتيرات، وثقافة القناعة والقبول بالأمر الواقع وفي هذه الأيام تطرح ثقافة الخوف نفسها على المشهد الثقافي والاجتماعي، وربّما يكون لها جذور في مسار حياتنا عندما علَّمَتْنا الظروف والأيَّام كيف نتعامل مع الأقوى من ذوي الجاه والمواقع ومع الزمن أصبحت تشكّلُ حالةً سلوكية اجتماعية ينهجها فريق واسع من المثقفين والمتعلمين والعامة.

السؤال الملحُّ والذي يطرح نفسه مَنْ يخيف مَنْ؟ ومن هو الخائف؟ أهو المثقف أم الآخر؟ ومن وراء الظاهرة؟ ومَنْ روَّج لها.

المصيبة الكبرى عندما يستسلم المثقف للخوف، ويلجأ للآخر ولو على حساب قناعاته وتكوينه وسمعته وما زرعه في دربها فالثقافة نتاج معرفي وسلوكيٌّ إيجابيٌّ، وهي محصّلة لواقع إيجابي من المفروض أن يشكّلَ حالةَ تنويريّة واعية وفعلاً ثقافياً معرفيّاً متكاملاً فالثقافة حاضن يسعى إلى التكوين والتغيير، ولم

تكــن في يوم من الأيــام سبيلاً إلى إرضاء الأفرادِ على حساب الآخر وهذه الظاهرة المرضيّــة كان المجتمع يرفضها ويلفظها من مسار حياته وسلوكه. متى كان السلوك المنحازُ للسلبية سلــوكاً وقانوناً اجتماعياً معرفيّاً؟ وماذا نأخذُ من هذه الثقافات التي انصبَّتْ علينا دون دراية أو تحصيف.

مــا أراه في هــذه المصطلحــات أنَّها تتوافــق وتتناسب مــع هــذه التقسيمات السياسيــة والمذهبيــة والعرقيــة التــي انتشرت كالطاعون والسرطان في مجتمعنا العربي... هي حالة ترسيخ للتفكك الفكري والثقافــي والسياسيّ.. وهــي حالة تبعيَّة ضعيفــة من الثقافي إلى السياسي الراهن العابث بمكوّناتنا المعرفية فالثقافي حالة صافية وهي أنقى وأسمى من هذه التبعية، فالسياسي ينهل من الثقافي ويؤسِّسُ رؤيته وقناعاتــه. فالثقافي فضــاء رحبٌ وعالمٌ حرٌّ متوائمٌ مع ذاتــه ومتفهِّمٌ للآخر وليسَ تابعاً وصدى ببغاويّاً لمقولات وآراءَ تسعى للتشويه والتفكيك.

ثقافة الخوف ماذا تعني؟ وثقافة الجوع والتأثيم والتكفير وغيرها إلى أين ستصلُ؟ ومــن أين تستمــدُ مرجعيَّتهــا؟ وما الذي تضيفه للمشهد الثقافي النائمِ والذي من المفروض أن يكون يقظاً..

والأسئلة تولِّدُ أسئلة دون وصولٍ للهدف الأسمــى بل سترمينا فــي متاهات الحيرة والضيــاع والتخلّي عن الــذات التي تشكّل الثقافة الحقيقية إحدى دعاماتها.

ألا يكفينا ما نحن عليه حتى نبادر إلى ترسيخ هذا البناء الإسفنجي الذي يمتص كلَّ شــيء، ولا يستطيع حملــه. إن الثقافة سلــوك إراديٌ واعٍ وعالــم معرفي متكامل ومدروس لا انفصــام فيها ولا جمهوريات وممالك خاصة لها هي الثقافة فحسب.

الأديب بين الارتقاء والسقوط:

للإبــداع نكهة خاصة ومــذاق عذب. ولكنَّ عذبَهُ لا يأتــي قبل أن يذوق المبدعُ مُرَّهُ وأجاجه كدّاً وسهراً ومتابعةً. فالمبدع هاجسُهُ المستمِرُّ شهرةٌ وتألُّقٌ لِيُشار إليه، تخطفــه المقابــلاتُ والأضــواء. فيبقى مُتابَعــاً من النقــاد والمحبيــن. والأدبُ موهبة تكاد تسمو علــى كلِّ المواهب من قديم الزمان. فالأديب له سمةُ التميُّز بين أفراد المجتمع. يُؤْخَذُ برأيه، وتُقَدَّرُ أفكارُه ومواقفــه، وتأخذ حيِّزاً من الزمان فتشغل المتابعيــن والمهتمين. وهذه الثقةُ تتطلَّب مــن الأديب أن يعرف كيف يصعد دون أن يسقط. وما أكثرَ الأدباءَ الذين سقطوا بعد صعودهم أو قبل صعودهم!.

على عاتقنا أن نتوجَّهَ إلى الأدباء الشباب أو ما يسميهم النقاد مشروع أديب ببعض الملاحظات لتكون مُؤَشِّراً ودليلاً يهتدون بهما وهم في بداياتهم.

إنَّ كلمة أديب كلمة حلوة ورائعة. تفرح صاحبها لفترةٍ طويلةٍ، ولكنَّ كلمة أديبٍ فاشلٍ قاسية ومُرَّةٌ ومُخَيِّبةٌ للأمل. وقد تُغيِّرُ مسار الأديب وتقتل موهبته الكامنة في أعماقه، فيجفُّ فيضُ العطاء قبل انبجاسه؛ فالسقوط له أسبابه ومظاهره، والصعودُ والارتقاء له أسسه ومرتكزاته.

فارتقاءُ الأديبِ سلَّمَ الشهرة والأدب الصادق الجيد لا يأتي بين يوم وليلة كسرعة البرق. ولا يأتي مصادفة أو بولادةٍ قيصريَّةٍ. فالموهبة كالنبع الذي يَنْبَجِسُ من الصخر ثم يرسم مساره مع الزمن متحدِّياً الصعابَ ليشكِّلَ جدولاً أو نهراً ثمَّ يصبُّ في بحرٍ كبير. بحر الإنسان والحياة. فالصعود والتطور مطلب مشروع، ومن واجب الأديب أن يسعى إليه ولكنَّ صعوده وارتقاءَه بحاجة لمقومات أساسية وثوابت متينة. فمن يستعجل صعودَهُ فسوف يستعجل سقوطه وتخيب مساعيه، وإن صعد خطوة أو خطوات فهو واقع لامحالة..

فمقومات الصعود كثيرة، وأراها بالموهبة المتوقِّدةِ وحسنِ الاختيار للجنس الأدبي وهذه الموهبة تُصْقَلُ بالاطلاع المستمر الواعي والمتابعة للنتاج الأدبي والفكري والاستفادة من آراء القدماء والمعاصرين من النقاد على مختلف مشاربهم وعدم الاستسلام للفشل من التجارب الأولى. فالأديب مُعَرَّضٌ للنقد. وجَوُّ الأدبِ مليءٌ بالمشاحنات والأذواق المختلفة والانطباعات النافرة والأمزجة الحادة والغريبة وهذا أمر عادي على الأديب أن يَسْتَوْعبَهُ، وعلى الأديب أن يعرِفَ مساره الذي يمشي عليه، ويعرف أين يضع كلمتَه وفكرته، ويعرف كيف يمارسها سلوكاً وعملاً. لأننا في مجتمع لا يفصل بين القول والعمل والسلوك الشخصي والعام وهذا حسنٌ بعكس الغرب الذي ينظر إلى سلوك الأديب بعيداً عن إبداعه ويعتبره من حريته الشخصية. فيهمُّهم من الأديب إبداعه. والعمل الأدبي والإبداعي بمثابة نصف خط مستقيم له بداية وليس له نهاية. فالوصول إلى النهاية مستبعدٌ وهذا ما يستدعي الأديب للبحث عن صيغ جديدة من التطور والاستمرار. فالأديب الواعي يبحث عن شخصيته وعن أسلوبه الخاص

به. لا يدور فــي عجلة الآخريــن أسيراً لأهوائهــم وصراعاتهم ومربوطــاً متأثّراً بهم دون دراية ومحاكمة لما يُطّرَحُ أمامه ومــا أكثرَ المأسورين لمثل هذه الأمراض الأدبية!..

لقد أفْرَزَتِ الساحة الأدبية وما فيها من مجلات وصحف ومنابر متنوعة ومختلفة كثيراً من الأدباء ولكن أكثرهم سقط وهو يحاول الصعــود، وربما سقطــوا قبل أن يصعدوا، وهــذا الذي يهمني في البحث. فسقــوط الأديب يُشَــكِّلُ هاجســاً وعبئاً ثقيلاً. يهدُّ كاهله، ويّحطمُ نفسه وأحلامه. فالسقــوط وارد مــن الخطــوةِ الأولــى. وهناك من يسقط وهــو في أعلى مراتب الصعود حيث الشهرة والمكانة. إنَّ الأديب بحاجة لمناعة ودرايــة وإلمام وحَذَرٍ لئلّا يقع ويسقط دون قيام ورجعة. فاستعجالُ الشهرة بأيَّةِ وسيلة مقتلةٌ للأديب، والغرور واستصغارُ الآخرين داءٌ عَصِيٌّ شفاؤُهُ، لأنه يقع في النهايــة على رأس الأديب ويرميه بالقاضيــة. وهنــاك من يسقــط قبل أن يضــع رجله في طريق الأدب لأنه لا يترك لموهبته الوقت الكافي حتى تنضجَ، وربَّما لا يعرف كيف يوظــفُ موهبته ويعرضها، وقد لا يجد من يأخذ بيده ويرعى تجربته بموضوعية فيصطدم بالجفــاء والتعالي والتنظير والمحاسبة القاسية واختلافات وجهــات النظر. فــلا يستطيــع هضمها فيُمَزِّقُ أوراقه ويمشي بلا عودة، أو يواجه فــي بداياته تطرية زائــدة، فيسمع مدحاً مبالغاً فيه فلا يعجبه بعد هذا المدح شيء ولا تسعــه الدنيا. ومن حــالات السقوط الأدبي التي يقع فيهــا المبتدئون سلوكهم الطــرق الملتوية وما أكثرها فــي أيامنا! رأسمالها تعرُّفٌ مُبَرْمَجٌ في الذهن لمحرِّرٍ أو إجراءُ مقابلة مع أديب محرِّرٍ في مجال النشر أو كتابة دراسة عن أديب له مكانته ونفوذه فسرعان ما تجد اسمك لمع ولكن سرعــان ما يخبو وميضــه وينطفئ لهيبه إذا قدِّر له الاشتعــال في حال كونه جافاً وضحلاً. وهناك سقوط من نوع آخر وذلك عندما يهمل الأديب موهبته، ويُدير ظهره لها فلا يقرأ، ولا يطوِّرُ نفسه بل يلتفت إلى التنظير والطعن واللمز حول طاولةٍ شللية، فهذا الأديب فســد من الداخل فلا يمكن أن يعطي أريجا بعد ذلك.

أرى الأديب لا ينفصل شقُّهُ الأخلاقي عــن شقِّــه الإبداعــي، وما أكثــرَ الذين سقطــوا وهم يجــرون وراء شهرة سريعة دون التماسٍ للنهج الصحيح فماتوا أدبياً وأماتــوا معهم موهبةً جيِّــدةً ورائعةً نحن أحوج ما نكون إليها.

وما أقسى انهيارَ الأعمدة القوية والعالية بعد شموخها! فبعض الأدباء الكبار الذين استهلكتهم الصحافة اليومية، فلا يجدون متَّسعاً من الوقت للعمل الإبداعي الحقيقي. سرقتهم العواميد اليومية واللِّقاءات الصحفية والإذاعية وما شابه ذلك، فكتاباتهم أصبحتْ وظيفةً رسميةً وأداء واجب لا أكثر. يكتبون دون نضج. فلا تجد لهم عملاً إبداعياً ضخماً كالرواية أو الدراسة أو الملحمة. وهذا نراه في أغلب الصحف مع العلم أن الصحافة في يوم من الأيام أبرزت الكثير من الأدباء والنقاد كالعقاد والمازني والرافعي وطه حسين وغيرهم. وهذا يطرح تساؤلاً يحتاج لتفسير، فهل تغيَّرَ دور الصحافة في أيامنا الراهنة عن دور الصحافة في بداياتها؟!.

إنَّ هاجسَ الكتابة فقط دون محرِّك أو مُهَيِّج يجعل الأدبَ سَطْحِيّاً لأن هدف الكاتب الظهور على الساحة والاستمرار في معمعتها، أو ليُشْعِرَ الآخرين بأنه موجود. لاشكَّ أنَّ هذا السلوك سيدخل الملل ويبعد المتلقي عنه. لأنه اعتاده كلَّ يوم ودون رؤية جديدة فياله من سقوط مخيف!. يغيب عن بال هؤلاء الأدباء بأن عملاً واحداً متميِّزاً يجعلُ الأديبَ يحفر اسمه في سجل المبدعين المتميزين.

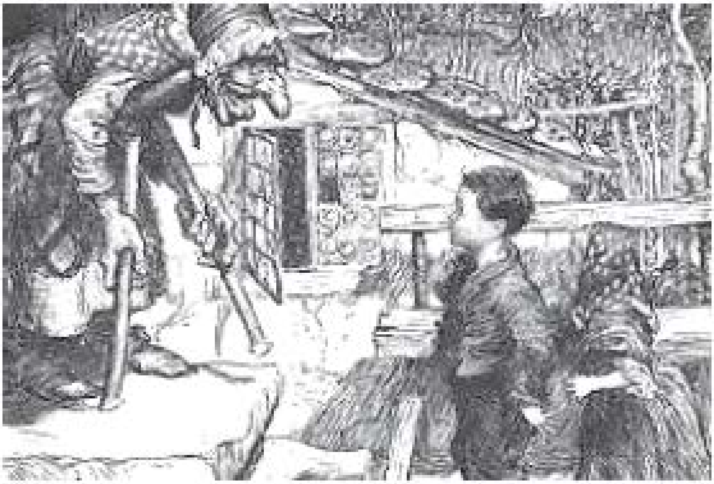
فالقضيةُ قضيةُ كيفٍ ونوعيةٍ وجودةٍ وليست قضية كمٍّ هائلٍ فارغ. ليتنا فهمنا هذه الحقيقة، وأعرض لنوعٍ من السقوط المخيف الذي يقع فيه كبار الأدباء. عندما يصلون لحالة من الاعتداد بالنفس والغرور. فيعتقدون فيها أنَّ نتاجهم مقروء ومطلوب، وكلُّ ما يكتبونه سوف تنشره الصحف والمجلات، ويتهافتون عليه معتمدين على سمعة سابقة. وهذا خداعٌ للنفس واستهتارٌ بالقارئ العادي. أمَّا القارئ الواعي المثقف والمتابع لا تغيب عنه المقارنات. وهذه النوعية من المتابعين أساس الحكم في العملية الأدبية.

إنَّنا نسمع الكثيرَ من المتابعين وهم يُعَرُّون الكتاب الذين أخذوا يكتبون أموراً لا تتناسب مع سنهم ولا تصل إلى مرتبتهم التي وصلوا إليها وتلتقي بكتابات بريد القراء. ومع ذلك نرى بابَ النشر والتطبيل والتزمير مفتوحاً لهم. لأن ظاهرة الاكتتاب والمتاجرة بأسماء كبار الأدباء أصبحت ظاهرة مرضيَّةً وتقليعة صحفية تتسابق عليها الصحف والمجلات العصرية، ويتمثَّل سقوط هؤلاء الأدباء بعدم السعي للتجديد وعَدَم الحساب للقارئ الجيد. وكيف يسعون لهذا وهم لا يجدون الوقت الكافي للتأمُّلِ والتفكير والقراءة المتأنية.

ونعرف جيداً ماذا تعني العملية الإبداعية من إرهاصات ومخاضات تستهلك كل شيء من الأديب، وهناك سقوط مفاجئٌ نخشاه كثيراً على كثير من أدبائنا وهو السقوط النفسي والانحراف عن نهج سلكه الشاعر وآمن به لفترة طويلة، فالأديب الذي يعيش حالماً ومُنَظِّراً وباحثاً عن مدنية فاضلة ينشدها متألماً ومعبِّراً عن طموحه، ويسعى لزرع آرائه وأفكاره، سرعان ما نراه قد انهار وانحرف عن طريقه مع أوّل صدمة مخيبة يتلقّاها، لا يستوعبُ طبيعةَ الحياة وقسوة الظروف وضرورة الحفاظ والتمسك بما يؤمن به، فنراه فجأة انقلب على عقبيه وانحرف انحرافاً كلياً، قد يبعده عن الأدب بلا عودة، ومنهم من يلجأ للتعبير عن المرحلة الجديدة مُتَخَفِّياً عن كلِّ أفكاره السابقة، وفي هذه الحالة قد يحلّق ويشقّ الطريق له من جديد أو لا يقنع لأنه عُرِفَ بلونٍ محدّدٍ أثّرَ بمتابعيه فيعتبرونه مُرْتَدّاً عمّا آمن به.

الفولكلور في أدب الأطفال

ترجمة وإعداد: د. ملكة أبيض *



يعدّ تأليف الأغاني والقصص جزءاً لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وتضم أقدم النصوص –الفولكلورية أو التقليدية– تلك الترانيم (Nursery rhmes)، والحكايات الشعبية، والخرافات، والملاحم، والأساطير، والأغاني الشعبية التي تناقلها القصّاص

* أديبة ومترجمة وأستاذة في جامعات عربية.

عبـر مئات، بل آلاف السنين، لتوعية أجيال من المستمعين، صغـاراً وكباراً، وتسليتهم. واليوم، حين نفكر في القصص، يتبادر إلى ذهننا في الغالـب نصوص ألَّفها مؤلف، ثم جرى تسجيلها وتثبيتها إلى الأبد.

علـى أنَّه، في الزمـن الماضي، حين لم يكن أحد يقرأ أو يكتب، كانت القصص تسرد بصوت مرتفع لجـذب السامعين. وفي كل مـرّة كان أحد القصاص يروي قصـة، ويراجعهـا، ويعيـد تأليفها من جديـد.. والعديـد مـن تلـك القصص عمّرت قروناً، ووجـدت طريقها يوماً ما إلـى الكتب التي نتشاركهـا مع الأطفال، والبعضـ الآخر منها ما نـزال نشاركهم فيها من خـلال السرد القديم. ولكن من المهم أن نذكر أنها بدأت جميعاً بصفتها أنشطة شفوية.

تتوافر حاليـاً للقراء الصغـار نماذج مختلفة عديدة من الفولكلور منها: أغاني الحضانـة أو الأم إوزة، وترانيم، وقصص شعبية مثل حكايـات على ألسنة الحيوان، وقصصـ الجـن، وقصصـ البطولات، والملاحم، والأساطير، والأغاني الشعبية. ونستطيـع اليـوم أن نختار مـن بين هذه الأنـواع، من تنـوع واسـع مـن التقاليد الثقافيـة، ومن كتب مذهلـة أعادت كتابة القصصـ وتصويرها على يد بعض أشهر المؤلفين والمصوّرين.. على أن الوضع لم يكن دوماً كذلك.

لمحـة تاريخية عن الفولكلور للقرّاء الصغار:

١- **النشـأة:** لا أحـد يعـرف القاص الأول لقصـة معينـة، ما عـدا أن هذه القصص تطورت إلى هذا الشكل الكتابي الأدبي الذي نعرفه اليوم، من خلال عدد لا يحصـى مـن القصّاصـ، على مدى حقـب طويلة من الزمـن. وتفسر إحدى القاصات المعروفات، وهي «جين يولين Jane Yolen» ذلك بقولها: «إنَّ القصص البالغة القدم جرى نقلها وتحويلها.. لقد تغيرت الأفـكار الرئيسة عبـر الأزمان، ومن خلال الـرواة، والسامعين، والبلدان التي نشأت فيها، وتلك التي حُمِلت إليها. لقد تغيـرت القصة الشفويـة القديمة بنفس الطريقة التي تغيرت بها الثقافات نفسهـا.. الطريقـة التـي تغيّـرت بها التقاليد.. بعملية تآكل وانفجار لا تختلف عن أية عملية جيولوجية في قوتها».

لقـد فسَّـرت القصصـ الشعبية في العديـد من ثقافـات العالم لمـاذا أصبح العالم ما هو عليه، كما أظهرت أن الرغبات

يمكن أن تتحقق، وأعطت أملاً للناشئين والعاجزين، وجعلت أعنف الشريرين قابلاً للهزيمة.. وبرهنت أن الخير يستطيع أن يهزم الشر. وعلّمت كل من أصغى إليها كيف يعيش ويعمل في انسجام. وتقترح «ليز لانجه - لارسن Liz Lunge Larsen» أن «الحكايات الشعبية نشأت في المنطقة الحدودية القائمة بين المعلوم والمجهول. على أنَّ ما وراء هذا الخط تقبع التنانين، كما حذرت الخرائط القديمة».

بدأ سرد القصص مع الأغاني والحكايات التي أنتجتها الجماعات البدائية لوصف عملها اليومي. وتلاحظ القاصّة «روث سوير Ruth Sawyer»: «أنَّ الجهود البدائية الأولى تمثّلت في لحن بسيط يساير إيقاع نشاط قَبَلي يومي، مثل طحن الحبوب، أو التجديف بقارب أو زورق صغير، أو شحذ الأسلحة للصيد أو الحرب، أو رقصٍ شعائري... وخلال تفكير الجماعات البدائية في عظمة الطبيعة، والقوى التي تقف خلفها، والسلوك البشري، خلقت هذه الجماعات حكايات لتفسير الأشياء التي لا يمكن تفسيرها.. هذه الحكايات تطورت وشكلت أساطير الأبطال، والحكايات التفسيرية، والخرافات.

فحين شعر قدماء اليونانيين، على سبيل المثال، بالخوف من الرعد، اخترعوا قصة تدور حول إله غاضب هَزَّ الجِنان. وحين لم يفهموا كيف تدور الشمس؟ ولماذا؟ تخيّلوا إلهاً يقود عربة عبر السماء. ومع مرور الزمن، أصبح الفولكلور الذي انتقل من جيل إلى جيل إرثَا الثقافي. فالحب، والكراهية، والأعمال البطولية، والقيم، والأخلاق،.. وسمات واهتمامات إنسانية أخرى.. أصبحت تؤدي دوراً هاماً في خرافات جميع الثقافات.

في حقبة ما حصل اعتقاد عام بأن الفولكلور كله نشأ عن حضارة واحدة ما قبل تاريخية.. وممن اعتقد بوجهة النظر هذه «الأخوان غريم Grimm» اللذان جمعا قصصاً من جميع أرجاء ألمانيا. فقد رأيا أن الناس الذين يهاجرون من منطقة إلى أخرى يحملون حكاياتهم معهم. ووجهة النظر هذه يمكن أن تفسر الاختلافات الإقليمية في الحكايات الشعبية، مثال ذلك تطور حكاية «أنانز العنكبوت Ananse the spider» في غرب إفريقيا إلى «أنانزي» في جزر البحر الكاريبي، ثم إلى «العمة أنانزي Aunt Anenzi» في الولايات المتحدة.

على أنَّه حين درس الباحثون هذه الحكايات في عدة ثقافات مختلفة، أصبح من الواضح لديهم أن بعض الحكايات يجب أن تكون قد نشأت بصورة عفوية في أماكن عديدة مستقلة... مما يفسر المئات من تنوعات قصص سندريلّا التي تروى عبر العالم.

واليوم يرى علماء الأنتروبولوجيا أن كلا النظريتين حول منشأ القصص الشعبية صحيحتان. فالباحثون مثل «إيونا وبيتر أوبي Iona & Peter Opie» يلاحظون أنَّه ليست هناك نظرية واحدة مُرضية بشأن منشأ حكايات الفولكلور أو معظمها. فينابيعها عديدة بالتأكيد، وأعمارها تختلف اختلافاً كبيراً، ومعانيها - إذا كان لها معان - شديدة التنوع. وما نعرفه، هو أن الناس، في كل مكان، يسردون القصص، ويستمعون إلى قصص. وقد قاموا بذلك على مدى حقب طويلة...

٢- **التطور:** إنَّ الانتقال من إعادة السرد الشفوي إلى النسخ المطبوعة للحكايات الشعبية يعود إلى قرون بعيدة. فبعض الحكايات الشرقية ظهرت مطبوعة منذ القرن التاسع الميلادي.. وفي أوروبا جمع سترابارولا Straparola (١٤٨٠-١٥٥٧م) واحدة من أقدم مجموعات الحكايات القديمة وأكثرها أهمية، في منتصف القرن السادس عشر في البندقية Venise وهي: «Piacevoli Notti» المجلد ١ و٢ (طبع في ١٥٥٠ و١٥٥٣). ويضم العمل عشرين حكاية شعبية منها: «الجميلة والوحش» و«الهر ذو الحذاء الطويل». أمَّا مجموعة «شارل بيرو Charles Perrault» الفرنسية بعنوان «قصص وحكايات من الزمن الماضي، مع حكم أخلاقية» (١٦٩٧م)، فقد ساعدت على ازدهار أدب الفولكلور في أوروبا. لقد ضمَّن بيرو مجموعته حكايات «الأميرة النائمة» و«ذات القبعة الحمراء»، و«سندريلّا» و«الهر ذو الحذاء الطويل» إضافة إلى حكايات أخرى معروفة، والعديد من «الترانيم» التي ما تزال شائعة إلى اليوم.

وكما هو الحال في جميع الفولكلور، فإننا لا نعرف دليلاً وافياً حول أصل «الترانيم Nursery Rhymes»، إلا أننا نعرف أن هذه القوافي ارتبطت بالأحداث السياسية والاجتماعية المختلفة. وللعديد من الترانيم على الأرجح أصل بسيط. وربما جرى تأليف بعضها لتعليم الأطفال العدّ، أو أحرف الهجاء، أو أيام الأسبوع، إضافة إلى المشاركة في التقاليد الهامة، أو لتذكيرهم بتلاوة صلواتهم.

أمَّا البعض الآخر فقد قُصد منه الاستمتاع بكل بساطة. والاسم الأدبي «الأم إوزة Mother Goose» ارتبط في البداية على الأرجح بطبعة شارل بيرو (١٦٩٧م)، وتظهر على غلافها صورة امرأة عجوز تغزل الصوف، وتسرد القصص، وعنوان الكتاب «حكايات أمي الإوزة Contes de ma mére l'oie, mother Goose». واليوم يرتبط اسم أمي الإوزة، بالدرجة الأولى، بـ«الترانيم»، وليس بالحكايات الشعبية التي سجلت للمرة الأولى في أواخر القرن السابع عشر.

للحكايات الشعبية جذور أدبية عميقة. فخلال القرن الثامن عشر جرت طباعة «خرافات Fables» «لافونتين La Fontaine»، و«حكايات الجن Fairy Tales» لـ«الكونتيسة دولنوي Countess d'Aulnoy»، و«الجميلة والوحش Beauty and the Beast» لـ«دوبومون De Beaumont». ونحو نهاية القرن الثامن عشر، قام علماء لغة مثل «الأخوين غريم Grimm brothers» بدراسة الفولكلور بحثاً عن العادات واللغات في المجتمعات المختلفة. وقد تجوّل الأخوان في الأرياف وهمَّا يسألان سكانها أن يقصوا عليهما الحكايات التي يتذكرونها. كما ألَّف الأخوان غريم قاموساً ألمانياً وكتاباً في القواعد، ولكنهما يُذكِّران على الأخص بإعادة روايتهما للحكايات التي سمعاها، وقد تشكلت الطبعة الأولى لهذه الحكايات التي أصدراها في بداية القرن التاسع عشر، من مجلدين.

حصلت «الحكايات الشعبية الألمانية German Popular stories» وهي الترجمة الإنجليزية لحكايات الأخوين غريم، بتصوير «جورج كروكشانك George Grikshank»، على نجاح كبير حين طبعت عام (١٨٢٣م)، وزادت في احترام القصص القديمة بين الباحثين والمربين، الذين رأوا فيها «صفعة للفكر العقلاني». وتبع شعبية حكايات الأخوين غريم حماس عارم لجمع الفولكلور المنتشر حول العالم. فجمع «جوزيف جاكوبسن وأندرولانغ Joseph Jacobson & Andrew Lang» الحكايات الشعبية في إنجلترا، فحكايات الجن الإنجليزية تتضمن العديد من القصص المحبوبة، ومجموعات (لانغ) تتميز كتبها باللون مثل «كتاب الجن الأزرق The Blue Fairy book»، الذي يستخدم حتى الآن بصفته مصدراً أولياً للحكايات الإنجليزية.

وخلال منتصف القرن التاسع عشر، جمع الباحثان النرويجيان «بيتر كريستيان أسبورنسن وجورغن ي. مو

«Peter Christian Asborensen & Jorgen E. Moe» معظم الحكايات الإسكندنافية التي نعرفها اليوم.

وعلى الرغم من أنَّ معظم الراشدين يعترفون اليوم بأهمية مشاركة الفولكلور مع الأطفال، فإنَّ بعضهم يشعر أن في تلك القصص الكثير من الجنس والعنف. وحين نرجع إلى الحقب التاريخية الماضية نرى أن تلك القصص التي اشترك فيها الجميع شفوياً خلال عقود عديدة، أصبحت بحلول القرن السابع عشر موضع تساؤل من عديدين رأوا في تلك القصص الكثير من الفجاجة، والوحشية، وقلة الشرف، وسوء القيم الأخلاقية، وعدّوها غير صالحة للأطفال. كما أنَّ «جاك زايبس Jack Zipes» (١٩٧٩م) نبه «إلى أنَّ هذه القصص تعرّضت للرقابة والمنع خلال الحقبة الأولى من صعود الطبقات المتوسطة إلى السلطة نظراً لأن مكوّناتها غير الواقعية شجّعت اللعب التخيلي، والاستكشاف الحر، خلافاً لتعاليم الرأسمالية العقلانية، والروح البروتستانتية. ولم يتغير الوضع إلا في نهاية القرن التاسع عشر، حينذاك لم تعد تلك القصص تعد خطرة على العقول الصغيرة، وأصبحت الكتب متوافرة بصورة عامة في الأسواق، ولكن حتى في القرن العشرين، ماتزال هناك أصوات تشكك في جدارتها.

ومهما كانت التفسيرات حول أصول القصص وأغراضها، فمن الواضح أن نماذج مماثلة أو صوراً، أو أنماطاً للحبكات، أو ثيمات، أو شخصيات، ترددت في القصص القديمة، تظهر في خرافات وأساطير وحكايات الشعوب كلها في جميع الأزمان والأماكن. والأبطال التقليديون في العديد من الثقافات يشتركون في العديد من الملامح، كأن تكون لهم في الغالب ولادة غير عادية... يغادرون المنزل ويذهبون للبحث.. تأتيهم مساعدة سحرية.. يجهدون ليثبتوا جدارتهم من خلال تجارب... ويحصلون على مكافأة سخية لقاء بطولاتهم..

وفي العديد من القصص الأخرى، يظهر نموذج الأم الجيدة (الجنية العرّابة)، والأم السيئة (زوجة الأب الشريرة أو الساحرة العجوز)، والشر الذي يكمن خلف كل شخص (مثل ظله)... واستمرار الأشخاص في مقارعة قوى الشر لضمان بقاء الخير ويلجأ البعض إلى إعادة سرد القصص القديمة بوضعها في أزمنة حديثة.

لقد أعطى الفولكلور الثيمات التي تقف وراء العديد من القصص الحديثة... قصص الشعب كل الشعب الذي يستمر في أداء دور جوهري في حياة الأطفال. فقيم الشجاعة والإخلاص والتحدي.. التي تتجسد في بعض تلك القصص تستمر في إثارة القراء الصغار، بينما تجعلهم الفكاهة والمبالغات في قصص أخرى يضحكون. والفولكلور من جميع أنحاء العالم يساعد القراء الصغار على إدراك الأسرة العالمية للقصص التي توفر لهم العديد من الأمثلة حول القيم الإنسانية المشتركة.

تقويم الكيف في الفولكلور:

هذه الحكايات القديمة، تكون في أحسن أحوالها حين يعكس أسلوب كتابتها أصلها اللغوي. فالعبارات الحية، واللغة الإيقاعية تشد انتباه السامع، وهذه السمات تبقى خلال الإعادة الجيدة للسرد. حين تقرأ بصوت عال، اِصغ للّغة ذات الجرس الطبيعي التي تتضمن صوراً وضربات منغمة وإيقاعات للخطاب. إن الجذور الشفوية تعني أن معظم الفولكلور يدخل على الفور إلى الحَدَث (أو الحبكة)، ذلك أن الأشخاص موضوعون فيه بشكل نمطي محدّد، مثل الأميرة الجميلة، والإطار الغائم الذي يشار إليه غالباً بعبارة: كان في قديم الزمان.

أمَّا ثيمات هذه القصص، فهي تمثّل القيم والمعتقدات البالغة القدم، التي شكّلت الأساس الذي استندت إليه حياة الشعوب القديمة، وهذه يجب أن تظهر على الفور للقرّاء الصغار.

إنَّ الحكايات التي تحافظ على الأصالة الثقافية للروايات الأولى هي التي تمثل تلك الثقافات. وإعادة السرد الممتازة لحكاية ما تلاحظ الأصول الثقافية لتلك الحكاية، وغالباً ما تذكر مراجعها. والفنانون يقدّمون كماً ضخماً من التفاصيل في رسومهم – تفاصيل قد لا توفّرها لغة الفولكلور. أضف إلى ذلك أن لدى الفنانين فرصة فريدة لخلق رؤاهم الخاصة، لأن الحكايات التي رويت آلاف المرات لا تقدّم إلا صفات عامة حول الإطار والأشخاص.

لذلك انظر إلى الرسوم الفنية الممتازة التي تكمل السردية وتعكس الإرث الثقافي للحكاية. وحين تقوِّم الفولكلور اِبحث عن صفات الأصالة والتميز في اللغة، والثيمة، والتصوير. وسنلخص فيما يلي الصفات التي يجب توافرها في لغة الفولكلور ورسومه.

اللغة:

- أن تكـــون صـــدى للغـــة الشفوية مع إيقاعات طبيعية غنية.
- أن تعكـــس الأصالة الثقافية للروايات الأولى للأثر الفني.
- أن تحافـــظ علـــى البنيـــة الأصليـــة للحكايات الشفوية.
- أن تستكشف ثيمات عالمية هامة.

الرسوم:

- أن تكون نموذجاً للتميز الفني.
- أن تكمل السردية وتوسعها.
- أن توفّر تفصيلاً ثقافياً أصيلاً.

النمـاذج فـي الفولكلـور Patterns in Falklore:

يتعرّف التلاميـــذ واسعو القـــراءة بسرعة نماذج تتكرر في فولكلـــور العديد من البلدان. ومع تكـــرار الأشخاص، والأحـــداث، والحلول في قراءاتهم، يبدأ هـــؤلاء التلاميذ في تعرّف الأعراف والأفكار الرئيسة والثيمات التي تشكل هذه الحكايات، ثم يستخدمـــون هذه المعرفة الأدبية في قراءاتهم وكتاباتهم اللاحقة.

ويستطيـــع المعلمون ومسؤولو المكتبات مساعدة التلاميذ في تعرّف هذه النماذج إذا عرَّضوهم لمجموعـــة واسعة من الحكايات التي تمثِّل البنى المميزة.

١-الأعراف (Conventions):

تشكّل الأدوات الأدبية المسماة «أعرافاً» حجر الزاوية في الحكايات الشعبية. وأحد الأعـــراف السهلة للتلاميذ تتمثّل في تعرّف واستخـــدام «إطـــار القصة» فـــي كتاباتهم الخاصـــة، كذلك الذي يبدأ بـ«كان في قديم الزمان» وينتهي بـ «عاشوا بسعادة وهناء».

إنَّ التنوع في البداية مثل «كان في مملكة بعيدة»، أو غيرها.. ينبه الأطفال إلى عناصر الزمـــان والمكان، ويسهم فـــي تمكينهم من تعميم الأعـــراف، ويساعدهم على اكتساب المرونة في ذلـــك. وهكذا يبدأ الأطفال في وقـــت مبكر من تربيتهـــم الأدبية في البحث عن نمـــاذج مصوغة في اللغـــة، والحبكات، والأشخاص يستطيعون تحديدها وتقليدها.

من هذه النمـــاذج المألوفة، الاستخدام المتكـــرر للرقم (٣) في التقليـــد الأوروبي الغربـــي: ثلاثـــة أبطال، ثلاثـــة دببة، ثلاث مغامرات، ثلاث رغبات... والرقم (٧) يتكرر أيضاً، كما هو الحـــال في «الثلجة البيضاء والأقزام السبعـــة» و«البجعات السبع». وفي الحكايات الشعبية لسكان أمريكا الأصليين يتوقـــف العُرف عنـــد الرقـــم (٤) بدلاً من (٣) لأن القصـــص ترتكز عنـــد هؤلاء على الفصول الأربعة.

٢- الأفكار الرئيسة (Motifs):

الفكرة الرئيسة، عنصر بارز يتردد باستمرار، وهي أصغر وحدة مستخدمة لتصنيف الحكايات: التكرار المقصود لكلمة أو عبارة، لحدث أو وحدة عمل، لأشخاص أو أشياء أو أفكار تأتي في مجرى الحكاية. لقد استخدم الباحثون في الفولكلور الأفكار الرئيسة لتصنيف الحكايات الشعبية وتحليلها، كما في المجلدات الخمسة لِـ«ستيث تومبسون Stith Tompson» بعنوان: «مسرد أفكار الأدب الشعبي Motif - Index of Folk-Literature» (١٩٥٨-١٩٥٥م). والعديد من الحكايات تشترك في شخصيات متشابهة (مثال ذلك: الابن الأصغر، المحتال..)، والعديد منها تحتوي على أشياء سحرية (مثل البساط الطائر، أو قِدر الطبخ، أو الأحذية الطويلة، أو أي نوع من الأحذية)، والعديد أيضاً يضم حكايات ينام فيها الأشخاص مدة طويلة من الزمن، أو يعبِّرون عن رغبات.. والبهائم والضفادع فيها أمراء حقيقيون، والمخلوقات الشريرة، والكائنات الإنسانية يمكن خداعها بسهولة.. هذه هي العناصر الفولكلورية التي تجعل هذه القصص شديدة الجاذبية للأطفال من جيل إلى جيل..

تتضمن العديد من القصص بعض الأفكار التي يستطيع التلاميذ تحديدها حين يقومون بمقارنة الحكايات الشعبية، فقصص سندريلّا تحتوي غالباً على حذاء صغير، وهروب من اجتماع، وابنة صغرى تلقى معاملة سيئة، ورجل غني أو أمير، وزوجة أب شريرة، وشخصية سحرية تلبّي الرغبات.. والأشخاص والآلهة، والساحرات، والمحتالون، وزوجات الآباء... يتصرفون بطرق نمطية.. وهكذا يتعلم القرّاء الصغار أن يتنبؤوا بأفعالهم في ظروف معينة.

هناك نوع ثانٍ من الأفكار يتضمن أشياء سحرية، أو رُقىً، أو لعنات، أو رغبات بصفتها مركزاً للحبكة. فحبات من الفاصولياء مرمية بلا مبالاة خارج نافذة تأخذ طريقها إلى مملكة سحرية في حكاية «جاك وحبة الفاصولياء»، على سبيل المثال. والعنصر السحري يكون أحياناً رقيةً أو سحراً، فـ«الثلجة البيضاء» و«الأميرة النائمة»، هما ضحايا لعنة من ساحرة شريرة، جعلتهما تنامان حتى تأتي قبلة من أمير وسيم لإيقاظهما..

وفي بعض القصص تسبب اللعنة الشريرة تحولاً للإنسان إلى كائن أدنى مرتبة. ولا يمكن إعادة الضفدع أو الحمار، أو البهيمة إلى الوضع الإنساني إلا بالحب واللطف. فقصص «الأمير الضفدع»،

و«الأمير الحمار» و«الجميلة والوحش» هي قصص تحوّلات.

وهناك نوع ثالث من الأفكار يتضمن الاحتيال على شخص ما أو خداعه. ففي القصص الإفريقية والكاريبية يكون المحتال «الرجل العنكبوت»، وفي قصص أفريقيا الغربية يكون المحتال «أرنباً»، وفي القصص البرازيلية «سلحفاة»، ولدى العديد من سكان أمريكا الأصليين يكون المحتال «ذئباً صغيراً Coyote».

٣- الثيمات (Thames):

الثيمات في الحكايات الشعبية واضحة على الرغم من أنها لا تذكر صراحة. وهي تعبِّر عن قيم الناس الذين وضعوها وتعكس فلسفتهم في الحياة.

إنَّ الثيمة في الحكاية الشعبية تدور حول موضوع يلقى اهتماماً عالمياً، ويتكرر فيها المرة تلو المرة وهو تمثيل الصراع بين الخير والشر، والكراهية، والخوف، والكسل، والنهم مقابل الحب، والأمان، والجدّ، والكرم. ويعبر عن هذه الثيمة (أو الثيمات) من خلال أبطال يمثلون إحدى السمات. مثال ذلك: الجنية الشريرة في «الأميرة النائمة»، وزوجة الأب في «الثلجة البيضاء» وهما تمثلان الشر. وقد دُمِّرتا في النهاية، وانتصر الأشخاص الذين يمثِّلون الخير. إن ثيمات من هذا القبيل تجلب الثقة، فجميعنا يريد أن يعتقد أن الخير يتفوق، وأن الشر يلقى العقاب.

وفي حكايات «السحر والتحويلات» يتجسد الصراع بين الخير والشر بصفته تضاداً بين المظاهر السطحية، والسمات العميقة للطيبة. فالأميرة الجميلة ترى طيبة الأمير المخفية تحت القناع الكريه أو المضحك للبهيمة، أو الضفدع، أو الحمار.. والأمير يرى الجمال تحت اللباس القذر المهلهل للصبية، وفي حكايات أخرى مثل بعض روايات «الأميرة النائمة» يقع العالم كله تحت لعنة شريرة، مقنَّعة ومخفية عن الرؤية الواضحة حتى ينتصر الخير.

هناك أيضاً ثيمة «**البحث**»، الذي يتمركز حول السعادة، أو الهوية الضائعة، والذي يتابعه البطل بغية استعادة الانسجام في الحياة. ولا ينجح البطل في مسعاه إلا بعد المحاولات المتكررة، والكثير من الآلام، والانفصال الطويل عن الأحباء... وهو غالباً ما يُظْهِر الجرأة، والكياسة، والتضحية.

خاتمة:

يعد الفولكلور قاعدة لفهم الأدب بصورة عامة، كما أن أصوله الشفوية تجعل منه مصدراً رائعاً لسرد القصص والنمو اللغوي، مما يفتح طريقاً للإبداع.

لذلك كان من المفيد للأطفال والمراهقين أن يمضوا قسطاً من وقتهم في قراءة بعض روائعه، والتدرب على إعادة سردها، وتلخيصها، وتمثيلها بأشكال أدبية وفنية متنوعة.

أضف إلى ذلك أن الفولكلور يوفر فرصة لتعميق فهم تعدد الثقافات. فهو يعكس قيم العديد من الثقافات وآمالها ومخاوفها ومعتقداتها. وعن طريق الاعتراف بالموضوعات التي تتردد في الفولكلور من جميع أرجاء العالم نستطيع أن نبني جسراً للتفاهم بين الشعوب، والارتقاء بها جميعاً.

المرجع

- Lee Galda, Lawrence R. Sipe, Lauren A Liane, Bernice E. Cullinan, Literature and the child, 8th edition (2015), Wadsworth, cengage learning, U.S.

«جبران متصوف عصره» *

**
قمر كيلاني



جبران خليل جبران (١٨٨٣-١٩٣١م) كان شاعراً، ورساماً، وكاتب قصة قصيرة، ورواية، ومقالة.. باختصار كان فناناً متعدد المواهب.

لم يتح لفنان أو أديب من الشهرة في عصره ما أتيح لجبران، وهذا بالتالي ما جعله مجالاً للبحث، والدرس، والنقد، وتناول فنه في كثير من الجوانب.. لكن هذا الجانب الذي نطرحه هنا لم يتناوله إلا القلة.. نذكر منهم صديقه ومعاصره (ميخائيل نعيمة)، كما أن

* هذه الصفحات هي جزء من بحث وجدناه بين أوراق الأديبة قمر كيلاني.

** أديبة وباحثة وروائية سوريّة رحلت عن عالمنا في عام (٢٠١١م).

وجهة النظر التي توصلنا إليها هي جديدة إلى حد ما بحيث نؤكد على أن جبران كان متصوفاً.. ولكن باتجاه عصري، أو هو متصوف إنما بطريقته الخاصة، وبرؤياه الخاصة إلى الله، والكون، والوجود الإنساني.

وإذا كان الاعتقاد السائد بأن المتصوف في النتيجة هو الذي ينتمي إلى مذهب صوفي معين فإنَّ جبران هو الذي ابتدع مذهبه هذا ثم انتمى إليه. وإذا كانت التيارات الصوفية قد تعطلت أو انقطعت عن واقعنا الحالي كتيارات أو اتجاهات فكرية أو دينية فإنها لم تنقطع عند أفراد أو فئات معينة من الناس ظلوا موصولين بها من خلال التراث الروحي والإنساني عامة.. وجبران من هؤلاء.. أضاف إلى بثه الحيوية فيها واتصاله بها دعوة علنية.. ثورية جريئة وبمنتهى القوة، وعلى نطاق شامل أراد لها أن تعم البشرية جمعاء فكأنه. في هذه الناحية بالذات. غدا متصوف عصره بمعطيات جديدة هي من صنعه، وبمنطلقات جديدة هي خلاصة ثقافته أولاً، وفكره الثوري المتمرد ثانياً.

عوامل مؤثرة في هذه النزعة:

الهجرة: لم يكن لجبران يد في هجرته من وطنه لبنان إلى أمريكا.. كان صغيراً إذ هاجر وماتزال عيناه مبهورتين بجمال القرية اللبنانية (بشري).. فالقلب الذي بدأ يتفتح كان لا يزال مرهوناً بالوطن.. والوطن يتمزق بين الحروب، والمجاعات، والقهر، والفقر.. والمهجر موطن شرس للأطماع المادية، وآلية الحضارة التي تنفي الروح. وبما أنه غير قادر على أن يقف في وجه هذه الريح العاتية التي حملت سفينته من شرق العالم إلى غربه فما كان عليه إلا التسليم بهذا الواقع الجديد.. التسليم وليس الاستسلام.. الإذعان وليس الرضوخ، أو الرضى.

الإيمان بالقدر: والتسليم نوع من الإيمان بالقدر.. والله هو الذي يقدّر وهو الذي يقرر.. والإنسان من هذا المنظور ليس إلا ريشة في مهب الريح. وأرض النبوات مقترنة في ذهن جبران بالإرادة الإلهية التي هي الأسمى والأعلى.. وما إرادة الإنسان إلا قبس منها لكن هذا ليس إلا دافعاً وحافزاً لفهم ماهية هذه الإرادة من خلال الأقانيم الأصلية التي تجلت فيها.. ليس إلا ثورة للوصول إلى حقيقة الله المنسكبة في الإنسان خيراً، ومحبة، وازدهاراً.

خيبة الأمل: في عالم الحضارة الذي ألّه جسد الإنسان وأهمل ذاته ما أعطى اهتماماً بالمكتشفات، وحَجب الروحانيات. وقد بدأت هذه الخيبة عندما اكتشف جبران أن هذا العالم المتحضر إنما هو في الحقيقة متقهقر من حيث القيم الروحية، والمثل العليا الأخلاقية.. أين منه عالم الشرق الطافح بعطر الإيمان.. المفعم بالمحبة، والتآلف، والتسامح، والخير، والتواضع؟ أين هذا العالم الصاخب المجنون حيث يسود ضجيج الآلة فيصم الآذان، ويسد القلوب عن عالم السكينة والهدوء حيث تنزل آيات الحكمة على قلوب الناس كما الندى على الأزهار؟ هل كان يريد لهذا العالَم الأمريكي أن يكون مثالياً أم كان يحسبه الجنة؟

ويبدأ يتساءل: ما قيمة الإنسان وما يملك إذا لم يعش إنسانيته؟.. وتبدأ تلك الصرخة.. صرخة الاحتجاج تتحول إلى نداء، ثم إلى دعوة شاعر لا تلبث أن تصبح رسالة نبي يبشر بتعاليم جديدة في عالم جديد. وعندما يجد أن من يسمعونه قلة، ومن يتبعونه أقل ينكفئ إلى عالم الذات ليصوغ مذهباً صوفياً يؤمن به، ويتحمس له كلياً، ويعيشه أو يطبقه على نفسه جزئياً وبشكل يضطرب بين الحدة والقوة، وبين التراخي والضعف حسب ظروفه، ومراحل حياته.

ثقافة عميقة وشاملة: فجبران قد اطلع إضافة إلى كتب الشعر، واللغة، والأدب، والدين على مذاهب الصوفية وأعلامها، وخبر علوم الأمم السالفة، وقرأ الكتب المقدسة بنظرته الخاصة، وبروحه الخاصة، كما قرأ كذلك سير الأنبياء، والقديسين، والأولياء، والصالحين، هذا إضافة لما اكتسبه في المهجر من أنواع العلوم والمعارف، وخاصة فيما يتعلق بالفلسفة المادية الحديثة. وكان لنيتشه في كتابه «**هكذا تكلم زرادشت**» أثر كبير في تردده بين الاتجاهين: التصوف من جهة، والتفوق الإنساني بالإرادة من جهة أخرى. وكلاهما بالأصح يحتاج إلى الإرادة لكن مظاهرها تختلف سلباً وإيجاباً، وكان قد قال عن كتاب «نيتشه» هذا أنه أعظم ما عرفته كل العصور.. ولعله تأثر به أو حاول تقليده في فكرة كتابيه «**النبي**»، و«**المجنون**».

ونستطيع أن ندل على معالم من ثقافة جبران: ثقافة دينية مسيحية، ثقافة غربية صرف، ثقافة تاريخية في حضارة المنطقة، وقوف على شخصيات وأعلام مثل: ابن خلدون، المعري، ابن سينا، المتنبي، ابن الفارض «خصوصاً»، أبي نواس، وغيرهم.

اتجاه أدبي: هي الرومانسية التي كانت سائدة في عصره ومنها انتقل إلى النزعة الصوفية. ومع أن الرومانسية قد انتهت في الغرب، ولم تكن في الأدب العربي إلا ملامح باهتة أو خليطاً من اتجاهات أخرى إلا أن جبران كان ينحو بها منحى صافياً أقرب إلى انبثاقاتها الأولى مما جعله عنيفاً عاطفياً من جهة، حزيناً متعاطفاً مع الطبيعة من جهة أخرى.

أراد جبران أن يعود إلى الطبيعة.. إلى الفطرة.. إلى السذاجة والبراءة كرد فعل على عالم الحضارة الأمريكية. لقد خلّف وراء ظهره لبنان المقترن في ذهنه بكل تلك المدلولات، ولم يعد قادراً على الرجوع إليه.. فما عليه إذن إلا أن يعود بالخيال، وما سبيله إلى ذلك إلا الرومانسية، وما كانت أشعاره في لبنان لتعذُب، وتقطر شغفاً وحناناً لولا هذه الغربة. فالغاب يصبح رمزاً، والسواقي، والأنهار، وقمم الجبال المكللة بالثلج تغدو كلها محملة بمدلولات جديدة، ويكتسي كل شيء حللاً لؤلؤية تقطر بندى الدموع ذلك لأنها من صنع الخيال.

ومن منطلق رومانسي أيضاً هو تأكيد الذات انتقل جبران إلى المبالغة في تأمل الطبيعة، والذوبان فيها أي إلى نوع من الصوفية جديد، وبمفهوم معاصر جديد. إنها الصوفية التي يرسم طريقها الحب وتنبع من الأرض.. وهو الحب البشري لا الهابط من السماء.. وإنها الصوفية التي تخرج من الذات الإنسانية. ككل مذاهب الصوفية. لتشمل العالم كله المادي، والميتافيزيقي أو الروحي.

وجبران وقع فيما وقع فيه الصوفيون قبله وهي مأساة اللغة فقد أراد أن تكون له لغته الخاصة، وتعابيره الخاصة، ومفرداته الخاصة، أو باختصار أدواته الفنية الخاصة فلم يجد إلا وسائل التعبير العادية، المستعملة والمألوفة فتمرد على ما لم يعجبه منها، وانتقى ما أعجبه، وشحن هذه الوسائل بتلك الطاقة الروحية الخلاقة حتى غدت شيئاً فذاً. ولعله أعرض عن كثير من الألفاظ الفصيحة إلى ما يراد منها أو يماثلها في العامية، أو مألوف الكلام ودارجه لأنها في رأيه أقدر على أن تنقل ما يريد من فكرة أو عاطفة.

ولم تكن اللغة بالنسبة إليه إلا شعرية.. ولم يتعامل معها إلا شعرياً سواء في القصة، أو المقالة، أو النثر الفني.. وهذا طابع تركته بصمات الرومانسية، واستطاع أن ينفذ منه إلى الصوفية.

الحب عند جبران: الحب هو الوسيلة للوصول إلى الله.. كل شيء تجليات للحقيقة الإلهية: الشجرة، الماء، الغاب، الناي، المرأة، البلبل، الخ...، الحب سابق للمعرفة، وهو الذي يوصل إلى المبدع الأعظم.. المحور الأعظم أي الخالق.

والحب في مراحلة الأولى هو الحب البشري.. حب الجنس للجنس الآخر.. حب الأهل والجماعة.. حب الوطن، ثم العشيرة الإنسانية التي تقف أمام الخالق وقد انتظمها هذا الحب لتندمج بالحقيقة الأزلية وهي الله.

وفي الحديث عن الحب البشري نجد جبران يمزج بين آرائه الشخصية وبين ثقافاته المتنوعة وأولها الثقافة المسيحية النقية، فهو يخترق الشرائع كلها لا المسيحية فقط ليصل إلى بذورها فيفهمها كما زرعها المسيح بنفسه: تواضعاً، وبساطة، وفقراً، ومحبة لا طقوساً وكنائس، وتراتيل وتعازيم. إنه يريد أن ينزع عنها هذه القشور التي تحجرت مع الزمن حتى غدت على الرغم من بريقها وملاستها صلبة.. كفصل جوهر الدين وحقيقته عن الناس فهم إذ يلامسونها لا يعثرون إلا على الصلابة إلا إذا كانوا ثائرين مثل جبران. أما إذا كانوا سطحيين فيؤخذون بالملاسة، والنعومة، ويظنون أن هذا هو المقصود بها. هذه الفلسفة ليست بحاجة إلى التفكير العميق بمقدار ما هي بحاجة إلى الجرأة.. وجبران كان جريئاً أمام الإقطاعتين: الدينية والسياسية. الدينية أخذت منه الحيز الأكبر، والأمثلة في مؤلفاته كثيرة، ولا حاجة لإيراد نماذج منها لأن تهجمه على الدين، ورجال الكنيسة وتحجرها يتردد كثيراً في *شعره*، وفي *نثره*. ولعل محور قصصه يدور حول ذلك أيضاً. أراد جبران أن يكون مسيحياً آخر عائداً نحو المسيح.. وهذه المبادئ معجونة مع دمه لا من خلال المسيحية فقط بل التراث الروحي الشرقي كله.

ولأنه يحب الإنسان أراد أن يحطم هذه القواقع من حوله ليصل إلى الجوهر الصافي فيه.. الجوهر الذي لا يختلف بين فرد وآخر من خلال منظور طبقي «فالكاهن ليس أفضل في الروح من خادم الكنيسة، بل على العكس.. فيوحنا المجنون كان أعمق إحساساً دينياً من كل من في الكنيسة، واستطاع أن يؤثر على الناس»، ويخطئ من يظن أن هناك تناقضاً بين موقف جبران من الإنسان ومن تأثره بفلسفة القوة وإرادة التفوق عند (نيتشه).. فهو يريد لهذا الإنسان أن يصارع أقداره التي حكمت عليه بالضعف، والخنوع، والذل، وأن يكون

(السوبرمان) بعد أن يحــرر ذاته الإنسانية لا ليطلــق هذه الذات مــن عقالها من أجل الحياة المادية بل ليعود فيصهرها مع الذات الكليــة في انسجــام الطبيعــة وتناغمها.. يريــد بشرية تتيح لكل الناس أن يأكلوا، وأن يتمتعــوا بالحياة، ويكونوا أسرة واحدة ليس فيها غني أو فقير، ولا حاكم وذليل، أو ظالم ومستضعف. وفي هــذا فليتأمل المتأملون في ملكوت الله.. وليسبــح المسبحون.. أو ليصــلِ المصلّون.. وقد يذوبــون، ويغنون، ويكون منهم المتصوفون، أو ليعش منهم من يعيش على الفطرة أبرياء من الخطيئة، ومن الشــر. والحرية عند جبــران أولى مراحل تيقُّظ الوعــي الإنساني.. هذا الوعي الذي يتــدرج من وعي الوجــود إلى مرحلة وحدة الوجود.

جبــران والاتجاه الصوفي: يلتقي جبران مع كبار المتصوفة في نظرتهم إلى الوجود والله، وهــو إذ يحمل نظرية خاصة به يبدو متأثراً ببعضــ منهم، وبشــكل خاص بابن الفارضــ صاحب نظرية «وحــدة الشهود» التي تتمثل في مظاهر الكون المتعددة «حال الأذواق والمواجيــد»، وهــي ليست الوحدة التي يراهــن عليها الفلاسفــة، والصوفية المتفلسفــون، وليست وحدة الوجه عند ابن عربي «**أي الوجود الواعــي**»، وليست وحدة الحلاج القائل بالحلــول.. إنَّها اتحاد العبد بربه. والاتحاد كما هو معلوم عند الصوفية هــو النظريــة القائلة بــأن اتحــاد الخالق والمخلوق أمر ممكن، لكن المحافظين منهم على جوهر الدين يقولون إنّه فناء للظواهر في الحق الواحد الأبدي.

وهــذه الوحدة. وحدة الشهود. هي عند جبران كما عند «ابن الفارض» حالة نفسية يمتزج فيها المحب بمحبوبه امتزاجاً كلياً.. وأداة الحــب والمعرفة ليســت الحواس، أو العقــل إنما هي شيء ســام أطلق عليه اسم النفســ أو الروح، والتأثــر واضح من خلال الموسيقا «**وجبران يؤكد علــى فكرة الناي**» لأنَّ الموسيقــا كما يقول أفلاطون تسود من يبث نغماتها، ويؤثر بها على عقول الآخرين، وهي أداة للتهذيب كما هي أداة للإزدواج مع الروح الكلية أي الله. كما وأن جبران يلتقي مع نظرية الفيض الأفلاطوني للسهروردي، ويظهر في قصيدته المواكب، وفي إعجابه بقصيدة النفس لابن سينا. ولعلنا لا نستطيع أن نحدد ينبوعاً صوفياً واحداً لأنه شرب من كل الينابيــع، ولا مظهراً صوفياً واحداً لأنه بدا متعدد المظاهر، مختلف الجوانب.

ولجبران آراء خاصة فيما يتعلق بالبعث والعــودة إلى العالم مــرة أخرى، وفي رأيه أن الحياة قد تعــاد ولو بعد أجيال. كذلك

فإنَّ الجمال في نظر جبران -كما لدى المتصوفة- سبيل من أوضح السبل لسلوك درب الخالق، والوصول إلى الحقيقة الإلهية. والسلسلة موصولة بين الجمال والحب.. بين الطبيعة ومخلوقاتها.. ولاسبيل للفصل بينها، بل على العكس لابد من احتضانها، وفتح العيون عليها لإدراك السر الكامن فيها.

وفي الحديث عن الحب الصوفي عند جبران مجال واسع للأخذ والرد، كما هو الحال عند المتصوفة أيضاً، عن ماهية هذا الحب: هل هو بشري وسيلةً.. إلهي غايةً؟ أم هو بشري المعنى الإلهي؟ أم هو إلهي متجاوز البشري؟ جبران في هذه الناحية لم يكن مفهوماً لدى معاصريه، فهو إذ يتغنى بالحب الصوفي يعلن أنه ليس راهباً وأن له علاقات «وبعضها جنسية» عندما كان يدرس الفن في باريس. وبعضهم اتهمه بالازدواجية إن لم نقل بالمراءاة.. فكيف يكون متصوفاً من يقيم علاقات غامضة مع نساء ينفقن عليه، ويتفانين في سبيله مثل «ماري هاسكل»؟ ولم بالتالي لا يكون حبه ادعاء، ووصولاً إلى مرتبة أعلى عند نفسه وعند سواه؟ وهل تكون رسائله العاشقة إلى «مي» التي لم يلتق بها إلا نوعاً من التصعيد لهذا الحب المتناقض؟.. إلا أنَّ جبران لم يدعِ أنه انصرف عن الحب بمفهومه البشري، ولم يصرح أنه زاهد، أو راهب. وفي معرض دفاعنا عنه نقول: لعله .كما فعل أكثر المتصوفة. اتخذ من الحب البشري سلماً للارتقاء إلى الروحي، ومن ثم الإلهي. ولعله اكتشف ذاته التواقة إلى العلا من خلال انغماسها في الحضيض. يقول في «العاصفة» على لسان محدثه: «كان بإمكاني عبادة الله وأنا بين خلقه، لأن العبادة لا تستلزم الوحشة، والانفراد، وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأنني كنت أجده في بيت أبي، وفي كل مكان آخر، لكنني هجرت الناس لأن أخلاقي لا تنطبق على أخلاقهم».

وفي نظرتنا إلى مذهبه الصوفي لابد من أن نمر على رأيه في الموسيقا، والذي تشابه إلى حد كبير مع ما رآه المتصوفة في الطرب والغناء.. ولكن رأي جبران كان بمفهوم عصري لأن نظرته الشاملة إلى الكون تنطلق من أنَّ الحياة انسجام، والطبيعة تناغم، والوجود في جزئياته اللامحدودة واللامتناهية كلٌّ موحد. فالموسيقا عنده مرادفة للصلاة.. وسيلة لبلوغ الكشف.. أداة إلهية للتعبير عن الذات.. جسر يصل بين الأرض والسماء. وله مقالة في الموسيقا تعتبر كتيباً، وآراؤه

منشــورة في شعــره ونثره، يقــول: سبّحوا الرب بصــوت البوق، سبحــوه بالمزامير وبالقيثــارة، سبحوه بالطبــل وبالدفوف، سبحوه بالأوتار وبالأرغن، سبحوه بصوت الصنــوج، سبحــوه بصنــوج التهليل، وكل نسمة فلتسبح...» لكنه اختار الناي رمزاً، وأحبه شعاراً للحب.. للمعرفة.. للحكمة.. ولكل كشف وصل إليه.

أعــطــنــي الــنــاي وغــن
وانـــســـن داء ودواء
إنـــمـــا الـــنـــاس سـطـور
كـــتـــبـــت لـــكـــن بـــمـــاء

وجبران شعر بــأن جوهر نفسه لم يكن غيــر شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاتــه قبل انقضاء الدهر، فيقول: «وسبحت فــي فضــاء اللانهايــة، وطرت فــي عالم الخيــال، واقتربت من دائــرة النور الأعلى، وها أنا سجين المادة».

جبران في «النبي»:

جبران في النبي متصوف.. يحمل لوائح كشوفاتــه.. وأســرار تصوفــه.. ومكنونات تجربتــه ليعلنها للعالــم. صحيح أن جبران اختــار هذا العنــوان لكتابــه، وصحيح أنه تشبَّــه بالمسيــح، وأطلق علــى نفسه اسم «المصطفى»، وسمح للناس بأن ينادوه: أيها المعلــم، لكنه في الحقيقة لــم يتناول أمور الدين والدنيا أساســاً كما فعل الأنبياء، بل تناول «مقولات» هي ثمار الحقائق، وقطاف الطرائــق. تحدث عن المحبــة، والجمال، والفرح والترح، والحريــة، ومعرفة النفس، والألم، والأزمات، والخير، والشر، والصلاة، واللذة، والموت كما يتحدث المتصوفون عن جوهر الأشيــاء وعمقها كما تبدت له، وكما عرفهــا.. وحتى عندما تنــاول موضوعات دينية، أو دنيوية كالغذاء، والكساء، والمساكن، والبيــع، والشراء، والأديــان، والشرائع إنما تناولها في هذا المنحى وفي هذا الاتجاه.

إنَّ جبران في «النبــي» هو الذي يسأل، وهو الــذي يجيــب، والذين يريــد لهم أن يقــرؤوا «نبيه» هــذا عليهــم أن يكونوا قد فهموا أسرار مذهبــه الصوفي. وما أسئلته وأجوبته إلا أسلوبٌ اتخذه في حواره العميق مع الذات، لكنه حــوار بصوت عالٍ يخترق الأسماع، ويمزق الحجب، ويسجل لصاحبه اسماً خالداً على الأجيال.

والأمثلة لو شئنــا كثيرة في «النبي» كلها تنبــع من مذهبه الصوفــي.. كلها تصب في بحر أفقه الصوفي.. و«النبي» نفسه كما عرّفه في مطلع الكتــاب هو: الذي كان فجر ذاته، والذي كانت أيام كآبته طويلة ضمن جدرانها، وأطول منها ليالي وحدته وانفراده.

جبران في «المجنون»:

أمَّا جبران في «المجنون» فهو ليس متصوفاً فقط بل درويشاً متجولاً يسير وفي جعبته قصص، وأساطير، وحكايات، وخرافات ينثرها على الناس بينما الأستار وقعت بينه وبينهم. يقول في المقدمة: «كيف صرت مجنوناً: هذه قصتي.. في قديم الأيام قبل ميلاد كثيرين من الآلهة نهضت من نوم عميق فوجدت أن جميع براقعي قد سرقت.. البراقع السبعة التي حكتها، وتقنعت بها في الأيام السبع على الأرض، فركضت سافر الوجه في الشوارع المزدحمة بالناس صارخاً: اللصوص.. اللصوص.. اللصوص الملاعين. فضحك الرجال والنساء، وهرب بعضهم مني إلى بيوتهم خائفين مذعورين. وعندما بلغت ساحة المدينة إذا بفتى قد انتصب على أحد السطوح وصرخ قائلاً: إنَّ هذا الرجل مجنون أيها الناس. وما إن رفعت نظري لأراه حتى قبلت الشمس وجهي العاري لأول مرة فالتهبت نفسي بمحبة الشمس، ولم أعد بحاجة إلى براقعي، وكأنما أنا في غيبوبة صرخت قائلاً: مباركون.. مباركون أولئك اللصوص الذين سرقوا براقعي.

وهكذا صرت مجنوناً .....».

فالشمس رمز للنور الإلهي.. والجنون رمز للكشف عن الحقيقة.. والرضى بهذا الجنون نوع من الغبطة السماوية تنزل على العبد عندما تنكشف الحجب بينه وبين خالقه. أليس هذا من سمات الدراويش أحباء الله الذين يقولون ما يرونه بعيون قلوبهم لا بالعيون التي يرى بها الناس؟ أليس في هذا كما قال جبران: الحرية، والنجاة معاً؟.. حرية الانفراد، والنجاة من أن يدرك الناس كيانه، وفي هذا الإدراك نوع من الاستعباد.

وأول ما بدأ به جبران في «المجنون» مقالته بعنوان: «الله»، وفيها يقول: «عندما ارتعشت شفتاي بالنطق لأول مرة صعدت إلى الجبل المقدس، وناديت الله قائلاً: إنني أعبدك يا ربي.. مشيئتك الخفية شريعتي.. وسأظل خاضعاً لك من سحابة الحياة. فلم يجبني الله بل مر كعاصفة هوجاء، واختفى عن ناظري. وبعد ألف سنة صعدت ثانية إلى الجبل المقدس، وخاطبت الله قائلاً: رأيت في مساء الأمس امرأة جالسة على درجات الهيكل، وكان جالساً معها رجلان واحد عن يمينها، والآخر عن يسارها ينظران إليها، وقد لاحظت متعجباً أن وجنتها اليمنى كانت شاحبة، وأن وجنتها اليسرى كانت موردة».

وهناك سؤال: هل كان جبران يبدع، ويختلق قصصه القصيرة، وأساطيره العجيبة ليحمّلها أفكاره.. كان لاشك يفعل.. لكنه أخذ صفة ما، من موقع ما، كأنما يقول للناس: خذوا الحكمة من أفواه المجانين.

وهكذا.. وبعد هذا العرض نستطيع أن نقول من وجهة نظر صوفية أن جبران كان متصوف عصره بمعنى معاصر لهذا التصوف علماً بأننا تناولنا تصوفه تناولاً إجمالياً لاتفصيلياً، وحاولنا أن نلم شتات مبعثرة من هنا وهناك لنصوغ منها عقداً جديداً تطوق به الأجيال عنق جبران عاماً بعد عام.

أؤكد أن جبران ثائر.. وأن ثورته هي على قيم الروح المهترئة المتداعية تحت سقوف هياكل لاأمة براقة أصبح عليهم . كما كان عليه . أن يجعلوها قيماً نضرة متألقة ولو كانت دون هياكل على الإطلاق.

وليكن لكل ما شاء من دين أو مذهب أو طائفة.. المهم أن يجد الله في أعماقه.

بين شوقي ودرايدن...

د.إبراهيم محمود الصغير*




العبقرية ليس لها وطن معروف، ولا مكان معين، ولا زمان محدد، ولا حدود تمنعها من المضي والتقدم في كل الاتجاهات، إنّها كالسحابة الماطرة، تمطر حيث يشاء الله لها أن تمطر، فإذا ما أمطرت اخضرّت الأرض، وانتشر الخير فيها وحَوْلها، وفي كل مكان تشرق عليه الشمس، هكذا كانت العبقرية في

* أديب وكاتب

الماضي، وهكذا وهي الآن وهكذا ستظل إلى ماشاء الله. من العبقريات ما يحيا ويزهر ويملأ الحياة بهجة وسروراً، ومنها ما يذبل ويموت قبل الأوان، ولايأخذ دوره الحقيقي في الحياة. ومن ضمن هذه العبقريات، التي نحن بصددها، عبقريتان عاشتا وأزهرتا ردحاً طويلاً من الزمن. العبقرية الأولى هي الشاعر «أحمد شوقي»، والعبقرية الثانية هي الشاعر «جون درايدن».

الأول من الشرق، والثاني من الغرب، ومع أنهما يختلفان في المكان والزمان، حيث ولد شوقي في القاهرة، في حي يدعى الحنفي عام (١٨٦٨م)،

وتوفي فيها عام (١٩٣٢م). بينما ولد درايدن في قرية صغيرة من مقاطعة نورثهامبتون في إنكلترا عام (١٦٣١م) وتوفي في لندن عام (١٧٠٠م). إلا أنهما يتشابهان في أمور كثيرة جمعت بينهما، سنحاول أن نذكرها بالترتيب حسب ماتوافر لدينا من معلومات حولهما. فكلاهما عاشا في زمن كَثُرَت فيه الحوادث والحروب والمآسي والمشاكل، وقد انطبع كل ذلك في إبداعهما الشعري والمسرحي والنثري. فشوقي عاش في فترة كانت مصر خلالها محط أطماع تركيا وفرنسا وإنكلترا، مما حدا بإسماعيل باشا، والي مصر آنذاك، لاستصدار الفرمان الذي استقلَّ فيه بإدارة الدولة، وبالتشريع لها، وبإنشاء جيش يقوم بحاجاتها ومطامعها، ولكن إنكلترا وفرنسا حطمتا آماله وقضتا عليه باسم ديون مصر، ودفعتا تركيا إلى خلعه. وانتهت الأمور باحتلال إنكلترا لمصر، بعد الثورة العرابية. وقد نكثت إنكلترا، بعد الاحتلال، بكل وعودها بالجلاء، واستلم بعد إسماعيل باشا، الخديوي توفيق حُكْمَ مصر. وكان شوقي آنذاك قد أنهى دراسته في فرنسا، والتحق بقصر الخديوي توفيق، ثم بقصر ابنه عباس. فلما خُلِعَ الخديوي عباس عن حكم مصر، وقامت الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م)، نُفِيَ شوقي، نتيجة لذلك إلى إسبانيا. ولم يعد إلى مصر إلَّا عام (١٩٢٠م). لقد شهد شوقي كل هذه الأحداث وعاصر الثورة العرابية، وشاهد الاحتلال الإنكليزي لمصر، وكابد آلام الغربة والنفي في إسبانيا. وشاهد صراع الأحزاب المصرية للوصول إلى الحكم. ثم عاصر اليقظة الوطنية بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد، فانضم إليها وآزرها بشعره. كما شاهد ويلات

الاستعمار الغربي في البلاد العربية والإسلامية وتأثر بها كثيراً، وحاول مساعدتها بشعره مثلما كان يساعد ويساند أبناء وطنه في مصر. وكان على صلة قديمة ووثيقة بسعد زغلول، والذي رشَّحه عضواً بمجلس الشيوخ عن دائرة سيناء. وقد بقي بمجلس الشيوخ إلى أن وافته المنية عام (١٩٣٢م).

أمَّا عصر درايدن في إنكلترا، وخاصة النصف الثاني من القرن السابع عشر، فقد كانت الأحداث تتوالى بشكل سيِّئ ومؤلم. فعندما عادت الملكية عام (١٦٦٠م). بمجيء الملك تشارلز الثاني من المنفى ليستلم العرش، وذهاب أخيه جيمس الثاني من العرش إلى المنفى، تظهر لنا الأحداث ما بين عامي (١٦٦٠-١٦٨٨م) ستيوارتياً ساخراً، وستيوارتياً متعصباً، وهما يمهدان لنهاية سلالة ستيوارت الحاكمة، وقد أقصت الثورة المجيدة عام (١٦٨٨م) ملكاً كان يحاول أن يمارس دور الملك القوي تماماً، وبعد ذلك التاريخ تبدأ تسوية للأمور، وهي تسوية بين الاتجاه الجمهوري المتعصب للبيوريتانيين، والاتجاه المتعصب للأخوين ستيوارت سيِّئَي الطالع، أحدثت ملكية محدودة، ونظاماً برلمانياً يتجه ببطء نحو الديمقراطية الحقيقية. وقد أدت كل هذه الأحداث والتناقضات إلى حرب أهلية وإلى الحكم القاسي لحكومة الكومنولث.

وقد ظهر درايدن في دائرة الضوء عام (١٦٥٨م)، عندما كتب قصيدة رثاء عبَّر فيها عن حزنه على وفاة كرومويل. وفي عام (١٦٦٠م) كتب قصيدة أخرى رحَّب فيها بعودة الملك تشارلز الثاني من المنفى وأعلن ولاءه له. وحدث عام (١٦٦٦م) الطاعون، وحريق لندن العظيم، والنصر على الأسطول الهولندي، وقد سجل درايدن كل ذلك في كتابه (سنة العجائب). وتحوَّل درايدن إلى الكاثوليكية في السنة نفسها التي جلس فيها الملك جيمس الثاني على العرش، والذي حوَّل إنكلترا مرة ثانية إلى دولة كاثوليكية وأدى تحوله هذا، وأحداث ثورة عام (١٦٨٨م) إلى فقدانه العديد من المناصب. وقد ظل ثابتاً على إيمانه على الرغم من مجيء ملك بروتستانتي. وقد عانى الكثير من المشقات آخر سني حياته، والتي قضاها في الترجمة لأعمال بعض الأقدمين المشهورين.

وقد تلقى كل من شوقي ودرايدن، تعليماً مميزاً. فشوقي درس في طفولته

فـي مكتب (الشيخ صالـح) في القاهرة، وهو مدرسة قرآنية. ثم انتقل إلى المدرسة الخديويـة، ولعلهـا المدرسـة المعروفة بالمبتديان. وبعدهـا التحق بالتجهيزية، حتـى إذا بلغ السادسـة عشرة من عمره التحـق بكلية الحقوق. فلمـا أنشئ قسم الترجمـة في الكلية انقلـب إليه بعد أن أنهـى السنة الثانية من دروسه القانونية. وعندما أنهـى شوقي دراستـه في قسم الترجمة بعـد سنتين، أوفـده الخديوي توفيق سنـة (١٨٨٧م) إلى فرنسا ليدرس القانـون والأدب. فقضـى هنـاك ثلاث سنـوات بين باريـس ومونبليه أكمل فيها دراسته وعاد إلى مصـر سنة (١٨٩١م)، فعيَّـن رئيساً للقلم الفرنجـي في ديوان الخديوي عباس حلمي.

أمَّـا دريـدان فقـد درسـ أولاً في بلدتـه الريفيـة الصغيرة فـي مقاطعة (نورثهامبتـون). وفـي عـام (١٦٤٤م) التحق بمدرسة وست وينستر، وتلقى فيها تعليمـاً كلاسيكياً، شـكَّل منطلقاً لعلاقة قوية ربطتـه بـالأدب الكلاسيكي وأدت فيما بعد إلـى قيامه بترجمة عيون هذا الأدب إلى اللغة الإنكليزية. ثم دخل بعدها كلية اللاهوت فـي جامعة كامبردج عام (١٦٥٠م) وتخرج منها عام (١٦٥٤م).

ومن الأمور المدهشة، واللافتة للنظر، أن شوقي ودرايدن أصبحا شاعرين للبلاط الملكي كل في بلده. فشوقي أصبح شاعراً فـي بـلاط الخديوييـن، منذ تخـرج من الجامعـة في فرنسا ورجوعـه إلى مصر، ليعين موظفاً في قصر الخديوي، وليمدح آل إسماعيل، وهو الذي يقول:

الـمـلـك فـيـكـم آل إسـمـاعـيـلا
لا زال بـيـتـكـم يـظـل الـنـيـلا

أمَّا درايدن، فقد ذكرنا أنه رثا كرومويل فـي البداية عام (١٦٥٨م)، ثم كتب قصيدة رحَّـب فيها بعودة الملكيـة إلى إنكلترا عام (١٦٦٠م) وبرجـوع الملـك تشارلـز إلـى العرش. وقد كتب مسرحية (سنة العجائب) سنـة (١٦٦٦م)، وهي التي أدت إلى تسميته شاعراً للبلاط الملكي عام (١٦٧٠م).

ويبدو أنَّ الشعر كان شيئاً فطرياً لدى شوقي ودرايدن معاً ومع أن دراسة شوقي كانـت القانـون إلا أن ميولـه الشعرية والأدبية كانت الأقـوى بحيث اشتهر بها ولـم يشتهر بالقانون أبـداً، بل إنّ: كثيراً مـن الناسـ لا يعرفـون أن شوقي درس القانون. وكذلك درايدن، درس اللاهوت في الجامعـة إلَّا أنه عُرِفَ أديباً وشاعراً وناقـداً، أكثر مما عـرف لاهوتياً ورجل ديـن، لأنَّ الشعر والأدب غلبا عليه، وقد

يفاجأ كثير من الناس عندما يعرفون أنَّ درايدن درس اللاهوت.

ولا عجب أنهما، أي شوقي ودرايدن قد احتلا مكانة مرموقة في عالم الشعر والأدب، وأصبح كل منهما علماً من الأعلام المشهورة في بلديهما، لأنهما كانا رائدين ومجددين في الشعر والأدب، ويمكن أن نطلق على عصريهما عصر شوقي وعصر درايدن. بل إنَّ شوقي منح وبالإجماع لقب «أمير الشعراء» كما منح درايدن لقب «أب النثر الإنكليزي»، كما يعد أشهر النقاد الشخصيين في تاريخ الأدب الساخر. فشوقي أكمل الطريق الذي بدأه «محمود سامي البارودي» في تجديد الشعر العربي، وأعاد للقصيدة العربية، في العصر الحديث، رونقها وصياغتها وحسن ديباجتها، وأعاد لها ما افتقدته من متانة الحبك، وعذوبة اللغة، وانتعاش الجرس والإيقاع، بحيث أخرجها من سباتها الطويل وحررها من التكلف، وألبسها ثوباً من نسجه الخاص، وتحرر من الإسفاف والترهل والحشو. وهي أمراض تعاني منها القصيدة العربية بشكل عام. كما طرق مواضيع جديدة واقعية في السياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والثقافة، والتي تمس حياة الناس. كما كان الرائد الأول في كتابة المسرحية الشعرية الكاملة، وفي الأناشيد وقصص الأطفال وغيرها.

أمَّا جون درايدن فهو اسم أول عظيم بين الجدد، كما كان جون ميلتون آخر اسم عظيم بين القدماء. إلا أنَّ ميلتون كان بشعره بمعزل عن عصره، مستغرقاً في الأسطورة والدين. بينما درايدن يحدد هويته بصورة رسمية، ويعتبر نفسه بصورة ما مؤرخاً لعصره، يعكس الأحداث الهامة في حياته من خلال كتاباته، التي كانت لها علاقة بتحوله إلى السياسة والدين. وتقع أعظم مساهماته في مجالي السخرية والنقد. أمَّا كناقد أدبي فقد كان نقده مليئاً بالقوة، لاذعاً ومفهوماً. دشن عصراً من «النثر والعقلانية» كما قال عنه «ماثيو آرنولد». وقد كانت مقالاته العديدة، ومقدماته دقيقة فكرياً ومرتبة بعناية. إنها نماذج في أسلوبها النثري، وفي أفكارها أيضاً. هذه القطع هي أول كمية معقولة في النقد الأدبي في الإنكليزية. وقد حصل على مركزه كقائد بجدارة في عصر كان يقدر الصنعة والقوة والتفكير الرصين.

والمتتبع لأعمال الشاعرين وآثارهما، يجد أنهما كلاسيكيان تماماً، بمعنى أنهما اتبعا أسلوب الأقدمين وتأثرا

بهم. فهذا شوقي، على الرغم من أنه مجدد في الشعر العربي، كما ذكرنا سابقاً، إلا أنه ظل في الشكل يتبع العمود الشعري المعروف، ويمشي وفق الأغراض الشعرية المألوفة من مدح ورثاء وغزل ووصف وغيرها.

كما اعتمد في لغته الشعرية، ليس على الكلمات المألوفة فحسب، بل على بعث القديم من الألفاظ التي نسيها الناس، محاولاً أن يبعث في الألفاظ القديمة روحاً تكفل حياتها في الحاضر، وتكون وسيلة من وسائل التجديد. كما تأثر بالشعراء القدامى، ومشى على أسلوبهم، بل وعارضهم في كثير من القصائد، ومشى على منوالهم، كما فعل بسينية البحتري، ونونية ابن زيدون، وبردة البوصيري وغيرهم. إلا أنه لم يكن صورة طبق الأصل عن الشعراء الأقدمين وإنما اتخذ لنفسه أسلوباً خاصاً به، بحيث ظلت شخصيته هي السمة الرئيسية في شعره وأدبه.

أمَّا درايدن، وفي مقالة حول الهجاء، ومقالة حول الشعر الدرامي، فإن فلسفته تظهر بوضوح. وهو يعتبر نفسه كلاسيكياً. وأن هدف الأدب هو إعطاء صورة عن الحقيقة، ولمحاكاة الطبيعة على طريقة الرومان واليونان القدماء. والقدماء هم أفضل النماذج. ومن الأفضل والأضمن للمبتدئ أن يقلدهم. وعلى الأدب أن يرضى أولاً بالمنطق، وعليه أن يتبع القواعد، والقواعد التي أرساها درايدن للإنشاء الدرامي تعود إلى «بن جونسن» في إصرارها على الوحدات. وبما أن الشعر غير المقفى يوحي بالفوضى، فإن درايدن أصر على القافية حتى في الدراما. ونظرية درايدن حول الأدب نظرية متحضرة، إذ ليس فيها مجال لغرابة الأطوار، وللكثير من الفردية، بل تريد انسجاماً مع مقاييس العصر.

والشعر لدى شوقي ودرايدن هو شعر جميل وقوي، يعتمد العقل والمنطق، ويجاري الواقع بكل تفصيلاته، ويعكس شخصية الشاعر على المجتمع، والمجتمع على الشاعر. لذلك فإن شعرهما يعتبر سجلاً يومياً وتأريخاً للحوادث التي جرت في عصر كل منهما، ولهذا نجد أن شعرهما مليء بقصائد المدح، والرثاء، ووصف الحوادث الأليمة كحريق لندن عند درايدن، وزلزال طوكيو عند شوقي وكذلك قصائد المناسبات والاحتفالات وغيرها. ومع هذا فإننا، بالوقت نفسه،

نجد في شعرهما الرقة والجمال، والأسلوب الأخّاذ الرائع، والعاطفة الصادقة، والمشاعر الحساسة والخيال المجنح، وكذلك الوصف الرائع للطبيعة والمشاعر الإنسانية، بل ونجد في شعرهما قطعاً غنائية مليئة بالموسيقا العذبة، التي تأسر الروح، وتستميل القلب، وتنعش الجوارح، حتى وصل الأمر بها أن لحّنها الملحنون الكبار، وغناها المطربون المشهورون، كما فعل عبد الوهاب والسنباطي وغيرهما ببعض قصائد شوقي ومنها: يا جارة الوادي، وسلوا قلبي، ونهج البردة وغيرها، والتي غناها أشهر المطربين ومنهم أم كلثوم. وكذلك شعر درايدن الغنائي الصرف، وهو كثير ومتعدد، والذي تقف فيه مآثره في القمة. وقصيدته «أغنية لعيد القديسة سيسيليا» وقصيدة «عيد ألكسندر» تمجّدان قوة الموسيقا في الأبيات التي تتطلب خلفية موسيقية، وقد لحّنت القصيدة الأولى في الحقيقة بصورة رائعة من قبل «هنري بيرسل» في القرن السابع عشر. ولحّنت الاثنتان أيضاً من قبل «هاندل» في القرن الثامن عشر.

وقد يعجب المرء، كيف لهذين الشاعرين، اللذين أقبلا على الحياة ومباهجها، ومدحا الملوك، وطمعا بالمنصب والجاه، وكتبا عن الحب والغزل، وساهما في الحياة السياسية والاجتماعية، كيف لهما هذا الإيمان العميق والتمسك بمبادئ الدين وتعاليمه، بهذه القوة وبهذه الصلابة العجيبة؟ يبدو أنهما كانا يعملان للدنيا بجد واجتهاد، ولكنهما لم ينسيا أن يعملا للآخرة، عملاً بالحديث الشريف: (**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**).

فهذا شوقي، كان يرى في الخليفة العثماني رمزاً للمسلمين ودعامة لنصرتهم. لهذا مدحه في كثير من القصائد. كما دعا لوحدة المسلمين وتآزرهم في وجه الأعداء. وقد نظم قصائد دينية رائعة، أصبحت مشهورة في كل العالم الإسلامي، ومنها: نهج البردة، سلوا قلبي، ولد الهدى، وغيرها.

أمّا درايدن، فقد تحمّل كثيراً من المشقات، بعدما تحوّل إلى الكاثوليكية عند مجيء الملك جيمس الثاني. وقد حرمته ثورة (١٦٨٨م) من كل امتيازاته، لأنه ظل ثابتاً على إيمانه ومعتقداته. فلجأ إلى الكتابة للمسرح وإلى ترجمة كتب الأقدمين كوسيلة لكسب عيشه. وكان قد كتب قصيدة دينية طويلة بعنوان

«ريليجيولايس» عام (١٦٨٢م) يدافع فيها عـن الكنيسة الإنجليزيـة وتعاليمها. ثم كتب قصيدته الدينيـة الطويلة الأخرى «الأيلة والنمر الأرقـط» عام (١٦٨٧م)، وهـي حوار رمزي بيـن حيوانين، يدافع أحدهما عن الكنيسة الكاثوليكية، والآخر عن الكنيسـة الأنجليكانيـة. كما ربط الشعر بين شوقي ودرايدن، برباط وثيق، كذلك ربـط المسرح بينهمـا. فكلاهما كتب المسرحيـة التراجيدية والتاريخية والكوميديـة، وبالشعـر أيضـاً. طبعاً، لم يكتب شوقـي المسرحيـة إلا متأثراً بالمسـرح الأوروبـي، الـذي وجده في باريـس، أثناء دراسته فيها، وأثناء زيارته إلى لندن، ومنفاه في إسبانيا. لأن الوطن العربي لم يعرف المسرح كمسرح آنذاك، وإنما هـو أدب وافد من الغرب إليه. إلا أن مسرحيـات شوقي لم تكـن ناضجة ومكتملـة، وتحمـل صفـات المسرحية الأوروبية المعروفة لدينا. وفي ذلك يقول «طه حسين» عنه: «أما عن التمثيل، فقد غنى شوقي فأطرب وأثّر، ولكنه لم يمثّل، لأن التمثيـل لا يرتجل ارتجالاً ولا يهجم عليـه، وإنما هو فن يحتـاج إلى الشباب والدرس والقـراءة... فكان تمثيله صوراً ينقصها الروح، وإن حببها إلى الناس ما فيها من براعة الغناء». ومهما كانت آراء النقاد عن مسرحيات شوقي، فيكفي أنها أول تجربـة تتم فـي التأليف المسرحي الشعـري العربي، وإنهـا فتحت الطريق لمن يأتي بعده من كتّاب المسرح الشعري مثل عزيز أباظة وغيره. وقد كتب شوقي خمس مسرحيات شعريـة مأساوية هي: مصرع كليوباترا، مجنـون ليلى، قمبيز، علـي بك الكبيـر، عنترة. وكتـب ملهاة واحدة هي «الست هدى».

أمَّـا درايدن، فقـد كتـب كل أنواع المسـرح تقريبـاً، إلا أن مسرحياته لم تكن، أيضاً بقوة المسرحيات التي كتبها كتاب المسـرح قبله. فمآسيه التي كتبها كانـت مبالغات مليئة بالأعمال البطولية وبشعارات عظيمة عـن الحب والشرف مثل: الملكة الهنديـة (١٦٦٤م)، وأرينج زيـب (١٦٧٥م)، وكل شـيء فـي سبيل الحـب (١٦٧٧م). وتعتبر هـذه الأخيرة أفضل مسرحياته المكتوبة بالشعر الحر، وهي على نمـوذج «أنطونيو وكليوباترا» لشكسبير. ومـن مسرحياته الكوميدية: الشهـم الوحشي، والنسـاء المتنافسات (١٦٦٣م) وزواج عصـري (١٦٦٧م). كما له نـوع آخر مـن المسرحيات هي المسرحيات الساخـرة وأهمُّها: أبسالوم

أكتوفيل (١٦٨١م) والميدالية، وماك فليكوني (١٦٨٢م).

أمَّا في النثر، فلم يكن شوقي جيداً فيه، كما كان في الشعر. إذ كان نثره على النمط الكلاسيكي القديم، مسجوعاً كالمقامات، لذلك لم يلق نجاحاً فتركه وظل ملتزماً بالشعر. وقد كتب بالنثر ثلاث روايات هي: «عذراء الهند»، وصدرت عام (١٨٩٧م) وموضوعها التاريخ المصري القديم إلى زمن «رمسيس الثاني». والرواية الثانية هي «لادياس» أو آخر الفراعنة، وصدرت عام (١٨٩٨م). والرواية الثالثة هي «ورقة الآس» وموضوعها يرتقي إلى زمن «سابور» ملك الفرس. ولشوقي أيضاً، مقالات اجتماعية، جمعت عام (١٩٣٢م) تحت عنوان «أسواق الذهب».

أمَّا درايدن فكان في النثر لا يشق له غبار، فهو الكاتب الوحيد في عصره، الذي حصر ولخص، بتألقه في كل الأشكال، خصائص ذلك العصر. حيث بدأ كتابة مقالاته الأدبية المميزة، والتي أثبت من خلالها أنه ليس ناقداً ذا نظرة ثاقبة فحسب، بل أول من أتقن الأسلوب النثري الإنكليزي الحديث. فهو يعطينا في المقالات، ومقدمات الكتب، وفي المقدمات المسرحية والخاتمات، آراءه المدروسة حول الفن الأدبي. ويمكن اعتباره، أيضاً، أول النقاد الأدبيين الإنكليز. وأن أسلوب درايدن النثري لم يكن مناسباً لعصره فحسب، بل كان يتطلع نحو العصر الحديث. ونثر درايدن منطقي لا يجرفه أبداً صوت الكلمات أو إغراء الاستعارة أو التشبيه، لكنه قادر على التشبث بالطابع العام لمقالته.

وإلى هنا نكتفي بما ذكرناه من تشابه ما بين الشاعرين العبقريين أحمد شوقي وجون درايدن، وكان بودنا أن نبحث عن المزيد وأن نورد كل الشواهد الشعرية والنثرية المناسبة عند الشاعرين، والتي تثبت أوجه التشابه والتطابق بينهما. ولكن ضيق المساحة لا يتسع لأكثر مما ذكرناه، ونرجو أن نكون قد وفقنا فيما عرضناه وذكرناه.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع عن شوقي

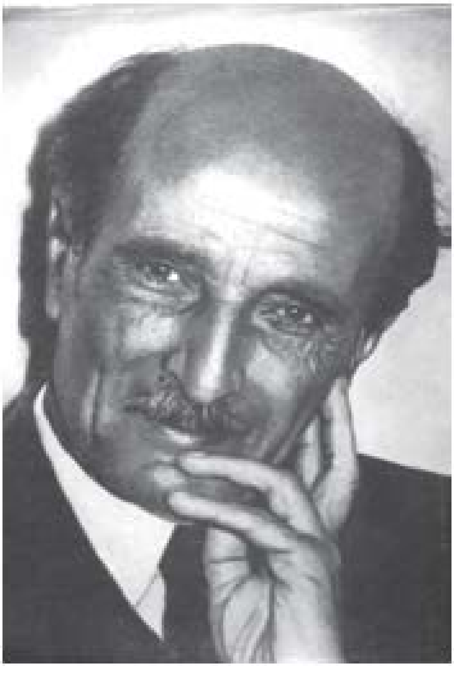
١- الشوقيات، أحمد شوقي، تقديم محمد حسين هيكل، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة.
٢- ديوان شوقي، أحمد شوقي، توثيق وتبويب وشرح وتعقيب أحمد محمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة بلا تاريخ.
٣- الأعلام ج١، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٢م).
٤- أحمد شوقي؛ شاعر الوطنية والمسرح والتاريخ، فوزي عطوي، دار الفكر العربي، بيروت، (١٩٨٩م).
٥- أحمد شوقي؛ أمير الشعراء والقوافي إعداد منال عاشور، دراسة أعدت لنيل الإجازة في علوم المكتبات والمعلومات، جامعة دمشق، (٢٠٠١م).
٦- أحمد شوقي؛ أمير الشعراء، جمال سليم، كتاب الجديد، العدد السابع (١٩٧٥م)، القاهرة.

المصادر والمراجع عن درايدن

١- تاريخ الأدب الإنكليزي، جون بيرغس ويلسون، لونغمان، لندن، (١٩٧٠م).
٢- كل شيء للحب، جون درايدن، ترجمة عبد الرحمن بستاني، دار العائدي، دمشق، (٢٠٠٢م).
٣- كل شيء للحب، جون درايدن، ترجمة لمى الهبل، دار الأنوار في دمشق، (١٩٩٤م).
٤- دليل القارئ إلى الأدب العالمي نخبة من المؤلفين، ترجمة محمد الجورا، دار الحقائق بيروت، (١٩٨٦م).
٥- خمسة عشر شاعراً، اختيار فيفيان ريدلر، مطبعة جامعة أكسفورد، لندن، (١٩٦٠م)
٦- تاريخ الأدب الإنكليزي، أنطوني بيرجيس، ترجمة خالد حداد، دار طلاس، دمشق (١٩٩٠م).

ميخائيل نعيمة...... بين الموت والدروب

عيد الدرويش *



الحكمة هي صفوة الكلام، ومن صفوة العقول، فكانت المشكاة التي تنير عقول الآخرين، وتستهدي بها النفوس، ولا يصل إليها إلا من لامست بصيرته بالمعرفة، وحباه الله ذاكرةً فريدة، أفضت عن إصدار أحكام ومعارف ودساتير للحياة كما يراها، أو يتأملها، ولا يجد فيها ضالته إلا من أمتعه الله بوافر البصيرة، والتاريخ مشبعٌ بأسماء الحكماء والفلاسفة، فلكل واحد منهم وجهة نظر في هذه الحياة، يأخذ ميزته من الزمان والمكان الذي عاشه، ومن هذه

* باحث سوري.

المعارف والعلوم ليصبح زاداً معرفياً كلياً في حياة الشعوب والحضارات، ومن حظي بالحكمة، فقد حظي بالشيء الكثير، وجاء في قوله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾(1) وميخائيل نعيمة ذلك الأديب والحكيم، ترك بصمة في الفكر الإنساني عموماً والفكر العربي خصوصاً، بما جادت به قريحته المعرفية لينطق بالحكمة، وينثرها في مؤلفاته صاغها من تجاربه الحياتية المليئة بالأحداث والتجوال، جعلت منه رجلاً يكتب بمداد العمر، على صفحات الأيام، وينضح من معين ذاكرة ثرّة.

ولد «نعيمة» في جبل صنين في لبنان عام (١٨٨٩م) وعاش طفولته فيها، وتعودُ جذوره إلى بلدة النعيمة في محافظة «إربد» في الأردن، وبعد أن أنهى دراسته في مدرسة الجمعية الفلسطينية في «بسكنتا» وتابع دراسته الجامعية في «بولتافيا الأوكرانية» بين عامي(١٩٠٥ و١٩١١م) وتمكّن من الاطلاع على مؤلفات الأدب الروسي.

وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نشطت الحركة الفكرية والثقافية والإبداعية، تدفعها مشاعر النهوض والوعي القومي العربي، بعد أن أعياها التشرد والضياع وويلات الحروب، وأنياب الجهل والتخلف، فتأسست الكثير من الجمعيات والروابط الثقافية والمنتديات، وكثرت الصحف والدوريات في الوطن العربي، منها ما يُطبع سراً، ومنها ما يُطبع علناً في بلاد المهجر، ومن هذه الروابط الثقافية «الرابطة القلمية» لأدباء عرب المهجر، التي انضمَّ إليها، وكان نائباً لجبران خليل جبران في تلك الرابطة، ثم عاد إلى «بسكنتا» عام (١٩٣٢م) واتسع نشاطه الأدبي، وكتب بقية مؤلفاته، وحواراته الفكرية، إلى أن توفي عام (١٩٨٨م).

يُعَدُّ «نعيمة» ناقداً وشاعراً وقاصاً ومسرحياً وفيلسوفاً وصوفياً، فتعددت مؤلفاته بين الأدب والحكمة والرواية والخواطر والتجليات، التي تعبِّر عن شخصية فذَّة، أغنت المكتبة العربية بنتاجها الفكري والثقافي، ونذكر منها: الغربال- كان يا مكان- الدروب- مذكرات الأرقش- في مهب الريح- جبران خليل جبران- الآباء والبنون- في الغربال الجديد- كرم على درب- نجوى الغروب- الأوثان- النور والديجور- المراحل- نعيمة وأحاديث الصحافة- رسائل من وحي المسيح- ومضات - شذور وأمثال - الجندي المجهول أمَّا «همس الجفون» فهي المجموعة الشعرية الوحيدة وضعها بالإنكليزية، وتمت ترجمتها

للعربيـــة، وتراوحـــت تلـــك القصائـــد بين الحكمة والأدب، تحمل مابين ثناياها هموم المجتمع ومآسيـــه، والشعور الإنساني الذي لازمه، وما دوّن في هذه المجموعة الشعرية، كانـــت ناطقه بما كان يجول في خاطره، كي يوصل رسائله للقارئ لتلك النواظم القيمية والأخلاقيـــة التي يجب التمســـك بها، وبها يتماسك المجتمع، وتقـــوى روابطه، وتسود الطمأنينة، ومن هذه القصائد واحدة جاءت بعنوان «قصيدة الطمأنينة» يقول فيها:

سقف بيتي حديد
ركن بيتي حجر
فاعصفي يا رياح
وانتحب يا شجر
واسبحي يا غيوم
واهطلي بالمطر
واقصفي يا رعود
لست أخشى الخطر

وفي هـــذا الديوان أيضاً قصيدة بعنوان «ذمُّـــك الأيام» كثيـــراً ما يخاطـــب أعماق الإنسان ومحاكاته بأسلوب فلسفي، يريد من خلالـــه تفجير طاقـــات الإنسان في العمل، ويبدد الخوف، ويُجلي القلوب بما رانها من وهن وخمول وكسل وهوان، ومن خلال هذه الأبيـــات يصوّر بدقة تلـــك الهواجس التي تلامس حياة الكثير من الناس فيقول:

ذمُّك الأيام لا ينفعك
فهي، لا أذن لها تسمعك
لا ، ولا عين ترى عقرباً
في دياجير الأسى تلسعك

وفـــي موضـــع آخـــر مـــن القصائد في هذا الديـــوان تتجلى له هواجس الحياة في حالات العراك المتعـــددة والمتنوعة، وهذا العراك داخل الإنسان نفسه، وضمن الأهواء والميـــول، ومـــا يسقطه على الفـــرد، يكون بصورة أوضـــح وأشمل في مساحات الحياة الاجتماعية بشكل واسع وعريض، ويلامس بها جوانب النـــزاع بين الخير والشر، وهذه الثنائية التي تقوم عليهـــا الحياة، وينظمها في قصيدته التي سماها «العراك» في صور بسيطة ومكثفة، تسهـــل معرفتها حتى لمن قلّت معرفته بالحياة، فيقول:

دخل الشيطان قلبي فرأى ملاك
ويلمح الطرف ما بينهما اشتد العراك
ذا يقول البيت بيتي، فيعيد القول ذاك
وأنا أشهد ما يجري ولا أبدي حراك
سائلاً ربي «أفي الكون من رب سواك»؟
جَبَلت قلبي من البدء يداهُ يداك؟
وإلى اليوم أراني في شكوكٍ وارتباك
لست أدري أرجيمٌ في فؤادي أم ملاك

ومـــن يطّلع على مؤلفـــات «نعيمة» يجد فيها سمـــات انتزعـــت من وجدانـــه، وقد صاغها بأسلوب حكمة وأدب رفيع، وينظمها

في أدق تفاصيل الحياة وهي تلك الدروب التي يسلكها في محاكمته للأشياء أو البحث فيها، وما دوّنه في مؤلفه بعنوان «الدروب» يتناول فيها قضايا إنسانية واجتماعية، هي تلك الدروب المتشعبة والمشبعة بالآلام والمكابدات الإنسانية، ولا يجد حرجاً في محاكاة الكائنات الأخرى في أفعالها، وما يتقاطع مع أفعال الإنسان وممارساته أو تكون درساً من دروسها، لتكون عظة وعبرة للإنسان (الأرض لا تخجل من أن تنبت الوردة والشوكة والقمحة والزوانة، لأن كل ما في جوهرها طاهر، أما الناس فيستحون من أشواكهم وزوانهم، ويحاولون بكل قدرتهم خنقها، ولذلك تخنقهم، تعلموا الصدق من الأرض)[٢] كما حوى هذا الكتاب العديد من المقالات التي يعالج فيها كثيراً من القضايا الاجتماعية التي سلّط الضوء عليها وشغلت ذاكرته، واصفاً الحياة ودروبها اللانهائية والمتشابكة تلتقي وتفترق وتتشابك، وما يماثلها في داخل الإنسان، وكلٌّ منهما يسعى لغايته، التنفس والطعام، الكريات، الأفكار، العواطف.... وفي العالم الخارجي، وبقي الإنسان على ما يعمله لكي يوصله إلى طريق الموت، فيقول في كتابه نجوى الغروب (بل لكل حيّ وغير حيّ في الأرض.... وفي فضائك الذي لا تعرف له بداية.....أو نهاية.... فهذه كلها على مواعيد متفاوتة مع رسولك..... بعضها يتلاقى وإياه في هذه الدقيقة.... أو في التي تليها..... وبعضها لا يتلاقى وإياه.... إلا بعد ملايين السنين.... ولكنها جميعها ستتلاقى وإياه حتماً.... في مكان ما، وزمان ما.... ذلك الرسول هو.... الموت)[٣].

ويستطرد «نعيمة» أيضاً في تصويره لدروب اللذة والألم، وفي تجلياته ونجواه، فجذور الألم في اللذة، كما أن جذور اللذة في الألم، أما السعادة فلا جذور لها، ويضع الإنسان العاجز في دروب الموت، وهي حالة صوفية ووجدانية، وفيها تضرع للخالق، ويدور في هذا العالم كجرم صغير انطوى فيه هذا العالم الأكبر فيقول: (هكذا، يا ربيّ، يتراءى لي طريقي منك.... وطريقي إليك... وأنا لست أعرف... أين أصبحت اليوم من طريقي... وأعرف أنني لا أزال أمشي.... وعلى كتفي صليبي... وأنني سأظل أمشي.... إلى أن يتم التلاقي)[٤] وربما من هنا ما يقال عنه أنه يؤمن بالتقمص في قوله (ولادة، فحياة فموت، ثم ولادة فحياة فموت، يا لها من حلقة مفرغة عند مَن يرون في الولادة البداية، وفي الموت النهاية)[٥].

«نعيمة» يتماهى مع الحياة، ولا يفصله شيءٌ عن الموت، فضلاً عن أنه متوحدٌ

مع النفس البشرية الكلية فيقول (كل ما تعطيه الأرض تسترده الأرض) وفي موضع آخر (أصحيح أن آدم مات؟ إذاً من أنت، ومن أنا؟)[٦] وهذا التماهي أيضاً يستنطق به مكونات الطبيعة في حوار حميم، ويبث الشكوى في صور متعددة، فيقول: (قصدت يوماً شاطئ البحر، وهناك جلست في ظل صخرة كبيرة، وما إن جلست حتى سمعت الصخرة تقول: «ما أثقل الحياة، فصول تتعاقب، وأجيال تتزاحم، والسماء هي هي، والأرض هي هي.... لقد سئمت الشمس تطلع ثم تنزل، والقمر يتجوّف ثم يستدير، والنجوم تفتح عيونها في الليل، وتغمضها في النهار، والأرض تحبل بالشتاء، وتلد في الربيع، وتنمي بنيها في الصيف، وتأكلهم في الخريف، لتعود وتحبل بهم ثم تلدهم من جديد»[٧].

ونجد الموت ملازماً له ما بين ثنايا كتاباته ومقالاته، وبين مفاصل تعابيره بشكل واضح في مواضع، أو تلميحاً في مواضع أخرى (سنبارك الموت.... وسندرك أنه كان انتقالاً بنا... من فصل إلى فصل... في كتاب كونك العجيب، اللامتناهي... وإلى أن تكون لي المقدرة.... على قراءة ما في ذاكرتي وذاكرة الكون.... أهّلني، يا ربيّ، أن أتقبَّل الموت.... رسولاً منك لا يحمل لي إلاَّ الخير.... ومعلّماً يتدرّج بي من إرادتي العمياء.... إلى إرادتك البصيرة.... ومن ذاتي التي تموت.... إلى ذاتك التي لا تموت)[٨].

ويذكر الموت أيضاً في موضع آخر في نجوى الغروب فيقول: (على موعد مع الموت.... ومع كل ما يحمله الموت... من غصص وآلام مبرّحة.... والألم لا يكون إلا حيث تكون اللذة.... فعلى قدر ما تكون اللذّة يكون الألم بفقدانها.... وأنت، يا ربيّ، قد جعلت لذّة البقاء.... أعظم لذة.... إذ فرشت الأرض والسماء.... بعجائبك التي لا تحصى ولا توصف... وأعطيت كل مخلوق... قدرة الاستمتاع بها على قدر طاقته.... وإذ ذاك فلا عجب.... أن يكره كلَّ حيّ في الأرض.... رسولك الموت).[٩]

هذه الدروب عند «نعيمة» ذات غاية وغايتها هي الحياة، ولكنها محكومة بدروب الموت، كما يسرد هواجسه عبر مقالة أو مقالات أفضت بها ذاكرته ليقول إنَّ الحياة لا تتوقف عند الموت، والموت ليس حداً نهائياً للحياة فحسب، بل جزءاً لا يتجزأ من دروب الحياة، فيقول (فالموت ليس النهاية التي نتوهم، بل هي درب من دروب الحياة ومن أمثالنا العامية المثل القائل «كل الدروب تؤدي إلى الطاحون» «والطاحون»

كما نعرف هي المكان الذي يتحول القمح فيه دقيقاً صالحاً للخبز، والخبز هو عصب الحياة، وإذن فلابد لكل بيت في كل دسكرة، أو مدينة من درب تصله بالطاحون، ليبقى ساكنوه على قيد الحياة، وهكذا تصبح «الطاحون» النقطة التي تنتهي وفيها تلتقي جميع الدروب، ذلك هو المعنى الواقعي للمثل، لا بأس لو نحن فهمناه على وجه مجازي، فقلنا إن المقصود بالطاحون هو الموت، وإذ ذاك الموت الذي كل الدروب تؤدي إليه هو الطاحون التي نُطحن فيها لنتحوّل من شيء صالح إلى شيء أصلح، لا لنغدو لا شيء، وإذ ذاك فالموت، كما سبق وقلت، هو درب من دروب الحياة لا نهاية الحياة وحاشا للحياة التي لا نعرف لها بداية أن تقف عند نهاية، فدروبها دروب تجدد وبقاء لا دروب تلاش وفناء)[١٠].

«نعيمة» يجسر الدروب فيما بينها في المصالح والمعاني والأهداف والغايات السامية، كما يقف بذهول أمام مفارقات لما يقوم به الإنسان من ممارسات، ومقارناً فيه بين النور والظلمة، وفي صيغ فكرية ومعرفية، ولم يكتف باستعراضها، بل ليعطي دلائل أخرى، ويجعل منها محاكمة عقلية من تلك الأفعال والممارسات التي يقوم بها الإنسان تجاه أخيه الإنسان، وماضررها وأبعادها، وما نتيجتها، وبشكل أعم ما هي نتائج تلك الأفعال التي يقوم بها الإنسان تجاه هذا العالم ومسؤولياته تجاه البشرية، فيقول: (ما أجهل من يفقأ عين أخيه، ولا يعرف أنه بذلك يُضعف النور في عينيه، فكل عين بشرية أينما كانت، هي نور يضاف إلى نور في عيونكم.... ما أجهل من يكسر يداً بشرية، أو رجلاً بشرية، فرجل كلّ إنسان ويده هما قوتان تضافان إلى قوة أرجلكم وأيديكم.... ما أجهل من يأكل خبز أخيه ليشبع ويجوع أخوهُ)[١١]. فضلاً عما يصوّره «نعيمة» في ثنايا هذا العالم ودروبه، ويجد مقارنة ومقاربة لظاهرة استحوذت اهتمامه وتكرارية المشهد، وترتبط بشكل كلي مع «الطاحون» التي يذكرها في مقالة أخرى بعنوان عالم يشكو (المحكوم يشكو حاكمه... العامل يشكو صاحب عمله... التلميذ معلمه... الولد والديه... الزوجة زوجها... المستأجر المؤجر... الشاري البائع.... المتدين رجل الدين) فالشكاوى تتعالى بين الطرفين في كل طرفة عين، فكأنها القرار الأبدي الذي منه تنطلق، وإليه ترتد أنشودة الحياة البشرية على هذه الأرض (وإذا أضيفت إلى ذلك شكوى الناس من الطبيعة والقوى العاملة فيها ومن ورائها كالزلازل والأعاصير،والجراثيم والحشرات،

وانحباس الأمطار والفيضانات، الحر والقرّ، والضواري والكواسر، وجميع أصناف البلايا الجسدية والروحية، ثم انقطاع الشكوى الحياة بالموت، أدركت إلى أي حد تهيمن الشكوى على حياة أهل الأرض)[١٢].

والشكوى التي يرصدها «نعيمة» لاتقتصر على شكوى الإنسان فحسب، بل هي شكوى كل الكائنات الحية، وبها يعيش ذلك الضجيج الذي ينبعث منها ومن كل الأحياء (ولا عجب، فالشكوى من طبيعة كل حي، فما عوى كلب، إلا تشكياً من عصا أو جوع، أو من عدو مُداهم، أو من فراق صاحب عزيز كريم، ولا ثغت شاة إلا تشكياً من بُعد رضيعها عنها، أو من حبسها عن المرعى والمنهل، أو من انقطاعها عن صويحباتها في القطيع، ولا ناحت حمامة، إلا كان نوحها شكوى من فراق أو شوقاً إلى تلاق)[١٣] فالشكوى، مهما كان نوعها، هي اعتراف علني بضعف الشاكي وجهله تجاه ما يشكو، باستسلامه الباطني للانخذال والقنوط، ولو أنه كانت له الثقة بالتغلب على ما يشكوه، ولو في المستقبل البعيد، لما شكا، فضلاً عما يريد أن يسقطه على أرض الواقع من ذلك التشكي ويتفحصها بين مفردات الحياة، ولا تقف لمعرفته أي حواجز، لأنه يراها بعين البصيرة وللتشكي أثر سلبي، والتشكي يبتعد كثيراً عن الفعل الإيجابي للإنسان، وكما يخسر قواه مما يشكو وعالمنا العربي مصاب بداء التشكي، وهنا يصل في تحليله لتلك الدروب في حالة التشكي من جانب الوظيفة البيولوجية والنفسية للإنسان (فالغناء الحماسي- شكوى- وصلاته شكوى، وسياسته شكوى- أدبه شكوى، وتجارته شكوى، وأفراحه شكوى، فكيف بأحزانه؟ ثم كيف بمآتمه التي لا يدانيها في الأرض شيء تفجعاً وولولة وعويلاً؟ إنها الانسحاق بعينه، بل إنها الكفر بالحياة الذي ما بعده كفر)[١٤] ولكنه يسوق ذلك التشكي، ودلالاته لهذه الكائنات التي يدوّنها بحسه، فهل يقف الإنسان ملياً أمام ذلك التشكي ويبحث عن خطاياه؟ وهل يستطيع أن يلبي رغباته أو يهذبها؟ فيقول (وهناك قوم يشكون ولا يحكّون ظفراً بظفر للخلاص مما يشكون، أولئك هم النعابون والهدامون، وقوم يشكون ويحاولون التخلص مما يشكون، أولئك هم التائهون المؤملون، وقوم لا يشكون، ولكنهم أبداً بفهم وجدّ يعملون، أولئك هم الهداة والبناؤون)[١٥].

ولكن يحدوه الأمل الكبير في قدرة الشباب لكي تتحول إلى فعل، وهذه القوة ما كانت إلا لتتحول من حال إلى حال، وبما يحمله الشباب من سمات التجدد والانبعاث،

وفي الدروب مقالته بعنوان الشباب «ثروة وثورة» (لولا هذا التجدد لكنا ما نزال حتى الآن في الكهوف والمغاور، ولما كانت هذه المدنيات والحضارات نشيدها ونهدمها ثم نشيدها ونهدمها، إلى أن نبلغ بها الغاية من لحظة وجودنا عن وعي منا وعن غير وعي، وأعني معرفة كل شيء والقدرة على كل شيء، ونحن مدينون بهذا التجدد للشباب أولاً وآخراً)[١٦].

«نعيمة» كثيراً ما كان يلازم حياة الناس، ويعمل على تجييش ما في نفوسهم من هواجس، وما ران على قلوبهم (لا القديم يكتسب شيئاً من الروعة والقدسية لمجرد قِدمه، ولأن المألوف يتحصن في قلوب الناس وأفكارهم لمجرد أنه مألوف، ولا يكلف الناس كبير عناء في مسايرته على حد قول المثل العاميّ«نحسٌ تعرفه خير من جيد تتعرف عليه) لذلك كان التجدد- أي تجدد- ضرباً من الثورة)[١٧].

وفي منظومته المعرفية يتناول كل العلوم، ويستنبط منها الجوانب الإيجابية، ويقرؤها بعمق وتحليل يدفعه ذلك امتلاكه المعرفة والحكمة وقدرته على مناقشته حجة بحجة، ويستحضر القرائن للقارئ من دون أي عناء، ولا يخلص إلى التلقين، بل يسعى إلى المحاكمة وتفعيل الفكر المسلوب بالنظم والتقاليد والأعراف دون التدقيق فيها أو محاكمتها (أي دين قام على الأرض ولم يكن ثورة على دين قبله؟ أي علم ترعرع بين الناس ولم يكن ثورة على جهل ألفه الناس وأحبوه واستسلموا له؟ ولكنه لا يغض الطرف عن الماضي، ويأمل أن يكون عامل قوة وليس عامل ضعف وتحجر وتعصب، دون ملازمة الحاضر، والاستعداد للمستقبل، إننا نتوارث التقاليد والنظم والعوائد والعقائد جيلاً بعد جيل، والتقاليد والنظم والعوائد والعقائد الموروثة من شأنها أن تتحجر وتتعفن وتنقلب تعصباً وكرهاً في فكر الوارث وقلبه ما لم يهضمها وجدانه، ويجعلها دماً من دمه ولحماً من لحمه)[١٨].

وفي مقالة «أصلح نفسك يصطلح العالم» ينظر نعيمة بعين الناقد، ولا يجد حرجاً من شيء في قوله، وفي نقده فيقول: (فرجال الدين لاهون بالدنيا عن الدين، وهم يحسبونهم قائمين بواجباتهم على أتم وجه ما داموا يتممون فروضاً دينية معينة في أمكنة وأزمنة معينة، وقد فاتهم أن القناطير من الصلوات، والمواعظ تفوه بها الشفاه دون القلوب لا توازي مثقال ذرة من القدوة الحسنة، فالإصلاح لا يتقيد بطقس ولا بزمان ولا بمكان، فمن فسدت صلواته

وعظاته في المعبد وخارج المعبد، ومن صلحت أعماله وأفكاره ونياته، وإن ساءت أقواله، كان له من قلبه معبد أينما كان)[١٩].

أمَّا رجال التربية فلهم النصيب الأوفر في هذه الدروب الكثيرة والمتعددة، في هذه الحياة، والتي يتابعها نعيمة وتستوقفه ملياً مهمتهم ودروبهم في هذه الحياة، هي دروب شاقة ومعقدة ومتشابكة في الحياة (ورجال التربية يصرفون جلّ اهتمامهم إلى تطبيق برامج لا أثر فيها للصلاح على الإطلاق، ويمنحون شهاداتهم بسخاء، وفي حفلات علنية، للطلاب الذين يجتازون امتحاناتهم في شتى المواد المقررة في البرامج، ولكنهم ما طبقوا يوماً من الأيام على طلابهم برامج في الصدق والعفة والأمانة والصفح والمحبة وإنكار الذات، ولا هم امتحنوهم في هذه المواد، ولا منحوهم فيها شهادات، فقد خفي عنهم أن القلم مهما بلغ من الدقة والاتساع، بقي جهالة في جهالة، ما لم يكن الصلاح في لبه ونواته)[٢٠].

ولرجال السياسة موضع من هذه الدروب «فهم في واد والصلاح في وادٍ، وإن عجبتهم لشيء فأعجبوا لعالم يرجو الخير والخلاص على أيدي أناس لا دأب لهم إلا إثارة الحقد والبغض والحذر والتفرقة، وحب الثأر مابين شعوب العالم، مع التبجح المستمر بما هو نقيض ذلك على خط مستقيم، فهؤلاء ما علمتهم سياستهم بعد أن لا مصلح للعالم إلا الصلاح، وإن المكر لا يفتك إلا بالماكرين، والدسائس لا تلد إلا الدسائس، وإن البغض لا يجمع، والمحبة لا تفرق، وإن التنابذ تهلكة للمتنابذين، والتعاون حياة المتعاونين.... أمَّا رجال الاقتصاد فتائهون في مهمة من الأسعار التي لا تستقر على حال يؤديها، أكانت أسعار سلع أم أسعار نقد، أم أجوراً عن خدمات يؤديها الناس للناس، أو عن مساكن يستأجرها الناس من الناس، فما قولك بالذين يقبضون أجوراً باهظة من عرق الناس ودمائهم لقاء لاشيء، أو لقاء سموم فتاكة يطبخونها للناس»[٢١].

و«نعيمة» يجمل هذه الدروب في نسيج متناغم، ويصيغها في هدف نبيل لحاجة المجتمع في تنميته المعرفية واستدلاله على مواضع قد لا يراها ببصره، ولكنه يجب أن يراها ببصيرته، فيقول (أجل، إننا في حاجة إلى رجال ونسوة صالحين أكثر منا إلى مهندسين بارعين، وشعراء مجلّين، ورسامين عبقريين، ومحامين لامعين، وأطباء حاذقين، وواعظين مفوهين، وساسة محنكين، فما نفعنا من الهندسة تشيد بها ناطحات السحاب، والجسور العظيمة، والقصور الفخمة، والأنفاق العجيبة، مادمنا

عاجزين عن هندسة يوم واحد من حياتنا هندسة تجعله خالياً من الغش والطمع والهّم والوجع؟).

ولم يقتصر «نعيمة» في فلسفته على ما هو موجود في هذا العالم، والذي يمزجه بحكمة عالية، مصوراً لتلك الدروب التي تلازم الإنسان ومسايرة معه حتى في أحلامه، ونجده في المقالة الثانية «السيف والقصبة» يروي فيها عن حلم لأحد الملوك، ويستنجد بأحد العارفين في ولايته عن هذا الحلم ، فإن أفلح فله نصف ملكه، وإن أخطأ فيتنازل عن حياته..... ليقول له الكاهن والعرّاف، ما أنا إلا قارئ في كتاب، وقصَّ عليه الملك حكايته التي كانت عندما كان يسير مع حاشيته، اعترضه معتوه يحمل قصبة في أعلاها نريد خبزاً، لا نريد دماً، وبعد أن وجّه الملك لإبعاد هذا المعتوه، فقد تكسرت كل نصالهم على تلك القصبة، وهمّ هو في الأخير لكي يبعد هذا المعتوه عن طريقه، فلم يُصبه إلا ما أصاب حاشيته، حيث تكسر سيفه، وبقيت القصبة أقوى من تلك السيوف التي أرادت الإطاحة بها.

فقال لبهرام، هات ما عندك، وبعد جدال قال له إنه قد مضى زمن السيف، وجاء زمن القلم.. ولكن الملك قد أوعده بالأمان «لبهرام» وقام الملك بسجن كل الشعراء والفلاسفة.

«نعيمة» لم يخف موقفه أيضاً في مجال النقد الأدبي، وهي من الدروب التي تناولها في كتاباته، وهذا الجانب ذو أهمية بمكان، ولاسيّما فيما يتعلق بالنتاج الأدبي، ومن يقفون على تقييمه بما يسمى بالناقد الأدبي أو الأديب الناقد، وموقفه منه، وهي كحال الدروب الأخرى التي تناولها (وهذا الأدب يستحيل أن يكون أدب عباقرة لاغير، بل لابد للعباقرة من أنصاف عباقرة، ومن كتاب وشعراء ما زارتهم العبقرية حتى الحلم، ولامستهم بنفس من أنفاسها، ولابد مع المبدعين من مقلدين، وليكن همنا الأول والأخير أن ننطق بالحق كما نفهم الحق، وأن نعمل الخير كما نفهم الخير، وأن نخدم الجمال كما نفهم الجمال، ثم أن نترك للغير مثلما نترك لأنفسنا من الحرية في قول ما يراه حقاً وخيراً وجمالاً، والحياة كفيلة بغربلة ما نقول ونفعل، فلها وحدها القول الفصل والحكم الأخير)[٢٢].

يرى «نعيمة» أن الأدباء الكبار يمهدون الطريق للنقاد الكبار، ولا يعكس المقولة فإن النقاد الكبار يمهدون الطريق للأدباء الكبار، فالعبقرية الحقة تشق طريقها بقدرتها لا بما يقوله فيها مادح أو قادح، وهل في استطاعة

نقاد العرب مجتمعين أن يخلقوا متنبياً واحداً أو أن يَحوُلوا دون خلقــه؟ أم هل باستطاعة جميع نقاد الفرنجة أن يأتونا بشكسبير آخر؟ وإذا قــام شكسبير آخر، فهل في مستطاعهم أن يطفئوا الشعلة التي في صدره؟ ويصورها فــي حكمة موجزة من تلك المقولة، ودروبها فيقول: (حيثما كثــرت القمم الشامخة قلت الدهشة للتلال، وحيثمــا كانت الأنهار قلت قيمــة السواقي، أمَّا حيث لا قمم شامخة ولا أنهار، فالكثبان والسواقي تبدو كما لو كانت أبدع آيات الله في خلقــه)[٢٣] وتدفعه أيضاً الصراحــة ليقف منصفاً ومؤيداً ذلك الناقد الذي يسهــم في ترسيخ قيــم الحق والخير والجمــال (إن الناقــد الــذي لا يعيش على حســاب غيره - كما تعيشــ الطفيليات على بعض النباتات والحيوانات - بل يعطيك من وهج روحــه مقاييس للحق والخير تستهويك وتفرضــ احترامها عليك لهــو الناقد الذي يرفع النقد إلى مرتبــة الفن العالي)[٢٤] ومن الشائــع عن الناقدين أنهــم قلما اتفق اثنان منهم يوماً على رأي واحد، وهذا لقول قريب من الحقيقة، إذا لم يُقصد به التهكم لأن لكل ناقد غرباله، ولكل موازينه ومقاييسه، وهذه الموازيــن والمقاييس ليســت مسجلة، لافي السمــاء ولا على الأرض، ولا قــوة تدعمها وتُظهِرها قيمة صادقة سوى قوة الناقد نفسه، وقوة الناقد هي ما يُبطن به سطوره، وتيقظ الفكر وما أُوتيــه بعد ذلك من مقدرة البيان لتضيد مــا يقوله إلى عقــل القارئ وقلبه، فالناقد الذي توافرت له مثل هذه الصفات، لا يعدم أناساً لا ينضوون تحت لوائه ويعملون بمشيئته، فيستحبــون ما يحب، ويستقبحون ما يُقَبِّح، فيصبح وهو وراء منضدته، سلطاناً تأتمر بأمــره، وتتمذهب بمذهبــه، وتتحلى بحلاه، وتتذوق بذوقه ألوف الناس، إذا طرق سبيلاً سلكــوه، وإذا صــبّ نقمته على صنم حطمــوه، وإذا أقام لهم إلهاً عبدوه وخرّوا له وسبّحــوه، غير أن الناقديــن طبقات كما أن الشعراء والكتاب طبقات، فما يصلح أن يُقال في الواحد منهم، لا يصلح أن يُقال في كلّهم، إلا أن هنــاك خلة لا يكــون الناقد ناقداً إذا تجــرد منها، وهي قوة التمييز الفطرية، تلك القوة التي توجد لنفسها.

أمَّا في المقاييس الأدبية فيقول:إنَّ هذه المقاييســ، وسواهــا من نوعهــا، وإن تكن وهمية، هــي خير ما توصلت إليه الإنسانية من السبل لإيجاد صلة ثابتة بينها وبين عالم هي بعض منه، ولولاها لما كان عظيم فرق بيننا وبين أوراق تنتزعها الريح عن الأغصان وتصفقهــا كيف شاءت وحيــث هبت، ومن حسنات هــذه المقاييس أنها ثابتة لا تتقلب بتقلب الفصول والعصور.

لقد قلت إن لكل شيء قيمتين – روحية ومادية – ولكن في الحياة ما ليس له قيمة إلا روحية، من ذلك الفنون، ومن ذلك الأدب ، فكيف نحدد قيمة الأدب؟ بماذا نقيس هذه القصيدة، أم تلك المقالة، أو القصة أو الرواية؟ أمِن حيث طولها، أو قصرها، أو تنسيقها، أو معناها، أو موضوعها، أو نفعها، أو نقيسها بإقبال الناس عليها، وبعدد طبعاتها . أو يستحيل قياسها بمقياس واحد وثابت، لأن تقديرها موقوف على ذوق القارئ، والأذواق تختلف باختلاف الناس، والإعصار والأمصار، فلكل أن يقيسها كيف شاء، وكلٌ في رأيه مصيب؟

ونستخلص مما تقدم في التجوال في النتاج الفكري والثقافي لـ «نعيمة» وما قام بواجبه المقدس في تقويم نفسه أمام نفسه وأمام الآخرين، وتقديمه لنفسه وللآخرين من غذاء روحي، أن يكون صالحاً لا فاسداً، فكانت له شخصية مميّزة في الأثر والتأثير، وفي الجانب الإبداعي الذي يطفو عليه الفكر والحكمة، فحياته نقطة مضيئة لما قدمه في مسيرة الفكر الإنساني، ليحتل مكانة متميزة بين أبناء جيله، وقدوة لمن جاء بعده، وما تركه من نتاج أدبي كان معيناً لكل باحث وناقد، أو متتبع للشأن الفكري والإبداعي، ولمن أراد أن يستزيد منه، تلك هي الدروب الحياتية فقد عبّدها معرفة وبرهاناً فكرياً، وآراؤه لا تحتاج إلى دليل أو قرينة، لأنه يقدم المفارقات التي لم ينتبه إليها الإنسان في مفاصل حياته، وفي أقل تقدير تمت الإشارة إليها في كثير من مؤلفاته، وبما امتلكه من ثقافة واسعة الطيف جعلت منه ذلك الحكيم والأديب والصوفي والناقد والشاعر.

الهوامش

١- سورة البقرة- آية:٢٦٩ .
٢- كان ياما مكان- ص:١٥ .
٣- نجوى الغروب- ص: ٥٢ .
٤- نجوى الغروب- ص: ٥٠ .
٥- كرم على درب- ص: ٧٧ .
٦- كروم على درب - ص: ٨٠ .
٧- المراحل- ص:١١٢ .
٨- نجوى الغروب- ص:٦٧ .
٩- نجوى الغروب- ص: ٥٦ .

١٠- دروب – ص: ١٢.

١١- النور والديجور – ص: ٢٤.

١٢- دروب – ص: ١٣.

١٣- دروب ص: ١٤.

١٤- دروب ص: ١٧-١٨.

١٥- دروب – ص: ١٨.

١٦- دروب ص: ٢١.

١٧- دروب – ص: ٢١.

١٨- دروب – ص: ٢٦.

١٩- دروب – ص: ١٩٢.

٢٠- دروب – ص: ١٩٢.

٢١- دروب – ص: ١٩٤.

٢٢- دروب ص: ١٨٨.

٢٣- دروب– ص: ١٨٠.

٢٤- دروب – ص: ١٨٢.

المصادر والمراجع

١- مذكرات الأرقش، ميخائيل نعيمة، دار نوفل، الطبعة العاشرة، لبنان، بيروت، (١٩٨٥م).

٢- همس الجفون، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الخامسة، (١٩٨٨م).

٣- كان ياما كان، ميخائيل نعيمة، دار صادر، الطبعة الرابعة، (١٩٥٦م).

٤- في مهب الريح، ميخائيل نعيمة، دار صادر، بيروت، (١٩٥٩م).

٥- دروب، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٧١م).

٦- الأوثان، ميخائيل نعيمة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٩٥م).

٧- نجوى الغروب، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٧٢م).

٨- كرم على درب، ميخائيل نعيمة، دار صادر، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٦٩م).

٩- المراحل، ميخائيل نعيمة، مؤسسة نوفل للطباعة والنشر، بيروت، (١٩٧١م).

١٠- النور والديجور، ميخائيل نعيمة، دار صادر، الطبعة الخامسة، بيروت، (١٩٦٩م).

مذكرات الوطن

سمية اليونس *

يكتب تاريخ الوطن بأقلام أبنائه الذين وهبوا حياتهم وكانوا جزءاً من تاريخه، كما يكتب بأقلام الباحثين والدارسين والمؤرخين في هذا المجال الذين سجلوا التاريخ، وحققوا للإنسانية حصيلة تجارب غنية بمحتواها، رائدة في مضمونها، متميزة بنتائجها... فكانت مرجعاً هاماً للأجيال التي تُوجّه إليها لتستنبط منها الحكمة المناسبة للاستمرار في بناء صرح الحضارة، وحين تكتب السيرة الذاتية للرواد والعباقرة والمؤسسين في أوطانهم ناشرين خبرتهم الخاصة في الحياة، والصعوبات التي تعرضوا لها، والظروف والإرادة التي ساهموا في التغلب عليها فإنها تترجم أقلامهم المتموسة بالثقافة والإخلاص، والمنسوجة بكبريائهم وعنفوانهم فتعطي للقارئ أهمية الحدث الذي انتقل بعد سنوات وعقود، وهذا الحدث ليس هو السيرة الشخصية لهؤلاء القادة والرواد في مجال السياسة أو الأدب والمجتمع فحسب، وإنّما هو صورة حقيقية لبلادهم، ويؤرخ العصر الذي عاشوا فيه، ليكون نبراساً

* أديبة سوريّة وكاتبة.

ونموذجاً، للأجيال الشابة التي ستبني الوطن بسواعدها الغضة.

مذكرات د.عبد اللطيف اليونس تتضمن حياته خلال القرن العشرين وقد كتبها بقلمه الأدبي المتميز ليسجل الدروب الطويلة التي ساح فيها، في مجال الأدب والسياسة والصحافة والتاريخ، فكان رائداً علماً في مسيرته الطويلة هو الأنموذج والمثل للتعلم الذاتي. والرجل العصامي الذي بدأ حياته وحيداً يتيماً يصارع الحياة بالعقل والموهبة، والذكاء الحاد الذي منحه إياه الله.

فهو يتمتع بذاكرة حادة قل مثيلها. وفصاحة وموهبة أدبية وخطابية رافقته كل حياته فهو أنيق المظهر، لطيف الكلمة، حلو المعشر، حاضر النكتة، محب عطوف، حنون، وفيّ، كريم، جريء عبر الزمن، متحرر من رواسب التخلف، منسجم مع أفكاره ومبادئه، أحب الحياة فعاش فيها مرحاً ضاحكاً يعيش سعادة يومه، ويترك لغده ما يريد... يطلق ابتسامته له ليلقاه متفائلاً... ويودعه غير متشائم.

وهكذا بين أمل ويأس كانت سجلات الزمن تسجل ملحمة نضاله في سبيل الأفضل دائماً مادياً ومعنوياً.

ويقول:

إني ارتقيت إلى السماء بهمتي
لا المجد أقعدني ولا الإعياء

مذاكراته هي مذكرات الوطن من بداية القرن العشرين أي منذ الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م) تاريخ ولادته وحتى عام (١٩٩٢م) تاريخ إصدارها، وتتضمن هذه الصفحات البالغ عددها (٦٦٤)صفحة الأحداث التي عاشتها سورية في تلك الفترة من الزمن، وكتبت بأسلوب أدبي مميز، وعبارة بليغة شفافة، يعرض من خلالها الأفكار الهامة التي تنقلك من جو الأسرة والبيئة الريفية الصافية التي ترعرع فيها، ليعطي المثل بأن الإبداع يبدأ من الإنسان ذاته. فهو بجده واجتهاده وإرادته يسهم في بناء وطنه لأنه رمز من رموزه.

ليس من السهل الإحاطة بكل جوانب هذا الكتاب القيّم الزاخر بالأحداث الهامة خلال القرن العشرين وإلقاء الضوء على الفترات الزمنية التي تأثر بها، وترك بصماته في هذه الحقبة التاريخية التي شكلت محطات هامة في حياته.

- **الفترة الأولى (١٩١٤-١٩٤٦م):**
الطفولة والبيئة- والنضال ضد الاستعمار.
- **الفترة الثانية (١٩٤٧-١٩٥٨م):**
ما بعد الجلاء- العمل النيابي.
- **الفترة الثالثة (١٩٥٨-١٩٦٣م):**
الوحدة - الانفصال- الثورة.
- **الفترة الرابعة (١٩٦٤-١٩٨٩م):**
الاغتراب والعمل الصحفي العودة.

لقد أوضح هذا التقسيم الزمني أحداثاً هامة تلخص ببساطة التحولات التي عاش بها المجتمع آنذاك، والتي أثَّرت في حياة الكاتب، وبالتالي تأثَّر بها، وأثَّر بها أيضاً.

وبدأ مذكراته بإهداء متميز...

«إلى الذين لا يعملون... ويؤذيهم أن يعمل الآخرون، إلى الذين يكرهون سماع كلمة خير... توجه إلى الغير... إلى الذين لا يعترفون لأحد بكريم صنيع ونبل موقف. إلى من تشغل الذاتية ذواتهم وتغمد الأنانية حياتهم فلا يفكرون إلاّ بمنفعتهم... ولايعملون إلاّ لمصلحتهم.

إليهم جميعاً

أسوق هذه الصفحات علّهم يجدون فيها دروساً وعظات؟.. والابتعاد عن التجارب والمنغصات...

من هذا المنطق... فإنني اعترف بفضل كل ذي فضل... وجميل كل ذي جميل... وقد وقفت حياتي كلها لخدمة وطني والناس، وسأبقى ما حييت في خدمة وطني».

الفترة الأولى (١٩١٤-١٩٤٦م):

الطفولة والبيئة. النضال ضد الاستعمار

نسيم الذكريات، وأريج الماضي، والهواء العليل يصافح أشجار السنديان التي تحيط بالمسجد الذي بناه الجد الأكبر الشيخ ياسين الذي يمتد نسبه إلى محمد بن إسحاق التنوخي أمير اللاذقية. ارتفع صوته عبر الأثير لتبدأ رحلته في الحياة عام (١٩١٤م) ومن قريته بيت الشيخ يونس والبيت الريفي الجميل الذي وصفه «مبني من الحجارة العادية والمطلي بالطين من الداخل والخارج والمسقوف بالخشب وتعلوها طبقة سميكة من التراب، وتستند على الأعمدة الخشبية. وعند الباب الخارجي المتعلق بالرتاج الخشبي الذي يدخل من الكوة في الحائط (ص١٧).

وهو بوصفه للبيوت والتقسيم الداخلي لها والمؤونة (الحاصل)... ومفردات من البيئة كالمدحلة والعرزال والمصطبة والحاكورة تعابير أصبحت من الذاكرة تتداولها الأجيال. هذه الطفولة السعيدة من هذه الطبيعة الجميلة وهو متنقل بين مدرسة القرية ثم مدرسة صافيتا حيناً، ومرافق لوالده الشيخ (يونس) المستمر. وكانت المفاجأة المريرة في حياته وفاة والده ليلخص المعاناة «وصمت الشيخ الوقور وهو يتمتم بالشهادتين» (ص١٩).

كان آنذاك في الثالثة عشرة من عمره، تركه والده وحيداً على دروب الحياة الصعبة... في رعاية الوالدة الشابة مع أخوته الثلاثة لتحتضن أسرتها الصغيرة بإرادة وجد، وحنان وحزم، ونشأ وترعرع

في أسرة دينية وطنيــة، أنجبت العديد من العلمــاء والسياسيين والمجاهدين، وأشرف عمه الشيخ ياسين على تربيته.

وبدت عليه علائم الذكاء والفصاحة... كان أساتذته يعهــدون إليه أن يخطب باسم الطــلاب في المواقــف الرسمية... وكانت موهبتــه المبكرة في الخطابــة والارتجال، وعندما اجتمع زعمــاء المنطقة ومشايخها في قرية بيت الشيــخ يونس المعروفة بيت (عمــه الشيــخ ياسيــن) بمركزهــا الديني والتاريخــي الذي يصفه شيــخ وقور مهيب صريــح فــي مواقفه، جــريء بإبــداء رأيه وملاحظاته، نبيل في تصرفاته إذ يقول:

«كان الاجتماع في عام (١٩٣٣م) لتوحيد الكلمــة وتنظيــم الصــف والقضــاء على العشائرية ووضع منهــج لهذه الغاية وطلب إليّ عمي الشيخ ياسيــن إلقاء كلمة، ونالت استحساناً واتفقوا على عقد اجتماع سنوي ولكــن الفرنسيين منعوا انعقاده مرة أخرى» (صـ٤). بــدأ اهتمامــه بالشعــر وإلقائه، والكتابــة والنشر في الصحــف الوطنية... وأكثــر مقالاتــه ضــد الرجعيــة والتخلف والإقطاعية والتعصب العشائري، واستنكر وطأة الرجعيــة والإقطاعيين في المنطقة وحملوا على عمه الشيخ ياسين وطلبوا منه مخاصمته والوقوف ضده... (ص٤٨).

وبــدأ نشاطه الوطنــي، وشارك أحزاب (١٩٣٩م)، وعارض قانــون الطوائف الذي أصــدره الفرنسيــون، ودعــا إلــى الوحدة السورية، واتهم بإطلاق النار على المستشار الفرنســي فــي اللاذقية، وبعــد معاناة مع الأحــداث والأوضاع السياسيــة وملاحقة الفرنسييــن لــه قرر مغــادرة البــلاد إلى العراق.

لم يكن من السهــل وصوله إلى الحدود السورية العراقية، فقــد تعرّض للكثير من المفاجآت، واستطاع بعد جهد كبير الوصول إلى بغداد وتأمين إقامته بمساعدة أصدقائه، وتعرّف على مجموعة من الوطنيين السوريين الذين لجؤوا إلى العراق (ص٩٢).

وفي العــراق التقــى شخصيات وطنية عربية، وكتب مقــالات وطنية في الصحف العراقيــة ومارســ التدريس فــي (ثانوية البصرة).

في عــام (١٩٤١م) شــارك بثورة رشيد عالــي الكيلاني، وفي خريف عام (١٩٤١م) عــاد إلــى سورية بعــد أن صــدر عفو عن اللاجئيــن السياسيين، وخــلال هذه الفترة استمر في الكتابة في الصحف الوطنية.

وفي عــام (١٩٤٣م) اضطــرت فرنسا لإعطــاء سوريــة استقلالها تحــت ضغط وأحداث وأحرار الشعــب السوري، ثم عيّن

الفرنسيــون (عطا الأيوبــي) رئيساً للوزارة لتشــرف علــى الانتخابات. وفــازت الكتلة الوطنية فوزاً كاملاً، انتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية، وفارســ الخوري رئيساً لمجلس النواب، وسعد الله الجابري رئيساً لمجلســ الــوزراء. وكان مصطفى الشهابي محافظاً للاذقية.

وفي عــام (١٩٤٤م) زار الرئيس شكري القوتلي محافظة اللاذقيــة، وأقيم احتفال شعبــي ورسمي له، يقــول المؤلف: «ألقيت خطابــاً أشرت فيــه إلى مــا يعانيه الجبل المريضــ وعند الخروج مــن السرادق قال لي فارس الخوري: إنني أتوقع لك مستقبلاً باهراً» (ص١٨٢).

وفي عــام (١٩٤٤م) ألّــف كتاب الجبل المريضــ إذ يقول: «كان هذا الكتاب صدى لحيــاة قاسية مؤلمة مريرة قدر لي النضال والكفــاح وأن أكتــب ثــم أعمل مــع رفاق مناضلين شرفاء في سبيل محو تلك الصورة الباهتــة المقيتة والمؤلمــة والمذلة لحياة أبناء الجبل» (ص١٨٣).

نشر الكتاب ضمن نطاق ضيق ومحدود.

وتابع كتابة مقــالات كثيرة في الصحف، في اللاذقية وحمص، والعاصي في حماه... وكانــت المقالات تتصف بالجــرأة والتحدي وتعطي صوراً واضحة عن الإقطاعية ومساوئها ومآسيها، كانت السلطات الوطنية راضية عن تلك المقالات الجريئة (ص١٨٤).

وكان النضال طويلاً ومتعدد الاتجاهات والأشــكال ففي عــام (١٩٤٥م) زار الشيخ صالح العلي وألّف كتاباً عن ثورة الشيخ صالح العلي عام (١٩٤٧م) في (٢٢٣ صفحة)، وأقام حفلــة تكريم له في (١١ نيســان ١٩٤٥م)، وذلــك بعد انتهــاء الحرب عــام (١٩٤٥م) نهايــة العام، وفــي (١٧ نيســان ١٩٤٦م)، ومع استمرار الغليــان والثورة الشعبية ضد سلطــات الاستعمار الفرنسي وازدياد القمع الوحشي، عقد مجلس الأمن جلسة قرر فيها وجوب جلاء القــوات الفرنسية عن سورية، وقد تم فعــلاً جلاء آخر جندي فرنسي في (١٧/٤/١٩٤٦م) مما مكّن سورية في نهاية المطاف من تحقيق الاستقلال، وأن تمارس حياتها الطبيعية.

الفترة الثانية (١٩٤٧-١٩٥٨م):

الجلاء - العمل النيابي

بعــد الجلاء بــدأ عهد الحريــة وبناء مؤسسات الدولة، وحدد موعد الانتخابات فــي (٢٧/٩/١٩٤٧م)، وأشــار بدقــة وموضوعية إلى هذه الفترة الهامة من حياته السياسية، وأعلن ترشيحه للمرة الأولى إلى المجلس النيابي، وعرض أهم الأفكار التي

سبقت موعد الانتخاب إذ يقول: «في صيف عـام (١٩٤٧م) حـدد موعـد الانتخابات النيابيـة لأن المجلس كانـت انتهت مدته، وقبل انتهاء المدة عُدِّل قانون الانتخابات، وأصبح النواب ينتخبون مباشرة من الشعب وليس بوساطـة (المنتخبيـن الثانويين) وبذلـك انتهى عهـد وبدأ عهـد، وأصبح المواطـن ينتخـب المرشح الـذي يريده، والمجلس الجديد هو الذي سينتخب رئيس الجمهورية الجديد» (ص٢٣٨).

ثم يعـود ليقـول: «حمـي وطيس المعركـة الانتخابية في سائـر أنحاء البـلاد، وكثـر المرشحـون، الذيـن يحملون الأصنـام، وكسر نير الرجعية والإقطاعيـة. وكان مـن البديهـي أن أخوض المعركـة الانتخابية وأصدرت بيانـاً حافلاً حددت فيـه المهام التي سأعمل على إنجازها:

أعلنها ثورة جارفـة على الجهل والفقر والمرض، معركة تحريرية ضـد الرجعية والإقطاعية، أيها الشعـب الكريم سأقطف بعض الكلمات من البيان هي أول مرة تمارس فيها أعمالك الانتخابية في أجواء لا يرتفع فيها إلاّ علم بلدك.

أولا تسمع صوتـاً إلاّ صوت أبناء أمتك، ولا تلمح قامة أو ظلا لأجنبي دخيل ولا أثراً للاستعمار ينبض وهي أول مرة أرشح نفسي للنيابة» (ص٢٤٠).

وهنا وقف شامخاً ليقول كانت التجربة الأولـى صعبة، ومع الأسف لم تكلل بالنجاح لأنها تحتاج إلى مهارات عديدة، وبالرغم من ذلك كان الفرق بسيطاً، وكانت نواة لنجاحي في الانتخابات القادمة (ص٢٤٠).

بعـد فتـرة قصيـرة حـدث الانقلاب العسكـري الأول، بقيـادة العقيـد (حسني الزعيـم) عـام (١٩٤٩م)، وحُـلَّ المجلس النيابي، وبعد ثلاثة أشهر ونيف قُتِل حسني الزعيـم واستلـم الحكـم قائـد الانقلاب العسكـري الثاني العقيـد سامي الحناوي، وبعد انعقاد الجمعية التأسيسية تمَّ الإعلان عن انتخابات نيابية في (١٨/١٢/١٩٤٩م) وبدأ نشاطـه السياسي وتَرشَّح للانتخابات، وفـاز فوزاً ساحقاً لمـا يتمتع به من شعبية كبيرة، وتـرك هـذا النجاح صـدىً كبيراً لمواجهيه وفـوزه على الزعامات التقليدية، واجتمـع المجلس وانتخـب الرئيس هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية.

وخلال هذه الفترة البرلمانية كان عضواً فعالاً ونشيطـاً، وعين في لجنـة الدستور وعضو لجنة الشؤون الخارجية.

وفي ربيـع عـام (١٩٥٠م) انعقد في دمشـق مجلس الجامعـة العربية، وتقدم

بمذكرته الشهيرة التي طالب فيها بموقف عربي موحد بالتصدي للدول الغربية المتآمرة ضد العرب وإلغاء المعاهدات، وتأميم البترول والشركات الأجنبية وكانت المذكرة تلخص أفكاره وآراءه ومواقفه في الأوضاع السياسية ومن قضية فلسطين، وكان لها صدى سياسي كبير تناقلتها الدول العربية والغربية (ص٣٥٩).

وأثناء انعقاد الجمعية التأسيسية تمت تسميتها المجلس النيابي (١/٢/١٩٤٩م- ٢٩/١١/١٩٥٢م)، وبتاريخ (٢٩/١١/١٩٥٢م) حكم الانقلابيون بزعامة العقيد أديب الشيشكلي وبعد ذلك سافر اليونس إلى الأرجنتين بمهمة وطنية رسمية للدعاية إلى القضية الفلسطينية، وكانت له محاضرات في مدن عديدة في الأرجنتين ومقالات في الصحف العربية آنذاك، مجلات (المواهب، الجريدة السورية اللبنانية)، وحضر اجتماعات الرابطة الأدبية وتعرف إلى أعضائها والشعراء المهجريين وكذلك زار مدن البرازيل والجالية العربية فيها وزادت صلته بالمغتربين (١٩٥٣م)، وبذلك نأى بنفسه عن الانتخابات التي أعلنها العقيد (أديب الشيشكلي) وبقي إلى حين الانقلاب على الشيشكلي وبعد زوال حكم الشيشكلي عاد المجلس النيابي الشرعي وأعيد الرئيس هاشم الأتاسي رئيساً للجمهورية وحُدد موعد للانتخابات الجديدة (٢٧ أيلول ١٩٥٤م) (ص٤٠٠).

«واحتدمت المعركة الانتخابية بعنف وضراوة كما لم تشهد لها البلاد مثيلاً في أي مكان أو بأي عهد، وشكّلت لائحتان انتخابيتان، إحداها: عبد اللطيف اليونس، محمد أمين رسلان، رفيق جبرائيل بشور» (ص٤٠١).

ويعود المؤلف ليتحدث عن سير العملية الانتخابية وتحليل شفاف للمرشحين المتنافسين، والأموال التي أُنفقت من قبلهم من أجل إسقاط (عبد اللطيف اليونس)، ولايزال الشرح المبسط عن آلية سير العملية الانتخابية، وعن المؤيدين (ص٤٠٢).

وما أزال أذكر بحذر هذه الفترة وكم كنت أتمنى أن يوضّح لي (ابن الحادية عشرة) بعض أسرار الانتخابات والتنظيم للقوائم الانتخابية، والمنافسة والدعاية وتوزيع البيان الانتخابي وتوزيع صناديق الاقتراع.

وأخيراً... «جرت الانتخابات في جو هادئ ولم يقع أي حادث يعكر صفو الأمن، وذلك لأنَّ الرأي العام في منطقة صافيتا واعٍ ومشهور بالاتزان وحسن التقدير وتلافي الأمور المخلة بالأمن» (ص٤٢٠).

وبعد أن شرح بكل بساطة سير العملية الانتخابية، تقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم معه، من أنصاره ومؤيديه في أثناء العملية الانتخابية، يقول: «وفازت جبهتنا فوزاً ساحقاً مما كان لها صدى كبير في أنحاء سورية وحتى في لبنان» (ص٤٠٢).

وعقد المجلس النيابي أولى جلساته وانتخب الرئيس شكري القوتلي رئيساً للجمهورية في (١٤/١/١٩٥٤م)، وقد أكمل هذا المجلس المدة الدستورية من (١٩٥٤م-١٩٥٨م) كما انتخب عبد اللطيف اليونس أمين سر المجلس النيابي، وكان أثناء هذه الفترة من الأعضاء البارزين، وعرف بنشاطه المميز، وشارك في عدد من الوفود الرسمية، وكان له دور فعال في سياسة الدولة، وكانت مواقفه الخطابية المشهورة بجرأتها وجديتها ومعالجتها للأمور بدقة وإخلاص ومتابعة مستمرة وفيها ذلك من أجل قضية يؤمن بها.

وكانت الفترة الواقعة بين عامي (١٩٥٤م- ١٩٥٨م) زاخرة بالأحداث السياسية الهامة من تاريخ سورية.

وازدادت العلاقات السورية المصرية واكتسبت طابعاً أخوياً، ومواقف سورية البطولية من الأحلاف العسكرية وصمودها في وجه الصهيونية والإمبريالية (ص٤٣٣).

ويعود اليونس ليشرح أهمية هذه المرحلة التي كانت السياسة القومية في أوجها وأنه بادر في أحد الاجتماعات مع الرئيس عبد الناصر إلى القول:

«هل هناك ما يمنع قيام اتحاد بين سورية ومصر؟ وأبدى الرئيس اهتماماً بالغاً بالسؤال وشكرني لطرح الفكرة التي تدل على العاطفة القومية التي دفعتني إليها. وكان سؤالي يتضمن اقتراحاً هو الاتحاد يبقى لكل واحد من البلدين كيانه واستقلاله الذاتي، وليس وحدة تذوب فيها الكيانات وتصبح كياناً واحداً. كما حصل فيما بعد».

ومع أن الاتحاد أكثر سهولة وأقل صعوبة وتعرضاً للنكسات فإن الرئيس عبد الناصر رأى التأني...

ويعود المؤلف ليؤكد:

«ومن يقيني وأنا على ثقة تامة بما أقول لو أن الوحدة التي حصلت فيما بعد بين البلدين كانت اتحاداً كما اقترحت لما حصلت تلك النكسة الرهيبة والمؤلمة على الوحدة ولكان من الممكن أن يستمر الاتحاد إلى الآن» (ص٤٣٨).

وخلال الفترة الواقعة بين ١٩٥٤-١٩٥٥م) تم توقيع اتفاق دفاع سوري مصري.

وفي عـام ١٩٥٦م كان العدوان الثلاثي على مصـر، وتأميـم قنـاة السويس وكان لسورية موقف عربي.

كمـا حدث على الساحـة الداخلية عام (١٩٥٥م) اغتيـال العقيد عدنـان المالكي وكان لهـذا الاغتيال أثـره وتداعياته على المنطقة، وأشار المؤلـف بشفافية وصدق إلى نشاطه قائلاً:

«في حياتـي النيابية تقدمت باقتراحات وأسئلـة كثيرة ومن النـادر أن عقدت جلسة نيابية إلاّ واشتركت فيها بالمناقشات ولي فيها بعض الأسئلة والاستجوابات» (ص٥١٥).

في عام (١٩٥٨م):

تمت الوحدة بين سورية ومصر، وأعلنت الوحدة في (١٩٥٨/٢/١م) وانتخب الرئيس جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة باستفتاء شعبي.

الفترة الثالثة (١٩٥٨م -١٩٦٣م):

الوحـدة السوريـة المصريـة- المنطقة العربية- الانفصال

فترة هامة من تاريـخ سورية، سأقطف بعضـ الأحـداث الهامـة أثنـاء الوحـدة السوريـة المصريـة، أعلنـت الجمهوريـة العربية المتحـدة، وأصبحت سورية الإقليم الشمالي، ومصر الإقليم الجنوبي، واستبدل بالعلم السـوري علم الوحدة بألوانه الأحمر والأبيض والأسود والنجمتين الخضراوين، وجرت تعديلات كثيرة على القوانين، وعلى مؤسسات الدولة. وأحدثت وزارات جديدة، وانعكست الإجراءات بإيجابياتها وسلبياتها على دوائـر الدولـة ومؤسساتها ولا مجال لذكرها الآن.

وفي (١٥ آب) حصل انقلاب في العراق ذهب ضحيتـه الملك فيصـل الثاني وولي عهـده (عبد الله)، ورئيسـ مجلس الوزراء (نـوري السعيد)، وكان رجل الانقلاب (عبد السـلام عارف) الـذي زار دمشق في (١٨ آب) أي بعد ثلاثة أيام.

وكان الرئيس عبد الناصر يزور الاتحاد السوفييتـي، وعـاد إلى دمشق فـوراً وكان اللقاء لقاءً أخوياً خفقت له قلوب الجماهير السورية لتحقيق الوحدة.

ولكـن الـدول الاستعماريـة عملت على إقصاء (عارف) وإحـلال عبد الكريم قاسم محله، وكرت المسبحة وعاد (عارف) وقضى على (قاسم)، وكرت مرة أخرى، فقضت على حلـم اتحاد البلدين، وتوالـت أحداث بغداد وكان ما نشاهده حتى الآن. (ص٥٣١).

وعرض المؤلف بشفافية وصراحة الوضع في سورية من جميـع النواحي الاقتصادية والاجتماعيـة والسياسيـة والتطورات التي

حصلت وتسمية نواب رئيس الجمهورية (أكرم الحوراني، صبري العسلي).

ويعود ليشرح من جديد كيف تم حل الأحزاب السياسية جميعها استجابة للشرط الأساسي الذي اشترطه (الرئيس عبد الناصر) ولم يبقَ في الإقليمين إلاّ حزب (الاتحاد القومي) الذي تمَّ تشكيله في مصر. وأجريت انتخابات لعضوية هذا الحزب في سورية، ولم يشترك لأنه آثر العزلة والابتعاد عن السياسة في تلك الفترة.

ولكن رجل الفكر دائم العطاء، فقد طلب منه وزير الإعلام (عبد القادر حاتم) أن يكتب تعليقات سياسية عن الأحداث في إذاعة دمشق وكان من خلالها يتابع الأحداث الهامة محلياً وعربياً ودولياً، ويكتب مستنداً بذلك على واقعها ومجرياتها، مبيناً وجهة نظر (ج.ع.م) إليها ...

ثم طلب منه إلقاء أحاديث في الإذاعة المصرية عن المغتربين العرب في أمريكا وألقى اثنين وعشرين حديثاً جمعها فيما بعد في (كتاب المغتربين) (١٩٥٩م)، وتمت طباعته في (١٩٦٤م).

ولا بد للقارئ أن يقف أمام هذه الشخصية المميزة التي تتحدى المخاطر والأحداث التي يمر بها على صعيد الواقع الخاص والعام وكيف يتابع مسيرة حياته بنجاح، فهو الإنسان المتألق الذي يحترمه كل من يعرفه لما يتمتع به من عزة وكرامة.

وفي النصف الثاني من أيلول عام (١٩٦١م) طلب منه عبد الخالق حسونة الذهاب إلى القاهرة للاجتماع والتحدث معه في موضوع تعيينه مديراً لمكتب الجامعة العربية في الأرجنتين، ويقول اليونس: «ذهبت إلى مصر واجتمعت مع (عبد الخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية) وتم الاتفاق على قرار التعيين والاجتماع مع مديري المكاتب لأخذ التعليمات اللازمة منهم، وباليوم ذاته زرت وزير الإعلام وأطلعته على خبر التعيين.

وفي صباح اليوم التالي فاجأتنا الإذاعات العالمية بحصول انقلاب عسكري من دمشق ضد الوحدة ٢٨/٩/١٩٦١م» (ص٥٤٦).

«وبعد الانفصال صرت في موقف حرج جداً ليس من السهل مراجعة مكتب الجامعة العربية، وقد جرى في سورية ما جرى.

وحرت في أمري وأخيراً صممت على العودة إلى دمشق بعد أن سمحت لي السلطات المصرية وللسوريين الموجودين في مصر المغادرة إلى بلادهم» (ص٥٥٠).

مَنْ هم قادة الانفصال؟ أثناء الأوضاع التي تمر بها البلاد، اغتنم الفرصة بعض الضباط وبدؤوا بالتحرك للقيام بانقلاب ضد

الوحـــدة، وكان العقيد عبد الكريم النحلاوي مدير مكتب (المشير عبد الحكيم عامر) هو المخطط والموجه للانفصال. (ص٥٤٥).

وكان المقدم حيــدر الكزبري هو قائد قوات البادية التي زحفت إلى دمشق واستولت على المراكز العامة، وفي (١٩٦١/٩/٢٩م) عَيّن نسيبه مأمـــون الكزبري رئيساً للوزارة وهو أحد أساتذة كلية الحقوق، وخوّلَ المجلس حــق إصـــدار المراسيــم التشريعية خلال الفترة الانتقالية وأعيــد اسم (الجمهورية العربيـــة السوريـــة)، وجــرت الانتخابـــات النيابيـــة بتاريخ (١٩٦١/١٢/١٢م) وانتخب (عبد اللطيف اليونســ) نائباً للمرة الثالثة عن منطقة صافيتا، وتــم انتخاب الرئيس ناظم القدسي رئيســاً للجمهورية ومعروف الدواليبـــي رئيساً للوزراء. ولـــم تكن فترة الانفصال فترة استقرار وكانت فترة صراع داخلـــي بيـــن الأحزاب، وخارجـــي بين من يميل إلى إعادة الوحدة على أسس جديدة، وعمت المظاهرات التـــي تندد بالانفصال بين حين وآخر.

ولم يدم ذلك طويلاً، فبعد سنة ونصف من الانفصال حصل انقلاب عسكري، وفي (١٩٦٣/٣/٨م) استلــم حزب البعث العربي الاشتراكي زمام السلطة.

الفترة الرابعة (١٩٦٤-١٩٨٩م):

الاغتراب والعمل الصحفي- العودة إلى الوطن

فتـــرة جديدة تختلف أيامهـــا عن الأيام السابقة التي مرت، بعيداً عن عالم السياسة سار في درب الاغتراب والعمل الصحفي كان يردد «أما آن لهذه الحقائب أن تستريح؟» لم يقف مكتـــوف اليدين أمام مفاجآت الحياة، وهو دائماً ربان السفينة الحاذق الذي يقودها على الرغم من الأعاصير والمفاجآت.

كلّ مرحلـــة مـــن تاريـــخ سوريـــة مليئة بالأحداث المتنوعة، ولـــكل مرحلة رجالها والعديـــد مـــن الشخصيـــات السياسيـــة والعسكرية التي تتحمل المسؤولية، وهدفها النهوضـــ بالمجتمـــع كل علـــى طريقتـــه الخاصـــة، ومنهجـــه، والمذكرات هي سجل للزمـــن، واستعراض للتاريخ ويقول اليونس: «المذكرات هي سجـــل للزمن والناس فيما هي استعراضـــ للتاريخ، فإنها تمكن القارئ من الاطـــلاع على ما جرى من ذلك التاريخ وأخذ الدروس والعظات منه، وأما أن يتحدث الكاتـــب عن نفسه وعمّا جرى له ومعه ليس هـــذا ما يشيـــن، وما يؤاخذ عليـــه بل واقع يفرضه الواقع، والحياة مدرسة. وكل امرئ من هذه الحياة هو تلميذ في هذه المدرسة وأكثر نجاحاً في هذه الحياة هو من يعترف بها ويؤمن به شعاراً له» (ص٥٧١).

في صيف (١٩٦٤م)، قرر السفر، وطلب من وزير الداخلية (نور الدين الأتاسي) السماح له بالسفر، وكان ثمة قرار يمنع السياسيين من مغادرة البلاد يقول: «استقبلني بمنتهى اللطف، وفي اليوم التالي سلمني طلب الموافقة وأكد لي أن أحداً لم يعترض، بل ذكرني بعضهم بالثناء على مواقفي الجريئة والبناءة في مجلس النواب» (ص٥٧٢).

ويعود ليقول: «لحظات قاسية ومريرة في حياة الإنسان وقبل سفري اجتمعت بأقربائي وأصدقائي وأبلغتهم موعد سفري ولا أعرف متى أعود.

وكان التأثير امتناناً جميعاً والدموع تتشابك. (ص٥٧٣).

ما أقسى القدر! وما أقسى عقوق الأقارب! أقسى من عقوق الآخرين، وربما أشعر بأنني أمام لحظات إنسانية مصيرية، لا مجال للبعد عنها ومن الأفضل ذكرها بالتفصيل.

اللحظة التي غادرت فيها منزلي ورأيت والدتي وزوجتي تبكيان، هي من اللحظات المدمرة في حياتي، والتي لا تنسى من المستحيل أن تنسى، والدتي مضت وذكراها في نفسي إلى أن ألحق بها، وزوجتي (بنت عمي) تحملت معي الكثير وكانت دائماً خيراً مني. وأكرر اعترافي بذلك. (ص٥٧٣). تركتهما للمسؤولية والحزن...».

وتابع قائلاً: «سافرت إلى أمريكا الجنوبية وزرت فنزويلا، ثم الأرجنتين. وهنا يؤكد المؤلف أهمية هذه المرحلة الهامة من حياته وسيكون له كتاب خاص بها.

رحم الله والدته الحكيمة الفاضلة التي توفيت أثناء اغترابه، ولم يستطع الحضور عند وفاتها.

أمَّا زوجته التي كانت تمثل المرأة الرصينة الفاضلة التي حملت أعباء الحياة السياسية، وغياب الزوج المتكرر والمتنوع، وهي صابرة صامتة تقوم بواجبها على خير وجه تجاه أسرتها، ومجتمعها رحمها الله رحمة واسعة وقد كتب على ضريحها:

بلغت الثمانين وأنت لابسة
ثوب الطهارة لان الدهر أم خشنا

وهكذا الحياة تدور والأيام تدور معها بأحداث جديدة، ومفاجآت متعددة، وبعد أن بدأت جولته في عالم المهجر، زار أصدقاءه في أمريكا اللاتينية، الأرجنتين، فنزويلا، أستراليا، وأخيراً حل به المطاف في البرازيل، وكان أثناء جولته يلقي محاضرات عن الوطن العربي وعن سورية خاصة، وكانت محاضراته تلاقي إقبالاً شديداً.

وفي عام (١٩٦٧م) ألَّف كتاباً من صميم الأحداث وقد حصلت مأساة حرب حزيران (١٩٦٧م)، بعد طبع الكتاب، أضاف إليه: «أكتب

عن المأساة التاريخية المروعة التي تتضمن الألم والحزن لما حدث»، ووضعها في المقدمة دون أن تأخذ صفحاتها أرقاماً، وقال:

«لقد خسرنا معركة، ولكننا لم نخسر الحرب، ولن نخسرها إلاّ يوم نخسر ثقتنا بأنفسنا وإيماننا بقضيتنا وبأننا ننتصر، يوم نبني أنفسنا على أسس واقعية سليمة نعرف كيف نسترد شرفنا وكرامتنا المهيبة وننتصر» يجب أن نعود لأنفسنا قبل المعركة المقبلة، ونحاسبها، ونأخذ أحكاماً صارمة بحق الذين تهاونوا وتكاسلوا واستنكفوا.

وفي صيف (١٩٦٨م) ألف كتاباً عن شفيق معلوف (الشاعر) يقول: «استقر بي المقام في سان باولو، وعرض على الأصدقاء فكرة تأسيس جريدة وبعد فترة أصدرت (جريدة الأنباء) ثماني صفحات باللغتين العربية والبرتغالية». وهنا يتحدث باختصار عن العقبات الكثيرة التي اعترضته سواء بالترخيص أو الإشراف أو تأمين المستلزمات لا مجال لعرضها، «ولكن عزمت ألا أتراجع ومن عاداتي متى ما أقدمت أن لا أتردد ولا أتراجع».

ويعرف المسؤولون في سورية وكبار أبناء الجالية أنه كان لجريدة الأنباء أثر كبير ودور هام في تقوية الصلات وتمتينها بين المغتربين والوطن الأم (ص٥٨٨).

وفي عام (١٩٧٠م) قام بالحركة التصحيحية وزير الدفاع (حافظ الأسد).

ويصف هذه الفترة قائلاً:

«وفي السنة الثانية لتوليه السلطة، وبعد انتخابه رئيساً للجمهورية زرت سورية وقابلته وقدمت للرئيس الأسد /٣٢/ سؤالاً حول الأوضاع في سورية عربياً ودولياً، وقد تلطف وأجاب عليها كلها واتسمت أجوبته السديدة بالحكمة والدقة والصراحة والموضوعية وهذا ما أحدث دوياً كبيراً في المغتربات وتناقلتها وسائل الإعلام المحلية والعالمية وعلقت عليها.

والمغتربون مدينون للرئيس الأسد فقد أوفد معلمين إلى القارة الأميركية لتعليم أبناء المغتربين، لغة آبائهم وأجدادهم وفي عام (١٩٧٣م) تأسست في مدينة سان باولو منظمة اتحاد الجمعيات العربية التي أطلق عليها اسم (فياراب) وعقد المؤتمر الأول في الأرجنتين (بوينس آيرس) ولايزال اللقاء مستمراً بدوراته.

ونظراً لظروف صحية معينة غادر البرازيل وعاد إلى الوطن ليبقى فيه عامين كاملين، كانا حافلين بالكتابة والمطالعة واللقاءات والزيارات وإلقاء المحاضرات.

في عام (١٩٧٧م) عاد مرة أخرى إلى الأرجنتين، وبمساعدة الأصدقاء في

المهجـر والوطن، وبعـد معانـاة متعددة الجوانب تمكن من الحصول على ترخيص (الجريـدة الوطن) استطـاع متابعة العمل وإصدارهـا باللغتين العربيـة والإسبانية، واستمـر صدورهـا عدة سنـوات وتميزت بإبـراز الاتجاه العربي والشعـور القومي، وتابـع قولـه: «وفـي الأرجنتيـن كما في البرازيل، كنت أتلقى التهديدات المستمرة» (ص٦١٥).

وأثنـاء وجـودي ألقيـت العديـد من المحاضرات في الجامعـة الكاثوليكية في (التوكومـان)، وفي عـام (١٩٨٦م) ألقيت محاضرة عن «الحضارة العربية وأثرها في تكوين الحضارة الإنسانيـة وبناء الإنسان» ومنحت (شهادة الدكتوراه الفخرية).

لم يترك (اليونس) مناسبة إلاّ وذكر فيه اسـم صديق أو قريب أو أي شخص قدم له مساعـدة أو ساهم معه فـي نجاح أي عمل قام به خلال حياته السياسية.

وكـم كانـت شخصيتـه الجذابة محط إعجاب الكثيرين وهي جواز مرور إلى قلوب معارفه وأصدقائه! حتى إنه قلّ مثيله بكثرة الأصدقـاء والمحبيـن والحيويـة والحياة الاجتماعية الزاخـرة بالعلم والأدب، سافر إلى العديد من دول العالم في مهمة رسمية أو زيارة وقابل شخصيات عالمية وسياسية وعلمية ودينية.

في عـام (١٩٩١م) نال جائـزة جبران خليل جبـران العالمية، وعـاد إلى الوطن، لتنعم أسرته بقربـه، لتعوّض الأيام الطويلة مغترباً وبعيداً عن وطنه وأهله... وهو أينما حـلّ مصدر بهجة فهو حلو المعشر، حاضر النكتة، أنيق المظهر.

وأقيمت لـه الحفـلات التكريمية التي هو جدير بها لمـا قدم للوطن خلال حياته الحافلة بالعطاء والزاخرة بالعلم والمعرفة.

وطبـع مذكراته، وأعاد طبعها مرة ثانية وكذلك تمّ طباعة أعماله الكاملة.

وحياة المثقف مستمرة في حياته وبعد مماتـه، لأن ما كتبه حافـل يزين صفحات تاريخ الوطن.

هذه الصفحات التي أوجزت فيها إقناعاً من عبقريـة، وومضات مـن تاريخ الوطن، ترسم صورة موجزة عن (تاريخ سورية).

أبو إسماعيل وذكريات من تاريخ مضى

د. صادق فرعون*



على الحافّة الغربية من محافظة «السويداء» تترامى السهول وتتبارز الهضاب المغطاة بخضرة يانعة في بدايات الربيع، فيها حقول القمح والشعير وفيها الأشجار الخضر، وتشوب هذه الخضرة الواسعة بقع صغيرة سود، هي أحجار «اللجاة» البركانية التي تتناثر في تلك البقعة من العالم حتّى ليظنّها الزائر الغريب قطعة من كوكب سماوي قصيٍّ كأنّ كمّاً هائلاً من نيازك سود أمطرت هذه البقعة من الأرض فأضفت عليها غموضاً ووحشة لا يخفف من أثرهما إلا تلك الخضرة

* باحث وأستاذ في كلية الطب.

الشاسعة التي تشوبها بقع من شقائق النعمان الشديدة الحمرة وإلا ذلك النسيم البارد المنعش الذي يوسوس للغريب القادم إلى تلك الأماكن بإحساس منعش وبهدوء يخيّم على النفس ممزوج بإحساس غامض بعالم مختلف عمَّا سواه من الأرياف.

بين تلك السهول وتلك الهضاب المرصَّعة بالخضرة والسواد والحمرة تقبع قرية صغيرة اسمها «لبيّن». و«لبيّن» هذه لا تختلف عن غيرها من قرى اللجاة المتناثرة هنا وهناك في تلك المنطقة من كوكبنا الأرضي حيث تلتقي الأرض بالسماء والنجوم بالأضواء الخافتة لبيوت تلك القرية الصغيرة الوادعة القابعة بين أخواتها من قرى تتشابه ببيوتها الصغيرة التي لا ترتفع عن الأرض إلاّ قليلاً لكأن أصحابها يحبون أن يستمر التصاقهم بالأرض الأم ويقلون ابتعادهم عنها.

هناك يخيم الهدوء والسلام ويرفرف صمت أبدي أزلي لا يقطعه بين الحين والآخر إلا أصوات متداخلة متتابعة تنطلق من بضع بقرات تدبّ هنا وهناك على الأرض بيسر وأمان ومن قطيع من الخراف والماعز تغذّ السير نحو السهول والحقول تطلق أصواتاً تعلو وتنخفض في طبقاتها وتسرع وتتباطأ في أدائها وتتخللها أصوات أجراس صغيرة وكبيرة معلقة في رقاب البعض منها دون البعض الآخر ويخلق هذا المزيج الغريب العجيب من الأصوات موسيقا ذات تأثير سحري على المستمع السادر في أفكاره. ويحسّ مثل هذا الإنسان الغريب في أعماقه إحساساً غريباً عجيباً من الهدوء والسكينة والرضا يصعب عليه تفسيره. وعندما تمشي في أزقة تلك القرية الضيقة والمتعرجة تقابلك بين الحين والآخر وجوه من سكان القرية ذوي الأجساد القوية والخطوات الثابتة والوجوه الجادة التي قلّما تنمّ عمَّا يشعر أصحابها في أعماقهم، فهي ليست بالعابسة المقطبة وهي أيضاً ليست بالضاحكة الهازلة وهي ليست بالرخوة اللينة ولكنّ فيها بعضاً من الجدّ والحزم. وهم غالباً ما يحيونك تحية عابرة قد لا تزيد عن «هلا». قد يحدّقون في وجهك هنيهة قصيرة وهم أسرع ما يدركون أنك غريب زائر .لكنهم يتابعون سيرهم إلى حقولهم. تُشعرك نظرتهم أنهم يرحبون بالزائر وإن كان في نظراتهم بعضٌ من حذر وتوجس. ولكنهم في الواقع يسرّون بقدوم زائر بل وقد يرحبون به ويدعونه لشرب القهوة المرّة في بيوتهم.

سرتُ في إحدى حارات تلك القرية والأولاد يتراكضون حولي ويقفزون هنا

وهناك كأنهم قطيع ماعز ينطّ ما بين صخور الجبل دون خوف من سقوط أو انزلاق. كانوا يتضاحكون ويتهامسون كأنهم يستكشفون من يكون الزائر. سرعان ما أوضحت لهم تساؤلهم الصامت إذ سألت واحداً منهم عن بيت «شاهين» وشاهين هو زميلي في الدراسة الجامعية. لم نلتقِ منذ ما يقرب من عشر سنين. سارع هذا الواحد وقد ازداد نطاً وقفزاً وحماساً وتبعه فريقه من الأولاد باتجاه بيت «شاهين» مشيرين إليّ أن أتبعهم، حتى أشاروا إلى واحد من تلك البيوت الوحيدة الطابق.

حيّتني فتاة شابة وسيمة المحيّا وأجابت عندما سألتها عن شاهين بصوت شجي منغّم: «لقد ذهب لتوّه ليرى إحدى عماته» ثم تابعت بخجل وتردد: «هلاّ تفضلت وانتظرته ريثما أسارع لندائه؟» - إنّه للطفُ منك أن تفعلي. كان التعب قد أخذ مني كلّ مأخذ. سارعت الفتاة لإدخالي إلى غرفة فسيحة تكثر على جوانبها الوسائد والطنافس. جلست متعباً وسرعان ما قدّمت لي فنجاناً من الشاي الساخن واختفت. شدّ انتباهي وأنا أشرب الشاي المنعش، صورة معلقة قبالتي لرجل مسنّ، له عينان ثاقبتان كعيني صقر، وشاربان طويلان يختلط فيهما البياض مع السواد مُشرّعان يمنة ويسرة لكأنهما جناحا طائرة قديمة. تغطي رأسه عمامة بيضاء وسوداء. كان من الواضح أنّ الصورة قديمة عفا عليها الزمان، وكانت ملامح ذلك الإنسان مبهمة كأنّها صوّرت بواحدة من آلات التصوير القديمة التي كان يقف أصحابها في زوايا شوارع المدينة فيزوِّقوا الإنسان المرسوم ويصيحوا به ألاّ يتنفّس أو يتحرّك حتى يرفعوا ذلك الغطاء الأسود عن تلك العلبة المستطيلة السحرية بحركة مسرحية خاصة ثمّ لا يلبثون أن يُعيدوا الغطاء إلى مكانه ويُهدِّئوا من روع ذلك الإنسان ويُعلموه بأنه يستطيع أن يتحرّك من جديد وأن ينتظر ريثما يبللوا تلك الورقة في ذلك المحلول الحامض فتخرج صورته وفيها كل ملامحه وسماته بالأبيض والأسود.

ورأيت على الجدران الأخرى العديد من السيوف المعلّقة ومن الأواني النحاسية التي تعتزّ بها كل عائلات الريف. ولكن سرعان ما عدت أحدّق في صورة ذلك الإنسان ذي العينين الثاقبتين كأنهما لعقاب يحلّق في أعلى السماء، بل هو لم يكفّ عن التحديق بي بحزم وإصرار. تساءلت من تُرى يكون هذا الإنسان؟ أهو جدّ شاهين صديقي وزميلي أيام الدراسة؟ بل لعلّه أبو جدّه؟ أم هو واحد من أبطال الثورة السورية التي اندلعت في

الجبل الأشمّ والتي قاتل أبطالها الاستعمار وقارعوه؟ أم لعلّه جندي من الجنود الذين ساقتهم السلطات العثمانية كيما يذودوا عن السلطنة في حرب «سفربرلك» وإن كان الأمر كذلك فهو ولا شك واحد من القلّة الذين كتبت لهم الحياة في تلك الحرب التي حصدت أرواح الألوف المؤلّفة من شباب العرب الذين ذهبوا ولم يعودوا. وإن كان الأمر كذلك فلا شك أنه قد أنجب العديد من الأولاد والأحفاد وربما أولاد الأحفاد. وتساءلت كيف كانت حياة هذا الإنسان ذي العيون المفعمة بالثقة والحزم بل والتحدّي. لاشك أنه يريد أن يروي لي ملحمة حياته من دون كلمات أو أصوات.

قطع عليّ أفكاري وتساؤلاتي صوت «شاهين» الهادر وهو يدخل المضافة ويرحب بي بطريقته المعهودة التي يمتزج فيها الصخب والمرح بكلمات الترحيب العفوية الخالصة. - أين أنت أيها الإنسان؟ لم نرَ بعضنا منذ ما يقرب من عشر سنين. أتذكرُ أيام الدراسة في الكليّة؟ أتذكر كيف كنا نجلس جنباً إلى جنب في قاعات الدراسة. صحيح أننا كنّا زميلين في الدراسة ولكننا كنّا صديقين أيضاً ولم يمنعنا ذلك من أن نتنافس ونتسابق على نيل العلامات الأكثر والدرجات الأعلى.

هل تذكر أحاديثنا عن القرية والمدينة؟ وعن فضائل الأولى ورذائل الثانية؟ لم يكن شاهين ليتوقف عن الكلام الذي ينطلق بسرعة فائقة لو أنني لم أقاطعه قائلا: بلى بلى أذكر كل ذلك. ولكنه سرعان ما تابع هادراً: إذن، هذا ما دفعك إلى القدوم إليّ لترى بنفسك هل قريتي جميلة كما كنت دوماً أصفها لك.

كان شاهين واثقاً دوماً من كل ما يقول ولاسيما عندما يتعلّق الأمر بلبيّن.طاف بذهني أن أسأله لـمَ دعيت «لبيّن» ولم تُدعَ «لبّاً» واحداً ولكنني نظرت إليه نظرة قوية وقلت له بحزم: قل لي أولا وقبل كلّ شيء من يكون هذا الإنسان الذي لم ينفك يحدّق بي بحزم وإلحاح يريد أن يقصّ عليّ خفايا حياته. هل هو جدّك؟ - اجلس واختر لنفسك وسائد لينة واسترح فسأقصّ عليك قصة أبي إسماعيل الغريبة. - ولكن قل لي هل هو جدّك؟ - نعم ولا ولكن اسمعني. عندها بدأ سرد قصته دون أن أقاطعه. أما أخته «أميرة» كما عرفتُ اسمها فيما بعد فكانت تغدو وتروح حاملة معها أكواب الشاي وخبز التنور الساخن وقطعاً من الجبن الأبيض الطازج وكؤوساً من الحليب واللبن. وبينا كنا نأكل لم يكن يُسمع إلاّ صوت «شاهين» يروي قصة أبي إسماعيل. قال بصوت عالٍ

وجهوري: أبو إسماعيل هو شقيق جدّتي. اسمه «فرحان جمال» ولكن قلّة من أهل القرية كانوا يعرفونه باسمه هذا، أما كل كبير وصغير في القرية فكان يعرفه باسمه «أبو إسماعيل». كان الكلّ يحبّه ويحترمه بل ويخشاه قليلاً أو كثيراً، فقد كان شاباً قوي الشكيمة عزيز النفس كثير الأَنَفَة قوي العضلات عالي المعنويات سديد الرأي. كان الجميع يسرّ بلقائه.

كان يعمل بجد ونشاط ويتكلم قليلاً بل وفي أندر الأحيان. كان يحبّ أهل القرية جميعهم صغيرهم وكبيرهم. ومع ذلك فقد كانت هناك فجوة غير مرئية تفصل قليلاً بينه وبين سكان القرية قريبهم وبعيدهم على حد سواء، فما كان يحب الاختلاط الكثير معهم، وهو لم يتزوج أبداً. لم يعرف أهل القرية سبباً لذلك: أهو لفقره؟ أم أنه ما كان يميل إلى أية امرأة بعينها أو ربما إلى كل النساء؟ ولم يكن أحد منهم يجرؤ على سؤاله. هو لم يكن يملك أية قطعة أرض في «لبيّن». لذا كان يعمل في حقول الآخرين وكان يعمل بجدّ وكدّ وصمت وما كان يطالب أصحاب الحقول أن يدفعوا له أكثر مما كانوا يدفعون. وفي تلك السنين اشتدت ظروف الحياة على الجميع وكانت الحرب تنذر بالوقوع وكان عسكر العثمانيين يجوبون القرى والمدن والدساكر مع مختار المنطقة ليجبوا المزيد والمزيد من الضرائب والإتاوات. كان على كل فرد في أرجاء السلطنة أن يدفع «الدربية» إتاوة الطرق وكان على كل قرية أن تجمع ما قد يبلغ ليرتين ذهبيتين حسب عدد سكانها وحسب فقرهم أو غناهم. كان أهالي «لبيّن» فقراء أو ضنينين بدفع ما وفّروه من مال وقمح وغيره من مؤونة. وكان نصيب من يمتنع عن الدفع أن يصادر من قبل عسكر السلطان ليقوم بأعمال السخرة في أرجاء السلطنة.

أمّا أبو إسماعيل فكان يمقت المختار وعسكر السلطان مقتاً شديداً وكان يعطي كلّ ما معه كيلا يجرّ إلى أعمال السخرة تلك. كان المختار يعرفه كل المعرفة وكان يدرك أنه يقدّم كل ما يملك في هذه الحياة وأنه لن يعنُ له ولن يذهب إلى السخرة حتى لو نشب قتال مميت بين الطرفين ولهذا كان يعفيه دوماً من السخرة.

اشتدت قسوة الحياة على أبي إسماعيل وعلى غيره في تلك الأرجاء. أما أبو إسماعيل فلم يعد يطيق صبراً على الجور والظلم. كان يرتجف غضباً لمرآهم ولكنه كان يضبط النفس كيلا ينقضّ عليهم فيقتل منهم من يقتل قبل أن يتمكنوا منه ويقتلوه. كان يحتمل الفقر والجوع والعطش، أما أن تُمسّ كرامته فهذا ما لا يمكنه السكوت عنه أبداً.

ذهــب ذات أمسية يــزور أخته كما كان يفعــل بين الفينة والأخــرى، وتجمهر حوله أولاد أخته وبناتها وقفــزوا عليه يداعبونه كما كانوا يفعلــون. كانوا يحبونه ويحبوا أن يلعبــوا معــه ويداعبوه. هذا يشــدّ أصابعه وذلــك يجرّ ساقه ليوقعه وهــذا يقفز على ظهره وآخــر على كتفــه. كان قوي الجسم يحمــل منهم عشرة أو يزيــد يتكومون على ظهــره ورأسه وكتفيه فيمشي بهم في أرجاء المضافة الفسيحة، يصيح ويصيحون، يهزج ويهزجون، يغنّي ويغنّون.

كانــت مثــل تلــك الألعاب تــدوم دقائق محدودات ثم لا تلبــث أن تنتهي متى تنحنح أبو إسماعيل وقطّب لهم حاجبيه فيوقنون أن زمن اللعب قد انتهى وأن وقت الهدوء قد حان. وفــي تلك الأمسية طال وقت اللعب والصياح أكثر من المعتاد وعجب الأولاد لذلك ثم لـمّا تنحنــح أبو إسماعيل وقطّب جلسوا ينتظرون سماع حكاياتــه الشيقة ولكنــه ذلك المساء جلســ ونظر في أعينهم ملياً وحدّق بكل فرد منهــم ثم قال لهم بصــوت يقطر حباً وحناناً لم يعهــدوه فيه أبداً: - «يــا أولاد ويا بنات. لــن أنسى أبداً هذه اللحظــات السعيدة ولن أنساكم يا أعزائــي وأحبابي ما حييت». كان يتكلم ببطءٍ وبحــزم. دهشوا لكلامه فخالهم لم ينطق أبداً بكلمات مثل تلك. كانوا يحبّونه وكانوا يدركون أنّه يحبهم ولكن كلمات الحب لم تكن تستعمل أو تسمع في ذلك البيت، لكأنّ الاعتراف بالحب يُقِلّ من قدره. وما لبث أبو إسماعيل أن تابع: «أريد أن أتحدّث اليوم مع أمكــم». أدركوا أنّه لن تكون فــي تلك الليلة حكايــة من حكاياته الممتعــة. نهضوا ببطءٍ وتكاسل واحداً بعد الآخر. ذهبوا ينامون وما كانوا يدرون ما كان يخبئه الغد.

جلس أبو إسماعيل قرب أخته «هندية». نظر في وجهها ملياً ثم حدّثها بحب وحنان ظاهرين لــم تعهدهما فيه: «أختي هندية». - «عجيب أمره، هكــذا فكّرت هندية، فهو لم ينطق باسمها مــذ كانا صغيرين». ولكن صوتــه قطع عليها أفكارها. «الحياة لم تعد تطاق هنا ومــرأى العسكــر العثماني صار يثير غضبي أكثر من أي وقت مضى». كادت تهوّن عليه الأمر ولكنه تابع كلامه، «سمعت عن العديد من أهلينا يذهبون إلى «بيروت» فيبحــرون منهــا إلــى بلاد قصيّــة تدعى «أمريــكا» حيث يعيشــون ويعملون ويجنون الكثير من المال ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى وطنهم أثرياء وعند ذلــك يعيشون معززين مكرّميــن حتى آخر الحيــاة». انقبض قلب هندية عندما سمعت كلام أخيها الذي كانت تكــنّ له كل الحب والعطف فقد كان سندها وملاذها كلما اشتدت عليها ظروف الحياة،

ولكن صوته عاودها منذراً، «وهذا ما حزمت أمري عليه وما سأفعله هذه الليلة». ارتعدت مفاصلها لسماعهـا تلك الكلمات وما لبثت أن بكت بكاءً شديداً صامتاً فقد كانت توقن أن مـا يقوله أبو إسماعيـل كائن لا محالة، وأن لا رادّ لـرأي قطعه وأن لا فائدة من أي رجاء أو استعطاف.

أحسّـت هندية أن جـزءاً من روحها قد انسلّ عنهـا، فما كانت تتصـور يوماً تبعد فيـه عن شقيقها أو يبعـد عنها. قالت بعد طول بكاء بصوت ضعيف ومحزون ومذعن: «ليبـاركك الله وليحفظك الرحمن وليسدد خطـاك وليُعِدك لنا غانمـاً سالماً». «اعتن بنفسـك يا فرحـان، تذكّـرت لحظتها أنها هـي أيضا لم تنطق باسمه منذ عشرات من السنين، مذ كانا طفلين يلعبان طوال النهار أمام ساحة المنزل. أي حلم بعيد جميل كان ذاك. أيّـة أيام حلوة لم يعرفا فيها أي حزن أو مرارة. عـاودت هندية كلامها الذي كان يتزايد خفوتـاً وحزنـاً:» تذكّـر أنّ لك أختاً هنـا في لبيّن لن تنساك أبداً ولن تقنط من عودتـك إليها غانماً سالمـاً معافى. سوف تنتظـرك كل صبـاح وكل مساء ولـن تهدأ روحها حتى تراك هاهنا.

تذكّر أنني لن أفقد الأمل وأدعو الله أن يطيل عمري حتى يتحقق لي هذا الأمل. أنه أملي الأوحد يا أبا إسماعيل عادت دموعها تنهمـر مدراراً وضمّهـا شقيقها إلى صدره ثم أسرع يخرج من البيت الذي أشعره دوماً بالطمأنينـة والسعادة. غـذّ السير وهكذا بدأت رحلته الشاقّـة إلى بيروت ولكنه كان قوي الجسم شديد البأس.

مـا لبثت الحـرب العالميـة الأولى أن اندلعـت بعد سفـر أبـي إسماعيل، وعانى أهالـي «لبيّن» مـن ظلم عسكـر السلطان الشـيء الكثيـر. عانوا من الجـوع والفقر والبرد والمرض. لم يبق في القرى إلا النساء والشيوخ والأطفـال ولم يبق من المؤونة إلا اليسير فقد كان عسكر السلطان يصادرون كل مـا يعثـرون عليه من طعـام أو دابة أو كسـاء للحرب في «سفربرلـك». ولم يرجع من شباب القرية إلا القليل النادر ممن فقد ساقاً أو ذراعاً أو عيناً. لم يعد أحد يذكر أبا إسماعيل بعدما تكاثرت المصائب والرزايا وبعدما صار كل همهـم تأمين قوت الأولاد الجياع الهزّل.

كانت أهوال الحرب أكبر من أن يحتملها أي إنسـان. ما كان هناك بيـت لم يفقد أباً وعمـاً وأخوة وأولاداً ذهبـوا ولم يعودوا ولا يدري أحد في أيـة بقعة من أرض السلطنة ماتوا وهـل دفنوا أم لم يدفنـوا؟ وهل كان هناك من أسعفهم بنقطـة ماء في لحظات

حياتهم الأخيرة؟. في لبيّن، إنسانة واحدة لم تنسها كل مآسي الحرب وكل قسوته وجوعه أخاها الذي ذهب إلى عالم قصيّ مجهول.

كانت تذكره كل مساء بعدما يهدأ الأولاد. كانت تتساءل كيف حاله يا ترى وكيف يعيش وهل سيعود يوماً ما وتراه؟ وضعت الحرب أوزارها ولم يعد معظم من ذهب إليها من كهول وشباب. وعادت «هندية» تسأل كل قادم من بلاد بعيدة هل سمع خبراً عن أخيها؟ نفى بعضهم أن يكونوا سمعوا عنه ولكن بعضهم الآخر قال لها: «أبو إسماعيل يعيش في مدينة تدعى «واشنطون» في بلاد العم سام» - وماذا يعمل؟ قال بعضهم إنه بائع متجول ما بين القرى يبيع كل ما يحمله على عربته من أشياء تحتاجها ربات البيوت. وبعضهم قال بل يملك دكانا يبيع فيها كل شيء. - وهل تزوج يا ترى؟ وهل أنجب أولاداً؟. هنا تضاربت الأقوال، بعضهم يقول نعم تزوج ولكن بعضهم كان يتردد ويقول لا. إنه يعايش امرأة بين الحين والآخر من دون أن يتزوج منهن، وكان هذا الكلام يغضب «هندية»، وأغلبهم كان يقول إنه لم ينجب ذرية.

كانت كلها شائعات وأقوالاً ما كانت هندية تدري أكانت صدقاً أم كذباً... ولكنها كانت تسعد وترضى لأنها كلها كانت تشير إلى أن أخاها مازال حياً وهو الأهم لها. تتابعت السنون وتعاقبت العقود وما عاد أحد يذكر أبا إسماعيل ولا عاد أحد يبدي أي اهتمام بالسؤال عنه أو بتقصّي أخباره، وشيئاً فشيئاً صارت هندية تتردد في سؤال كل قادم ثم كفّت عن السؤال.

كان قلبها دليلها، كان يؤكد لها كلما خلت إلى نفسها أنه ما زال حياً ومعافى وأنه لابدّ ظاهر يوماً ما في «لبيّن» يمتطي جواداً أبيض يزهو به وتزهو هي أيضاً به على أهل قريتها. وعلى الرغم من يقينها هذا ما كانت تجرؤ على مصارحة أقرب الناس لها بذلك، فأولادها وبناتها كلهم تزوجوا وغدوا أصحاب بيوت وذراري ومشاغل لاتنتهي ومشاكل لا تنضب. أمَّا زوجها فرجل مسن لا يكفّ عن الشكوى والتململ. كانت لهذا كله تُبقي إيمانها هذا لنفسها دون غيرها من الناس، وكان هذا الإيمان الثابت يسعدها ويمنحها قوّة لا حدّ لها.

كان كل أهل القرية مشغولين بمشاكلهم من ولادة وموت ومرض وسفر ونزاعات وأعراس عندما سمعوا ذات يوم ضجة غيرَ كل ضجة اعتادوها. ازداد الضجيج والهرج والمرج في أزقة القرية. لابدّ أن معجزة قد حلّت بالقرية. تطلّع الأولاد والأحفاد من نوافذ بيت هندية فإذا موكب عظيم من أهل

القرية كبيرهم وصغيرهم، مسنّهم ويافعهم، راكبهم وماشيهم، يصيحون ويغنّون ويهزجون ويقفزون ويرقصون. كانت «هندية» منشغلة في المطبخ كالعادة عندما سمعت كل ذلك الضجيج وقلقت له. مدّت رأسها من النافذة ولم تلبث أن صرخت صرخة قوية مدوية، فبين الركب العظيم رأت إنساناً ليس كبقية الناس، أبيض اللحية والشارب ولكنه يمشي بعزم وثبات يباهي عزم الشباب، قامته منتصبة وعيناه تشعّان عزماً وحيوية. إنه «أبو إسماعيل» ولا يمكن أن يكون أي إنسان آخر. لقد خالجتها في اليومين الأخيرين مشاعر غريبة لم تشعر بمثلها قط منذ ما يقرب من خمسين عاماً، ولكنها كانت تخاف أن تعترف لنفسها بمغزاها ومعناها، فكيف بها تزفّها لزوجها أو لأولادها. كانوا ليتهمونها بالجنون. لقد أدركت الآن معنى تلك الإحساسات الغريبة وذلك الخفقان المفاجئ في قلبها في اليومين الأخيرين. ركضت «هندية» تصرخ وتزغرد ودموعها تنهمر مدراراً. كادت تقع على الأرض ولكن قوة عتيدة دفعتها فانطلقت نحو الموكب وجثت على الأرض تقبّلها عندما رأت أخاها في الوسط بشاربيه الطويلين الثابتين.

أخيراً حدثت المعجزة التي كانت هندية توقن بحدوثها. كان لقاء الشقيقين مؤثراً، مفرحاً ومبكياً. أمسك أبو إسماعيل أخته بيديه القويتين ورفعها إليه وضمّها إلى صدره. نظر كل منهما في وجه الآخر ثم تابعا سيرهما باتجاه دارها. كانت تمسك بيده بقوة وعزم كأنها كانت تخاف أن يختفي ثانية ولا يعود. دخل الجميع حتى لم يبق في المنزل وفي الساحة موطئ لقدم. كان الكلّ يريد أن يحيّي القادم من بعيد وأن يقبّله وأن يسأله عما حدث في تلك السنين التي تقارب الخمسين.

إنها معجزة أن يظهر واحد من أولاد القرية بعد غياب نصف قرن ويعود لابساً ثياب الخواجات والأفندية. كان أبو إسماعيل يجيب هذا بكلمة وذاك بكلمة وكان يبتسم للواحد ويهشّ للآخر. وبعد وقت قصير انتصب واقفاً ونظر فيمن حوله نظرة حادة ثاقبة، وبعد هنيهة ساد صمت وتكلّم الحاضر-الغائب بصوت قوي فيه حزم وفيه أمر: «يا سادة يا كرام أشكر لكم حسن لقائكم. وأخيراً عدت إلى «لبيّن» لأموت هنا حيث ولدت. لقد آن الأوان لأخلو لأهلي ولشقيقتي وللأولاد والأحفاد. لاشكّ أننا سنلتقي ولكن ليس الآن بل فيما بعد». لم تترك نبرة صوته مجالاً لأي كلام أو سؤال.

تفرّق القوم وخلا أبو إسماعيل بأخته وبصهره وبقبيلتهما الكبيرة. ما انفكت هندية

عن البكاء وما أفلتت قبضتها المحكمة يد أخيها طوال الوقت كأنه طائر تخاف أن يطير ويبعد عنها. وكانت تسأله بين الحين والآخر فهي أيضاً كانت تودّ أن تعرف ما حدث له خلال كل تلك الأعوام. كان يجيبها بكلام مقتضب: بائع جوّال ثم صاحب دكان الخ الخ. – ولكن قل لي هل تزوجت؟ هل أنجبت؟ ويجيبها بعصبية لا لا لا. وما كانت تجرؤ أن تلحف في السؤال. وأخيراً التفت إليها وقال: «أريد أن أشتري بيتاً قريبك لأسكن فيه». صاحت هندية «أرجوك لا تقل مثل هذا الكلام، سوف تعيش معنا هنا وفي هذا البيت. سوف يكون لك صدر البيت ولن أرضى بعد اليوم أن تبتعد عنّي». كان في صوتها حنان ورجاء وتصميم. –«لا بأس. لا بأس في الوقت الحاضر». ردّد ذلك أكثر من مرّة. أمضى أبو إسماعيل معظم وقته في البيت، كان يداعب الأولاد الصغار منهم واليُفعان، الصبيان والبنات. كان يقصّ عليهم أعاجيب القصص والحكايات ويحملهم على كتفيه وظهره كما كان يفعل أيام شبابه. وما لبث خبر عودته أن ذاع في الحقول والقرى، وسارعت كل عائلة بدورها تدعو أبا إسماعيل وأهله إلى ولائم تولم في الهواء الطلق يدعى لها كل أهل القرية احتفالاً بعودة الغائب الذي اختفى نصف قرن ثم ظهر بعدما يئس الجميع من عودته. كان القوم يتبارون في ذبح الذبائح من خراف ودجاج وديكة وإوز تعلو أكواماً من الأرز المطبوخ والمرصع بما طاب من أفاويه وأبازير وخضار. وكانت دهون الذبائح وشحومها تسيل على أطراف تلك الأواني والصحون الكبيرة فتكسبها طعماً لذيذاً ونكهة خاصة.

كان أبو إسماعيل دوماً في أوسط الحلقة وكان المضيفون يتسابقون بملء صحن المحتفى به باللحم والأرز والشحم وأطايب الأفاويه. وما كان لأبي إسماعيل مفرّ من أن يأكل ويأكل أكثر بآلاف المرات مما أكل خلال نصف قرن في ديار الغربة. كان يدرك أن اعتداله في الطعام سيؤذي مضيفيه وسيظنّون أنه لم يعد واحداً منهم بل غدا غريباً من الأغراب الذين لا يعرفون كرماً ولا قِرى. وكان أبو إسماعيل يشكو كل مساء من آلام شديدة في بطنه. كان يشعر ويسمع أمعاءه تقتتِل في خصام لا آخر له. حاول أن يشرح السبب لأخته هندية، وكان يرجوها أن توقف ذلك السيل الجارف من الدعوات وتلك التلال من اللحوم والدهون والأرز التي غدت رؤيتها تثير في نفسه الاشمئزاز والغثيان والخوف من آلام الليل.

كانت هندية ترجوه أن يصبر وينتظر

حتى تخفّ موجة الحماس التي انتقلت إلى القرى المجاورة. -«أي عار سيلحق بنا إن أخبرناهم أنك ترفض دعواتهم؟ أرجوك أن تصبر ولن تدوم هذه الولائم أكثر من أسبوع أو أسبوعين». هزّ أبو إسماعيل رأسه مذعنا فقد أدرك أن نصف قرن من الزمن لم يغيّر شيئاً من عادات قريته. ما عليه إلاّ أن يملأ معدته كل يوم بما يقدّم له من طعام نسي طعمه اللذيذ خلال مقامه في بلاد العم سام حيث كان يعيش على الكفاف من الطعام كي يجمع أكثر ما يستطيع من مال يعود به إلى قريته. لم يمض يومان على تلك المحادثة الأخوية حتى مرض أبو إسماعيل ولازم فراشه من آلام شديدة في بطنه ومن إسهال شديد لا يتوقف ليل نهار. ثم هو من شدّة الإسهال لم يعد يمسك نفسه وصار يلوّث ثيابه وفراشه وأغطيته. بدأ زوج شقيقته ثم الأولاد والأحفاد بالاحتجاج والشكوى إذ انتشرت روائح العفونة والمرض في أرجاء البيت. كان البعض يجأر بالشكوى ويعلو صوته بأقذع الكلام: «هاك شيخ في التسعين يرتدّ إلى طفولته الوسخة ولا يُمسك نفسه». ومن لم يعلُ صوته كانت عيونه تنضح تبرّماً وغضباً وسخريةً. حتى الصغار صاروا يطوفون حوله ويتصايحون: «شيخ شخ خاخ» إنهم العفاريت الصغار نفسهم الذين كانوا حتى أيام قليلة مضت يقفزون على ظهره وصدره وكتفيه ويتعلّقون به كقردة مرحة خبيثة ملحاحة، يلاعبونه ويلاعبهم.

كانت أخته هندية لطيفة وهادئة وصابرة ولكن مشاغلها الكثيرة لم تكن تترك لها وقتاً لتعتني به.

في تلك اللحظات العصيبة من حياة أبي إسماعيل ظهر ملاك حقيقي حنا عليه ورعاه بكل حب وصبر وإخلاص. كانت واحدة من بنات هندية الكثيرات، قدمت من «المدينة» لترحب بخالها الغائب تاركة وراءها زوجها وأولادها. إنها «نايفة» ذات الوجه الصبوح الباسم. ما كان يبدو عليها أي انزعاج أو تعب كلما قامت بغسل خالها وتبديل ثيابه وأغطيته وفراشه. كان يشعر بحبها عندما كانت تداعب شعر رأسه وتغنّي له تلك الأغنيات الناعمة التي كان يسمعها طفلاً صغيراً قبل أن يخلد إلى النوم والتي لم تتبدل نغماتها في تسعين عاماً ولعلها لن تتبدل حتى آخر الحياة.

كانت «نايفة» تعتني به كما كانت تفعل مع أولادها صغاراً. كانت تمنحه الحب والعطف نفسهما. رفض أبو إسماعيل أن يتناول أي طعام. هزل جسمه هزالاً شديداً ولكن يد نايفة الحنون كانت تقدّم له اللبن الرائب الممزوج بالنعناع أو الثوم والملح.

كان يمتصّ منه القليل وينظر لها صامتاً نظرات ملؤها الحب والعرفان. ما كانت نايفة تبعد عنه ليلاً أو نهاراً. ما كان يبدو عليها أي تعب أو وهن أو ضجر.

انتشرت الأخبار أن أبا إسماعيل مريض وأنه ميّت لا محالة ما بين يوم وآخر. تهامس الجميع: «معدته كانت خاوية طيلة إقامته في ديار الغربة، فلم تستطع احتمال ولائم الخراف». أمّا من كان يقطن في دار شقيقته فكان يترقّب موته بفارغ الصبر فقد ملأ البيت عفنا وقذارة. فقط أخته هندية وابنتها نايفة كانتا الوحيدتين الموقنتين بشفاء أبي إسماعيل، وهما من تابعتا تمريضه بحب وإخلاص. خلال ذلك المرض الموهن كان أبو إسماعيل يعي ويسمع كل ما يقال عالياً أو يُهمس بل وما كان يشعر به ممن كان حوله حتى في صمتهم. شعر أبو إسماعيل بالحزن والأسى إذ لم يكن يمضي يوم في غربته المديدة لم يذكر فيها أولاد أخته ولم يكن يتصوّر كيف صاروا ومن منهم يا ترى تزوّج ومن أنجب ومن لم ينجب. على الرغم من خيبة أمله، فقد كان عزاؤه كبيراً كلما رأى نايفة المخلصة بجانبه. بعد أسبوعين من المرض والمعاناة أفاق أبو إسماعيل ذات صباح وقد شعر أن روحه قد ردّت له وأن قوته قد عاودته كسابق عهده بها. هشّت له «نايفة» وسألته: «أراك تعافيت يا خال؟». فرحت فرحاً كبيراً. طلب إليها طعاماً فأكل كما كان يفعل في سالف الزمان: قليلاً يُسكت جوعَه دون أن يُفعم معدته أو يثقلها. لم يمض أسبوع حتى عاد لأبي إسماعيل نشاطه وبدأ يمشي في ساحة الدار. نظرت إليه نايفة ذلك المساء هاشّة باشّة وقالت بحنان: «يا خال، يا خالي العزيز، تعرف أنني تركت ورائي زوجاً وستة أولاد هم بحاجة لي في المدينة. أتسمح لي أن أذهب إليهم وقد أجاب الله لي دعوتي ورجائي فشفاك؟». أجاب أبو إسماعيل بصفاء وهدوء: «عزيزتي نايفة. أنت امرأة عظيمة. أنت سيدة لا كالسيدات. أنا أشعر بنفسي قوياً ومعافى كما كنت في سابق أيامي، ويعود الفضل كلّه لك ولحبك ولإخلاصك». صمت قليلاً ثم تابع: «لقد قررت ألاّ أبقى هنا في لبيّن وألاّ أعود إليها أبداً».

صاحت نايفة وفي صيحتها عجب وسعادة. - إذن لماذا لا تأتي معي لتعيش في المدينة؟ أنت تعرف جيداً أن الكلّ يحبّك ويحترمك؟. كان في صوتها صدق ورجاء. نظر إليها وأجاب: «نعم، نعم ولو مؤقتاً». وكان في نظراتها عجب وتساؤل، فتابع: «أودّ وفي أقرب وقت أن أشتري منزلاً في دمشق وقريباً من منزلك». قاطعته محتجّة: «ولكن

بيتنـــا فسيح وسيع. لماذا لا تبقى معنا طول الوقت؟». حدّق في عيونها المستفسرة ونطق بصوت بطيء وحازم: «أريد أن أتزوج». بعد هنيهة خيّم فيها صمت مطبق، تابع بالحزم نفسه: «يجب أن تكون شابة وفي العشرين من العمــر». هنا بلغ من نايفة العجب كلّ مأخذ ولم تــدرِ ما تقول، وقبــل أن تجد الكلمات المناسبة سارع أبو إسماعيل إلى القول: «أنا أعــرف جيداً أنك الوحيدة التي تستطيع أن تفعل شيئاً في هــذا الخصوص؟» لم تفكّر نايفة كيف يمكن تحقيق ذلك ولكنها سمعت نفسها تسارع وتقول: «نعم وبالتأكيد يا خال، يا أعزّ خال». غــادر أبو إسماعيل فور ذلك الحديث إلى «الشام» وبقيت نايفة في لبيّن تجول أحياء القرية تســأل عائلاتها واحدة واحدة وبقليل من الــكلام: زوجة شابة في العشرين لخالها أبي إسماعيل؟ ثار بعضهم وغضب كيف تُــزفّ ابنة عشرين لرجل في التسعيــن؟ وتبسّم بعضهــم الآخر وتلمّظوا طمعاً وجشعاً، فلابــدّ أن أبا إسماعيل ثري جاء بالكثير من المال.

تحــدّث الناس عــن المعجــزة المثلثة التــي حدثت في لُبيّن: كانــت أولاها ظهور أبي إسماعيل بعــد نصف قرن من الغياب. وكانت ثانيتها مرضــه الذي قلّما ينجو منه الشباب فإذا بابــن التسعين يشفى ويعافى، أما ثالثتهــا وأعجبها فهي أنه وهو في آخر حياته يرغب في أن يزفّ إلى ابنة عشرين. ورغم كل الاستغــراب والاستهجان والطمع فقد أجمعت القريــة على أن الوحيدة التي تصلح لأبي إسماعيل هي «نعيمة»: ابنة شابة جميلة يتيمة فقيرة وليس لها أهل، تعمل في حقول القرية. كانوا كلهم يعرفون أنها تحبّ «جميــل» رفيقَها في العمــل، وجميل مثلها فقيــر لا أهل لــه ولا أقارب حتــى لكأنهما الاثنان مقطوعان مــن شجرة. ذهبت نايفة إلى نعيمة وكلمتهــا بعطف وحنان: «نعيمة، خالي رجل عظيم. صحيح أنه في التسعين ولكن فيه قوة الشبــاب ورجولته وأنا واثقة مــن أنــك ستسعدين معه. مــاذا تقولين يا نعيمــة؟». احتجّت نعيمــة بصوت خفيض: «أنت تعرفين..». - نعم أنا أعرف أنك تحبين جميلاً ولكنه فقير شديد الفقر ولن يستطيع أن يطعمــك خبزاً... ثم بعــد تردد تابعت: «لمــاذا لا تسأليــن جميل؟ فإن بــادر إلى خطبتك مددنا لكما يد المساعدة». - «إنها فكرة جيــدة يا سيدة نايفة». سارعت نعيمة إلــى جميل الذي يعيش فــي غرفة صغيرة فــي أقصى القرية، أخبرتــه بكل شيء عن نايفة وعن أبي إسماعيــل وبادرته متوسلة: «أرجوك يــا جميل ساعدني. أنت تعرف أن كل أهل القرية سيساعدوننا إذا أنت تقدّمت

لخطبتي». لكن جميلاً لم يستجِب لتوسلها. كان مدقــع الفقر وكان شديد التبرم بحياته وبفقره، ضعيف الأمل في أن يتحسن وضعه. ساءته فكــرة الزواج وازديــاد المسؤوليات عليه. التفت إلى نعيمة وقال ببرود:

«تزوجي يا نعيمــة من تشائين فلا أريد لــي ولك المزيد من الفقر والحاجة». وأدار عنها وجهه البائس الخامــل. عادت نعيمة إلــى نايفة حزينة خائبــة وأعلمتها بإذعان أنها تقبل بأبــي إسماعيل زوجا لها. قبّلتها نايفة مسرورة وانتشر الخبر في القرية.

ذهبت نايفــة إلى المدينــة تنقل الخبر الســار إلى خالهــا، لكنّه اشتــرط عليها أن يتكلم منفرداً إلى نعيمة. ذهبت «نعيمة» إلى المدينة وقابلت أبا إسماعيل ولم يعرف أحد ماذا كلّمها ولم يعرف أحد أيضاً إن كانت هي كلّمته أو سألته، ولكن نايفة رأت نعيمة تخرج سعيدة راضية بعد ذلك اللقاء المنفرد.

وما انقضــى أسبوع حتى كانت العروس جاهــزة وذهبت هــي ونايفــة وهندية إلى المدينــة لتزفّ إلى زوجهــا في بيت جميلٍ سارع أبــو إسماعيل إلى شرائــه قريباً من منــزل نايفة. لم تترك نايفة خالها وعروسه معظــم الوقت، تماماً كما كانــت تفعل أيام مرضــه، ولكنهــا كانــت تعــرف بحدسها وخبرتها متــى تأتي إليهمــا حاملة أطايب الطعام والشراب ومتى تختفي عندما يودّان أن يخلوا لنفسيهما.

وعجبت نايفة أشــدّ العجب كيف كانت تنسجم نفسا هذيــن الزوجين وكيف كانت تتناغــم روحاهما رغم الفــارق الكبير بين عمريهما. كانا كعصفورين شاديين لا يعرفان إلا الضحك والمــزاح. وعاد لأبي إسماعيل طبعه السابق وحبــه للمداعبة والمرح كأنه مراهق في مقتبل شبابه.

سعدت نايفة كثيراً عندما لاحظت سعادة نعيمة ورضــا أبي إسماعيل، وكانت لا تنفك ترســل آخر الأخبــار عــن العروسين لأمها هندية التــي لم تكن أقلّ سعــادة من ابنتها لنجاح هذه الزيجة الغريبة العجيبة. مضت أشهر عدة ونايفة تأمــل أن ترى على نعيمة علامات حمل ولكــن دون جدوى، وما كانت تجرؤ أن تسأل خالهــا وهي الأدرى بطبعه. كان يسعدها ويرضيها أن ترى ما يبدو عليهما من سعادة وراحة بــال. ولكن لم تطل خيبة أملها الخفيّة فقد بادرتها نعيمة ذات صباح تشكو لها غثياناً ووجعاً في معدتها. بادرتها ببعض الأسئلة وسرعان ما ضحكت صائحة: «نعيمة، لابدّ أنك حامل يا عروس».

أخذتها إلى جارتها داية الحارة فوافقتها فــي الرأي فنعيمــة حامل منــذ شهرين أو أكثــر. كانت سعــادة أبي إسماعيــل كبيرة

فبعــد كل هذه السنيــن المجدبة ها هو ذا سيغــدو أبا وستكون له ذريــة تحمل اسمه. وفي الموعد المرتقب شعرت نعيمة بأوجاع المخاض. أتت نايفة والداية لعونها وسرعان ما وضعت: «إنهــا أنثى حلوة وقوية وجميلة الصوت». سعد أبو إسماعيل بابنته. صحيح أنّه كان يأمل بمولود ذكر يحمل اسمه واسم عائلته، ولكن هذه كانت مشيئة الخالق وهو سعيــد بما أعطاه الله بعد كل هذه السنين. انحنى على زوجته الباسمة رغم تعبها وهمس في أذنها بحب وحنان: «ما رأيك أن ندعوها «كريمة». إنّه اسم يشبــه نعيمة وهي هدية كريمة من رب كريــم يقدّمها لأب انتظرها تسعين عاماً؟».

لم تكن نعيمــة ترفض لزوجها أي طلب أو رغبــة. كانت تسعد كلّما لبّت له أية رغبة وقلّما كان يطلب منها شيئاً. كان دوماً زوجاً محبّاً عطوفاً وذكيــاً. لذا أسعدها أن يكون اســم ابنتهمــا «كريمة»، وهل هنــاك أحلى منــه؟ ضحكت نعيمة سعيــدة راضية وصار أبــو إسماعيل يترنّم صعوداً وهبوطاً بصوته «نعيمه كريمة. نعيمه كريمة.

زاد قــدوم كريمة من سعــادة الزوجين وأضاف إلــى حياتهما المزيــد من الهدوء والمســرّة. كانت نعيمة ترضــع طفلتها كلّما بكــت وصممــت ألاّ تمنعها حليبهــا طالما رغبــت الوليدة فيــه. ما كانــت ترضى أن تحــرم ابنتها ممــا حرمت هي منــه. كانت تكــرر لزوجها القــول: « يحــقّ لكريمة أن تسعــد بطفولتهــا » وكان زوجهــا يؤكد لها: «ستحصل كريمة علــى كلّ شيء وستحصل علــى الأفضل والأحســن. ستكبر وستذهب إلى أفضل المدارس وستتابع تعليمها وو..». كان الســلام يخيّم على بيــت أبي إسماعيل وكان الزوجان يشعران بالشكر والرضا نحو الخالق الكريم الذي خلّص نعيمة من فقرها وجوعهــا ويُتمها والذي طعم أبــا إسماعيل ابنــة حلوة بعدما قارب العمــر على نهايته. لــم يعد أبو إسماعيل يذكــر لبيّن ولم يرضَ أن يعود إليها ليزورها. بلغت كريمة سنة من العمر عندما اشترى أبــو إسماعيل منزلين سجّل واحداً باسم نعيمة وثانياً باسم كريمة الصغيرة. كان الضيوف يتوافدون كل مساء إلــى بيتــه وكان السهر والسمــر يمتدّ حتى وقــت متأخر من الليل. بــدأت كريمة تحبو ثم صارت تنتصب على ساقيها وتفرح لذلك ويفرح لها والداها وكان أبو إسماعيل يسعد كثيــراً عندمــا يداعب ابنتــه ويحملها على ظهره ويركض بها في ساحة الدار وهي تطلق كلماتها الأولى وتنطــق بها بشكل مضحك. أتمّــت كريمة عامها الثانــي عندما داعبها أبوها كما كان دوما يفعل ذلك. تناول قهوته

المرّة بعد الطعام وكان يشعر بنعاس لطيف كما كان يفعل كل يوم. نام ذلك اليوم ولكنه تأخّر في قيلولته وكانت كريمة تلعب حوله. قلقت نعيمة لتأخره غير المعتاد فحاولت إيقاظه ولكن دون جدوى. لم تصدّق نعيمة الأمر وصرخت لنايفة فأسرعت هذه ومن معها في البيت وأدركوا الحقيقة المؤلمة: أبو إسماعيل مات في قيلولته. تمّ دفن أبي إسماعيل بحزن صامت هادئ، دون صراخ أو عويل فنعيمة ونايفة والآخرون كانوا يعرفون جيداً كم كان أبو إسماعيل يكره العويل والنحيب.. بعد انتهاء مراسم الدفن والتعزية تابعت نعيمة حياتها اليومية تماماً كما كانت تفعل أيام حياة زوجها. كانت عنايتها تنصبّ على ابنتها كريمة وكانت تستقبل القليل من الزوار ما عدا نايفة التي كانت تأتي كل يوم وكأنّ أمراً ما لم يحدث وإنساناً ما لم يختف من الدار. مضى عام على وفاة أبي إسماعيل عندما زارها «جميل». حزنت نعيمة لفقره وبؤسه وواسته ببعض الكلمات بل ودسّت في جيبه بعض المال يعينه في حياته. بعد أشهر زارها «جميل» ثانية وواسته نعيمة ببعض كلمات وببعض المال. مضت عدة أشهر ثم ظهر جميل من جديد. جلس قرب بركة الماء لا ينبس ببنت شفة. عجبت نعيمة لأمره وبادرته: «ما بك يا جميل؟. أرى على شفتيك كلاماً؟ ما خطبك ولماذا لا تتكلم؟ هل نسيت الخبز والملح الذي أكلناه سوية أيام شبابنا وعسرنا؟ ألا تذكر تلك الأيام التي جعنا فيها وبردنا وشقينا؟». - «بالتأكيد مازلت أذكرها». ثم نظر إليها وهمس بعد تردد وعيناه تنظران نحو الأرض: « ظننت أنك مازلت ترغبين فيّ زوجاً؟». كان في صوته ضعف ورجاء وبؤس وذلّ. فوجئت نعيمة بكلامه. وهي لا تدري لماذا لم يخطر ببالها مثل هذا المقال أبداً. بل إنها شعرت بغضب عارم بل وابتسمت ابتسامة باهتة فيها استخفاف وازدراء. لم تكن يوماً تتخيل أن يأتي إنسان آخر غير أبي إسماعيل ليخطبها. نعم لم يخطر ذلك على بالها منذ توفي أبو إسماعيل. صحيح أنه مضى عامان اثنان على غيابه، ولكنه في الحقيقة والواقع كان دوماً حاضراً في كل لحظة وفي كل آن. كانت تقوم بأعمال البيت بالنمط نفسه وبالترتيب نفسه كما كانت تفعل عامين متتاليين كان فيهما أبو إسماعيل كل شيء. بل لعلها لم تعد تنتبه إلى أنها كانت تحدّث نفسها وتحدّث كريمة بصوت عال وكأن ربّ البيت مازال يجول في البيت دون أن يغيّر شيئاً من عاداته. كانت تداعب كريمة بعد الظهر بالنمط والتوقيت نفسيهما الذي يفعله أبو إسماعيل، والقهوة

المرّة طقس يومي لا يجوز إهماله بل ولايجوز تقديمه أو تأخيره فأبو إسماعيل يحبّ التقيّد بنظام حياته اليومية. اشتطّ بنعيمة التفكير والخيال وهي تستعرض تفاصيل حياتها في ذلك البيت ودقائق أحداثه من زفاف وحمل وولادة ثم من مراحل نموّ كريمة وتذكارات أوائل الأمور التي فعلتها: أول مرة حَبَتْ على الأرض وأول حرف نطقت به وأول مرّة حاولت أن تنتصب على قدميها وهكذا توالت الصور وتتالت الأحداث. عجيب أمرها فهي تدرك أحياناً أن أبا إسماعيل قد ذهب ولكنها سرعان ما تطرد الفكرة من رأسها وتهزّه مفكّرة أنّ أبا إسماعيل موجود في كل ركن من أركان البيت، وتلتفت إلى يسارها وتعجب كلّ العجب. لكأنها تذكّرت أن جميلاً كان يقف هاهنا ولكنها لا تجده؟ هل كان حقاً هنا؟ نعم إنها تذكر ذلك ولكن أين يكون الآن وكيف ذهب دون أن يودّعها؟... هنا وعندها تذكّرت ما قاله لها. لكأن وقتاً طويلاً مضى على كلامه ذاك. ولم تلبث أن رأت نايفة أمامها تنظر إليها بعتب وعجب. لم تفهم لنظراتها سبباً. أخبرتها نايفة أن جميلاً وقف طويلاً أمامها وهي جامدة لاحراك بها مثل تمثال، وأنه غادر المنزل بعد طويل انتظار ودموعه تنهمر مدراراً. - «ماذا فعلتِ به؟ ماذا قال لك؟ وماذا قلتِ له؟». حدّثتها نعيمة بما قال وهمست لها إنها ما تزال تعيش في بيتها وكأن شيئاً لم يحدث فأبو إسماعيل ما يزال موجوداً معها كلّ الوقت بل ومازال يتابع أحاديثه ومسامراته اليومية بل ويحدّثها عن مستقبل كريمة وماذا يجب عليها أن تفعل لها... ولكن نايفة كانت حازمة وواقعية: «نعيمة. أبو إسماعيل مات منذ سنتين، وكريمة تحتاج أبا لها وجميل إنسان طيب القلب خالص السريرة لطيف الخصال. تخطئين إن لم تقبلي به». مضى على هذا الحديث وقت ليس بالطويل عندما أعلمت نعيمة نايفة بأنها تقبل بجميل زوجاً لها. تزوّج جميل ونعيمة دون ضجّة وتابعت الحياة سيرها في بيت أبي إسماعيل دون تغيير. مضت السنون وأنجبت نعيمة من جميل اثني عشر ولداً: ستة صبيان وست بنات. كبرت كريمة بين أخوتها بهدوء وسعادة وسلام. تابعت دراستها في أفضل المدارس كما أراد أبوها لها ثم تابعت دراستها الجامعية وتخرجت مهندسة ناجحة.

هنا توقّف «شاهين» عن الكلام وهنا عدنا (شاهين وأنا) إلى لبيّن من حلم غريب عجيب. رجوته أن نخرج ونسير في حقول لبيّن وعلى هضابها. كانت مسيرة صامتة لم نتبادل فيها أي كلام. كانت أنسام بعد ظهر يوم ربيعي تمسّ وجهينا فتبعث فيهما

انتعاشـــاً وخفّة. كانت روائـــح أزهار الربيع البريّة تخـــدّر أعصابنا وتبعث فيها دغدغة وخدراً يخفف من أوزان أجسامنا. كنا نشعر بحريـــة فـــي أرواحنا حتى كأننـــا نطير في السماء. تطلّعتُ حولـــي بعجب واستغراب: «مـــا هو هذا الشعـــور الغريب لـــكأن أحداً يرافق سيرنا هـــذا ولكأنه يرفرف معنا في حالتنـــا الأثيرية تلك. لعلّه أبو إسماعيل. بل إنّه لاشكّ هو بذاتـــه. إنها روحه تخفق في أجواء لبيّـــن ومع أنسامها، هنـــا حيث حَلُمَ أن يعيشـــ آخر أيامه وحلـــم أن يموت فيها وأن يطوى جسده في ترابها الدافئ الحنون لينطلق منه إلى الحياة من جديد في شقائق النعمـــان والأزاهير البريّة بـــل ليعود قمحاً يقتات بـــه أهله وأصحابه. ولكن لأمر ما لم تتحقق أحلامه تمامـــاً كما شاء. لقد منعته أَنَفَتُه أن يبقى في لبيّن حتى يموت..

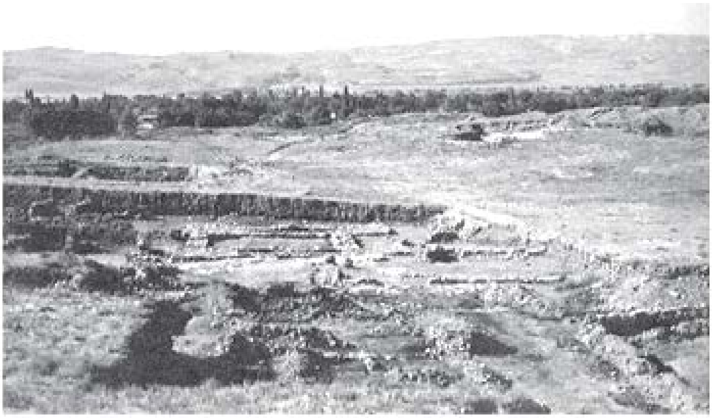
فـــي دمشق وفي أحـــد أحيائها القديمة كان أبو إسماعيل يتنـــاول قهوته المرّة بعد الظهر كما اعتاد أن يفعل كلّ يوم. شعر بنعاس حلو لذيذ راوده فنام كما كان يفعل كل يوم. ثمّ ما لبـــث أن سمع صوتاً قوياً يستنجد به: «أين أنـــت يا فرحان؟ فرحـــان أين أنت؟». سارع أبو إسماعيل نحو الصوت المستغيث. إنه صوت أبيه، يعرفه ولا يمكن أن يخطئه، وفـــوق هذا كلّه لا أحـــد يناديه «فرحان» إلاّ أبـــوه... ركض أبو إسماعيل نحو صوت أبيه ويا لروعة مـــا رأى. رأى حقول «لبيّن» وقد اكتست خضـــرة رائعة تماماً كعهده بها وهو يافع. شعـــر بسعادة ورضا بل وبزهو وفخر، وجال في فكـــره: «وأخيراً ها قد عدتُ إلى «لبيّـــن». لكنّه استغرب كيف حدث ذلك؟ لم يعـــرف بالضبط، ولكنه شعـــر بنفسه أخفّ وزناً من أي وقت مضى. يا للعجب إنّه يطير عالياً في سمـــاء لبيّن تماماً كما كانت تفعل تلك الصقور والعقبان التي كان يتأملها في صغره. لقد رأى كلّ حارات لبيّن وكل بيوتها بوضوح عجيب وخارق.

شعر عندها بألم واخز في صدره ولكنه لم يُعر ذلك أي انتباه. كان مأخوذاً بالمنظر السحـــري وكان يزداد فـــي طيرانه ارتفاعاً حتى غدا المنظـــر وسيعاً فسيحاً لامتناهي الحدود. وحانت منه التفاتة جانبية فإذا به يرى «المدينـــة» بالوضوح والدقة نفسيهما. بـــل هاهو يـــرى بيتـــه هناك. بـــل وهاهي «كريمة» تركضـــ وتلعب في فناء البيت. كم هـــي شابة وجميلة وحلوة. يا الله كم أعجبه هذا المنظر الفسيـــح الواسع أيّما إعجاب. ثبّت ناظريه وفكّر لآخر مرّة:

«الحياة. كم هي حلوة. إنها تدور وتدور وهكذا يجـــب أن تفعل وحتـــى الأبد».وهنا خيّم صمت أبدي وسلام.

كاروم كانيش مستوطنة أثرية في قلب الأناضول

نزار مصطفى كحلة ❋



لقد كان لاكتشاف الزراعة منذ أوائل الألف الثامن قبل الميلاد، وزيادة الإنتاج، وتنوع المواد المُنتجة، دورٌ كبيرٌ في تفكير الإنسان، نحو تصدير ما لديه من فائض، واستيراد ما ينقصه من مواد وحاجيات، مما يعني تطور فكرة التجارة لديه.

وقد دفعت عمليات التبادل التجاري تلك، إلى نشوء علاقات إنسانية، أسهمت

❋ كاتب رياضي.

في تحقيق التواصل والتفاعل البشري، وإلى تطور العلاقات الاجتماعية بين المدن، مما ساعد الإنسان على الخروج من عوالمه الصغيرة المُحدَّدة، إلى آفاقٍ واسعة رحبة، تجاوزت الحدود الجغرافية والسياسية، وخلقت صلات مادية، تجارية، وروحية ثقافية، بين سكان المنطقة، واختصرت بذلك المسافات بين أجزائها.

كانيش kanish (كول تبه حالياً Kul tepe) اسم مستعمرة تجارية آشورية، وهي مدينة قديمة في كبادوكيا[1] على الضفة اليسرى لنهر الهاليس (خاليس) وتبعد نحو ٢٠ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة قيصرية، (قيسارية) في منطقة كول تبه الحالية، وإلى الجنوب الشرقي من مدينة أنقرة، في تركيا.

معنى كلمة كاروم

كاروم Karum هي باختصار مركز تجاري، وقد عُرفت المراكز التجارية في النصوص السومرية باسم (كار)[٤]، وفي الأكادية باسم (كاروم)، وهي صيغة مشتقة من الأصل السومري، وقد أطلق الآشوريون على كل مركز من مراكزهم التجارية اسم (كاروم)، وتعني في الأكادية رصيف أو حائط ميناء، يقع على نهر أو قناة، تُجمع عنده ضرائب الدخل على الوارد، ثم اتسع مفهومه ليعني السوق على جانب الرصيف، ثم مجموعة تجار المدينة.

التنقيبات الأثرية في كانيش

تتألف كول تبه (كانيش) من هضبة قطرها ٥٠٠م وارتفاعها ٢٠م، ومن المدينة المنخفضة كارو karu (الوكالة التجارية) التي تحيط بالهضبة من جهاتها الأربع، والتي سكنها الآشوريون، وقطرها ١٠٠٠م مع الهضبة والقلعة التي تقع في وسطها، وتحيط بالكل أسوار قوية.

وقد بدأ التنقيب فيها إرنست شانتر عام (١٨٩٣ - ١٨٩٤م)، ثم هوغو فينكلر و(هـ. غروته) عام (١٩٠٦م)، وتابع العمل بيدريتش هرزوني عام (١٩٢٥م) حيث تمكَّن من اكتشاف مصدر الألواح الكتابية، التي عثر عليها قبلاً، وهو كارو، أو المركز التجاري للمستوطنين الآشوريين.

وأعاد التنقيب فيها مجدداً - وبشكل منظَّم عام (١٩٤٨م) - في الهضبة، وفي الكارو، فريق من الجمعية التاريخية التركية، والمديرية العامة للشؤون التاريخية والمتاحف بإدارة تحسين أوزغوس، وقد أحدث خبر اكتشاف هذا الموقع اهتماماً عالمياً بالغاً.

وقد أظهرت الحفريات أن أقدم استيطان في المنطقة، يعود إلى العصر الحجري النحاسي المتأخر chalcolitic ثم تلاه العصر البرونزي القديم، فالعصر الحثي، ثم الفريجي، فالهلّينستي والروماني، وأخيراً البيزنطي.

كما كُشِفَ في كانيش عن طبقات أثرية عديدة، تعود إلى الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد، أقدمها تحوي معبداً يُعدُّ من أقدم معابد الأناضول على الإطلاق، ثم توسَّعت المدينة زمن الوكالة التجارية (كاروم) وبُنيت فيها القصور والمعابد والأبنية الكبيرة.

زمن تأسيس الموقع، ومن أسسه؟

يذهب بعضهم إلى أن زمن قيام الآشوريين بتأسيس مستعمرة كاروم كانيش، إنما يعود إلى فترةٍ مُغرقةٍ في القدم، نحو (٢٥٠٠ق.م)، فيما ينسب بعضهم الآخر تأسيس هذه المستوطنة على يدِ السومريين في عهد سلالة أور الثالثة (٢١١٢ - ٢٠٠٤ق.م) خلال عهد الملك أبي سين (٢٠٤٠ - ٢٠١٦ق.م).

لكن، من المؤكَّد، أن تأسيس هذه المستوطنة التجارية، كان قد تمَّ على يد ملك آشور المدعو إريشوم الأول Irishum 1 (١٩٤١-١٩٠٢ق.م) نحو (١٩٠٢ق.م)، ولكن، هناك الكثير من الروايات التي حاولت أن تُثبت أن تواجد الآشوريين في كول تبه (كانيش) إنما يعود لما قبل حكم الملك الأكادي الشهير شاروكين (سرجون) (٢٣٣٤ - ٢٢٧٩ق.م) مؤسس الإمبراطورية الأكادية، والدليل على ذلك، قيام شاروكين بحملةٍ عسكريةٍ جاءت تلبيةً لطلب الآشوريين الموجودين هناك، إثر تعرضهم لمضايقات.

فهناك أسطورة تُدعى (ملك القتال)[٢]، وقد وُجِدت مكتوبة على رُقيّم من الرُّقم، التي عُثر عليها في تل العمارنة في مصر، كما وُجِد نصٌ مماثل في عاصمة الحثيين (خاتي) أي بوغازكوي حالياً، وهذه الأسطورة تروي كيف عبر سرجون جبال الفضة (جبال طوروس) بجيوشه حتى وصل إلى قلب الأناضول، وذلك انتصاراً لبعض التجار الآشوريين[٣]، الذين استنجدوا به، والذين كانوا قد أسسوا مستعمرة لهم في كبادوكيا، وتُفيد الأسطورة، أن وفداً منهم قد ذهب إليه، وقصَّ عليه قصة الاضطهاد من قِبَل الشعوب الآسية[٤]، التي تُقيم إلى جوارهم، وشكوا له ظلم أمير المنطقة (نور داجان)، فقاد شاروكين جيشه، وهاجم كبادوكيا، واستولى عليها، ووطّد سلطة الآشوريين (الساميين) فيها، ورجع غانماً، بعد أن أسس مستعمرات جديدة للأكاديين في الأناضول.

ويُفيد حلمي محروس اسماعيل، أن شاروكين لبى دعوة الآشوريين المُقيمين في منطقة كبادوكيا (قيصرية) بأواسط آسيا الصغرى ضد أعدائهم في مدينة بورشخاندا[٥] purush Kanda، وقد استغرقت حملته تلك ثلاثة أعوام متواصلة، رغم الصِّعاب التي لاقاها خلال طريقه، والمُتمثِّلة بالعوائق الجبلية، والغابات ومجاري الأنهار.

وهنا نتساءل عن الدوافع الحقيقية التي حدت بشاروكين للمجازفة، وقطع جبال طوروس، إضافة إلى طلب النجدة من أولاد عمومته الآشوريين.

يذكر أ.طه باقر أن العلاقات التجارية والحضارية، ما بين حضارة وادي الرافدين وبين بلاد الأناضول، كانت منذ عصور ما قبل التأريخ، وازدادت اتساعاً في عصر دول المدن السومرية، أو عصر فجر السلالات، وذلك للمتاجرة بالمواد الثمينة، مثل: الصوف والفضة وغيرها، وهذا ما حدا بشاروكين للقيام بحملته الشهيرة، وبهذا الصدد يقول شاروكين: (... إن الإله أنليل أعطاني البلاد العليا مائر (ماري) ويارموتي والبلاد حتى جبال الأرز والفضة...) ويقصد بجبال الفضة، جبال طوروس.

وفي هذا الصدد، يذكر د.عبد العزيز عثمان أن المعادن الثمينة المتوافرة، ومواد البناء في هضبة الأناضول، هي التي جذبت شاروكين للقيام بهذا العمل الخطير.

أسباب قيام الآشوريين بتأسيس موقع كاروم كانيش:

فقد أدى ازدياد النشاط التجاري، وتطور الإنتاج الزراعي والحرفي، وتجاوز الأُطر المحلية، والتحرر من سيطرة المعبد الديني، وكذلك القصر الملكي في بعض المناطق، إلى ظهور تجارة خارجية نشيطة، دفعت ممارسيها إلى التفكير في إنشاء مراكز تجارية أساسية ثابتة، وأحياناً مسوَّرة على أطراف المدن ولا سيما النهرية.

ويُعلل مورتكات سبب قيام هذه المستوطنة برغبة الملوك الآشوريين بالظهور كورثة لحكام الإمبراطورية الأكادية العالمية، وقد كنّا قد عرفنا رغبة شاروكين الأكادي بالسيطرة على تلك المنطقة، من خلال حملته العسكرية هناك.

فيما يذهب بعضهم، في تفسير هذا التوجه، إلى صعوبة قيام الآشوريين بالتوسع باتجاه الجنوب، ما دامت تقوم في أواسط وجنوب بلاد الرافدين، ممالك قوية، تحولُ بينهم وبين تحقيقهم تطلعاتهم التوسعية.

وهناك مــن يُفسر أن قيام هذه المراكز التجاريــة، كان بمثابة مستعمــرات أقامها الآشوريون للسيادة وفرض النفوذ على آسيا الصغرى، كتمهيد لفرض الهيمنة السياسية العسكرية.

لكــن البحــث الحقيقــي فــي التاريخ، يجعلنا دائماً نُفكــر بالاقتصاد، كأهم دافع وراء كُلِّ حَــراكٍ سياســي، فالتطور المُبكِّرُ للتجــارة الآشورية، سببهُ، أن بلاد الرافدين السفلى، كانت محرومة من المعادن، وتتلقى هذه المواد مــن آشوريا، التي كانت بدورِها تُحضِرها من آسيــا الصغرى، ومن أرمينيا الحالية، حيث سيُستخرج النحاس والفضة.

ويبــدو أن هذه المراكــز والمستوطنات الآشورية، قد مرت عبــر تاريخها، بطورين هامين، هما:

١- **الطــور الأول القديــم:** ولعلَّــه بــدأ منــذ مطلع العصر الآشوري القديم، ويمكن تحديــده من زمن الملك الآشــوري إريشوم الأول (١٩٤١ - ١٩٠٢ق.م) إلــى حــدود (١٨٠٠ق.م) أي قُبيــل مجيء الملك شمشي أدد الأول إلــى العرش الآشوري، ودام زهاء القرن الواحد.

٢- **الطور الثاني:** ويبدأ من حكم الملك شمشي أدد الأول، وحكــم ولديه يسمخ أدو وإشمي داجان، وينتهــي باستعادة استقلال مدينــة مــاري عــام (١٧٨٢ق.م) علــى يد ملكهــا الوطني زمري ليم، علــى أن نشاط هــذه المستعمــرات على ما يبــدو استمر بعد ذلك، لكن بأشــكال مختلفة، حيث زال النفوذ السياسي الآشوري، وحلَّ محلَّهُ ظهور المملكــة الحثية القديمــة، فأصبحت تلك المستعمرات تحت سلطة هذه المملكة.

اللقــى الأثريــة المُكتشفــة فــي كاروم كانيش:

من الآثار المهمة التي وجدها المنقِّبون في ذلــك الموضع: عــددٌ كبيرٌ مــن ألواح الطين (الرُّقم) المكتوبة بالخط المسماري، وهي تتألف من رسائــل وسجلات تجارية، ووثائق حسابات.

هــذا وقد بلغ عدد الرُّقم المُكتشفة في الطبقة الثانية فقــط أكثر من عشرة آلاف رُقيّم مسمــاري، تُشكِّل أرشيفــات مستقلة بأسمــاء أشخاص، يزيــد عددهــم على العشرين، وتعــود أغلبها إلى الفترة الواقعة بين نحو (١٨٨٠ - ١٨٢٠ق.م) وبعضها إلى فترة لاحقة بقليل (١٨٠٠ - ١٧٤٠ق.م).

أي فــي الفترة الواقعة بيــن حكم إلو-شومــا، وشاروكيــن الآشوري، وقــد كُتبت هذه الوثائــق باللغــة (اللهجــة) الآشورية القديمة، وهي تصور نشاطاً مُكثفاً للقوافل

التجارية بين آشور وكانيش، عبر الجزيرة السورية، وسهول جبال طوروس، كما تروي لنا تفاصيل عن الحياة التجارية الداخلية والحياة اليومية.

كما وُجدت هناك رسائل تجارية تتعلق بإدارة هذه الشركة الواسعة، وهي الرسائل المُتبادلة بين مدينة آشور، وبين التجار في بلاد الأناضول.

إضافة إلى كتاباتٍ مصريةٍ وسومريةٍ وبابلية، حوت معلومات قيّمة عن التجارة بين الآشوريين والأناضول، ومعلومات اجتماعية عن الزواج والطلاق، والإرث، وقرارات المحاكم، والمراسلات مع الأمراء المحليين، كما عُثر بين هذه الألواح على عدد من النصوص الأدبية ونصوص تدريبية، مما دلَّ على وجود مدارس لتعليم القراءة والكتابة.

إضافة إلى العثور على تماثيل بدائية من الحجر وعلى أوزان خزفية وافرة العدد، وبعض اللُّقى الفخارية والمعدنية، ومنها: الجرار الملونة والمزخرفة، والأواني ذات الأشكال الحيوانية (الريطون - Rhytons) وبعض تماثيل الآلهة المذكرة والمؤنثة المصنوعة من المعادن المختلفة والعاج، إضافة إلى أدوات الزينة والأسلحة، والأدوات الزراعية وغيرها، وعدد كبير جداً من الأختام الأسطوانية، ذات المشاهد الأسطورية، التي كانت تختم المعاهدات والمعاملات التجارية.

كما وَجَدَ المنقبون أيضاً، بعض المحلات التجارية والدوائر، التي كانت تُدار منها شؤون ذلك الموضع، وفيها الوثائق التجارية المختلفة، وهي تمدنا بمعلومات ثمينة عن تنظيم القوافل التجارية وتمويلها، كما نجد في بعض الوثائق، ما يؤكِّد معرفتهم بالحوالات التجارية، بطريقة التبادل التجاري، أو بإرسال كتاب يُسلَّم حامله بموجبه مبلغاً معيناً من المال، وكذلك معرفتهم بكتب الاعتماد.

الحياة اليومية في كانيش:

كانت كانيش (كول تبه) مركز السلطة الآشورية في شرقي الأناضول، على هيئة دولة مدنية، تتبعها جملة مراكز أخرى في الأنحاء المختلفة من الأناضول، وكانت بلاد الأناضول نفسها في هذه الفترة، مُؤلفة من عدَّة دويلات مدن، يحكمها أمراء من أهل البلاد، كانوا على ما يبدو على علاقات سلميَّة مع المستعمرات الآشورية، ولاسيما، عندما لا يُعرقِل أولئك الأمراء نشاط التجار الآشوريين.

وقد جاءتنا نماذج من المعاهدات التي كانت تُبرم بين السلطات الآشورية،

وبين تلك الدويــلات المحلية، وفيها أخبار المصاهرات والمساعدات العسكرية، مابين الطرفين.

أمَّا عن مــكان سكنهم، فيقول الباحث ف. فون زودن: «إنَّ الآشوريين في كانيش، كانوا يسكنون خارج نطاق المدينة المسوَّرة في حي خاص عُرِفَ باسم Karum الذي أُطلِقَ على الإدارة الرسمية – فيه – أيضاً»، وهذا ما أكَّد عليه أنطون مورتكات، عندما قال: «لم يسكن التّجــار الآشوريون ضمن مدينة كول تبه (كانيش) بل خارج أسوارها كرعاع مُجردين مــن كلِّ حماية»، ومن ثمَّ ناقض نفسه، حين قال: «لا بدَّ من أن تكون الإمبراطوريــة الآشورية من القوة، بحيث كانــت تستطيع حماية الطُرق المؤدية إلى هناك، وبالتالي ضد «الساميين» الغربيين من شمال بلاد الشام وماري»، وهنا يُمكننا فهم دوافع هؤلاء لكتاباتهم تلك.

وتُشيــر الدراســات إلــى أن وجــود الآشوريين في كانيش كان على درجة كبيرة من الأهمية، ففي أواخر القرن التاسع عشر وخلال القرن الثامن عشر قبل الميلاد، غدا هذا الموقع، سوقاً متكاملــة، انبثقت عنها هيئة عُليا للحكم في مسائل الخلاف، وبعد ذلك اتسعــت وظائفه، فتجــاوزت الشؤون التجارية، إلى مسائل قضائية مدنية إدارية، فقد أدى نمو الفعاليــات التجارية وتنوعها فــي كاروم كانيش، إلى ظهــور هيئة إدارية تنظيمية فيه، تُشرِف على شؤونه الداخلية، وتحــدُّ من تحــول التنافس التجــاري، إلى نزاعات وخصومات.

وكانت هــذه الهيئــة تعقــد الاجتماعات للتباحث، وتُصدِر القرارات، وتتدخل في مسائل تحديد أسعــار البضائع، ولها خاتمها الرسمي Kunuk karim فكانــت بذلــك شبيهــة بـ (الدائرة النقابية) أو (غرفة التجارة).

وثمَّــة نصوصــن كثيــرة تُعالــج مسائل خلافات، تبدأ بجملة «لقد قررت كاروم كانيش صغاره وكباره – أي بالإجماع مايلي»، ويبدو أن قرارات الهيئة كانــت نافذة، وأن دورها القضائي نظــراً لأهميته، تجاوز المجالات التجارية إلى المدنية الخاصة، وصار الناس يقصدونهــا لحَــلِّ خلافاتهم، ومــن نماذج ذلك، نذكر نصاً يعرضــن خلافاً بين مربية وزوجين، ثم نقــرأ نص القرار: «لقد قررت كاروم كانيش صغاره وكباره ما يلي: لا يحق لـ (باديدا) – المربية – أن تُطالب (أديمات) – الزوجة – بنفقات تربيتها، وعليها أن تُعيد إلى (شوبيلوم) – الزوج – ستة شقلات[٦] من الفضة[٧]».

ويعتقــد ف.فون زودن أنَّ هؤلاء القضاة لم يرتقوا لمرتبة القاضي الحقيقي، عندما

يقــول: «ومن اللافــت أننا قلمــا نجد في النصوصــ الآشورية القديمة ذكراً للقضاة، ويبــدو أنه لم يكن هنــاك في المستوطنات التجارية فــي كبادوكيا قاضٍ موظف، وإنما رجال معينــون موكلون بإصــدار الأحكام» وذلك علــى اعتبار أن وظائف القاضي غير محددة الملامح.

وقــد كان يرأســ هذا الجهــاز الإداري «حاكم الكاروم» أي حاكــم السوق التجارية الــذي انتحل لقــب Rubaum وكان يُمثل السلطة التنفيذية للــكاروم، ويرأسها، وقد خُصِصَ لحكومة الكاروم بناء خاص يقع في الغالب بالقرب من القصر الحاكم.

ويمكن تلخيص وظائف الكاروم، بمايلي:

١. هو عبارة عــن مجمع للتّجار، أو ما يصطلح عليه الآن بـ (الغرفة التجارية) كما ذكرنا سابقاً.

٢. كمــا كان الــكاروم يقــوم بوظيفــة المحكمة ومجلس الشورى، الذي كان يترأسه رئيس يُعاد انتخابه كل عام.

٣. القيــام بجمــع الضرائب والمكوس والجمارك من القوافل التجارية الداخلة.

٤. يوجد فيه موظفون خاصون لمراقبة القوافل، ومكافحة التّجار المهربين.

٥. إضافة إلى وجود مصارف للمداينات والقروض والشؤون المصرفية الأخرى.

أمَّــا عن أنــواع الضرائــب، التي كانت تُجبــى، فهي ضرائــب الطريــق، وضريبة العشــر، وضريبة الــ ٥ ٪ التي كان الكاروم يقــوم بتحصيلهــا، ربمــا لحســاب الدولة الآشورية.

وقــد كان المركــز التجاري فــي كاروم كانيشــ مرتبط بــإدارة دُعيت بــ بيت كار (يــم) bit Karim وهو مركــز الاستيراد والتصديــر، وفيه مصــرف، وغرفة تجارية، ويقوم بتحصيل الضرائب، وفضّ المُنازعات والخصومــات، وقد لوحظ وجــود مثل هذا البيت في العاصمة الآشورية آشور، التي كانت تضم بيت أليــم bit alim أي بيت المدينة، الذي يُدير المراكز التجارية في الأناضول.

ويُستــدل مــن الوثائــق أن كثيــراً من العائــلات والأســر الآشوريــة، كانت قد أسست لها مراكز تجاريــة في الأناضول، وكانت من الطبقات الثرية الأرستقراطية، والغالب أن عميد الأسرة، كان يُقيم في بلاد آشــور، ويُدير شؤونه وأعماله التجارية في كانيش وغيرها من المستوطنات التجارية، موكَّلٌ من أفــراد أسرته، حيث المراسلات مُستمــرة ما بينــه وبين هــؤلاء الوكلاء، فيما يذهــب البعض إلى اعتبــار أنه كان لهذه المراكــز التجارية، بعض الاستقلال السياسي والإداري.

أمَّــا على صعيد الحيــاة اليومية، فعلى الرغم من تعــدد أجناس المقيمين في هذه المجتمعات، يتبيَّــن من النصوص، وخاصة أسماء الأفراد، أن هــذه الأجناس امتزجت فيما بينها، كسكان لمجتمع الكاروم الآشوري، وأن الآشوريــين لم يكونوا بمعزلٍ عن هؤلاء السكان، إذ اختلطوا بهم، ومن زوجاتهم من حملت اسماً خاتياً، مثل (والا والا)، أو اسماً حثياً، مثــل (خاتالا)، إضافــة إلى الأسماء الأمورية الكثيرة، بطبيعة الحال.

وقد شيَّــد الآشوريون عدَّة معابد لعبادة آلهتهــم القومية، وعلى رأسهــا كبير الآلهة آشور، فقد كانت هذه المراكز، تُدين بالديانة الآشورية، وتعيش الحياة الآشورية، مع بعض التأثيرات المحلية، وكما قلنا سابقاً، فربما كانــت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، أي أن علاقتها بالدولة الآشورية، كانت من نوع علاقة الفرع بالأصل.

والجديــر بالذكــر إنَّ بعضــ الوثائق المسماريــة، تُشير إلى أن بعض العناصر الأموريــة، وهــي أصل الفــرع الآشوري، كانــت تُشارك فــي مجتمعــات المراكز التجاريــة الآشوريــة القديمــة، وعلــى رأسها كاروم كانيشــ، وإن الاختلاط بين الأسماء الآشوريــة والأمورية بشكل عام، كان واضحــاً، مما يشهد على امتزاج هذه العناصر مع بعضها، في نطاق هذا المركز التجاري الواحد.

وقــد كان اتســاع العلاقــات التجارية لكاروم كانيش واضحاً، حتى وصل إلى شمال بــلاد الشام، فقد تبيَّن من خلال رسالة أن موظفين من إيبلا سافروا لأغراض تجارية إلى كاروم كانيش، فقد كانت علاقات إيبلا التجارية جيــدة مع حــران وايرتا وتوتول وزلبــا حتى حــدود كانيشــ «كاميشو» في جنــوب الأناضول، ونحن نعلــم دور الملك وأمرائه في إيبلا في العملية التجارية على اعتبار تجار إيبلا من مستوى عالٍ.

واردات كاروم كانيش التجارية:

لقد كانت القوافل التجارية تنقل من آشور إلى كاروم كانيش، المنسوجات، والأصواف، وقد لوحــظ من الوثائــق المسمارية، كثرة الطلب علــى الصوف الخــام والسجاجيد وجلود الحيوانات من آشور، فقد كان التّجار الآشوريــون المقيمون في آسيــا الصغرى، يتلهفون للحصول علــى هذه السلع وبيعها، خاصة الصوف الخام.

ويُعتبــر القصدير من أهــم واردات كاروم كانيشــ، ولعــلَّ القصدير كان في الأصــل، قادماً من مناطــق شرقية أبعد (السهل الإيراني، وأفغانستان) إلى آشور،

وذلك بُغية صنع البرونز، بالمزج مع النحاس الموجود أصلاً في الأناضول، كما كانت كانيش تستورد الرصاص، وبعض المنتوجات الزراعية، وصناعات مختلفة أخرى.

صادرات كاروم كانيش التجارية:

كانت آشور تحصل مقابل ما تُصدِّرُه إلى كانيش، على الفضة، والذهب، والنحاس، والأحجار الكريمة، والأخشاب، والتوابل، والعطور، ورؤوس الأموال.

ويُعتبر النحاس من أهم واردات آشور من كانيش، ويمكن التمييز في النصوص المسمارية، بين عدة أنواع منه - مُصنَّعة - وأخرى أدوات متنوعة.

ويُمكننا في هذا السِّياق، الحديث عن نوع من التجارة، ومن ضمنها تجارة العبيد[٨]، والحيوانات، لكن المصادر عنها نادرة، ولا يمكننا تحديد مصدر هذه البضائع بدقة، لكننا، يُمكن أن نتحدث عن نسبة أرباح كبيرة جداً، قد تصل أحياناً إلى ١٠٠ ٪، مما سمح للآشوريين بتكريس ثروة من تجارتهم، ساعدتهم على بناء جيش قوي، ستكون له شهرة في البطش والدفاع عن وحدة شمال سورية والعراق، على الأقل.

طرق المواصلات:

لقد بلغت أطوال الطُرق التي سلكتها تلك القوافل نحو ٨٠٠ كم[٩]، ويستغرق عبورها، مع أيام الاستراحة، مدة شهرين تقريباً، وكانت تخترق منطقة سنجار، فالجزيرة السورية، حيث تُساير في جزء منها ضِفاف الخابور، ثم تنعطف غرباً نحو حران، أو زلبا على البليخ، فكركميش على الفرات، ثم إلى (أور - شوم)، وبعدها تسير جهة الشمال الغربي، حتى كانيش، وكانت القوافل تستخدم الحمير في نقل البضائع، وكانت هذه الطريق الطويلة، عادةً ما تتعرض لبعض الصعوبات والمضايقات، كالغارات العابرة عليها.

مدة استمرار الموقع

يعتبر الأستاذ ف. فون زودن، أن مدة الوجود الآشوري في كانيش، عبر حركة القوافل المُتنقلة من بلاد آشور إلى كانيش، إلى ما بعد عام (١٨٥٠ق.م)، وقد دامت هذه الحركة من عهد الملك الآشوري إيلو شوما (١٩٦٢ - ١٩٤٢ق.م)، حتى السنوات الأولى من عهد إشمي داجان الأول بن شمشي أدد الأول، ومن دون انقطاع طويل نحو (١٠٠ - ١٢٠) سنة، فيما يذهب بعض الباحثين، إلى اعتبارها دامت ما

بين (١٩٥٠ - ١٦٥٠ق.م) تقريباً، كانت كانيش أثناءها عقدة مواصلات المركز الرئيس لشبكة التجارة الآشورية في آسيا الصغرى، لكن هذا المركز على ما يبدو، فقد أهميته ومكانته، بعد العهد البابلي القديم، لأن التجارة صارت من مهام القصر الملكي الآشوري، يوجهها حسب مصالحه السياسية والعسكرية، وأضحى التُّجار (تجار الملك).

كارومات أخرى غير كانيش:

لم يكن كاروم كانيش هو المركز التجاري الوحيد، بل كان هناك - في منطقة الأناضول - تسعة مراكز أخرى في القرن (التاسع عشر قبل الميلاد)، وعلى الأقل أربعة في النصف الأول من القرن (الثامن عشر قبل الميلاد)، ومن أشهرها مراكز المدن زلبا[١٠]، أور - شوم، خخوم، نيخريا، خاتوشا، بورشخاندا، (شخْنا - شبت - انليل)[١١]، ماري[١٢]، قطنا[١٣]، إضافة إلى مراكز أخرى عديدة.

سقوط كاروم كانيش:

لقد اختلفت الآراء حول سقوط - وزمن سقوط - مستوطنة كاروم كانيش. فمع انتهاء الألف الثالث قبل الميلاد، أتى مهاجرون «هندو أوروبيين» من الغرب إلى منطقة آسيا الصغرى، واستحوذوا في القرن (العشرين قبل الميلاد) على السلطة في بلاد خاتي (حاتوشا) التي تتركز عند منعرج نهر الهاليس (قيزيل إيرماق)، وحدث الامتزاج مع السكان الأصليين (الخاتيين) والثابت أن «الهندو أوروبيين» عندما أتوا إلى بلاد خاتي، اتصلوا بمستعمرات التجار الآشوريين القادمين من سورية العليا، ومن بلاد الرافدين، وكانت هذه المُستعمرات مُنظمة تنظيماً قوياً، بفضل قوة ملك آشور، غير أن قوة الآشوريين شهدت بعض الضعف خلال حقبة من الزمن، فاستغلت الشعوب «الهندو أوروبية» هذا الوضع لصالحها، ووطدت سيطرتها على أطلال هذه المستعمرات، وأقامت على مرِّ الزمن دويلات مدن حثية في الأناضول، كان أشهرها (كوشّار) و(نيشا) و(زالباونيشا) و(خاتوشا) وكذلك (بورشخاندا)، وقد نشبت الحروب بين هذه الدويلات من أجل توسيع النفوذ، إلى أن تبلّور الأمر خلال القرن (التاسع عشر قبل الميلاد) بتشكيل أول مملكة مُتحدة على أنقاض دويلات المدن الأناضولية.

ومن الواضح أنَّ العلاقة بين الجالية الأجنبية (الآشورية) الثرية، وبين السكان الأصليين (المحليين) وحكامهم، لم تكن دائماً على ما يرام، وإنما اعتراها في كثير من الأحيان الجفاء والشعور بالاستياء، وهذا ما أدى بالنتيجة إلى تدمير وإحراق كاروم كانيش، والمستوطنات التابعة لها على أيدي الدولة الحثية الصاعدة، التي ستوحِّدُ قريباً كلّ مدن آسيا الصغرى، وتؤسس إمبراطورية مترامية الأطراف، وهذا ما أكَّد عليه أنطون مورتكات الذي يحدد زمن ضعف المستوطنات الآشورية بوفاة شاروكين الآشوري، الأمر الذي أدى إلى انتهاء الإمبراطورية الآشورية من جديد، وقد استمرت بعض الحركات التجارية البسيطة، إلى أن انقطعت أخبارها بالكامل، أيام الملك البابلي حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ق.م)، ومع زوال التُّجار الأجانب، توقفت عملية الاقتصاد في كبادوكيا، وتراجع جزء من الإسهام الحضاري والثقافي الرافدي في منطقة الأناضول، التي دخلت عصر الظلام.

الهوامش

١. يقول العلّامة الأستاذ طه باقر: إنَّ كلمة كار Kar بالسومرية تُدعى قسم الميناء والتّجار، ومستودع البضائع، وهي في الأكادية كارو Karu.
٢. تُذكر في مكان آخر بـ ملك الحرب أو ملك النزال.
٣. وردت «ساميين» في الأصل.
٤. أي سكان آسية الصغرى.
٥. تُرجح بعض المصادر أن حاكم بورشخاندا قدَّم الخضوع لشاروكين، ووافق على رفع الظلم عن التّجار، الذين أدّوا لشاروكين ثمن معونته لهم.
٦. الشيقل: وزن بابلي يعادل ١/٦٠ من المينا، والمينا تعادل ٥٠٠غ، أي أن الشيقل يساوي ٨،٣٣غ تقريباً.
٧. أي نحو ٥٠ غ.
٨. كان التّجار الآشوريون يشترون العبيد من قبائل لولوبي Loulloubi، وهي قبائل فقيرة في سلسلة جبال زغروس، حيث كان الأهل مضطرون لبيع أبنائهم مقابل القمح.
٩. يُشير ف. فون زودن إلى أن هذا الطريق الطويل، وصل إلى نحو ١٠٠٠ كم.
١٠. حمام التركمان الحالي.
١١. تل ليلان الحالي في الجزيرة السورية.
١٢. ماري، تل الحريري، على الفرات الأوسط، قرب مدينة البوكمال السورية، على الحدود العراقية.
١٣. تل المشرفة، يبعد ١٨ شمال شرق مدينة حمص.

المراجع

١- إبراهيم توكلنا: كانيش، كول تبه، الموسوعة العربية، المجلد السادس عشر، الجمهورية العربية السورية، ط١، (٢٠٠٦م).

٢- أحمد أمين سليم: تاريخ العراق، إيران، آسيا الصغرى، سلسلة دراسات في تاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم (٥)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (٢٠٠٠م).

٣- أنطون مورتكات: تاريخ الشرق الأدنى القديم، ت. توفيق سليمان وعلي أبو عسّاف وقاسم طوير، مطبعة الإنشاء، دمشق، (١٩٦٧م).

٤- برهان الدين دلّو: حضارة مصر والعراق، التاريخ الاقتصادي، الاجتماعي، الثقافي والسياسي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، (١٩٨٩م).

٥- توفيق سليمان: دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة، من أقدم العصور إلى عام (١١٩٠ق.م)، الشرق الأدنى القديم، بلاد ما بين النهرين، بلاد الشام، دار دمشق، ط١، (١٩٨٥م).

٦- حلمي محروس إسماعيل: الشرق العربي القديم وحضارته، بلاد ما بين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (١٩٩٧م).

٧- رضا جواد الهاشمي: بحث بعنوان: التجارة، من كتاب: حضارة العراق، نخبة من الباحثين العراقيين، ج٢، العصور القديمة (٤)، بغداد، (١٩٨٥م).

٨- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة. الوجيز في تأريخ حضارة وادي الرافدين، منشورات دار البيان ٥٣، بغداد، دار الثقافة، بيروت، ط١ ،ج١ ،(١٩٧٣م).

٩- طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة - القسم الحضاري، بغداد، ج١، (١٩٥٥م).

١٠- عبد العزيز عثمان: معالم تاريخ الشرق الأدنى القديم، دار الفكر الحديث، لبنان، (١٩٦٦م).

١١- علم الدين أبو عاصي: اقتصاد مملكة ماري - القرن الثامن عشر قبل الميلاد، منشورات وزارة الثقافة، سلسلة الدراسات التاريخية، دمشق، (٢٠٠٢م).

١٢- عيد مرعي وفيصل عبدالله: تاريخ الوطن العربي القديم (بلاد الرافدين)، دمشق، ط٤، (٢٠٠١ - ٢٠٠٢م).

١٣- فاروق إسماعيل: المركز التجاري (كاروم karum) في الألف الثالث ق.م، بحث في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، المجلد الثالث والأربعون، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (١٩٩٩م).

١٤- ف. دياكوف، س. كوفاليف: الحضارات القديمة، ج١، ت. نسيم واكيم اليازجي، منشورات دار علاء الدين، دمشق، ط ١، (٢٠٠٠م).

١٥- ف. فون زودن: مدخل إلى حضارات الشرق القديم، ت. فاروق إسماعيل، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط١، (٢٠٠٣م).

١٦- فيصل عبد الله: تاريخ الوطن العربي القديم، بلاد الشام، سورية ولبنان وفلسطين والأردن، دمشق، (٢٠٠٣ - ٢٠٠٤م).

١٧- محمد بيومي مهران: تاريخ العراق القديم، سلسلة مصر والشرق الأدنى القديم (١٠)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (١٩٩٠م).

١٨- محمد عبد الحميد الحمد: حضارة طريق التوابل، وزارة الثقافة، دمشق، (٢٠٠٧م).

١٩- محمد عبد اللطيف محمد علي: تاريخ العراق القديم حتى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، (١٩٧٧م).

٢٠- محمد عبد اللطيف محمد علي: المراكز التجارية الآشورية بوسط آسيا الصغرى في العصر الآشوري القديم، من أواسط القرن العشرين إلى أواسط القرن الثامن عشر ق.م، (١٩٨٤م).

٢١- نائل حنون: حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، دار الزمان، دمشق، ط١، (٢٠٠٧م).

٢٢- نور الدين حاطوم، وآخرون: موجز تاريخ الحضارة، حضارات العصور القديمة، ج١، مطبعة الكمال، (١٩٦٥م).

٢٣- هنري س. عبّودي: معجم الحضارات السامية، دار جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، (١٩٩١م).

ما هي البيئة الملائمة للمدن؟[1]

تيري باكو *

ترجمة د. ماري شهرستان **

لقد اعتدنا نحن سكان هذا الكوكب الأرضي ومنذ زمن بعيد أن نصنع مدناً دون أن نهتم بطابعها البيئي المحيط بها. لكن من الآن فصاعداً تغيّرت الأحوال حيث تدخّل علم البيئة في التمدن والتمدين ساعياً لجعلها أقل استهلاكاً للأراضي والخيرات التي لا تتجدد.



لقد ظهرت المدن الأولى منذ (٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ عام ق.م (في مناطق الأنهر (النيل، الفرات، الأندوس، الغانج...) حيث

* تيري باكو Thierry Paquot: فيلسوف، رئيس مجلس التوجيه العلمي الاستراتيجي لمركز التعلم learning center في دنكيرك Dunkerque تكرّس للمدينة المستديمة، وهو مؤلف الكتب التالية: عمارات مضربة ومدن تموت أيضاً، والاكتشاف، ٢٠١٥م.

** د. ماري شهرستان: باحثة ومترجمة سورية.

نشطت فيها الزراعة إضافة إلى تدجين بعض الحيوانات. ولما كانت المدن تستفيد من الفائض الزراعي لتمويل الكهنة والمحاربين والباعة الذين كانوا يقطنون فيها، فقد كانت تزداد غنى من التجارة والحروب (مغانم، ورقّ، وضم أراض، وتحويل مياه....).[٢]

كما أنَّ الجغرافيا التاريخية للمدن تتزامن مع تاريخ الغزوات والفتوحات والمبادلات. تبدو المدن وكأنَّها أمكنة للملتقيات، موانئ، وأسواق. فهي تنمو بالسكان والثروات والشهرة عندما تضم الأرياف المجاورة وتتحكم بمحاور الاتصالات الكبيرة (طرق الحرير، التوابل، الذهب، والرق...). وأفولها هو تعبير عن تراجعها الاقتصادي وقوتها العسكرية والسياسية. كما أنَّ الجغرافيا التاريخية للمدن هي رهينة العلاقات الصراعية بين المدن والأرياف. ففي كتاب «الإيديولوجية الألمانية» جعل «كارل ماركس» و«فريدريك إنغلز» من هذا الصراع مدخلاً لتفسير تاريخ البشرية، دون أن يشيرا إلى أنَّ «المدينة هي حدث سعيد في التاريخ» كما أشار لذلك لاحقاً «فرنان بروديل[٣]»، ويفهم منهما بأنَّه من المحتمل أن تكون المدن قد عاشت لفترة زمنية محددة ثم اندثرت....

عصر «المعلومات الحيوية - السياسية»

«لويس مامفورد[٤]» أعاد كتابة الملحمة الحضرية في مؤلفين رئيسيين له «ثقافة المدن» و«المدينة في التاريخ»، حيث يؤكِّد فيهما على إظهار أنَّ كل تجمّع بشري في المكان نفسه يسبب تراكم نفايات عضوية ومادية ينبغي معالجتها (إعادة تصنيعها، أو حرقها، أو طمرها ...) لكن دون أن يقدِّم تحليلاً بيئيّاً نوعيّاً للواقع الحضري. غير أنّه يتساءل حول ما تنتجه كل مدينة وما تستهلكه مميزاً أربعة مراحل وفق الطاقات السائدة: مرحلة التقنية الهوائية المتميزة بالهواء والماء والخشب (استمرت حوالي ٨٠٠ عام)، ومرحلة التقنية القديمة (الحديد، والفحم، من نهاية القرن الثامن عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر)، ومرحلة التقنية الحديثة (الكهرباء، والخلائط المعدنية الجديدة، البترول ومشتقاته، التلغراف ثم الهاتف).

لقد استعار التسميتين الأخيرتين من «باتريك جِدّ[٥]» وأضاف الأولى ونحن نضيف مرحلة رابعة تسيطر عليها البيولوجيا والرقمية ونوع من «المعلومات الحيوية السياسية[٦]».. رغم إرادته الطامحة إلى تغطية كل مجتمعات العالم غير أنَّه ميّز الغرب الذي تركزت فيه معظم أعماله الجامعية. وكان على البحث أن ينتظر إحياء

ذكرى اكتشاف أمريكا عام (١٩٩٢م) لمعرفة قيمة الحضارات التي كانت منتشرة في القارّة الأمريكية قبل الاستيلاء عليها[٧]. بهذه المناسبة علمنا بأنَّ «الإنكا» مثل «الأزتك» كانوا يمتلكون مدناً كبيرة (يسكنها مئات الألوف من السكان) ومتصلة ببعضها بعضاً بوساطة طرقات معتنى بها بشكل جيّد، وفيها أبنية متعددة الطوابق، وشبكات مياه، وأسواق ترفدها المزارع المجاورة وكانوا يعتنون بشكل أكيد بالحالة الحضرية حتى لو أن هذا التعبير غير موجود في لغاتهم....

المسألة الديمغرافية

في غياب للأراضي الحضرية والتي لم تظهر وتقوى إلّا منذ ثلاثين سنة، تبدو المسألة الديمغرافية هي التي تحرك العقول منذ «وليام بيتي[٨]» (١٦٢٣-١٦٨٧م) وحتى قبله مع «جان بودان[٩]» (١٥٢٩-١٥٩٦م) الذي برأيه «لا يوجد ثروة إلا الإنسان». المؤرخ الاقتصادي «بول بيروش[١٠]» يذكر أربع مدن كان تعداد السكان فيها في عصرها الذهبي قرابة مليون نسمة وذلك في عام (١٨٠٠م) وهي: روما، وبغداد، والقسطنطينية، وشانغان[١١].

انطلاقاً من الرأسمالية المنتجة وبسببها والتي نمت وتطورت بدءاً من منتصف القرن الثامن عشر مع مكننة الزراعة بوساطة الكيمياء، ومع صناعات منظمة للآلات والأدوات ثم مع التيلرة[١٢] ومع خدمات أضحت أكثر عقلانية وخاضعة للمعلوماتية، وكل ذلك بالتوازي مع توسع وسائل النقل الميكانيكية مثل القطارات والسفن البخارية، والطائرات والسيارات...، غدت المدن «وظيفية نفعية» واستطاعت أن تستقبل عدداً كبيراً من البشر يزداد باستمرار إلى حد أصبح معه التقدم الحضري[١٣] يقاس بملايين السكان أي في ظاهرة التضخم الحضري التي تقاس بالطريقة نفسها التي يقاس بها التقدم التقني بازدياد السرعة. في عام (١٩٠٠م) كان هناك (١١) مدينة مليونيرة وهي لندن، نيويورك، باريس، برلين، شيكاغو، فيينا، طوكيو، سانت - بيترسبورغ، فيلادلفيا، موسكو، بكين، وكالكوتا، وفي عام (١٩٦٠م) كان هناك (١٦٦) مدينة تعداد سكان (١٩) منها وصل إلى أكثر من خمسة ملايين نسمة؛ وفي عام (٢٠١٥م) أصبح العدد (٥٤٥) مدينة (١٤) منها يبلغ عدد سكانها أكثر من (٢٠) مليون نسمة؛ وفي عام (٢٠٣٠م) سيصبح هناك (٧٥٠) مدينة حيث (١٥٠) منها في الصين بمتوسط (٦،٦) مليون نسمة في المدينة الواحدة.

هنا نطرح تساؤلاً حول قضية دقيقة ألا وهي وضع معيار «الحجم المعقول» لأي مدينة؟ هل هو موجود؟ وكيف نحسبه؟ وما علاقته بالبيئة؟ هل هناك عتبة ديمغرافية ينبغي عدم تجاوزها لتوفير «حياة بمواصفات جيدة» لسكان المدن؟ من جهة المقررين من اختصاصيّ السكن في الأمم المتحدة وصولاً إلى رؤساء الدول، مروراً بمتعددة الجنسيات والمصارف وعدد كبير من المنتخَبين والمنتخَبات، التوجه هو نحو «الكبر المعتدل». توصل «بيروش» بعد دراسته عام (١٩٧٧م) إلى مدن يقطنها من (٥٠٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠٠) نسمة آخذاً بعين الاعتبار المناخ، والتلوث، والصحة، ومداخيل الأفراد والمجتمع، مروراً بالشأن الضريبي بشكل رئيسي، وإنتاج الخدمات الحضرية (منها وسائل النقل) والأمن والسكن [١٤]. مثل هذه الدراسة لم يتم تفعيلها ولا إغناؤها مع الأسف. لا يوجد سوى تحركات من قبل مواطنين مثل شبكات «المدن البطيئة» وشبكة «المدن المتحوِّلة»، موصية بأحجام معتدلة (أقل من (١٠٠٠٠٠) نسمة على وجه العموم) بغية توفير الرفاهية الحضرية الجيدة لكل فرد دون تمييز. هذه البدائل تراهن وتستفيد من الديمقراطية التشاركية والتوعية البيئية لإشراك سكان المدينة في ترتيب مدينة اقتصادية في الطاقة منشطة للطرقات المختصرة معالجة نفاياتها حتى لا تصبح فضلات بعضهم مادة أولية لبعضهم الآخر، منشطة الاقتصاد التعاوني والدائري، مستندة إلى التضامن والتعايش الذاتي مراهنة على قدرات البيئة المقاومة للضغط، إلخ. اختيار منطق «الأفضل على الدوام» بدل منطق «زيادة على الدوام» يفرض رفض العملقة. هذا كان على أي حال وجهة نظر مؤسسي علم البيئة السياسي، برنار شاربونّو، موري بوكشين، رينيه دومون، ليوبولد كور، وأندري غورز.[١٥]

أصبح الكل حضرياً

يبدو التحضر العالمي يسير منذ قرن من الزمن باتجاه واحد غير قابل للعودة. وقد قضى هذا التحضر على الثنائي المؤلف من المدن والأرياف في المجتمعات الزراعية وسهّلَ كل أنواع الهجرات (هجرة ريفية، هجرة حضرية، عمال مهاجرين، مهاجرين دون بطاقات رسمية، لاجئين بسبب المناخ، مبعدين سياسيين...) محولاً البلاد إلى مناطق مرور بدلاً من أن تكون بلاد استقبال. وفي زمن «الرأسمالية المتحركة» تبدو المدينة المثالية مسرحاً تقنياً يتمّ عليه وصل وفك وحدات إنتاجية ومخابر للبحوث

ومطار، ومحطة قطار سريع، وطرقات واسعة (أوتوسترادات) وأراض للتأجير أو البيع، وفنادق، ومجمعات تجارية، إلخ. غير أنَّ «الرأسمالية المتحركة» تبدو منزعجة من الرواتب (فهي تفضّل الوظائف غير الثابتة بل المؤقتة، والوكالات المؤقتة والمرسلين، والمقاول الذاتي، أي تفضل المرونة) ولم يعد هناك مدينة عمالية في سفح المعمل ولا مرآب ثابت بل شراكة في العمل، وعمل عبر وسائل الاتصال. وماذا بعد مع هذا التحضّر العالمي؟؟ ليس هدف الموضوع إجراء إحصاء عن عدد السكان الذين يعيشون في المدن، بل تقييم وصفي لتحضّر العادات التي تنشر في جميع الاتجاهات التصرفات الحضرية في أسلوب الثياب والتغذية والحالة الثقافية أو الجنسية، والقيم الاجتماعية السائدة في المدن الكبيرة (علاقة الأجيال ببعضها بعضاً والمعتقدات واللغة...). هذا التحضر للعادات والتقاليد انتشر في جميع الأنحاء حتى في القرى الأشدّها تخلفاً، وفي المدرسة، وفي السياحة، والهجرات، في التلفاز والشبكات الرقمية لدرجة يمكننا أن نصيح هاتفين بأننا «جميعنا حضريون»، لكن بعضنا أكثر من بعضنا الآخر وبكل تأكيد ليس الجميع من «سكان المدن»! في الواقع المدينة التي لم تكتمل بعد ويلزمها مسيرة طويلة كي يتم اختراعها، تستند إلى مسؤولية كل فرد تجاه أرضه، الأمر الذي يتضمن حضوراً نشطاً وارتكاسياً، وهذا يعني يلزمه حيِّزاً من الزمن للتمكن من الادعاء والمطالبة بالاضطلاع بمسؤولية مكان ما وسكانه.

يجري التحضّر على الكرة الأرضية بشكل متنوع هنا وهناك بفترات زمنية متباعدة وتشابكات ومساكنات ومظاهر متناقضة (سينما، مسلسلات تلفزيونية، روايات، أغاني...). وإذا دققنا في الموضوع، يمكننا أن نميّز خمسة أشكال من التحضّر: «المدن الكونية» (عدد قليل منها يعد من ٦ إلى ٧ مراكز مدنية، هي أمكنة مالية عالمية، فيها أفضل المحاكم القضائية، وأفضل مؤسسات للحسابات، والدعايات، ومخابر وجامعات سباقة في تبني التجديد والجديد، وأقوى وسائل إعلام، ومطار دولي، إضافة إلى يد عاملة «معوّمة» ومتوفرة بأسعار متدنية جداً...)؛ أمَّا مدينة الصفائح (أي أكواخ الفقراء وهي قديمة عمرها يفوق القرن من الزمن بالنسبة إلى بعض منها، ولا تزال إلى اليوم تأوي حوالى ملياري نسمة في بعض الأماكن المستملكة وغير قابلة للعيش فيها)، وهناك الأراضي المحصورة والآمنة، في الوقت الراهن هي الإنتاج البنائي الأول في العالم، والمدن الصغيرة والمتوسطة (التي

تميـل لأن تصبح عنابر للنـوم ومكاناً يكون فيه الموت جاهـزاً باستمرار، والكل مغلف بـ«حضرية معممة»[١٦]. هذه الأشكال الخمس للتحضّـر[١٧] أحيطـت بضجيـج وغوغاء القضايـا الاجتماعيـة (حقـوق العمّال)، والحضرية (أزمة السكن والتمييز العنصري بالفـرز الحيّزي - الاجتماعـي)، وبقضايا الاتصالات (ثقافة رقمية جديدة) والقضايا البيئية (تحوّل الطاقة وتغيّر المناخ بارتفاع الحرارة)، التي أثارت مجموعة من المسائل الهجينـة التـي تتطلب حلـولاً مختلفة هنا وهناك، واختلاطات مفاجئـة أحياناً لأنها غيـر متوقَعة، وضغوط جـادة على الدوام. فالتفاوتات، والتمييز العنصري، والاستبعاد، والعنـف، كل هذه الأمور تبدو أنها النصيب المألوف لهؤلاء الحضريين، مع أنَّ كلاًّ منهم يأمل بأنّ ما يعتبره «مدينة» توفّر له ظروفاً جيدة للحياة.

من حسن الوفادة إلى المدن المحصورة

ما هي «المدينة»[١٨]؟ لندع جانباً التعريف الإحصائي (٢٠٠٠ نسمة في فرنسا، ٥٠٠٠ للاتحاد الأوروبي، ١٠٠٠٠٠ في الصين...) كي نفترض أنَّ مدينة ما تجمع ثلاثة صفات على الأقـلّ: الحضرية، التنـوع، والغيرية.

عندمـا اختـرع «شيشـرون»[١٩] الحضرية ليصف بها مهارة اللغـة (اللاتينية)، مهارة يستطيع من خلالها أن يترجم ما لا يستطيع الآخر أن يعبِّر عنه بلغتـه الضعيفة السيئة ولهجته الفظـة، إلخ، أراد أن يبيّن هنا لفتة كريمة ونزيهة، وأن يقول:

بهـذه الصفات تكـون حضريـاً. بهذه الطريقة فهمها أيضـاً «غيز دو بالزاك»[٢٠] الذي أدخل هذا التعبير إلى اللغة الفرنسية في القـرن السابع عشر، مخصصاً المدينة بالتهذيـب واللياقة كما تجـري الأمور في أنظمة البلاط وقوانينه. يتجلى التنوع بتنوع النشاطات، وتنوع الأعمار، واللغات، والأصول الجغرافية، وتنوع الأجناس، والعبادات، إلخ. ويرتبـط هذا التنوع بحضور عالم حي غير إنساني (حيواني، ونباتي) وإيقاعاته.

الغيرية هـي صفة للدلالة على «الآخر» أي غيـر المعروف. أن تقبـل هذه الغيرية، هذا يعني أن تمارس حسن ضيافة مفتوحة، دون معيـار انتقائـي، وأن تثـق بالآخرين، وأن تُحيـي روح التسامح. ما ينقص هو أنَّ روحية المدينة تضمحل وتتلاشى. المجتمع المحصور هو الذي لا يقبل التنوع، بل على العكس التجانس الاجتماعي-الثقافي، الذي يترجَم بسوية معماريـة وزراعية على نمط واحد، وبالتالي هذا لا يصنع «مدينة».

إنَّ العــدد الكبير مــن الأماكن السكنية المغلقة يفسد استمرارية النسيج الحضري ويجزِّئ الأرض إلى قــلاع صغيرة مُسيّجة. مدينة القــرون الوسطى على سبيل المثال، كانت تجمع سكان المدينــة وتحرِّر الرقيق الذين كانوا يلجؤون إليها، وكانت تحميهم من المخاطر الخارجية بفضل سورها المقوّى، والذي أضحى منذئذ الجدران غير المرئية أو مرئية للمجتمعات المحصورة، أقسومات مجزأة ومفككة متفرقة إلى الأبد.

هشاشة المدن هــذه لا ينبغي بأي حال من الأحوال أن تُقلِّل من أهمية حالتها باسم التاريخ، وباســم الألفية، بالنسبة إلى بعض منها. غالبيــة المدن هي حديثة، بمظهرها الهندسـي- الديمغرافي الحالــي، والذين يزورونها أو يقطنون فيها «يستهلكونها» أكثر مما يشكِّلون جزءاً منها.

جاذبيــة المــدن هــي موضــوع تسوق حضري، فكل منتمٍ إلى مدينة يمجد ويتباهى بمهرجاناتها ومتاحفهــا الممهورة بإمضاء «المهندسيــن المعمارييــن المشهوريــن»، وبضفاف أنهرها المستعادة أو جبهة بحرها، وتراثهــا الذي أضحى معلماً في اليونسكو، وأبطالها الرياضيين أو أيّ احتفال آخر مُعدّ للسياحة الجماعية والمستهلِكة للطاقة (كل مسافر بوساطة الطائرة يستطيع أن يحسب بصمته الكربونية، وهــذا لا يخفف بشيء ولا يعذر تنقله!)..

ثِقل بصمتنا البيئية

كيــف نصــل إلــى حضريــة المسألة البيئية(٢١)؟؟ فإذا كانت النشاطات الاعتيادية لسكان المدن تلوِّث النهر، وتُراكِم الفضلات في الشوارع، وبتدفئتها الضارّة تحوِّل الهواء المحيــط إلى هواء فاســد لا يمكن تنشقه، إلــخ. الإدراكات الحسّيــة، ومقدار الضرر، والتشريعات السائــدة، وتأثير نمط الحياة، كل ذلــك يدخل بشكل قليــل في اهتمامات السكان.

كان «إيبوقرات(٢٢)» ينصح بتهوية الغرف، وبشــرب المــاء الصالح للشــرب، والسكن في منزل جيــد التوجّــه، وكان «أفلاطون» يؤكد ويصرّ علــى أن تكون الشوارع منظفة ونقيّة من الروائح السيئــة بوساطة الهواء. هنــاك العديد من الدلائل تبيّن تماماً وجود حساسيــة تجاه البيئة، بينما لم يكن التعبير قد وجِد بعد وهــي: التشريعات الرومانية، ومجموع القضايــا والمنازعات القروسطية بين حِرفي وجيرانه، ونظام المهن وتموضعها في المدينة في العصر الكلاسيكي.

مع التصنيع ظهر الضــرر واضحاً لكن إلــى جانب «التقــدم»، فكل مدفــأة تصدر

دخاناً هي علامة لـ «صحة اقتصادية جيّدة»، وهذا يشمل لاحقاً كل النقابات المهنية، تاركين جماعة النهر يتدبرون أمرهم مع الملوِّثين. لاحَظ المؤرخون أنَّ طرح المياه الملوَّثة من قِبَل معمل ما في نهر لا يخفى على الصيّادين الذين يتهمونه بالتسبب بموت الأسماك ويشتكون برفع دعوى قضائية ضده إلى السلطات المحلية. ومنذ نهاية القرن الثامن عشر، تمَّ التشكي من أضرار ناجمة عن المعامل، لكن دون جدوى... والمرسوم الصادر في (١٠ تشرين الأول ١٨١٥م) ضد التلوث الصناعي يمثل تاريخاً رمزياً، حتى لو أنَّ تطبيقه وتأويله أدّيا إلى العديد من المخالفات والتدابير... تترافق الملحمة الصناعية بالتلوث (صلب، وسائل، وغازي)، الذي رغم عواقبه على الصحة العامة وسعادة الجماهير وراحتها، يعتبر طريقاً للنجاح والرزق. فهو يجبر الصناعيين على ترقية آلية صناعتهم، وفي أسوأ الأحوال على العيش ضمن هواء فاسد وظروف صحية غير سليمة. إنَّه ثمن التقدم والنمو الاقتصادي!

إنَّ التوسع والانتشار التقني الذي تمَّ دون روية بمدة لا تزيد عن القرن إلا قليلاً عدّل البيئة لدرجة غدت فيه بيئة عطوبة هشة. إنَّ الانقراض السريع لأجناس حيوانية ونباتية، وزيادة استهلاك المواد الأولية ومصادر الطاقة غير المتجددة، أو بإيقاعات بطيئة كما في حال الغابات، وتخريب النظم البيئية، واستنفاذ الأراضي، وتدمير المحيطات، وتحويل مواقع هامّة إلى ركام من القُمامة، كل ذلك لإرضاء حاجات مختَرَعة بشكل ناقص، تجد هذه الأمور ذروتها في المدن العملاقة. إنَّ فكرة «االبصمة البيئية» لشعب ما، والذي تمَّ اقتراحها عام (١٩٩٦م)، تشير إلى «المساحة الأرضية والمائية المنتجة حيوياً والضرورية لإنتاج مصادر مستهلكة ولتمثّل نفايات تنجم عن هذا الشعب بشكل مستقل عن مكان تموضع هذه المساحة»[٢٣]. في عام (١٩٩٩م)، كان المواطن العالمي المتوسط يملك بصمة بيئية تساوي (٢,٣) هيكتار من مجمل الكرة الأرضية مقابل (٩,٦) بالنسبة إلى مواطن أمريكي متوسط. فكان يُقال حينها: لو أنَّ كل سكان الأرض تصرفوا مثل الأمريكان، لاحتجنا إلى ثلاث كرات أرضية! ومنذئذ تحطم هذا الرقم القياسي! لقد أشارت إحدى الدراسات إلى أنَّ للباريسي بصمة بيئية أكثر من (٦) هيكتار (سابين بارل، ٢٠٠٧م). حتى لو أنَّ حساب البصمة البيئية يبدو حساساً غير أنَّه له الفضل بتوفير نظام قياس بالنسبة إلى الفرق المتعاظم بين ما يلزم لشعب ما

للعيش وفق معاييره وما يمكن للأرض أن تقدمه عضوياً. (ازدحام، تلوث، تدهور أمور ترافق التحضّر!)

الثراء الاقتصادي يستند إلى إفقار الأرض، فكيف نحطِّم هذه الحلقة المفرغة؟؟ هل ندعو كل فرد إلى الاعتدال والزهد في الاقتصاد وإلى البساطة؟ هل نهدد الملوثين بغرامات؟ أم ندفع ونحرِّض باتجاه استحداث طرق أخرى للإنتاج والاستهلاك، والعمل، والإبداع[٢٤]؟ هل نخترع مناطق حيوية حضرية؟ بالتأكيد، في ممارسة علاقات جديدة بين الحيوي والإنساني، حتى على مستوى المدينة مهما كانت صغيرة...

علم البيئة، علم البيئة الإنساني، علم البيئة الحضري...

كان ذلك عام ١٨٦٦م حيث صاغ الطبيب الدارويني «إيرنست هيكل»[٢٥] (١٨٣٤-١٩١٩م) التعبير «علم البيئة» باللغة الألمانية انطلاقاً من التعبير اليوناني «أويكوس»[٢٦] أي السكن و«لوغوس» أي المعرفة أو العلم الذي يعيّن العلاقات بين العناصر المكونة لمجموعة واحدة. هل هدف بذلك إلى جعل التشارك والتفاعل الديناميكي بين الكائنات الحيّة وبيئتها أمراً مفهوماً بالعقل؟.

ولاحقاً بعد مرور سنتين من الزمن، حدَّد بقوله بأنَّ علم البيئة يدرس التوزع الجغرافي للأجناس. في عام (١٨٩٥م)، نشر الدانماركي «أوجينيوس وارنينغ»[٢٧] وهو الاختصاصي بعلم النبات، كتابه بعنوان «علم بيئة النباتات» وتُرجِم إلى اللغة الألمانية عام (١٨٩٦م) وإلى اللغة الإنكليزية عام (١٩٠٩م). النسخة الألمانية هي التي قرأها «روبير بارك»[٢٨] (١٨٦٤-١٩٤٤م)، بينما كان يهيئ أطروحة الدكتوراه في الفلسفة في مدينة ستراسبورغ. وقد تأثر بعمق بهذا المؤلف الذي اقتبس منه معلومات وتعابير عديدة عندما علّمَ في شيكاغو، مثل: «سكن»، «اجتياح»، «أقلمة»، «فرد»، «مجتمع». ثمَّ عاد واتخذ في العمل المشترك «المدينة» «The City 1925» مقاله المنهجي لعام (١٩١٥م)، «المدينة اقتراحات من أجل تقصّي السلوك البشري في البيئة الحضرية». يطالب «ر.بارك» بمقاربة بيئية للمسألة الحضرية. وهذا ما أطلق عليه اسم «علم البيئة البشري»، أما زميله «رودريك ماكنزي»[٢٩] فلم يتوقف عن التنظير في كتابة المقالات محاولاً إصدار أحكاماً تتخذ شكلاً نظرياً. بالنسبة إليه، عماد علم البيئة البشري يكمن في «دراسة العلاقات المكانية

والزمنيــة للكائنات البشريــة، لكونها قد حصلــت بالقــوى الانتقائيــة، والتوزيعية التكييفيــة للبيئة». وفي بيــان المؤلفات الحديثة (بيبليوغرافيــا) الذي تم شرحه والتعليــق عليــه عــام (١٩٤٠م) من قبل «جيمس كويــن[٣٠]» فقــد أحصى (٣٤٧) دراسة فــي علم البيئة البشرية نشرت في الولايــات المتحدة الأمريكيــة بين عامي (١٩٢٥ -١٩٣٩م).

فــي عــام (١٩٥٦م)، بحــث «فيليــب هــوزر»[٣١] في «السمــات البيئيــة للبحث الحضري» واستخدم «اوتيس د. دونكان[٣٢]» لأول مــرة التعبير «علم بيئــة حضري» في المؤلف المشترك الــذي أداره «هوزر» عام (١٩٥٩م) بعنــوان «دراســة الســكان». في فرنســا، استوحى «بول-هنــري شومبار دو لوف[٣٣]» (١٩١٣-١٩٩٨م) من أعمال مدرسة شيكاغو لدراسة باريس وباريس وضواحيها (١٩٥٢م) بتقاطع مع علــم الاجتماع-وعلم الأخلاق-وعلــم الإنســان. وعندمــا نشــر «إيف غرافمايــر» و«إسحق جوزف»[٣٤] عام (١٩٧٩م) كتاب «مدرسة شيكاغو. نشوء علم البيئــة الحضري» تغلغلــت مقالات «بارك، وماكنزي، وإيرنســت بورغس ولوي فيرت» في الدراسات الحضرية، مبقين على اللبس حول علم البيئة البشري.

إنَّ علم البيئة مدعو إلى دراسات حضرية بعــد ازدياد الاهتمــام بالحــالات البيئية؛ وهناك العديد من الأعمال التي أغنت علم بيئــة حضري ولا يــزال مفتوحــاً للدراسة كأعمال (ناتالي بلان، فيليب كليرجو، سابين بارل، وفرانسوا فالتر...).[٣٥]

الأركان الخمس لعلم البيئة

كل شيء بدأ مع تقرير «برونتلاند»[٣٦] الــذي نُشِــرَ عــام (١٩٨٧م)، بعنــوان «مستقبلنــا جميعــاً»، الــذي ينظِّــر فيه «التنمية المستدامة»، والذي تمت ترجمته لســوء الحظ بـ «التنميــة المستدامة» مع أركانها الثلاث: الاجتماعي، والاقتصادي، والبيئــي. وبالنسبــة إلــى العديــد مــن اختصاصيي علم البيئة ليست التنمية التي ينبغي جعلها مستدامة بل من المستحسن تطوير الثابت!

فــي عــام (١٩٨٩م)، نشــر «فيليكســ غاتــاري»[٣٧] «علم البيئات الثــلاث»، وهو كتــاب صغير جــاف وحادّ يجمــع بين علم البيئــة الطبيعــي (العلاقــات بيــن البشر والأسلــوب الحيــوي للحياة)، وعلــم البيئة الاجتماعــي (التفاعلات بيــن الأفراد دون وساطة مؤسساتية، مثل الأحزاب السياسية، والمنتخبيــن والمنتخبــات...) وعلم البيئة

الذهني (أسلوب جديد في التفكير، في الرغبة والحلم...).

فعلم البيئة هو إذن طريقة وترقي لفهم وتغيير العالم، وهو يخصّ حصرياً التفاعلات والآليات، ويدحض الخطط الإجمالية للتنظيم في البلديات، والجامعات، إلخ، التي تعمل ضمن «ميادين محفوظة» مغلقة على نفسها! في عام (٢٠٠٧) وبشكل متواضع تم اقتراح «منشور صغير من أجل علم بيئة وجودي» بخمسة ركائز فعالة وارتكاسية فيما بينها. وهي آليات في حالة سيرورة: الاجتماعية (تغيير طبيعة العمل)، والاقتصادية (تفضيل الشراكة والتعاون)، والطبيعية (توفير مكان للحيوي، والاعتناء بالطبيعة)، والثقافية (تقوية تنوع الثقافات واللغات)، الزمنية (السير وفق الإيقاع الزمني الحيوي الذاتي). هذا المجموع يشكل علم بيئة وجودي أي علم بيئة مكاني وزمني لكل فرد.

رأسمالية ثابتة ومتحركة

الاختصاصي بعلم الاجتماع «زيغمونت باومان»[٢٨] (الذي ولد في بولونيا عام ١٩٢٥م) يستخدم التعبير «سائل نقدي» ليصف عصرنا بالدفق المالي الدائم، والتحركات المستمرة، والتبادلات التي لا تنتهي، واللاتماسك والانشقاقات، هناك أيضاً «الحب السائل» و«الحياة السائلة». يمكن التمييز بين رأسمالية «متينة» ورأسمالية «سائلة». المتينة ترسخ في مكان تشكل معه كياناً واحداً، تُسكِن فيه عمالها ضمن مدن عمالية أنيقة في طرف المنجم أو المعمل، وتصرف لهم رواتبهم مدى الحياة وتعلِّم أطفالهم في مدارس تقنية. بشكل عام، يقطن المدير في المكان نفسه ويتم انتخابه مختاراً للمدينة ويشارك في الحياة المحلية الذي يبرز فيها كشخصية مرموقة ومحترمة. أما رأس المال السائل لا يريد أن يتجذر بل يبغي التحرك وفق فرص السوق العالمية. فهو في كل مكان وكأنه في وطنه وهو لا يتواجد في أي مكان. يفضل اليد العاملة غير الثابتة والتي لا تحصل على راتب مدى الحياة وأن يكون العمال من المتمرنين، والعمال المؤقتين الذين يعملون بالنيابة، وغير الثابتين، يديرهم وكأنهم عمال احتياط يمتلكهم. وهو ينقل وحدات انتاجه بالسهولة نفسها التي يعدِّل بها تمركزاته. المدير والهيئة الإدارية ما أن يصلوا إلى مجتمع حتى يفكروا بالانتقال إلى آخر وإلى العمل وفق خطة أخرى وتوجه آخر....

المراجع

١- أية بيئة للمدن؟ دراسة نشرت لأوّل مرة في (٢١ آب ٢٠١٥)، وأدرجت في الملفات الكبرى رقم (٤٠) لأشهر أيلول-تشرين الأول – تشرين الثاني (٢٠١٥م).

٢- بيتر تايلور، المجلة الدولية للبحوث الإقليمية والحضرية:

Peter J. Taylor, «Extraordinary cities. Early "city-ness" and the origines of agriculture and states», International Journal of Urban and Regional Research, vol. XXXVI, n° 3, mai 2012.

3- Fernand Braudel.

٤- «لويس مامفورد» Lewis Mumford، له كتابان: «ثقافة المدن ١٩٣٨» و«المدينة في التاريخ، تحولاتها ومواقعها، ١٩٦١م»:

The Culture of Cities, 1938, et The City in History. Its transformations and its prospects, 1961.

5- Patrick Geddes.

6-Voir Lewis Mumford, La Cité à travers l'histoire, 1961, rééd. Agone, 2011, et sur sa vie et son oeuvre, Thierry Paquot, Lewis Databiopolitique - Mumford. Pour une juste plénitude, Le Passager clandestin, 2015.

انظر لويس مامفورد: المدينة عبر التاريخ، وحول حياته وأعماله، «تييرّي باكو».

٧-انظر «شارل مانّ»، (١٤٩١م). معلومات جديدة حول الأمريكيتين قبل «كريستوفر كولومبس»، آلبان ميشيل، (٢٠٠٧م، و١٤٩٣م). كيف حوّل اكتشاف أمريكا العالم، آلبان ميشيل، (٢٠١٣م).

Voir Charles C. Mann, 1491. Novelles révélations sur les Amériques avant Christophe Colomb, Albin Michel, 2007, et 1493. Comment la découverte de l'Amérique a transformé le monde, Albin Michel, 2013.

8-William Petty.

9- Jean Bodin.

١٠- بول بيروش، من أريحا إلى ميكسيكو. مدن واقتصاد في التاريخ، Paul Bairoch، De Jéricho à Mexico. Villes et économie dans l'histoire، Gallimard، 1985.

11- X'ian.

١٢- التيلرة: أو التيلورية: أي مذهب «تيلور Tyalor» وهو منهج وضعه المهندس «تيلور» ١٨٥٦- ١٩١٥م لتنظيم العمل الصناعي تنظيماً علمياً باستعمال الحد الأقصى من الأجهزة والتخصص الدقيق وإلغاء الحركات النافلة.

13-mégalopolisation.

١٤- بول بيروش، حجم المدن، وشروط الحياة فيها والنمو الاقتصادي Paul Bairoch، Taille des villes، conditions de vie et développement économique، EHESS، 1977.

15-Bernard Charbonneau, Murray Bookchin, René Dumont, Leopold Kohr, André Gorz…

١٦- حضرية معممة: يسميها الطليان: città diffusa، والألمان Zwischenstadt والأمريكان urban sprawl والجغرافيون الفرنسيون «le périurbain»

١٧- انظر تييرّي باكو، أرض حضرية. التحديات الخمس من أجل مستقبل حضري للكرة الأرضية، (٢٠٠٦م) طبعة جديدة. الاكتشاف، (٢٠١٦م)، وفرانسواز ليبيرهير - غادريول وجيرمان سولينيس، أية مدن بالنسبة إلى القرن العشرين؟

Voir Thierry Paquot, Terre urbaine. Cinq défis pour le devenir urbain de la planète, 2006, nouv. éd., La Découverte, 2016, et Françoise Lieberherr-Gardiol et German Solinis (dir.), Quelles villes pour le 21e siècle ?, Infolio, 2012.

١٨- تييرّي باكو، كوارث حضرية. المدن تموت أيضاً، الاكتشاف، (٢٠١٥م). Thierry Paquot، Désastres urbains. Les villes meurent aussi، La Découverte، 2015.

١٩- Cicéron

٢٠- Guez de Balzac.

٢١- انظر «روبير ديلور» و«فرانسوا فالتر»، «تاريخ البيئة الأوروبية»، و«جونوفييف ماسّار - غيلبو»، «تاريخ التلوث الصناعي». و«شارل فرانسوا ماتي»، «نثق في الطبيعة». و«المشاهد الطبيعية في العصر الصناعي».

Voir Robert Delort et François Walter, Histoire de l'environnement européen, Puf, 2001, Geneviève Massard-Guilbaud, Histoire de la pollution industrielle. France, 17891914-, EHESS, 2010, et Charles-François Mathis, In Nature We Trust. Les paysages anglais à l'ère industrielle, Presses universitaires Paris-Sorbonne, 2010.

22-Hippocrat.

٢٣- انظر «فاليري بوافير»، «الطابع البيئي: مؤشر لتنمية مستدامة؟»، «جان - بول ماريشال» و«بياتريس كينو»، «التنمية المستدامة». رؤية بالنسبة إلى القرن (٢١)، الصحافة الجامعية في رين، (٢٠٠٥م)، و«سابين بارل»، تقييم خصوصية المدن والأراضي البيئية: استقلاب باريس والإيل دو فرانس.

Voir Valérie Boisvert, «L'empreinte écologique: un indicateur de développement durable?», in Jean-Paul Maréchal et Béatrice Quenault (dir.), Le Développement durable. Une perspective pour le 21e siècle, Presses universitaires de Rennes, 2005, et Sabine Barles, Mesurer la performance écologique des villes et des territoires: le métabolisme de Paris et de l'Île-de-France, Latts, 2007.

٢٤- «تييرّي باكو»، «إيفيت»، «ماسون - زانوسّي» و«ماركو ستاتوبولوس»، Thierry Paquot، Yvette Masson-Zanussi et Marco Stathopoulos (dir.)، Alterarchitectures. Manifesto، Infolio، 2012.

25-Ernst Haeckel.

26-oïkos.

27-Eugenius Warning.

28- Robert Park.
29- RoderickD. McKenzie.
30- James Quinn.
31- Philip Hauser.
32- Otis D. Duncan.
33- Paul-Henry Chombart de Lauwe.
34- Yves Grafmeyer et Isaac Joseph.
35- Nathalie Blanc, Philippe Clergeau, Sabine Barles, François Walter.
36- Brundtland
37- Félix Guattari
38- Zygmunt Bauman.

أهمية التشريع في التحوّل الاقتصادي والاجتماعي

د. غسان وديع العيد*



تكمن أهمية التشريعات في إحداث تغيير في ثقافة المجتمع وسلوكياته، وتحقيق المصلحة العامة والهدف الأساسي في التنمية والإدارة الرشيدة وتُمكّن من حل مشكلة قائمة في المجتمع أو تنفيذ سياسة، والأهم من ذلك هو أن يخدم التشريع عملية التحوّل الاجتماعي والاقتصادي المنشود ويحقق شروط الإدارة الرشيدة، وهذا هو الجانب العملي للنظرية التشريعية.

* باحث في الاقتصاد ومعاون وزير سابق.

لذلك يتــم إصــدار تشريعــات شاملة تكمن أهميتها في صياغتها لبلوغها الهدف المنشــود من خــلال النظريــة التشريعية والمنهج التشريعي والعرف والعادة والتجارب السابقــة كأداة لتوظيف الأدلــة والبراهين اللازمــة المساعــدة لتحقيــق الهدف، لذا يجب أن تكون الصياغة التشريعية واضحة لتمكــن المؤسســات والجهــات التنفيذية للتشريــع من القيــام بعملها بشــكل فعّال، وأمَّا المفكر فهو فــي المستوى الأعلى، إذ يوظف علومه في التغييــر الإشكالي للبنى فيعتبر وضع التشريع موضع التنفيذ مسألة أساسية في تحقيق الهدف من التشريع لكي لايبقى حبراً على ورق، حيث يواجه التنفيذ ولاسيما فــي بلدان العالــم الثالث مقاومة للتغيير من قبل المنتفعين من الواقع أو من الذيــن يجهلون أهميــة التشريع في مرحلة التحول الاجتماعي والاقتصادي.

وهــذا يتطلب دراســة معمقــة للواقع لتحديــد المشكلة وأسبابهــا والجهات ذات العلاقة بها، وتحديــد كل الأوليات من قبل السلطــة السياسيــة على ضــوء الحاجات الضرورية للمجتمع التي تُكوّن سلة متكاملة لمجموعــة إجراءات مثل ــ التوسع في التعليم ـ الصحــة ـ الزراعة ـ الصناعة .... إلــخ، ليصار بعــد ذلك إلى وضــع الحلول التشريعيــة المناسبة للحل وإحداث التغيير المطلوب في المجتمــع بمشاركة الأطراف المعنية، من خــلال توصيف الحل وتحديد مهمة كل جهة بشــكل واضح في هذا الحل وتحويــل الأطــراف المعنية مــن سبب في المشكلــة إلى أداة في الحل، وذلك يأتي من خلال التنفيذ الفعال للتشريع مع ملاحظة أنَّ التطبيق لا يأتي وفق نظرة القائم بالتشريع بالتحديــد، وإنَّما تحدث بعض الانحرافات المرتبطــة بالواقــع مــن أجل ذلــك وهنا تظهر أهمية وضع أسبــاب موجبة ومذكرة تبريرية كون الأمر يحتاج إلى متابعة التنفيذ والمقارنة مع المذكــرة التبريرية وتصويب الانحرافات، إما من خلال قرارات تنفيذية أو بتعديل التشريــع إذا اقتضى الأمر ذلك بعد التأكد من عدم وجود عرقلة أو أخطاء في التنفيذ. وبشكل عام.

الأسبــاب الموجبــة والمذكــرة التبريرية:

ممــا تقدم وليكون عملنا متكاملاً نبدأ بوضــع أسبــاب موجبة ومذكــرة تبريرية لتوضيح أهمية وضرورة هذا التشريع في إحداث تحول معيّن في المجتمع ويساهم في تنفيذ السياسة المعتمدة من الحكومة في التنمية والإدارة الرشيدة وهذا يتطلب

أن تكون التشريعـات موضوعيّة نابعة من الواقع وقائمــة على المنطــق والحقائق وغير تعسفية، وأن تنفّذ تنفيذاً فعالاً مما يتطلب تأهيل الجهات الإدارية التي ستقوم بالتنفيذ، وأيضاً توضيــح مبسط للقانون الموجــه إلــى المجتمــع الــذي سيطبق عليــه وبيان أهميته وفوائــده المستقبلية ومساهمتــه في تحقيق التنميــة والإدارة الرشيــدة، ولا بأســ من شــرح مضمون الأبحــاث الاقتصاديــة والاجتماعية التي أجريــت أصــلاً لتحليــل الواقــع ووضع السياسات التنموية التي تستهدف إحداث التحولات اللازمة فــي المجتمع لتحقيق التنمية المرجوة للمواطنين.

وتأتي أهمية الأسباب الموجبة والمذكرة التبريرية كونها:

– توضّح القرارات التي ستصدر مستقبلاً عند وضع التشريع موضع التطبيق.

– تكــون سبباً في وضــع خريطة طريق تساعد لاحقاً فــي جمع المعطيات اللازمة والمساعدة في إعداد التشريع وقياس مدى مساهمتــه فــي معالجة المشكلــة موضوع البحث.

– توضّــح السلوكيــات المفترضــة من المجتمع والتي تعــود لأسباب غير قانونية وترتبط بالظروف الاجتماعية والواقعية.

– توضّح مدى ارتباط التشريع الجديد بالبيئة التشريعيــة والاجتماعية الخاصة بالدولة.

– تساعــد المجتمع في فهــم الأحكام القضائيــة الصــادرة عــن المحاكم ومدى انسجامهــا مــع هــذا التشريع ممــا يخلق شفافية فــي عمل القضاة من خلال صدور الأحكام القضائيــة المتشابهة في الحالات والظروف المتماثلة.

– تحلل الواقــع بطريقــة بحثية كونها تجمع المعطيات من مختلف الجهات وتبين أهميــة التغيير المقترح لها بطريقة وصفية كاملة وتوضــح التدابير الواجــب اتخاذها بشــكل موضوعــي والتــي سينصــ عليها القانون لاحقاً، ممــا يحمّل لجنة الصياغة المسؤولية في جَمْــع الحقائق بشكل دقيق وتنظيمهــا كونهــا تشكل الأســاســ لتحديد التدابير الموضوعية للتشريع.

– تشكيل قناعة لدى السلطة السياسية بضــرورة إصــدار التشريــع لأهميته بشأن مسائل تتعلــق بالواقع، وما يمكن أن يحدثه من تغييرات.

ونشيــر هنا إلى أن هــذه التغيرات يمكن أن تتم دفعــة واحدة، إلا أنّ في ذلك مخاطرة كــون عمليــة التحــوّل السريع غيــر مرغوبة من أفــراد المجتمع لخوفهم مــن أنّها تشكل

خطورة على مستقبلهم، لذا يتم اللجوء إلى إصدار التشريعات التي تحدث تحولاً جزئياً تاركةً المجال لإصدار تشريعات تكميلية لهذه الخطوة، وبذلك يتحقق التحول بالتدريج مع مساهمة شعبية أكبر ولاسيما إذا حققت الخطوة الأولى أثراً إيجابياً انعكس على المجتمع وأحدث تغييراً لصالح الطبقات الفقيرة، وهنا نشير إلى تجربة الصين التي لجأت إلى التحول المتدرج إلى اقتصاد السوق خلال فترة زمنية طويلة نسبياً وحققت نجاحاً متميزاً من خلال إحداث التحول الاقتصادي والاجتماعي، وهناك أيضاً التجربة التي اتبعتها روسيا الاتحادية عندما لجأت إلى إجراء عملية التحول إلى اقتصاد السوق دفعة واحدة خلال فترة زمنية قصيرة مما أدى إلى إحداث التحول المنشود لكنه انعكس سلباً على الطبقات الفقيرة إلى أن أعيد التوازن إلى الاقتصاد وتحقق التشغيل الكامل للقطاعات كافة التي ساهمت به الطبقة الفقيرة وأدى إلى تغير في سلوكياتها واندماجها في الاقتصاد.

لذلك اتجهت النظريات التشريعية المعتمدة على التجربة إلى اتباع الأسلوب المتدرج في التشريع لعملية التحول ومواجهة المشاكل الكبرى ومن ثم الانتقال إلى غيرها وهكذا حتى ننتهي من عملية التحول، وبذلك يمكن الاستفادة من المعلومات الراجعة من التطبيق وإجراء التصويب المطلوب في الوقت المناسب وعدم إفساح المجال لحدوث آثار سلبية تضر بالطبقات الفقيرة.

وهنا يتبادر السؤال التالي: ما الذي ستتضمنه المذكرة الإيضاحية والأسباب الموجبة؟ وكيف يمكن التأكد من أنها جاءت شاملة للواقع ومتوقعة للآفاق المستقبلية كون هذه التشريعات تهدف أصلاً إلى التأثير وتغيير سلوكيات المجتمع والمؤسسات وصولاً إلى تحقيق التنمية والإدارة الرشيدة.

لذلك لابد من الحصول على معلومات دقيقة ذات صلة بالواقع ليصار إلى وضع تقديرات تساعد في وضع الحلول التي سيتضمنها التشريع مع ملاحظة أن تقييم الواقع غالباً ليس بالأمر السهل لعدم توفر السجلات والإحصاءات الدقيقة في الدول النامية، مما يتطلب وضع منهجية معينة لاستنتاج المعلومات كافة بالأسلوب ذاته على الرغم من أنها متغيرة، ولكنها تكون قريبة من الواقع، ويمكن الاستفادة من ملاحظات وتقارير مختلف الجهات الرسمية أو الأهلية أو حتى الدولية للحصول على معلومات أكثرَ وثوقية تساعد في إعداد تشريع ملائم يحقق الأهداف المرجوة.

النظـام التشريعـي ودوره فـي حـل المشكلات «إعداد التشريع»

- وينطلق أولاً من الدراسة الأولية التي أعدت لتوضيح الأسباب الموجبة للتشريع، وتوضيـح المشكلة المستهدفـة وتاريخها وانعكاساتها على مختلف جوانب المجتمع والتشريعـات الصـادرة سابقـاً والجهات المسؤولة عـن التنفيـذ والتاريخ الطويل لها وتحديد نطاق مشـروع القانون ودوره فـي الحد من المشكلـة أو معالجتها كلياً والسلوكيات الجديدة الواجب على الأفراد والمجتمـع اتباعها والتـي تتضمن تفسير مسببات المشكلة، ومدى مناسَبَة وفاعلية التدابير التي سينص عليها القانون. وتشمل معالجـة للظواهر والتي تعيق التنمية التي سيكون هدفها إنصاف الطبقات الفقيرة، مما يتطلـب بالمقابـل توضيـح الحلول المقترحة وإعطـاء أمثلة عن بلدان نامية عالجـت مثل هـذه المشكلـة بتشريعات وإجـراءات مماثلـة والأخطـاء الحاصلة في التنفيذ وكيفيـة معالجتها للتعلم منها باعتبارهـا مصـدراً مهماً للأفـكار، مع المحافظة علـى خصوصية البلد المعني، إضافة إلى النظريات والأبحاث الأكاديمية والعـودة إلـى الجهـات المختصـة بهذه المشكلـة وما لديهـا من تراكـم خبرات وتجارب لايستهان بهـا وضرورة مساهمة هـذه الجهات في إعداد التشريع الجديد، مما يسهل عليها لاحقـاً القيام بإجراءات التنفيذ بحماسة أشد لإثبات صحة أفكارها وقدرتها على معالجة المشكلة.

ونظـراً لتشعب المشـكلات في الدول الناميـة فمـن الأفضل أن يكـون التشريع محـدداً لمعالجـة مشكلـة بعينهـا وعدم تداخل الجهات المنفذة قدر الإمكان، فعند معالجـة مشاكل الاقتصـاد الوطني يفضل إصدار تشريع لتنظيم الزراعة وآخر لتنظيم الصناعة وثالث لتنظيـم التجارة وكل ذلك يتـم بدراسة بحثية مسبقـة تتضمن حلولاً ومقترحات لحل المشكلة.

- وغالبـاً ما يكون عدم تنفيذ القانون ناجماً عن تضرر مصالح بعض الأفراد أو حرمانهم من دخل معين، وللرد على ذلك توضـح الدراسة البحثيـة للتشريع الآثار المحتمل حدوثها إضافة إلى المنافع التي يتوقع حصولهـا للمجتمع بشكل عام مما ينعكـس على الأفراد إيجاباً، وكل ذلك قد يكون غيـر كافٍ لضمان تنفيـذ التشريع المقتـرح لإحـداث تحول فـي سلوكيات المجتمع، مما يتطلب وضع بعض الجزاءات التي يكـون لها دور رادع ومشجع للالتزام بالقانـون، وهنا نشير إلـى أن الاستطراد

في تعظيـم العقوبات والجـزاءات يعطي سلطة إلى الجهات الإدارية التنفيذية مما يدخلنا في البيروقراطية وعدم الشفافية ومـن الأفضل في هـذه الحالـة إعطاء حوافز إيجابية لمن يقوم بتنفيذ التشريع، ويمكـن اللجوء إلى القيـم الاجتماعية أو الأفـكار الأيديولوجيـة أو الحس الوطني والقومي لاستنهاض همم المجتمع ودعوته لتنفيـذ التشريع واللجـوء إلى الإجراءات غير المباشرة للتأكـد من الالتزام بتنفيذ التشريـع، إضافة إلـى الاستعانة ببعض النصوصـ التي تتضمـن العقوبات التي تفرض بأحـكام قضائية وليس عن طريق الجهـات المنفذة والتركيـز على تصميم نظام عمل يسهل اكتشاف المخالف وهذا يكون له دور رادع أيضاً.

- وحيث أن التشريعات تصدر غالباً في إطار تنفيـذ سياسة الحكومة بهدف تغيير السلوكيـات وصولاً إلى الغايـة المنشودة فـي التنمية والإدارة الرشيدة، مما يتطلب وضع منهجية معينة تهدف إلى حث الناس علـى الالتـزام بتنفيذ التشريـع مثل منح التسهيلات لأصحاب المهن الذين لم تسجل بحقهم مخالفـات للقانون وبالمقابل إلغاء الرخص لمن تجاوزت مخالفاته حداً معيناً طبقـاً لآثار المخالفة على المجتمع، وبكل الأحوال يجب ألّا تعيق هذه المخالفات أو تحد من متابعة إصدار التشريعات الهادفة إلى تحقيق التنميـة والإدارة الرشيدة لأن ذلك سيتـرك أثراً علـى المجتمع بجدية الحكومـة فـي تنفيذ سياستهـا، حيث إن الاستمـرار بإصدار التعليمـات بتفاصيل جزئية إنما يساهم فـي تغيير السلوكيات وصولاً إلى تنفيـذ القوانين وتناقص عدد المخالفين له، فيمكن مثلاً استخدام جزء من أمـوال الغرامات للمخالفين في قيادة السيارات بمنح جوائـز سنوية لمن مضى عليـه خمس سنوات مثـلاً دون أن يرتكب أي مخالفة وذلـك ضمن احتفالات سنوية بمناسبة عيد المرور، يتم تغطيتها إعلامياً لتشجيع الآخرين على الاقتداء بهم.

لذلـك مـن المهـم توضيـح هـدف التشريـع والحلول التي سيتم التوصل إليها والسلوكيات المستهدفة للتغيير والمكاسب المتوقـع تحقيقها للمجتمع والاستعانة في ذلك بأهل الخبرة والمختصين الذين لديهم مهـارات التواصل لإقنـاع الناس بالتشريع والإجـراءات اللاحقة وميـزات كل منها، والتكاليف القليلة نسبيـاً أمام المكتسبات المتوقعـة للمجتمع علـى الصعيد المادي أو المعنوي في تحسين صورة البلد، وخلق الثقـة بهـا في الخـارج، وضـرورة توجه

المختصين إلى الفئة المستهدفة وتدريبهم على السلوك الذي يحقق هدف التشريع، وبالتالي مصالحهم وذلك باستخدام وسائل الإعلام التنموي الذي يوضح النتائج في دول مماثلة.

– كما يجب تحديد التكاليف المتوقعة وهل تشكل عبئاً على الموازنة، مع مراعاة أن التشريعات المتعلقة بتنفيذ سياسات التنمية يكون لها أهداف نبيلة غير مباشرة مثل حماية البيئة وتأسيس القيم الداعية لحقوق الإنسان والإدارة الرشيدة والحوكمة ومكافحة الفساد، وكذلك التشريعات التي تتضمن إعادة توزيع الدخل في المجتمع كأن تفرض رسوماً أو ضرائبَ على الطبقات الغنية بما لا يؤثر عليها ويؤدي بالمقابل إلى تقديم خدمات للطبقات الفقيرة، وهذا يخدم مختلف الطبقات الاجتماعية ويعبِّر عن التزام الدولة بالمعايير الدولية مما يعطيها تقييماً إيجابياً في المنظمات الدولية، وتشجع على الاستثمار فيها.

– وتوصيف المشكلة التي يعالجها مشروع القانون يتطلب إظهار دلائل المشكلة وحجمها وانعكاسها على المجتمع ولاسيما في القضايا ذات الأثر الاجتماعي كون صدور التشريع بشأن معالجتها سيتطلبُ رصدَ مواردَ ماديةً للبنى التحتية لتأهيل وتوفير الموارد البشرية، مما يستوجب الاستفاضة في شرح الحل وتوصيف النتائج المتوقعة لإقناع المواطنين وأصحاب القرار على السواء بأهمية التشريع، ويكون الأمر أسهل عندما تكون هناك موارد مالية مخصصة لكنها لا توظف بشكل سليم بسبب الفساد أو عدم وجود خبرات متطورة وهنا تظهر مشكلة من نوع آخر وهي مقاومة التغير من المستفيدين من الواقع الراهن أو عدم الرغبة في التغيير من القائمين على رأس العمل لعدم تمكنهم من تأهيل أنفسهم لمواكبة الحلول المتطورة مما يتطلب مجموعة معالجات منها الإدارية والتشريعية وإجراء تحليل مقارن بين الواقع قبل التشريع وبعده إضافة إلى الإفادة من تجارب تلك دول مماثلة والحلول التي اتبعتها والنتائج التي تحققت، الأمر الذي يشجع أفراد المجتمع على قبول التشريعات، لا بل المساهمة بتنفيذها بشكل فعّال وهذا يخفف الأعباء غير التشريعية والمتعلقة بردود فعل المجتمع ويسهل تحقيق الأهداف، وقد تكون هناك حاجة لتأهيل صانعي القرار وتدريبهم على كيفية التعامل مع الظواهر الاجتماعية ومقاومة التغيير، وما يشجع

الجميع «أفراد المجتمـع والمنفذين» هو إظهار فوائد الحلـول وتبسيط الإجراءات المقترحــة للوصــول إلى الحــل وتحديد دور أعضــاء المنظومــة التي ستعمل على اتخاذ القرار اللازم لوضع التشريع والجهة التــي ستقــوم بالتنفيذ وأفــراد المجتمع المستهدفين، ممــا يشجع الجميع ويحدد المسؤوليــات ويسهــل المساءلــة ويحقق الشفافيــة في تقيم الإجراءات الموضوعة لتنفيــذ السياســة التنموية وبيــان الأثر الاجتماعي للتشريع الذي تم إعداده أصلاً للتأثير فــي السلوكيــات القائمة وتغيرها وتحقيق التنمية والإدارة الرشيدة.

والســؤال المهم هو: **هـل يمكن تحديد التكاليف والمزايا الاقتصادية والاجتماعية للتشريع بشكل مسبق؟**

على المــدى القصير تكــون التكاليف إداريــة ويتم إنفاقها مــن الحساب الجاري للموازنــة، أما علــى المــدى الطويل فقد تتأثر النتائج بالتطبيقــات الفعلية للتشريع على ضــوء الانعكاســات الاقتصادية التي تحصل على مستوى النمو وزيادة الاستثمار أو التضخــم وارتفاع الأسعــار، كتأثر بعض المشاريــع الصغيــرة والمتوسطــة بإقامة استثمــارات كبرى مثل المــولات وانعكاس ذلك على المحلات الصغيرة.

وبشــكل عام فإن صــدور تشريع معين قد يــؤدي إلــى تحقيق فائــدة لقطاعات معينة والتأثير سلباً في أخرى، فمثلاً إقامة شركة كبرى لخدمات النقل قد يعطل عمل الاستثمــارات الفرديــة في النقــل ويخلق بطالة ويؤدي إلى بعض الآثار السلبية على المجتمع، ولكنه بالمقابــل يؤدي إلى زيادة في إيــرادات الضرائب التي يجب توظيفها لصالح الطبقات الفقيــرة مثل خلق فرص عمل بديلة أو منــح قروض لإنشاء مشاريع صغيرة فــي قطاعــات أخــرى، أو تأهيل العاطلين عن العمــل للالتحاق بالنشاطات الاقتصادية «الصناعية والتجارية والزراعية المتطورة»، ولكن يجب الأخذ بعين الاعتبار دائمــاً أن هناك بنيــة تشريعيــة متكاملة تستهدف تنميــة المجتمع وتحسين ظروف الطبقات الفقيرة في مجال التعليم والصحة والخدمــات وتأميــن السلــع الاستهلاكية الأساسية بأسعار عادلة.

مــع العلــم أن التكاليــف والمزايــا الاجتماعيــة المتمثلــة بالبطالــة والسكن والبيئة والثقافــة كلها أمور يصعب قياسها ولكنها تعبِّــر عن كون التشريــع جاء -من حيــث النتيجة- لصالــح الطبقات الفقيرة وذلك يتم من خلال مشاركة هذه الطبقات في العمليــة التشريعية من خلال منظمات

المجتمــع المدني ممــا يسمــح -وبشكل مسبق- تدارك الأضرار التي قد تلحق بهذه الطبقات نتيجة عملية الإصلاح الاقتصادي التي تهــدف إلى تنمية المجتمع بشكل عام أو تــدارك النتائج السلبية التي ظهرت بعد صدور التشريــع بتعديل بعض مــواده، أو تأجيل تطبيقه في قطاع معين أو أي إجراء مناســب لمنع حــدوث الضــرر أو معالجة آثــاره في حال ظهوره فــي الوقت والشكل المناسبيــن، وهنــا تظهر أهميــة المذكرة التوضيحيــة والأسبــاب الموجبة وضرورة إعدادها بشكل دقيق وشامل لكل الظروف الحالية والاحتمالات المستقبلية.

دراسة الأثر التشريعي:

يتم التأكد من أنه تم إعداد تشريع ملائم يحقق الأهداف المرجوة منه بعد صدوره عن طريــق دراسة الأثر التشريعي لهذا القانون مــن خلال لجنة تقييم تبين الآثار القانونية والاقتصاديــة والاجتماعيــة التــي حدثت وانسجامها مع سياســة الحكومة التنموية، وهل تــم تحقيــق المطلوب مــن التشريع لتغطية متطلبات المرحلــة على الأقل في تغيير السلوكيات التي تسبب المشكلة، وهل جاء التشريع متوافقاً مع المذكرة التبريرية مما يثبــت صحة الفرضيــات والتقديرات وأنه يسيــر ضمن الصيغــة المنطقية مما يؤكد صحــة الإطــار العــام للتشريع، مع ملاحظــة أننا نعمل في بيئــة بيروقراطية اعتــادت على سلوكيات معينــة لذلك يأتي التشريع في الإطــار العام ليقوم بدوره في التأثيــر على هــذه السلوكيــات التي تكون متغيــرة بالأصل، لذلــك يستهدف التشريع الإطــار العــام للمشكلة وتــرك التفاصيل الجزئية للسلطة التنفيذية التي يكون عليها استخــدام مهــارات مناسبــة معتمدة على الخبــرة والتجربة لتسهيــل تنفيذ التشريع بشكل فعّال من خــلال تشجيع السلوكيات الجديدة التي تستهدف إحداث تحولات في المجتمع، وإذا احتاجــت الإدارة التنفيذية لسلطــة أكثر لتنفيــذ السياسة عليها طلب إصدار تشريع جديد بصورة محددة.

موجبات التنفيذ:

لجــأت بعض الدول إلــى قيام السلطة التشريعيــة بوضــع المبــادئ والأهــداف العامة للتشريع وتركــت للسلطة التنفيذية مهمة وضــع التعليمــات التنفيذية للجهة التــي ستقوم بالتنفيذ، وفــي ذلك مخاطر أن تذهب التعليمــات التنفيذية بعيداً عن روح النص التشريعــي أو حتى إفراغه من مضمونه، مما يفقــده أسباب صدوره، لذا

نرى أن تصدر التشريعات بنصوص قانونية واضحـة وشاملـة ويبقـى علـى السلطة التنفيذيـة وضعهـا موضـع التنفيذ دون منحها الحق لإصدار تعليمات تنفيذية، بل وضع آليات التنفيذ وتقوم من خلال التنفيذ وتقييم الأثـر التشريعي للقانـون باقتراح إصدار تشريع لاحق لمعالجة حالات طارئة أو تصويب للنص التشريعي ذاته.

ولابـدّ مـن الإشـارة هنا إلـى خطورة التنفيـذ البيروقراطي وغيـر الفعّال على التشريـع ذاتـه وعلى أهدافه فـي التنمية والإدارة الرشيدة حيث يتم تبادل الاتهامات بين السلطة التشريعية التي أصدرت القانون والسلطـة التنفيذية التي لـم تنفذه تنفيذاً فعـالاً وبالتالي عـدم تحقيـق الهدف من إصداره فـي إحداث تحولات في المجتمع، وهنا يأتي دور المذكرة التوضيحية في بيان الأسباب الموجبة لصدور التشريع وتوصيف المشكلـة (موضـوع التشريـع) والهـدف منهـا هو معالجة هـذه المشكلة عن طريق التأثير فـي السلوكيات المسببة لها والأخذ بعين الاعتبـار عجز الحلـول السابقة عن معالجتهـا، إضافة إلى أنهـا ستعالَج ضمن سلة المشكلات الاقتصاديـة والاجتماعية التـي تعيق التنمية ضمـن سياسة الحكومة لتحقيق التنمية والإدارة الرشيدة.

ويجـب أن نتذكر باستمـرار أننا نعمل في أحد البلـدان النامية والتي كانت بعض الأجهـزة التنفيذية والقضائيـة فيها أحد أسبـاب التخلـف والبيروقراطيـة وعـدم الشفافيـة، أو ربما قد تكـون مستفيدة من هـذا الواقـع لأن نتائج عمـل المؤسسات ناجمة نشاط أفرادهـا وسلوكهم وخبرتهم، والأخطـر من ذلك إذا كان هـؤلاء الأفراد ربمـا يعملون ضمـن أيديولوجية معينة قد يكـون من أهدافها مقاومة التطور واعتباره مخالفـاً لمعتقداتها، وهنا يجب التوسع في البحث في أسبـاب سلوكيات هؤلاء الأفراد التي تعيق تنفيذ حتـى التشريعات السابقة مما يتطلب إجراء الإصلاح الإداري وإعادة هيكلـة هـذه المؤسسات، بمـا ينسجم مع متطلبـات التنميـة والإدارة الرشيـدة وكل مجموعة مـن هذا الفريق يجـب أن تكمل ما بدأته المجموعة السابقة وكلٌ في مجال اختصاصه، حيـث إن نتيجة عمل الحكومة تأتي من تفاعل العاملين فيها وتكاملهم وليس تناحرهـم، وبالنتيجة فإننـا لا نقيّم أفراداً وإنَّمـا نقيّم عمـل المؤسسـات وفاعليتها وهنـا يأتي دور القيـادات الإدارية المؤهلة والخبيرة والتي تعمل بشفافية، حيث لايمكن لإدارة أو جهـاز إداري تبريـر عـدم تنفيذ سياسة معينة بذريعـة خفض الإنفاق مثلاً

فإذا قامت كل إدارة بذلك سنصل إلى عدم تنفيذ السياسـات التي اعتمدتها الحكومة، ومن المفترضـ أنها لحظت كل مستلزمات نجاحها مركزياً.

ونلاحظ هنا أهميـة الجهاز التنفيذي في التنفيـذ الفعال للتشريعـات وبالتالي السياسـات وتحقيق أهدافهـا في التنمية والإدارة الرشيـدة، ممـا يرتـب التزامات إضافيـة علـى لجنـة الصياغـة التي من المفترضـ أنهـا تعـرف مستـوى الجهاز التنفيذي، وبالتالـي وضع نصوص مناسبة لإمكانياته، إلا أن الأمر لا يذهب إلى النهاية بأن تقـوم على صياغة تشريعات ركيكة ولا ترتقي إلى مستوى التطور المنشود، عندها يجب التعرف على واقع الحال مثل الأسباب المحتملـة للفشل التي قد تعـود إلى عدم معرفة الجهاز التنفيـذي بأحوال المجتمع الذي ستنفذ فيـه التشريعات أو عدم تفهم هذا الجهاز لمضمون السياسات بالأصل أو قد يكـون وراء المسألة عدم شفافية وعدم وجود مصلحة للجهـاز التنفيذي أو بعضه بالقيـام بتنفيذ التشريع بشـكل فعّال وقد تكون لهم مصلحة بعدم التنفيذ بتعاونهم مع الجهات التـي ستتضرر مصالحها الخاصة مـن التشريـع، ولتحديد المشكلـة بشكل علمي ودقيـق يجب وضع معاييـر وروائز لقياسـ جديـة التنفيذ مـن عدمه في كل مرحلة والتعرف على حقيقة الوضع ليصار إلـى وضع الحلـول التي تواجـه صعوبات التنفيـذ ومعوقاتـه سـواء أكان بالتدريب المناسـب أو إصـدار توجيهـات واضحة ومبسطـة، أو تحفيز القائمين على التنفيذ أو حتـى مشاركة أفـراد المجتمع المدني في الرقابة على التنفيـذ، كل ذلك يساعد على التنفيذ الفعّـال للسياسات الحكومية لتحقيق الأهـداف المنشودة فـي التنمية والإدارة الرشيدة ويفسح في المجال للجنة الصياغـة بإعداد تشريعات متطورة تواكب القوانين والنظريات العالمية.

وهنـا يأتـي دور الإدارة الرشيـدة فـي تشكيل الجهاز التنفيـذي الملائم والمزود بالأدلـة والحجج والنظريات والموضوعات التـي تساعـده فـي القيام بـدوره ضمن القواعـد الرسمية والضوابـط المحددة، مـع منح هذا الجهاز سلطـة التصرف في بعضـ الإجراءات ضمن مفهـوم القرارات الرشيـدة التي تساعد في معالجة القضايا التفصيليـة الطارئة، ممـا يحسن من أداء الجهاز التنفيذي، ويمكن منظمات المجتمع المدنـي من المشاركة في هـذه القرارات من خلال مجموعـات مدربة ومؤهلة لمثل هذه الحالات مما يسهم في إغناء التجربة

ويساعـد في توضيح بعض الإجراءات أو النصوص غير الشعبية لأفراد المجتمع ليكون المجتمع على دراية بالتشريع والظروف المحيطة به وعلّة وجوده وأهدافه وانعكاسه على المصالح الكلية للمجتمع، وبكل الأحوال يجب أن ينص القانون على آليات تنفيذه والرقابة على التنفيذ وإعطاء سلطة للنيابة العامة بتحريك الدعوى بحق المؤسسات أو الأفراد الذين لم يقوموا على تنفيذ التشريع ضمن المهلة المحددة ووفق النصوص التشريعية الناظمة لذلك مما يحث هذه الجهات على الجدية في التنفيذ ضمن الجداول الزمنية المحددة والقواعد المتعارف عليها.

ونرى أن زج فئات المجتمع الرسمي والمدني كافة في عملية التنفيذ يضمن الشفافية التي هي من أهداف الإدارة الرشيدة ولا يفسح المجال لمحاباة فئة اجتماعية على أُخرى كأن نميز الطبقة الغنية والثرية على حساب الفقراء، لذلك يجب أن تعلن القرارات والإجراءات كافة بصورة شفافة متضمنة موجبات صدورها، بما يتلافى صدور قرارات وتعليمات تعسفية وتصبح هذه القرارات والتعليمات عرفاً عند تنفيذ أي تشريع قادم مما يجعل أفراد المجتمع أكثر اطمئناناً عند صدور تشريعات جديدة بحيث تكون لهم مساهمات إيجابية في التنفيذ الفعّال للتشريع ولاسيما في التشريعات التي تتطلب التزام المواطنين مثل قوانين البيئة أو المرور وغيرها، إلا أن هذا القياس قد لا يكون صائباً في تنفيذ القوانين كافة لاختلاف موضوعاتها ولكن استمرار التشاور على أوسع المستويات والتفاعل مع الفئات الاجتماعية ذات العلاقة بالتشريع يخلق الشفافية مع ملاحظة عدم استهلاك الزمن في التشاور والتواصل الذي قد يؤخر تنفيذ التشريع، ولكن وجود إدارة رشيدة يحد من هذا التخوف من خلال اعتمادها عناصر كفوءة وليس لهم دوافع شخصية ولايعتنقون معتقدات تعارض تنفيذ السياسات وتطوير المجتمع، بل يعملون وفق القواعد والأسس المعتمدة والمتعارف عليها سابقاً في تنفيذ التشريعات ويمكن للإدارة التأكد من ذلك من خلال المعلومات الراجعة من المجتمع، وكذلك فَلِلْحَدِّ من سوء التصرف هذا يجب الانتباه إلى عدم منح الإدارة سلطات واسعة تتجاوز واجباتها للحد من الفساد وسوء استخدام هذه السلطات الفائضة، وهنا يأتي دور التشريع في تحديد هذه السلطات وإيجاد نظام رقابة فعالة ومتابعة مباشرة لتنفيذ التشريع من السلطات

الأعلى، حيث إن أفـراد المجتمع لا يكون لهـم مصلحة مباشرة في كثير من الأحيان للتبليغ عن مخالفات القوانين النافذة، وقد تتضــرر مصالحهم ولكنهـم لا يستطيعون الادّعاء لعدم معرفتهـم بالمسبب المباشر أو لاعتقادهم أن الضرر بسيط ولا يستحق الادعاء حسب قناعتهم أو لأسباب اجتماعية عشائرية، وبالتالي فـإن الجهات الرقابية لتنفيـذ التشريع أو الجهـات القضائية لن يكون لديها علـم بالمخالفات وبالتالي لن يكون لهـا دور فـي ردع المخالفات لعدم علمها بهـا، وهذا ما يؤكـد ضرورة وجود أجهـزة مراقبـة علـى الجهـاز التنفيذي للتشريعـات حيـث من الواجـب تنفيذها لكونهـا تشكل جزءاً مـن البنية التشريعية المتكاملة لتنفيذ السياسات الحكومية لذلك نؤكد على تأهيل الجهاز التنفيذي وإعداده للقيام بتنفيذ التشريعات كافة ولاسيما إذا كان هـذا الجهاز من الجيـل القديم الذي عمل في ظل سياسات سابقة.

أمَّـا عن تنفيذ القانون لـدى المحاكم فـإن الأمر يتطلب وجـود ادّعاءٍ من طرف معين تُطَلبُ فيه حقوق محددة من شخص آخـر سنـداً للقانـون النافذ، وهنـا يأتي دور القضـاء في تفعيـل نصوص التشريع والحكم وفق معطيات الموضوع والحقائق المقدمة فـي القضية مما يتيـح للقضاة تنفيـذ القانون، كمـا نشير إلـى أن توفر الإمكانيات المالية لدى الوزارات يساعدها في تخصيصـص وتأهيل جهاز مشغل لتنفيذ التشريع ولديه إمكانيات المتابعة الميدانية مما يحقق نتائج إيجابيـة في التنفيذ لما يخصهم من التشريع.

ولا ننكر هنا تعارض مصالح المنفذين مـع أحد جوانب التشريـع بصفتهم أفراداً مـن المجتمع أو لديهـم معتقدات دينية أو أيديولوجيـة تمنعهـم من التنفيـذ الفعّال إضافـةً إلـى عامـل الخوف مـن تحمل مسؤولية التنفيـذ بسبب عدم وجود تقييم صحيح لسلوكهم، حيث إنّ الرواتب متساوية بين الذين يعملون والذين لا يعملون، كما أن نظام الحوافـز المطبق لا يعطي المستحق مـن خلال توزيـع مبالغ متساويـة للجميع إضافة إلـى أنَّ العادات والتقاليد والتكوين الاجتماعـي كُلُّ ذلـك لا يسمـح للموظف بممارسـة دوره بشكل مستقـل لاعتبارات عشائرية أو إقليمية أو غير ذلك، أو لاعتقاد الموظف بأن كشفه عن المخالفين لن يقدم أو يؤخر حيث لـن تطبق بحقه أي مخالفة بسبب عـدم توفـر المهـارات أو الموارد اللازمة لضبطـه أو بسبب الفساد السائد فـي المجتمع وسيتركه محرجـاً أمام هذا

المخالـف مع ملاحظة أن ليس كل الجهاز التنفيذي بنفس سوية السلوك، ولكن الأكثر تأثيراً هو وجـود السلوكيات الخاطئة لدى القـادة الإداريين عندهـا يحجم العاملون في جهازهم التنفيذي عن ممارسة عملهم وفق قواعد المهنة ونصوص التشريع خوفاً من سطوة مديريهم، وعلى العكس من ذلك فإن وجـود القادة الإداريـين المتحمسين الملتزميـن بالتنفيـذ يؤدي إلـى تشجيع العاملين لديهم على ممارسة دورهم حسب الأنظمة المعمـول بها، وعلى أي حال فإن المسؤولين الإداريين في دول العالم الثالث لا يخضعـون لأنظمة الرقابـة نفسها التي تطبـق على الموظفين ممـا يفسح المجال لعـدم الشفافيـة وإن كان ذلـك لا يمنـع المتضرريـن من أفراد المجتمع من اللجوء إلى القضاء للمطالبة بتعويضات عن أضرار ألحقها بهم الجهاز التنفيذي، ونرى أنّه يمكن النص في التشريعـات على ذلك مما يحد من الفساد الذي يمكن محاربته بمجموعة من القـرارات تحمي أفراد المجتمع وذلك بالتـزام القـادة الإداريين تقديـم تفسير للقـرارات التـي تصدر عنهـم ويكون لها صفة التعميم وليس السرية مع فرض رقابة على السلطـات الممنوحة للإدارات بحيث تكون بحـدود المهام الموكلة إليها ولاسيما في القضايا المتعلقـة بالفقراء والطبقات المحـدودة طالما أن السلـة المتكاملة من التشريعـات تهدف إلـى التنمية والإدارة الرشيـدة بعيداً عن العادات والتقاليد التي تعيق العمل والأيديولوجيـات التي تساعد على التخلف.

لذا يجب التنبيه إلى مسألة التنفيذ منذ إعـداد الأسباب الموجبة للتشريع وتضمين نص التشريـع موجبات التنفيـذ والرقابة عليها مع تأمين الموارد البشرية والإمكانيات المادية اللازمة لذلك.

تصميم الجهاز التنفيذي:

بما أنَّ الجهة التي ستقوم بالتنفيذ هي جهة عامة لديهـا سلطات لتنفيذ القانون، فهذا يتطلب تحديد هذه الجهة في القانون والحرص على عدم وضع نصوص قانونية يمكن استخدامها بشكل بيروقراطي ينعكس سلباً علـى تنفيذ التشريع، ويترك ردة فعل غير متعاونة من أفراد المجتمع مما يفقد التشريع أحد المقومات لتنفيذه بشكل فعّال ولتدارك مثل هـذا الاحتمال يمكن اللجوء إلـى أهل الخبرة والتجربة لوضع إجراءات تنفيذية بطريقة لهـا قبول اجتماعي، كما يمكن تدارك ذلك في المذكرة التوضيحية والأسبـاب الموجبـة لإصـدار التشريـع

بتحديــد الجهــة التــي ستقــوم بالتنفيذ ووسائل التنفيذ الملائمــة وإقامة برنامج تدريبي تأهيلــي لعناصر الجهة المعنية أو حتى اللجوء إلى إجراء وإصلاحات هيكلية في هذه الجهة، ممــا يساعد في الوصول إلى التنفيذ الجيد.

وفــي كثير من الأحيان يفقــد التشريع مضمونه لعدم تبليغــه للجهات المعنية به ممــا يتطلب إعطــاء هذا الجانــب أهمية مناسبــة لفهــم التشريع وشــرح الحالات التطبيقيــة له، وهنا يلعب الجهاز المسؤول عن تنفيــذ القانــون مسؤوليــة كبرى في تبسيــط فهم التشريــع وتوضيــح أهدافه فــي تحقيق مصلحة المجتمــع في التنمية والإدارة الرشيدة بطريقــة مباشرة أو غير مباشرة بما ينسجم مع سلوك أفراد المجتمع النمطي ضمن السياق الطبيعي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والمؤسسي.

وحيــث إنَّ التشريعــات تصدر للتأثير في سلوكيات الأفراد والمؤسسات ولتواكب التطور المفترض للمجتمع بهدف تحقيق التنميــة والإدارة الرشيدة، وبما أن الدول النامية ليس لديهــا تشريعات أصلاً بهذا الاتجاه لذلك ستكون التشريعات الجديدة واجبــة التنفيذ مــن الــوزارات كافة كل حسب اختصاصه، لكــن هذه التشريعات لهــا جوانب فنيــة وقد تكــون مستحدثة وبالتالي لا يعلم عنهــا القطاع الحكومي أو الأهلــي إلا القليل مما يتطلب إحداث هيئــة متخصصة تضم عدداً من الخبراء فــي المجــال المقصــود، يتــم تأهيلهم وتدريبهم لــدى جهات عالميــة ليقوموا بتدريــب العاملين الآخريــن على مجال العمل الجديد، مثــال ذلك: إحداث هيئة لتنميــة الصادرات وتشجيعها بهدف دعم قطاعات الاقتصاد الوطني حيث لا يكفي صدور تشريع لدعــم الصادرات من دون وجود جهة منفــذة لهذا التشريع وإن كان لهــذا التشريــع علاقة مع عــدة أطراف مثل غرف التجــارة، وغــرف الصناعة، والــوزارات الاقتصاديــة مثــل الماليــة والصناعة والزراعة والاقتصاد، إذن يجب أن ينص قانــون تشجيع ودعم الصادرات على إحداث جهــاز تنفيذي لهذا القانون مما يــؤدي إلى تنفيذه بشــكل فعّال كون الجهــاز التنفيذي قد تــم تصميمه لهذه الغايــة، حيث لا يمكن لعناصــر لا تؤمن بالنظريــة الاقتصادية لدعــم الصادرات أن تقوم بتنفيذ هذا التشريع وفق أهداف التنمية والإدارة الرشيدة.

لذلــك يجــب علــى لجــان صياغــة التشريعــات التنبــه إلــى تحديــد الجهة

التنفيذية لضمان تطبيــق فعّال للتشريع، فصــدور قانــون متطور لتنظيــم المرور يتطلب مــادة هيكلية لجهاز تنظيم المرور وفرض العقوبات اللازمة بحق المخالفين، وبذلك تكون الدائرة التنفيذية قد تكاملت مــع التشريع الجديــد ووضعته في مجال التنفيــذ الفعّــال، أمَّــا إذا بقــي الجهاز التنفيذي على وضعه السابق من دون تأهيل وتدريب ولم يتم تأمين البيئة اللازمة لتنفيذ التشريع فتكــون أمام قانون على الورق لم يستفد المجتمع منه، ولم يحقق الأهداف المتكاملــة للتشريعات الأخرى وصولاً إلى التنمية والإدارة الرشيدة.

ويجب التأكد مــن أن الجهاز التنفيذي يقــوم بعمله بشكل متــوازن دون تعسف أو فســاد وأن السلطــة الممنوحة لــه تعادل مسؤولياتــه، بالتالي لا توجد لديه سلطات مــن دون مسؤولية وكذلــك الاطمئنان إلى نظام عادل للأجــور والترقية بما يتناسب مع عمل المرؤوسيــن وجهودهم المبذولة، كما يجب التأكد من عمل الجهاز التنفيذي بشفافية وأن كل القرارات الصادرة عنه لها ما يبررها ويجــب أن تكون أسبابها معلنة، وأخيراً أن يكون الهيكل التنظيمي والإداري متناسب مع مهام الجهاز وموجبات التنفيذ الفعّال للتشريــع، وإذا كان التنظيم القديم لايخدم عمليــة التطور يجــب أن يُلاحَظ ذلك مــن قِبَل لجان إعداد التشريع لاتخاذ توجيهٍ ما بإحداث جهاز جديد للتنفيذ، أو تحديث الجهاز القديم.

وهنا تلعب التكاليف دورها في اتخاذ القرار ولكل حالة مزايــا وعيوب فإعادة التأهيل للجهاز القديم تتطلب تأهيل البناء والتجهيزات والعناصر وأنظمة العمل وكل ذلك يتطلــب نفقات قد تزيد عن إحداث جديد لذات البنــى المطلوبة مما يوجب إعداد دراسة الجدوى الاقتصادية وإجراء تحليل مقارن للحالتين ليتم اتخاذ القرار الرشيــد على ضــوء ذلك مــع ملاحظة الفلسفــة التشريعية المعتمدة في الدولة، ففــي القديم كانت المحاكــم هي الجهة الوحيــدة المختصة بتنفيذ التشريع الذي يعتمد على ادّعــاء من صاحب المصلحة لتحصيل حق من طرف آخر، ولكن توسع التشريعات لتشمل البيئة والصحة والتعليم والصناعة والتجارة وغيرها جعلها شاملة لكل مناحي الحياة، وفي كثير من الحالات لا توجد حــالات ادعاء من ضرر حاصل، ولكــن هــذه التشريعات جــاءت لتنظيم المجتمــع الــذي يعتبر المتضــرر الأول من المخالفة، ممــا يتطلب وجود جهات إدارية فنية متخصصة في متابعة التنفيذ

لها حق الادّعــاء باسم المجتمع في حال وجود مخالفات لهذه التشريعات وأحدثت محاكـم متخصصــة في عــدَّة مجالات مثـل محاكم المــرور والمحاكم التجارية ومحاكـم لحمايــة المستهلـك ومحاكم للعمال وغيرهــا، فالقاضي العقاري مثلاً لا يمكنه النظـر بقضية تتعلـق بالعمال والنطق بالحكم العادل بها لكفاءة قاضي العمــال المختص الــذي يستطيع تطبيق قانون العمــل نصاً وروحــاً مستفيداً من خبرته المتراكمة، ممــا يؤدي إلى صدور الأحكام بفعالية ونزاهة وشفافية ويحقق العدالــة الاجتماعية التي تعتبر من أسس التنمية والإدارة الرشيدة.

إضافة إلى ذلك يمكن أن ينص التشريع علــى إعطــاء حــق الادعــاء لمنظمات المجتمع المدنــي أو إحداث مؤسسة لها صلاحيات التنفيذ وفرض بعض العقوبات على المخالفات البسيطة والادّعاء بشأن المخالفات الجسيمــة التي تعيق التحول الانتقالــي وتلحق ضــرراً بالمجتمع أمام القضاء المختص الــذي تتسم إجراءاته بالبــطء والروتين والعــبء المادي، مما يترك آثــاراً على التنميــة ويؤخر العمل ولاسيما فــي الأعمال التي تتطلب سرعة البت بها مثل المنازعات التجارية، لذلك نصــت كثير من الــدول فــي تشريعاتها علــى اللجوء إلــى المحاكـم الإدارية أو المحاكـم التجارية المختصــة أو النص في العقــود علــى اللجوء إلــى التحكيم في حل الخلافــات التجارية مثلاً، وبكل الأحوال فإنَّ علــى لجنة صياغة التشريع اختيــار أسلوب التنفيــذ، وقد تكون هذه الجهــة مؤسسة محدثــة أو قائمة سابقاً ومتخصصة بالتنفيــذ ومتابعته والادعاء بحق المخالفين أمــام السلطة القضائية التي يحددها التشريع.

ونلاحظ مما تقدم أنه لا توجد وصفات جاهــزة لتنفيــذ التشريعــات وإنما يمكن للجنة التي تقوم بإعداد التشريع والأسباب الموجبــة اختيار نموذج مناسب قد يتراوح بيــن عدة نمــاذج سائدة فــي المجتمع أو يمكن إحداثها للوصول إلى هدف التنفيذ الفعّــال للتشريــع مستفيدةً مــن الدراسة التبريرية الموجبة للتشريع، والتي يجب أن تتضمن التكلفــة الاجتماعية والاقتصادية لكل حالة.

إنَّ التنفيــذ مــن الجهــات الإداريــة يعتبــر مستقــلاً شريطة أن يكــون بعيداً عن الجهــات السياسية، وهنــاك قناعة بالتنظيــم الإداري علــى اعتبار أنه يتمتع بالمرونــة، ويمكن للجنة الصياغة اختيار

النموذج الإداري المناسب لتنفيذ التشريع المقصود على اعتبـار أن إدارات الدولة تضم خيرة المتخصصين بل أفضلهم في الـدول النامية ممـا يميزهم عن القضاة الذيـن يجب عليهـم تعلـم الكثير حول الموضـوع المطروح، أو الاستعانة بخبراء اختصاصييـن ليصبـح بإمكانهم تشكيل القناعة والحكم في القضية، مما يستهلك المال والجهد والزمن، كما أن المسؤولين الإداريين يعالجون الموضوعات المختصة بتشريـع معين مما يمكنهم من الاستدلال بالخبرة والتجربة والبت بالأمور بالسرعة المطلوبـة، ويجعلهم مؤهلين لأن يشاركوا بشكل فعّال ضمن لجان لإعداد تشريعات لها صيغة الديمومة وتسهم إسهاماً كبيراً في إحداث التحول المنشود في المجتمع، وتعتبـر الخبـرات المتراكمـة المكتسبة للجهاز الإداري عاملاً مشجعاً لها لإعداد التشريعـات بعيداً عن التخـوف والتردد شريطـة عدم إخضاعهـا لقيود الروتين، مما يسمح لها اتخـاذ القرارات الرشيدة كونها تلجأ إلى التفاعل مع أفراد المجتمع الذين هم السبب والنتيجة للتشريع.

ونشير هنا إلى أن للجنة الصياغة دوراً مساعـداً عندمـا تضعُ نصوصـاً تشريعيةً واضحةً مستنـدةً إلى أسبابٍ موجبةٍ شفافةٍ ومقترنةٍ بجـداولَ لتقييمِ التنفيـذِ الفعّالِ للتشريعِ، مما يجعل الجهة المنفذة أكثر ثقة بعملها من خـلال العودة إلى هذه الجداول ومقارنتهـا مـع ما تـم فعلـه انسجاماً مع التشريع ودراسته التبريرية.

والسؤال مـن هـي الجهـة الإداريـة التنفيذيـة المناسبة؟ هل هو جهاز موجود سابقاً أم جهاز محدث؟ وهنا نشير إلى أنه:

– يجـب تحديد المهـام المنوطة بهذا الجهاز ضمن الدراسة التبريرية والأسباب الموجبـة وأن ينصـ التشريع على وجوب إحداث هذا الجهاز بقرار مستقل، وتحديد مهامه ضمن هيكل إداري وتنظيمي منسجم مـع التشريـع وتحديد واجباتـه وسلطاته ووضع الإمكانات المادية والبشرية والأدوات التنفيذية بتصرفه ليكون فاعلاً.

– تحديـد المرجعيـة الإداريـة لهذا الجهاز للرجوع إليها عند الحاجة.

– تحديد الجهة القانونية التي يحق لها تفسيـر نصوص القانـون وتوصيف العمل في الهيـكل التنظيمي فيما يتعلق بالتعيين ومهام العاملين واختيارهم وتدريبهم.

– تحديـد وسائل وأساليـب تقييم أداء الجهاز للتأكـد من التنفيذ الفعّال للتشريع وصلاحيات الجهاز في استقبال الشكاوى، ومتابعة التنفيـذ بكل التفاصيـل والقيام

بالمبادرات اللازمة وابتكار الأساليب التي يعتقــد أنها تحقق أهداف عمله، مثل عقد اللقــاءات مع الجهــات المستفيدة وإجراء استقصــاءات ميدانيــة للــرأي وغيرها، ورفعها إلــى الجهة المخولة باتخاذ القرار المناسب مرفقاً بــه أسباب صدوره لدعم التنفيذ الفعّال للتشريع.

- يجــب أن ينص التشريع على تحديد الجهة التي يمكن التظلم إليها من قرارات الجهــاز التنفيذي هل هــي وزارة أم لجنة تؤلــف من عدة أطراف يتمثل بها المجتمع المدنــي مع تحديد مهامهــا وصلاحياتها وكيفيــة ممارسة عملها واتخــاذ قراراتها مع ملاحظة عدم التوسع في الصلاحيات والإجــراءات لكــي لا تتحول إلــى روتين وبيروقراطية جديدة توصلنــا إلى الفساد الذي نحاربه.

- قد يتم اللجوء إلى القطاع الخاص لتنفيذ قانون البيئة مثلاً الذي يحتاج إلى عناصرَ فنية وتجهيــزات متطورة لقياس التلــوث ووضع أســس مكافحته من قبل جهاز يحتاج إلى عمــل ميداني ومراقبة دائمة ومرونة فــي الحركة قد لا تتوافر لــدى المؤسسات الحكوميــة مما يوجب النصــ في التشريع علــى ذلك مع تقدم دراسة متكاملة من قبل اللجنة التي تقوم على إعداد الأسبــاب الموجبة والمذكرة التبريرية لتوضيح مبــررات تكليف جهة خاصة بإدارة التنفيــذ، ويتبع ذلك وضع دفاتــر شروط واضحــة وشفافة ودقيقة وتضمينهــا وسائــل الرقابــة على تنفيذ التزامــات الأطراف والتكاليــف المالية ومصادرهــا، وتوضيح السلطة الممنوحة للجهة الخاصة لكــي لا تتحول إلى جهة بيروقراطيــة وتعمــل بشــكل تعسفــي، وضــرورة التزامها بالتشــاور مع الجهة التي سيطبق عليهــا التشريع والشفافية في القرارات التنفيذية بمشاركة المجتمع الأهلــي ورقابتــه، بما يضمــن مشاركة الأطراف المعنية.

- ضــرورة الحصول علــى الحقائق من مصدرهــا وإجــراء المداولة حولها والوصــول إلى الأطــراف المتضررة في حال وجودها لسماع وجهة نظرها ليصار إلى اتخاذ القرار المناسب الشفاف وغير التعسفي، ويمكن تلافي صدور مثل هذه القــرارات التعسفيــة من خــلال وضع معايير وروائز تتخذ القرارات من خلالها ضمن قواعد واضحة.

- قد تنشــأ بعض النزاعات في تنفيذ أحكام القوانيــن بين المؤسســة المكلفة بالتنفيذ والجهة المعنية بالتشريع من أفراد

المجتمــع مما يتطلب وجــود نظام وجهة مرجعية لحل النزاع، وقد ينتهي بمساءلة الجهة المسؤولة عن التنفيذ لتعسفها مثلاً وذلك يحقق العدالة والسلام الاجتماعي، وفي حال عدم وجود نظام لحل النزاعات تكــون المحاكم هــي الجهــة المرجعية لذلك، وبكل الأحوال فإن شكوى المواطن من مسؤول لم يعطه حقه الذي نص عليه القانون، تختلف عــن شكوى مواطن آخر بحق مسؤول يسيء استخدام المال العام، وقد تُحدد التشريعات اللجوء إلى الإدارة الأعلى التي لها سلطــة لحل النزاع، ومع ذلك يمكن للمواطن في حال عدم قناعته بقرار الإدارة الأعلى استئناف هذا القرار لدى الوزير مثلاً قبل اللجوء إلى القضاء الإداري الذي يلجأ إلى وقف تنفيذ القرار إذا ثبت لديه أن ظلماً قد حصل يصعب تداركه فــي حال تنفيذ القــرار إلى أن تقدم الجهة الإدارية دفوعها وتتم بعدها إجراءات التقاضي وصولاً إلى الحقيقة والحكــم بناءً عليها، وهذا يرتب تكاليفاً على الاستئنــاف والزمن الذي يستغرقه القاضي لفهم الموضوع وتشكيل القناعة كونــه غير مختصــ ولا يملــك الخبرة الفنية في مثل هذه الموضوعات، ومما يسهل ذلك وجود مذكرة تفسيرية للقرار قبل صــدوره مما يدعــم موقف الجهة المنفذة ويدلل علــى شفافيتها ويساعد القاضي في سرعة استيعاب الموضوع، وقــد يؤدي ذلك إلــى العودة عن الحكم السابق بوقف التنفيذ.

نلاحــظ هنــا ازدواجية بيــن سلطة القضاء وسلطة الوزير في التصديق على القــرار أو وقف تنفيــذه، وعليه فإن عدم تدخل القضــاء في القــرار الإداري قبل الوقوف على حقيقة موقف الوزير والأدلة المقدمة فــي الاستئناف فيمــا إذا كانت أساسيــة وجوهرية ولم يأخــذ بها الوزير عند ذلك يكون للقضاء سلطة نقض القرار بعد التأكد مــن أنه غير قائم على أسباب صحيحة ولــم يأخذ بالثبوتيــات والأدلة الجوهريــة التــي قدمها المدعــي، مما يحقق العدالة والشفافية في وقف تنفيذه، وبهدف تحديد الصلاحيات والمسؤوليات وضبــط إجراءات وقف تنفيــذ القرارات الإداريــة نــرى أن تصــدر عــن السلطة التشريعيــة تعليمات تحدد إجراءات وقف القرارات الإداريــة وسلطة القضاء، وفي ذلك صلاحيــات الجهاز الحكومي للدفاع عن قراراته وعدم ترك السلطة التقديرية للقاضي بشكل مطلق في القول بأن القرار لم يستند إلى أسباب صحيحة ووضع روائز

لتحديد متى يكون القرار رشيداً صحيحاً ولا يجـوز الطعن به ومتى يكون غير قائم على أسباب صحيحة.

ليسـن بإصـدار القوانيـن وحدهـا تتـم التنمية:

فالقوانيــن التي لا تنفذ تنفيــذاً فعالاً لا تحقق الهدف مــن صدورها ويعود عدم التنفيذ:

– إمَّا لضعف في القانون شكلاً وموضوعاً لعدم ارتكازه على دراســة تبريرية وأسباب موجبة واضحة كونها اقتصرت على دراسة جوانب من المشكلة دون أخرى.

– أو أن الجهــة الإداريــة التنفيذيــة كانت قاصرة عن مواكبة نصوص التشريع والسياســات الحكوميــة التــي استنــد إليها وبالتالي تكــون القرارات التنفيذية للتشريع غيــر مطابقة لنصوص التشريع وأهداف السياسة، ممــا ينجم عنه عدم تحقيــق السياسات الحكومية في التنمية والإدارة الرشيدة.

– أسبــاب تعود إلى سوء فهم المشكلة، وبالتالــي عــدم وصفها بشــكل دقيق في المذكــرة التبريريــة والأسبــاب الموجبة مما يؤدي إلى ضعــف الحلول المقترحة، وبالتالــي حلول تشريعية غيــر فعَّالة مما ينجــم عنه تنفيــذ غير فعَّــال أيضاً، مما يتطلــب –خاصة فــي ظــروف التنمية– أن يتنــاول الباحثــون الأسبــاب المتعددة للمشــكلات وتحليلهــا بشــكل يتضمــن كل الاحتمــالات والحــالات المرافقــة أو الناجمة عن مباشــرة التحول الاقتصادي والاجتماعي ولحظها في نصوص التشريع ليكون شاملاً لكل الحالات مما يعطيه قوة التنفيذ، ويفسح المجال للقرارات الإدارية التي تصــدر لتنفيذ التشريع لتكون واقعية وشفافة ومقبولــة من فئات المجتمع ذات الصِّلــة بما يحقق سياسة الحكومة ويدعم تنفيذ التشريع بشكل فعّال.

هــل يمكــن للأجهــزة الحكوميــة وضــع تعليمات تنفيذية للتشريع؟

فــي الأصــل يجــب أن يتــم تقدير الحاجة إلى التشريع من الجهاز التنفيذي للحكومــة استنــاداً إلى دراســة تبريرية واضحــة وأسبــاب موجبة معللــة، مما يوضح الحاجة إلى التفصيل في نصوص التشريع مــن عدمه على ضــوء موضوع التشريع والسياسة الواجب تنفيذها.

ونرى أن التفصيل في التشريع يجعله أكثــر وضوحاً للسلطــة التنفيذية وأفراد المجتمــع بحيث لا يترك مجالاً للاجتهاد في التطبيق، مما يخلق الشفافية والمساواة في التنفيذ، وإن كان للسلطة التنفيذية أن

تصدر بعض القرارات الإدارية التي توضح آلية التنفيـذ وإجراءاته دون أن يكون لها الحق في تفسير أحكام التشريع.

ومن هنا تأتي أهمية مشاركة الجهات التنفيذيـة في لجـان إعـداد وصياغة التشريعات لإفسـاح المجال لها بتوضيح نصوص التشريع وسـد الثغرات وتنفيذ السياسات المستهدفة على ضوء خبرتها فـي التنفيذ في المرحلـة السابقة، مما يجعـل التشريع متكاملاً واضحاً ويساعد السلطة التشريعية في إقراره بما يتوافق مـع السياسة العامة للحكومة في التنمية والإدارة الرشيدة ولا يترك مجالاً للتباين بين التشريع والتعليمـات التنفيذية التي ستقـوم السلطة التنفيذيـة بوضعها في غيابها عن السلطة التشريعية.

وقد لجأت بعض الحكومات إلى عرض التشريع مع تعليماته التنفيذية التفصيلية لإقرارهمـا من السلطـة التشريعية وهو إجراء يمكن الاستغناء عنه بوضع نصوص تشريعيـة مفصلة تغني عـن التعليمات التنفيذية، وتصدر استناداً إلى الاستدلال المستمـد مـن التجربة حيـث تتضمن تفاصيـل العمـل ونمـاذج المطبوعات الواجـب استخدامهـا، والإجـراءات التنفيذية لكل مرحلـة من العمل وسلطة كل إدارة فـي ذلك مما يخلـق الشفافية والرقابة الذاتية في التنفيذ ويكرس مبدأ اللامركزية في التنفيذ.

وقـد تم التميز في كتـاب «الصياغة التشريعيـة من أجل التغيـر الاجتماعي والديمقراطي» تأليف «آن سيد مان ـ نالين أبيسيكري» بين نوعين من التشريعات في مجال التنفيذ وهما:

مشروع قانون ذاتي التنفيذ: وهو الذي يتم تفصيل كل أحكامه للمخاطبين.

مشروع قانون غير ذاتي التنفيذ: وهو الذي يمنح الجهاز التنفيذي سلطة واسعة في وضع الأحكام التفصيلية وسلطة وضع لوائح لسد أي ثغرة فيه.

وحيث إنَّ الاقتصاديـات الرأسمالية ازدادت تعقيـداً واجه المشرعون صعوبة متزايـدة فـي الاستمـرار فـي سن كل القواعد التفصيليـة المسبقة الضرورية لحـل المشكلات الاجتماعيـة المتزايدة التعقيد ودائمـة التغيير التّي تعاني منها مجتمعاتهـم وكمـا فعلـت الصيـن في التسعينـات، أدركت الدول الصناعية في وقت لاحق الحاجة إلى وضع تشريع غير ذاتي التنفيذ.

ونـرى أن علـى الـدول النامية في مرحلـة التأسيس للنمـو اعتماد النموذج

الأول وهــو التشريع ذاتي التنفيذ لضبط مسارات التنمية ليصار في مرحلة لاحقة إلى مواكبة عملية التطور في المجتمع.

الآثار الاجتماعية للتشريع:

لابد أن يكــون للتشريع آثار اجتماعية واقتصادية وقانونية، فالآثار الاجتماعية مثــلاً يتطلــب تحديدهــا الأخــذ بعين الاعتبــار عند إعداد المذكــرة التبريرية للتشريــع كل الاحتمالات التــي يمكن أن تؤثر على المجتمع بشكل سلبي طالما أن هدف التشريع تغيير السلوكيات بالاتجاه الإيجابي ولمصلحــة المواطن، وإذا كان لابــد من حصــول بعض الآثــار السلبية فالمفترضــ صياغــة التشريــع بشــكل يخفــف من الآثــار السلبيــة وتداعياتها على المجتمــع، علماً أنَّ هــذه الآثار لن تكون واحــدة على أفــراد المجتمع كافة لاختلاف السلوكيات في المجتمع أصلاً، فالسلوكيــات لأهالــي الريف تختلف عن ســكان المــدن، والسلوكيــات للمتعلمين تختلــف عن غير المتعلميــن، وكثيراً من هذه السلوكيات مرتبــط بعادات وتقاليد اجتماعيــة منها ما هــو متأصل ولايمكن تغييــره ومنها مــا هو مرتبــط بالعرف والعــادة والحيــاة اليومية والــذي يمكن التأثيــر فيه كونها غيــر مرتبطة بمعايير اقتصادية، أمَّا مــن الناحية الاقتصادية: قد يحقق التأثيــر في عادات الاستهلاك بعض المنافــع للمستهلكين مما يشجعهم علــى تغييــر العــادات السابقــة، فمثلاً التدخل في الخطة الزراعية يتيح للمزارع زراعــة أصنــاف قابلة للبيــع وتحقق له إيراداً أفضل أو التحول من أسلوب معين للزراعــة اليدوية إلى المكننــة مما يتيح الحصول على كميات أكبر من المحصول، ويحقق له إيراداً أعلى ويحوله إلى مزارع له منظور اقتصادي للعمل وهكذا، والأمر يكون أكثــر سهولة كلما تــم الابتعاد عن المعتقدات والتوجه إلى الترغيب المادي قدر الإمــكان، ووضع نظــام حوافز لمن يتحولون إلى أساليب العمل الجديدة بعيداً عن البحث في القيم والمعتقدات السائدة التي غالبــاً ما يتمسك بها الناس، ويجعل من قــدرة التشريــع علــى تغييرها كمن يسبــح عكس التيار، بل على العكس، فإنَّه يمكن الاستفــادة من هذه المعتقدات في بعض الأحيان لصالــح التشريع الجديد، كأن تستخدم فيه عبارات موافقة أو قريبة من هذه المعتقدات للتأثير في السلوكيات لصالح تنفيذ التشريــع مثل عبارة الخير والشر وغيرها.

والمسألة التقليدية في المجتمعات هي مواجهة التشريعات الجديدة لاعتقادهم أن هذه التشريعات ستحد من حرية التصرف لديهم، أو أنّها لن تحل المشكلة المطروحة، وهنا تأتي أهمية الصياغة في أن تكون النصوص واضحة ومرغوبة للالتزام بها، فمن الناحية القانونية قد تكون التشريعات الجديدة تمنح السلطات المحلية صلاحيات يمكن ممارستها على المواطنين، ولكنها تفتقد إلى الشفافية وتشجع الفساد، كما يجب ملاحظة قدرة المواطنين على فهم التشريع والتأكد من أن لديهم القدرة والمعرفة للالتزام بالتشريع والإقلاع عن سلوكيات قائمة إلى سلوكيات أفضل وهذا يتطلب استخدام وسائل إعلام مناسبة تتحدث عن القانون ومميزاته التي ستنعكس إيجاباً على المجتمع للوصول إلى أطراف المجتمع المختلفة وبالوسائل كافة مثل التلفاز أو المدارس أو الجامعات أو النقابات أو المنظمات الشعبية والأحزاب المرخصة أو دور العبادة أو الجمعيات الأهلية وغيرها.

الرجل الآلي (الروبوت) وعمله في المستقبل

*
إبراهيم سلوم

جاء في موسوعة «لاروس الكبرى» الفرنسية أن كلمة «روبوت» (الرجل الآلي) مشتقة من اللغة التشيكية «روبوتا» وتعني العمل الشاق الإجباري أو السخرة، وكان أول من ابتدعها هو الكاتب المسرحي التشيكي جوزيف تشابيك في عام (١٩٢٠م)، في محاولة منه لابتكار اسم ما للآلات ذاتية الحركة في عمله المسرحي، ومنذ ذلك الحين بدأت هذه الكلمة تغزو الكتب وأفلام الخيال العلمي التي قدمت عبر السنوات عدداً من الأفكار والتصورات لهذه الآلة الذكية وعلاقتها بالإنسان.



وهكذا امتلأت كتب الأطفال والروايات بموضوع الرجل الآلي الذي أتى بعض منه من الفضاء غازياً كوكب الأرض ويمتلك ذكاءً خارقاً.

وبعضهم الآخر استأنس به الإنسان بعد أن قام هذا الأخير بإخضاعه إلى إرادته

* كاتب وباحث ومترجم سوري.

ومشيئته، وجعله يقوم بأعمال مبرمجة سلفاً، إما بإيعاز منه بعد السيطرة على حركته سيطرة مباشرة، وإما بإيعاز من برامج حاسوبية. وغالباً ما تُناط بهذا الرجل الآلي أعمال شاقة وخطيرة للغاية مثل: البحث عن الألغام، والتخلص من النفايات المشعة، والسير بين الركام والدخان مهما علت شدة هذا الدخان إلخ.. وهذا ما دفع بالإنسان للتفكير فعلياً في تحويل هذه الأفكار إلى وقائع وحقائق علمية.

لكن الحقيقة قد تكون في بعض الأحيان أغرب من الخيال. وهذا ما شاهدناه مع إطلالة النصف الثاني من القرن الفائت حين صنع الإنسان روبوتات متعددة الأشكال بحيث يتوقف شكلها الخاص بها على المهمة التي خُصصت من أجلها. وضمن هذا السياق بدأنا نجدها في كل شيء يستخدمه الإنسان مثل: الغسالة الآلية، وماكينة سحب النقود من المصارف، وفي المصانع، وفي قيادة الطائرات، وسبر أعماق البحار، وقيادة سفن الفضاء.. إلخ. وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر ما قام به المخترع الأمريكي «المرت سبيري» حين اخترع في منتصف القرن الفائت روبوتاً مخصصاً لقيادة الطائرات ومرتبطاً بجهاز لقراءة مدى ارتفاع الطائرة، وبآخر للدلالة على الاتجاه الذي تسلكه الطائرات وهي في مسارها في الجوّ.

وهناك أيضاً أنواع من الروبوتات المخصصة للقيام بالأعمال المنزلية، وتعليم الأطفال ولعب الورق والشطرنج. وهذا النوع من الروبوت يطلق عليه تسمية «الروبوت الاجتماعي»، وهو يتمتع بدرجة عالية من الاستقلالية. كما شاهدنا صناعة آلات وُصفت بأنها ذكية وأخذت تسمية «روبوت» فكانت على شاكلة السيارة أو الطائرة التي يتحكم بها المرء عن بعد، ويجعلها تسير أو تطير وفقاً لجهاز موضوع بين يديه ويتحكم بقيادته، كما نجد ذلك في لعب الأطفال، الأمر الذي كان من شأنه أن يفتح آفاقاً كبيرة للمخترعين لكي يبتكروا ويطوروا ما أمكن منها وصولاً إلى الرجل الآلي الذي يشكل اختراعه منذ النصف الآخر من القرن الفائت تتويجاً لكل هذه الآلات الذكية والذاتية الحركة.

في الحقيقة إنه منذ القدم والإنسان يحاول أن يعمل كل شيء بيديه فكان يزرع ويحصد ويغزل ويبني ويرمم ويصنع باستخدام يديه حيث كان للإبهام، وهو أكبر أصابع اليد، دور كبير في هذه الأعمال التي ساهمت في بناء الحضارة الإنسانية. لقد انفرد هذا الإصبع من بين أصابع اليد

الخمســة بخاصة ثمينة جــداً تجعله يجمع بين هــذه الأصابع في قبضة واحدة تقبض علــى الأشيــاء وتمسك بهــا وتتعامل معها لتجسد الفكرة التــي يسقطها الإنسان على هذه الأشياء.

فالإنسان عندما يريد أن يخترع سكيناً لا بد من أن يسبق ذلك فكرة عن هذا السكين في ذهنه كأن يراها ذات نصل حاد وقاطع ينتهي بقبضة يمســك بها بيديه حتــى يسهل عليه استخدامهــا، وضمن هذه الرؤية قام الإنسان بفضــل يديه وخاصــة إصبع الإبهــام، بهذه الاختراعات عبر الأزمنة قديماً وحديثاً.

ومع تقدم العلــم والتكنولوجيــا أصبح العمل اليدوي في بعض الأحيان صعباً للغاية وغير كافٍ من أجل توخي الدقة العالية في العمل التــي قلما تتوافر للإنسان في بعض الأحيــان من خلال عمله اليدوي. ومن أجل تحقيــق هذا الهدف سعــى الإنسان جاهداً إلى أن يفكر باختراع وسائل يستطيع عبرها الاستغناء عــن تواجده للقيام بهذه الأعمال اليدويــة. وبحلول القــرن العشرين اخترع الآلات والأدوات التــي تساعــده في حراثة الأرض وحصاد مواسمها، وفي البحث عن الموارد الطبيعية كالماء والنفط والغاز.

عدا عن ذلك كله بقي الإنسان غير قادر علــى القيام ببعض الأعمــال الدقيقة التي لاتخلــو أحياناً من خطر عليــه، سواء أكان ذلك عبر يديه أو عبر الآلات التي اخترعها، لذلك لجــأ إلى صناعــة آلات ذكية وذاتية الحركــة يستطيع التحكم بها عــن بُعد، أو مبرمجة سلفاً للقيام بمهام دقيقة وحساسة. فبعضهــا يلعب، وبعض يــؤدي خدمات له. والبعضــ الآخر اتخــذ أشــكال حيوانات محــددة. وعلى جميع هــذه الآلات الواردة الذكــر كان الإنســان يطلق عليهــا تسمية «روبوت». لقد كان من النادر أن نرى آنذاك روبوتاً (رجلاً آلياً) يأخذ شكل الإنسان.

لكن فــي السنوات الأخيــرة من القرن الفائت وبالتحديد في عــام (١٩٦٢م) جاء المهندســ الأمريكي جورج دي فول ليخترع أول رجــل آلي اقتصرت مهمته على التقاط الأجســام الثقيلة وتحريكها من مكان لآخر، وعلــى لحم المعــادن والصباغــة ومراقبة المنتجــات الصناعية للتأكــد من جودتها. وفي مطلع القرن الحــادي والعشرين بدأنا نرى هذا الرجل الآلي في المصانع الكبيرة والمعامــل ولاسيما في مصانــع السيارات مــن أجل تجميع أجــزاء السيارات ودمجها ببعضها بعضاً.

وكانت البنية الهيكلية لهذا الرجل الآلي تجمع بين الميكانيك والإلكترون والبرمجة. لقــد كان يحمل ملامح «بشريــة» من رأس

وصدر وأضلاع وأطراف عليا وسفلى، ويعمل عن طريق محــرك كهربائي يستخدم التيار المستمر ويجعله يؤدي وظيفته وفقاً للتأثير الكهرومغناطيسي. وكان بمقدور هذا الرجل الآلــي أن يرى الأشياء على هيئة ألوان، مما يسمح للإنسان بمخاطبته وإصدار التعليمات له عن طريق الصوت البشري الذي كان يصله على شكل نبضات كهربائية كتلك الموجودة في الجهاز العصبي للإنسان الحي، فيتقدم إلى الأمام ويتراجع إلى الخلف، ويدور يمنةً ويسرى بحسب التعليمات التي كانت تعطى إليه عبر الصوت.

واللافــت للنظــر أن اختــراع مثل هذا الرجل الآلي أوجد جدلاً واسعاً بين العلماء واللغويين بشأن التعريف الدقيق لكلمة روبوت ولمــن يجب إعطاؤها. هل سيحق إعطاؤها للآلات ذاتيــة الحركة التي سبق أن تحدثنا عنها وأطلــق عليها بعضهم كلمة روبوت، أم لهذا الرجل الآلي الذي يأخذ ملامح الإنسان وينفذ أعمالاً فكرية مثل القدرة على الكلام والاستجابة للأصوات. والذي يتحلى بميزة علمية عاليــة بعد أن تمــت إضافة الرؤية الحاسوبيــة عليه خلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين حيث أصبح يتمتع بنوع مــن الاستقلاليــة والمرونة في تنفيذ المهــام المبرمجة وذلك عــن طريق فهمها وتحليل الصور التــي يستقبلها في حاسوب خاص مثبت في داخله.

وعلــى ضوء هذه المعاييــر التي يتمتع بهــا الرجل الآلي يجمع علمــاء اليوم على ضرورة إعطــاء كلمة «روبوت» للدلالة على الرجــل الآلي فقــط وليســ للدلالة على الآلات ذاتيــة الحركة التــي يمكن للإنسان التحكم بها والسيطرة عليها وتسييرها عن بعــد، وحجتهم في ذلك تعــود إلى أن تلك الآلات من شاكلة السيــارة أو الطائرة ذات التحكم عن بعد لا يمكن اعتبارها روبوتات لعــدم امتلاكها القدرة على التفكير واتخاذ القرار بنفسها. ويــورد هؤلاء مثالاً بأنه إذا كان باستطاعــة هــذه الآلات أن تتصــرف وفق برنامج معد سلفاً بابتعادها عن حاجز خطوتيــن إلى الوراء والاتجــاه إلى اليمين أو اليسار أو الاستمــرار بالتقدم كما يفعل الرجــل الآلي فإن هذا يجعــل من الممكن إطلاق كلمة روبوت عليها، وهو أمر يصعب عليها تنفيذه. ويتضــح من ذلك أن الفكرة الرئيسيــة التي يتمسك بهــا أصحاب هذه الحجــة وهي أن الروبــوت يجب أن يمتلك ذكاءً اصطناعيــاً وأن تكــون لديــه القدرة على تمييز الأنمــاط والتعرف على النظم والاستــدلال والاستنتاج كما هو الحال عند الرجــل الآلي المتطــور تقنياً فــي الزمن

المعاصر. واليوم نجد رجلاً آلياً قادراً على تجميع نفسه بصورة شبه مستقلة كأن يقوم بتصغير حجمه للمرور في نفق ضيق. وهذا النوع قادر على القيام ببعض الحركات شبه الطبيعية لاحتوائه على وحدة مرنة تجعله يقوم بذلك إمَّا عن طريق تحويل طاقة الهواء المضغوط في أسطوانات إلى حركات خطية أو دورانية، أو عن طريق تحويل الطاقة الكهربائية إلى طاقة حركية. وهذا ما جعله في نظر العلماء يتمتع بذكاء اصطناعي وقدرة على التفكير واتخاذ القرار بنفسه. ولعل أبرز هذه الأنواع من الروبوتات (الرجل الآلي) ذاك الذي أرسلته وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) في عام (٢٠٠٤م) إلى كوكب المريخ تحت اسم «الروبوت كريوزنتي». ففي (٦ آب من عام ٢٠١٢م) هبط هذا الروبوت على سطح المريخ بعد أن قضى ثمانية أشهر في رحلة عبر الفضاء حيث قطع فيها مسافة تقدر بـ(٥٦٧) مليون كم قبل أن يهبط بالمظلة على قمة جبل يبلغ ارتفاعه (٥٠٠٠م) من أجل إجراء اختبارات على التربة المريخية آملاً في الحصول على جزيئات كيميائية فحمية تحتوي غاز الميثان، والتأكد من أنها تحتوي على حديد وأوكسجين وآزوت وأي نوع آخر يسمح بالحياة كالماء على سبيل المثال. يبلغ وزنه قرابة (١٠٠٠)كغ، وبلغت تكاليفه زهاء (٢,٥) مليار دولار حيث شاركت فرنسا بمبلغ (٤٠) مليون يورو. كما شارك في صنعه (٣٥٠) عالماً وأكثرهم من العلماء الروس.

وكانت المفاجأة مذهلة حين تبين وجود مادة الخزف والصلصال في تربته، مما يدل على أن هذا الكوكب، كما يعتقد العلماء، كان صالحاً للحياة منذ قرابة (٤) مليارات سنة. لكن الاكتشاف العظيم الذي قام به الروبوت كريوزنتي هو الذي تمَّ الإعلان عنه في (١٧ أيلول الفائت من هذا العام ٢٠١٥م) حين نشرت وكالة «ناسا» الفضائية الأمريكية مقالاً جاء فيه «أن الروبوت كريوزنتي المتجول منذ شهر آب من العام ٢٠١٢م على سطح الكوكب الأحمر (المريخ) قام باكتشاف لغز هو الأكبر في تاريخ هذا الكوكب حيث وجد ماءً وحتى بُرْعم الحياة في أخاديد متعرجة تبدو في الصور كالأفاعي، وتظهر على شكل حلقات مظلمة على الأديم المريخي في الأشهر الدافئة بشكل خاص. وهي الدليل الأكبر حتى الآن على وجود الماء المبشر الوحيد بتبرعم الحياة في هذا الكوكب، أو حتى في ماضيه السحيق قبل ملايين السنين، أو لربما مليارات السنين.

ويعطي هـذا الاكتشـاف الانطباع بأن المريخ هو الكوكب الوحيد الشبيه بالأرض بيـن (١٠٣٠) كوكباً تم اكتشافها حتى الآن، فهو يدور حول نجم شبيه بشمس الأرض في حجمه ودرجة حرارته، لكن بعده عنه يجعله صالحاً لنشوء الحياة إذا ما توافر الماء فيه، وأيضاً للسكن البشري.

يقـول العالـم الأمريكي «جيـم غرين» مدير قسم الكواكب والنجوم في وكالة ناسا: «إن هذا الاكتشاف بوجود ماء متدفق على سطح المريخ، من خلال ما وردنا من صور تدل علـى أخاديد طويلة في داخل فوهات ومنحدرات يُحتمل بشدة أنها تشكلت بسبب ميـاه مالحة، قد غيّر من نظرة العلماء عن كوكب المريخ حيـث كان ينظر إليه العلماء حتـى الأمسـ القريب وكأنـه كوكب جاف وقاحل. اليوم نعلن بكل ثقة أنه في ظروف معينـة يمكن العثور على ميـاه سائلة على سطـح المريـخ، بدليل أنه لا يـزال ينشط جيولوجياً، وهذا مايزيد من احتمال وجود كائنات حية فوق أديمه. إنه بحق لاكتشاف مهـم جداً على الصعيـد العلمي. وهذا ما دفعنا إلى أن نقوم في يوم (٢١ تشرين الأول ٢٠١٥م)، بإرسال الرجل الآلي «مات دامون» الذي انتهينا من صنعـه منذ مضي بضعة أشهـر من أجل النزول فـوق سطح المريخ ليصارع عواصفـه وليثبت لنا قطعاً بوجود ماء فيه، وهو أمرٌ كنـا نتوقعه مسبقاً، مما سيفتـح المجال أمام الإنسان في أن ينطلق مستقبلاً للسير على هذا الكوكب، كما فعل من قبل رجل الفضاء نيـل أرمسترونغ في حزيران مـن العـام (١٩٦٩م) حين انطلق بعربتـه الفضائية أبولـو وحط على سطح القمـر ثم بدأ بالمشي فـوق أديمه محققاً بذلك أكبر معجزة علمية في القرن الفائت».

واللافت للنظر هو أن من ساهم في إطلاق الروبـوت كريوزتي إلـى كوكب المريخ منذ عـام (٢٠١٢م) هو مهندسـ لبناني يدعى شـارل علاشي، من مواليـد عام (١٩٤٧م) بمدينـة زحلة فـي البقـاع الأوسط. وكان هذا الشاب قد درسـ الفيزياء في جامعة غرونوبـل الفرنسيـة وبعـد حصوله على شهادة الدكتوراه في العلوم الفيزيائية اتجه إلـى ولاية كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية حيـث انخرط في العمل العلمي في وكالة الفضاء الأمريكية «ناسا».

كذلك صمم العلماء روبوتات لاستخدامها في خدمة أغراضـ عسكرية لدرجة تسمح للروبـوت (الجنـدي الآلي) فـي أن يقتحم مواقـع العدو المحصنـة، أو يفك الحصار عن كتيبة مطوقة من كل جانب. وإذا أصابته طلقـة معادية فسرعـان مـا يتلقاها وهو

يضحك القهقهى، يترنح أولاً ثم يتابع مهمته وكأن شيئاً لم يكن.

ويُحكى أن الولايات المتحدة الأمريكية استخدمت هذا الروبوت خلال حربها في العراق ولفترة وجيزة جداً للتأكد من صحة أداء وظيفته القتالية. وفي كتاب بعنوان «الحرب وضد الحرب» للكاتب الأمريكي آلفين توفلر، الذي قام بترجمته المشير المصري عبد الحليم أبو غزالة في عام (١٩٩٤م) يقدّم الكاتب رؤيته للقرن الحادي والعشرين الذي لن يكون فيه التطور متدرجاً كما كان في القرن العشرين بل سيشهد طفرات في الاكتشافات العلمية والصناعات العسكرية والتسليح ونوعية الحروب. وهذا الكتاب الذي ينصح المشير عبد الحليم أبو غزالة كل مسؤول عربي أن يقرأه، خطير للغاية، إذ يشير فيه إلى التقدم المذهل في الفكر العسكري وفي الصناعات الحربية، وابتكار أسلحة كانت تبدو وكأنها أقرب إلى الخيال العلمي. وبحسب ما أورد في كتابه فإن الحرب سوف تتغير ولن تكون هناك حرب «القتل» التي عرفها الإنسان منذ بداية وجوده على هذه الأرض وحتى نهاية القرن العشرين بل ستكون هناك «الحرب غير القاتلة» التي لا تسيل فيها دماء كثيرة، والتي ستعتمد على مقاتل جديد ليس الضابط أو الجندي التقليدي بل الروبوت أي الجندي الآلي. وستكون الجيوش مؤلفة من كتائب من الروبوتات التي تقوم بكل الأعمال الخطيرة مثل: نزع وتفكيك الألغام ومن ثم زرعها، وحراسة الحدود، ورشّ مبيدات على الأرض بحيث تعيق عمل الدبابات والطائرات فتعطل محركاتها وتلتصق بالأرض ولا تستطيع الحركة. وهناك شكل من أشكال الجنود الآلية القادرة على الحركة والقيادة من تلقاء نفسها. إضافة إلى الطائرات من دون طيار والطائرات ذات الشبكات العصبونية الاصطناعية.

ثم تدخل «النملة الذكية»، وهي عبارة عن جهاز بحجم النملة الحية فعلاً. تتحرك بالتوجيه عن بعد بالريمونت كونترول في محركات الطائرات والمعدات الحربية وتصدر عنها ذبذبات تصيب الإنسان بالشلل أو القيء أو الإسهال. كذلك صُممت ملابس جديدة تسمح للجندي البشري أن يقفز من الارتفاعات العالية، كما يحدث في أفلام السوبرمان وستكون معه أجهزة للرؤية الليلية تجعله يرى كل شيء في الظلام. إن عام (٢٠٢٥م) قد يشكل منعطفاً مهماً في التحول إلى هذه الحروب التي تعتمد على الجندي الآلي على نطاق واسع في العمليات العسكرية. فمع وجود روبوتات على شكل بشر ستتفوق هذه الروبوتات على البشر في ساح المعركة لأنها ستتمتع بقدرة هائلة على

تتبع تضاريس الأرض، وعلى حمل إمدادات من الأسلحة والذخيرة وتطهير الأرض من الألغام والاضطلاع بأعمال الحراسة، والقتال في الخطوط الأمامية. وهذا الجندي الآلي يستقر على ثلاثة قوائم تيليسكوبية، ويخرج رأسه من فتحة، مستطلعاً المكان المحيط به لاكتشاف قوات العدو وما أن يشعر بوجود خصم أمامه حتى تبادر مستشعرات الحرارة والحركة المزود بها إلى تجهيز أسلحة في داخله ومن ثم تصويبها من خلال فتحة أخرى نحو الهدف المعادي.

وهذا النوع من الروبوت يعمل ببطارية قابلة للشحن، وعندما تفرغ من شحنها يتجه من تلقاء نفسه إلى أقرب مأخذ كهرباء حتى يتولى شحن نفسه بنفسه. إضافةً إلى أنه يتفاعل مع صوت الإنسان وانفعالات الوجه، وهي ميزة ينفرد بها الجنس البشري، مما يعطيه بامتياز قدراتٍ تقنية عالية في خوض المعارك الحربية، وهو يرتدي درعاً إلكترونياً، ويحمل أسلحة عجيبة ليست من باب الخيال العلمي بل أسلحة حقيقية، بعض من هذه الأسلحة موجود في ترسانات الدول العظمى. والبعض الآخر يوشك العلماء على إنتاجه في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين.

والحال نفسه، بالنسبة للروبوتات المستخدمة في مجال الطب ولا سيما الجراحة حيث يعد الطبيب الآلي المدعو «دافينشي» الطبيب الجراح المتقدم علمياً بشكل كبير والأكثر انتشاراً في مشافي الدول المتقدمة، والذي يجترح المعجزات منذ أكثر من (١٣) سنة، والجدير بالذكر أن هذا الطبيب الجراح الآلي مزود بأربعة أذرع، ثلاثة منها مخصصة للجراحة والرابع للتصوير، بحيث إن الصورة التي ينقلها هذا الذراع للطبيب الجراح هي صورة ثلاثية الأبعاد مكبرة، وتسهّل عليه العثور على الورم، وتتمتع هذه الأذرع بأقصى درجة من الحرية، وحركة أفضل من يد الإنسان، يتم إدخال هذه الأذرع إلى جوف العملية الجراحية في الجسم البشري عن طريق جروح دقيقة جداً تتراوح بين (٤-٦) جروح مما يمنح الطبيب ليس فقط أيادي إضافية بل أيضاً حرية أفضل في الحركة، وفي الوصول إلى أي منطقة في داخل الجسم البشري كان من الصعب الوصول إليها أثناء العمليات الجراحية الكلاسيكية. وعلى هذا النحو نستطيع أن نقول من الآن فصاعداً وداعاً للعمليات الجراحية التي كانت تقوم على فتح ثغرة في البطن من خلال إحداث شق طويل وواسع في المكان الذي تمت فيه العملية الجراحية وغالباً ما يكون هذا الشق بادياً للعيان على السطح الخارجي للجلد، والذي

يتطلب عدة أسابيع لكي يلتئم مع تركه ندبةً يبقى أثرها باقياً على الجلد لزمن طويل.

وحقيقة القول إنه وخلال القرن الفائت تقدم الطب على صعيد الجراحة حين بدأ العمل الجراحي يتم بوساطة المجواف، وهو عبارة عن أداة لفحص الجزء الداخلي من جسم الإنسان وفي بعض الحالات معالجة هذا الجزء المصاب بتلف عضوي جراحياً. وقد أطلق الأطباء على هذا النوع من العمل الجراحي تسمية «الجراحة التنظيرية».

أمَّا اليوم ونحن في العقد الثاني من القرن الواحد والعشرين فقد تم اعتماد تقنية جديدة في الجراحة عبر الجراح الآلي (الروبوت دافينشي) الذي يعمل على إزالة الأورام بشكل دقيق عن طريق توجيه أيدي الجراحين البشريين الذين يراقبون بدقة شديدة عمل هذه الأذرع الآلية الأربعة التي يمكن استخدامها في وقت واحد، والتي يقوم عملها على استئصال العضو المصاب بالسرطان مع تمتعها بقدرةٍ خارقة على التمييز بين الخلية المسرطنة وتلك السليمة التي تقع إلى جوارها. ففي هذه الحالة يقوم الروبوت بانتزاع الخلية المسرطنة والحفاظ على الخلية السليمة من دون التعرض لها أو المساس بها وهي عملية جراحية لا تقلص فقط حجم الجروح في الجسم الخاضع للجراحة، إنما تتيح أيضاً للجرّاح إمكانية الوصول إلى أماكن دقيقة لا يستطيع الوصول إليها في عملية جراحية عادية.

ما من شك أن هذا التقدم الطبي يشكل إنجازاً كبيراً باعتبار أن العمليات الجراحية الكلاسيكية كانت تعتمد في طرائقها إحداث فتحات كبيرة في الجسم مما كان يتطلب جهوداً كبيرة يبذلها الجراحون البشريون في ترميم الفتحات وفي إنعاش المريض ومتابعة وضعه الصحي لاحقاً. وعلى العكس فإن الروبوت يتمكن في مثل هذه العمليات الرامية إلى استئصال ورم ما من إحداث شقوق جراحية صغيرة ودقيقة يمكن من خلالها الوصول إلى الورم وإزالته بسرعة، الأمر الذي قد يساعد على التسريع في عملية الاستشفاء بحيث تكون أسرع، وعدد أيام المكوث في المشفى تكون أقل بكثير، مما يرفع معنويات المريض ويختصر زمن النقاهة في المنزل ويَعِدُ بنتيجة أفضل.. ومنذ عام (٢٠٠٩م) تستخدم عشرات المشافي الفرنسية هذا الروبوت من أجل استئصال أورام الحنجرة أو معالجة حالات انفتال العنق، ومن قبل أطباء الجراحة البولية من أجل استئصال ورم في غدة البروستات، ومن قبل أطباء الهضمية من أجل إزالة سرطان القولون. وأخيراً من قبل

أطبــاء الجراحة القلبية مــن أجل استبدال الصمــام التالف في عضلــة القلب. وكانت أول عمليــة قــام بها هــذا الجــراح الآلي (دافينشي) فــي فرنسا تعود إلى ذلك العام نفسه حين قام في مشفى «جورج بومبيدو» في باريس باستئصال سرطان الحنجرة عند أحــد المرضى. ومن المعلــوم أن الحنجرة هــي ذلك العضو الحساســ جداً في جسم الإنسان التي تطلق الصــوت وتنظم عملية التنفس القائمة على الشهيق والزفير.

لقد كانــت هذه العمليــة الجراحية في استئصــال الحنجرة -سابقــاً- تقتضي من الجراح البشري أن يقوم بقطع الحنجرة على مستوى العنق إما بشكل جزئي أو بشكل تام، التي غالباً ما تترك لدى المريض مضاعفات خطيرة كأن يفقد صوته كلياً أو يصاب ببحة دائمة ويشعر بالإنهاك كلما حاول أن يتكلم مع الآخرين، إلا أن الوضع قد تغير مع دافينشي الــذي يتعامــل عمليــاً مع الحنجــرة فقط لوحدهــا من دون أن يلحق أي أذى بجوارها، ولا ينجــم عن فعله أيــة مضاعفات تنعكس سلبــاً على حالة المريضــ الصحية. فضلاً عن أنه يقلل من فترة البقاء في المشفى بعد العمل الجراحي لتبلــغ بضعة أيام محدودة، ويختصر زمن النقاهة لمدة خمسة أيام فقط بدلاً من ثلاثة أسابيــع كما كان عليه الوضع في السابق. وما أن تمضي فترة وجيزة حتى يستعيد المريض قدرته على الكلام والنطق ويعود إلى حالته الطبيعية.

ومــن المعلــوم أن فرنسا تشهــد سنوياً (٥٠٠٠) حالــة من سرطان الحنجرة ناجمة عن تلوث البيئة أو عن إدمان المريض على الكحول والتدخين. والحــال نفسه بالنسبة لسرطان البروستات، هذه الحالة من المرض التــي تبدأ في سن الخمسينات وتظهر بقوة فــي عمر الــ٦٥ سنة. لقــد كان استئصال هذه الغــدة يتم من خــلال عملية جراحية تجري فــي أسفل البطــن أو تحت منطقة العانة. وبعد استئصالها يتم إعادة ربط عنق المثانة بمجرى البول، ثم توضع قسطرة في المثانة من خــلال جدار البطن، كما يوضع خرطوم مؤقت فــي الحوض وذلك لإخراج مــا قد يتكون من سوائل في منطقة العملية الجراحية التي تتطلــب إقامة في المشفى لمــدة أسبوع على الأقــل، وفترة نقاهة في المنزل تصل إلى شهرين.

وغالباً ما تؤثر هذه العملية على التحكم في البول وعلــى النشاط الجنسي للمريض طوال فتــرة حياته، لكن مع الروبــوت دافينشي فإن ما يقوم به هــو إجراء شق صغير فوق منطقة البروستات ثم استئصال البروستات المصابة بالسرطــان بشكل جذري مع فقــدان دم أقل

واستعمال أنبوب القسطرة لفترة أقل، إضافةً إلى اختصار زمن الاستشفاء والسماح للمريض في أن يتعافى بسرعة من دون أية عقابيل قد تطال جهازه البولي أو نشاطه الجنسي.

كذلك يمكن الاعتماد على الروبوت دافينشي في إزالة سرطان القولون. لقد كانت الطريقة المتبعة في السابق هي القيام بإجراء شق جراحي يقوم به الطبيب الجراح من الأضلاع إلى السرة، إلا أن دافينشي وفّر لنا كل هذا عن طريق إحداث فتحة جراحية صغيرة في البطن يمكن استخراج الورم عن طريقها، وهي طريقة لا تخلو من الفوائد الجمة بالنسبة للمريض الذي سرعان ما يسترد عافيته ويمارس حياته بشكل طبيعي.

وأيضاً في إصلاح الصمام التاجي التالف في عضلة القلب واستبداله بصمام جديد اصطناعي يكون من صنع الإنسان أو من أنسجة بشرية أو حيوانية. ففي مثل هذه الحالة يمكن للروبوت أن يجري شقاً صغيراً في الصدر بدلاً من الشق الواسع في عظمة الصدر الذي يلجأ إليه الطبيب البشري الجراح من أجل رؤية وتلمّس القلب والأنسجة، ثم يبدل الصمام التالف بالصمام الاصطناعي من خلال الشق الصغير، ويختصر زمن التخدير والاستشفاء والنقاهة معاً.

كذلك يستخدم الروبوت دافنشي في زمننا الحاضر في إجراءات طبية إضافية من بينها: استئصال الرحم بسبب وجود أورام، واستئصال الألياف في الرحم، واستئصال جزئي للكلية، واستئصال الغدة الدرقية.

وهناك أيضاً الروبوت «ارتاس» الذي يزرع الشعر من دون جراحة لمن يعاني الصلع، وذلك من خلال زرع العدد اللازم من البصيلات في ثقوب موجودة في مكان الزرع، مع تفادي حدوث أي ندبات من تلك التي تحدث أثناء الجراحة التقليدية، مما يؤمن عودة سريعة إلى ممارسة الحياة الطبيعية بعد أيام قليلة عوضاً عن أسبوع أو أكثر.

والجدير بالذكر أن مثل هذه العملية بوساطة الطبيب الآلي الجراح تتم في لبنان تحت إشراف الطبيب الاختصاصي داني توما وفريقه الطبي الذي يدير مرحلة إجراء العملية بأدق تفاصيلها على شاشة الكمبيوتر من خلال برمجة دقيقة لزرع الشعر من دون جراحة.

هذا ويجمع الأطباء في العالم على أن الروبوت دافنشي وغيره من الروبوتات الطبية ستكون حاضرة بقوة في غرفة العمليات الجراحية على المدى المنظور، وسيقوم بتشغيلها أطباء خبراء مهنيون تلقوا دورات تكميلية في مراكز طبية رائدة في مجال الروبوت، وهؤلاء يجيدون كيفية استعمال

هذا الطبيب الجراح الآلي بشكل جيد. حقاً إن مثل هـذا التقدم الطبـي لا يشكل ثورة تقنيـة فحسب بل نعمة على المرضى الذين يعانون من أمراض تدعو إلى اليأس الشديد فـي الحياة، وهـو ما ينبـئ بمستقبل زاهر للجراحات الآلية في العالم بأسره.

وفي الختـام، يبقى السؤال الأهم وهو هـل سيحل الرجـل الآلي محـل الإنسان وسيسلب منه عملـه مستقبلاً؟ في الواقع إن كل الدلائـل تشير إلـى أن هذا الرجل الآلـي قد خصصـ للقيام بمهـام دقيقة وحساسـة وخطيرة للغاية قلمـا يستطيع الإنسـان القيام بها نتيجة الصعوبات التي تعترض سبيله أو المخاطر التي قد تطاله، بمعنـى أن مهامـه ستكون رديفـة لمهام الإنسان وليست بديلاً عنه.

وهكذا شاهدنا الرجـل الآلي يهبط على الكواكـب البعيـدة عـن الأرض، ويعمل في المصانع ضمن بيئة لا تتناسب وطبيعة الإنسان، وفي الطب حيث يقوم بعمليات جراحية معقدة للغايـة على أعضاء يصعب علـى يد الإنسان الوصول إلى أماكنها في الجسم البشري، وفي الحروب حيث يستخدم للقيام بمهام عسكرية خطيرة على أمـن الجنـدي وسلامته، لكنها تبقى كلها أعمـالاً تتم تحت رعايـة الإنسان وبإشراف دقيق منـه. والغرض من وراء ذلك كله جلب النفع للبشرية وتأمين العيش الرغيد لهـا، نظراً لما يتمتع بـه الروبوت من ميزات واضحـة في زيـادة الإنتاج وتقليـل النفقات وتجنـب الإصابة بالملل من الأعمال المكررة، وتفادي المخاطر التي تواجه الإنسان في بعض الأعمال الدقيقة التي يقوم بها.

المراجع

- موسوعة «لاروس الفرنسية الكبرى».
- موسوعة ويكيبيديا، مقال بعنوان «ما هي استخدامات الروبوت»، بقلم محمد محمد، تاريخ (٢٠١٤/٩/٢١م).
- موقـع القناة التلفزيونية الفضائية (بي بي سي)، تقرير بعنوان: «هل سيكون الرجل الآلي بديلاً عن الإنسان في عمله مستقبلاً؟»، بقلم: جون ماغواير، تاريخ (٢٠١٥/٩/١٣م).
- جريدة «لوموند» الفرنسية، تاريخ (٢٠١٢/٨/٧).
- جريدة «النهار» اللبنانية، تاريخ (٢٠١٢/٨/٢١ و٢٠١٥/١٠/١١م).
- كتاب بعنوان: «الحرب وضد الحرب»، تأليف: آلفين توفلر، ترجمة: المشير عبد الحليم أبو غزالة.
- جريدة «لوريان لوجور» اللبنانية الناطقة بالفرنسية، تاريخ (٢٠١٣/٢/١٥م).
- مجلة «ڤام أكتويل» الفرنسية، مقال: «الروبوت دافينشي يجترح المعجزات»، تاريخ (٢٠١١/١١/٧م).
- جريدة «أوكتوبر» المصرية، تاريخ (٢٠٠٠/١/٢م).
- مجلة «الإكسبريس» الفرنسية، تاريخ (٢٠١٥/١٠/١م).

حياتك... سعادتك الزوجية رهن عقلك الباطن

هبة الله الغلاييني *



لمـاذا يوجد إنسان سعيد وآخر حزين؟ ولمـاذا يوجد إنسان فرح وثري وآخر بائس فقير؟ ولمـاذا يوجد هنـاك إنسان خائف وقلـق وآخر مليء بالثقـة والإيمان؟ ولماذا يوجد إنسان يمتلك منزلاً فخماً بينما يوجد إنسان آخـر يحيا بالكاد فـي حي مزدحم فقير؟ ولمـاذا يحقق إنسـان نجاحاً باهراً بينما يفشل آخر فشلاً ذريعاً؟ ولماذا يوجد إنسان مفـوه يحظى بالشهـرة بينما يوجد إنسان مغمـور يعيش حيـاة عادية؟ ولماذا يوجد إنسان عبقري في عمله أو مهنته بينما

* باحثة ومترجمة.

يوجد إنسان آخر يكدح طوال حياته من دون أن يفعل أو يحقق شيئاً يساوي مابذله من جهد ووقت؟

ولماذا يشفى إنسان من مرض عضال ولايشفى منه إنسان آخر؟ ولماذا يعاني العديد من الأشخاص الصالحين والمتدينين من عذاب روحي وجسدي لاحد له؟ ولماذا يحقق العديد من الأشخاص غير الصالحين، غير المتدينين نجاحاً وازدهاراً ويتمتعون بصحة وافرة؟ ولماذا يحظى شخص بحياة زوجية سعيدة ولايحظى شخص آخر بها ويشعر بالتعاسة وخيبة الأمل؟ هل يوجد إجابة عن تلك الأسئلة من خلال المساعدة التي يقدمها لك عقلك الواعي وعقلك الباطن؟

من غير ريب توجد إجابة لذلك. ستكتشف أن الثروات تحيط بك من كل جانب، ولكي تحصل عليها فإن كل ما عليك أن تفعله هو أن تجعل عقلك منفتحاً وتلاحظ الكنز الكامن بداخلك الذي لاينفد.

في باطنك، يوجد منجم تستطيع من خلاله استخلاص كل شيء ترغب فيه لتحيا حياةً تتسم بالبهجة والمرح والثراء. الكثير من الناس يغطون في سبات عميق، لأنهم لايعلمون شيئاً عن المعين الذي لاينضب بداخلهم من الذكاء اللانهائي والمحبة التي لاتنتهي. ومهما كان الشيء الذي تبحث عنه، فإنك تستطيع أن تستخرجه من هذا المنجم. فقطعة صلب ممغنطة يمكن أن ترفع ثقلاً يفوق وزنها بنحو اثنتي عشرة مرة. وإذا مانزعت من قطعة الصلب نفسها قوة المغناطيس تلك، فإنها لن ترفع ريشة!

ويشبه ذلك نوعين من الناس: أحدهما به قوة المغناطيس، فهو يتمتع بالإيمان والثقة الكاملة في نفسه. ويعلم أنه ماولد إلا لكي ينجح ويحقق الفوز، أمَّا الآخر ليس بداخله قوة المغناطيس الجاذبة. ويملؤه الخوف والشكوك. وتسنح الفرص العديدة أمام عينيه، فلا يستغلها ويقول لنفسه: «ربما أفشل، قد أفقد أموالي، سوف يخدعني الناس».

هذا النوع من الأشخاص لن يحقق الكثير من الإنجازات في حياته، لأنه إذا كان خائفاً من المضي قدماً، فإنه ببساطة سيبقى في مكانه ولن يتقدم. ويمكنك أن تصبح هذا الشخص الذي يشبه المغناطيس في قوته، وهذا عندما تكتشف السر الأعظم لكل العصور وتضعه في حيز التنفيذ.

القوة المدهشة لعقلك الباطن: تستطيع أن تحقق في حياتك المزيد من السلطة والثروة والصحة والسعادة والهناء من خلال

الوصول إلى قوة العقل الباطن وإخراجها من مكمنها. إنك لست بحاجة لاكتساب هذه القوة، فأنت تمتلكها بالفعل. ولكنك بحاجة إلى أن تتعلم كيف تستخدمها، فيجب أن تفهمها لكي تستطيع أن تطبقها في جميع جوانب حياتك. ومن خلال اتباعك للتقنيات البسيطة والطرق التي يحويها هذا المقال فإنك تستطيع اكتساب المعرفة الضرورية والفهم. وسوف يسري فيك إلهام يطلقه نور روحاني جديد، وستتمكن من توليد قوة جديدة تمكنك من تحقيق آمالك وتجعل كل أحلامك حقيقة.

اتخذ قرارك الآن، لكي تجعل حياتك أكثر روعة، وأعظم وأكثر نبلاً من ذي قبل. تكمن في أعماق عقلك الباطن حكمةٌ لاحدود لها وقوةٌ مطلقةٌ ومخزونٌ لانهائي من كل ماهو ضروري، وكل هذا ينتظر منك أن تنميه وتظهره. ابدأ الآن في التعرف على إمكانيات عقلك الباطن. وسوف تنطلق هذه الإمكانيات في العالم الخارجي. إذا كنت متفتح الذهن ومستعداً لتقبل استيعاب الأفكار الجديدة فإنَّ الذكاء اللانهائي الكامن داخل عقلك الباطن سوف يكون قادراً على كشف كل شيء تحتاج إلى معرفته في كل لحظة من الوقت. فسوف تستطيع أن تستوعب أفكاراً جديدة وخواطرَ تمكنك من صنع مخترعات جديدة، وتحققَ اكتشافاتٍ جديدة أو تبدع في الأعمال الفنية. علاوة على ذلك فإنَّ الذكاء اللامحدود داخل عقلك الباطن يستطيع أن يمنحك ألواناً رائعة وجديدة من المعرفة. دع هذا الذكاء يكشف عن نفسه وسوف يفتح لك هذا سبيلاً للإبداع في حياتك وسيكون له مكانة ومنزلة رفيعة في حياتك.

وبحكمة عقلك الباطن تستطيع أن تجد الرفيق المثالي. وكذلك شريك العمل المناسب، وبحكمة عقلك الباطن سوف تتوافر لك الأموال التي تحتاجها والحرية المالية لكي تصبح وتفعل وتتحرك مثلما يتمنى قلبك.

إنَّ من حقك أن تكتشف هذا العالم الداخلي من الفكر والأحاسيس والقوة والنور الروحاني والحب والجمال ومع أن هذا العالم غير مرئي إلاَّ أنَّ قوته جبارة. ومن داخل عقلك الباطن ستجد الحل لكل مشكلة، وسبب كل نتيجة. ولأنك تستطيع أن تخرج القوى الخفية من داخلك، فسوف تملك بالفعل زمام القوة والحكمة الضروريتين لكي تصل إلى الأمن والسعادة والسيادة. ولقد شاهدت قوة العقل الباطن تنتشل أناساً من حالات عجز وشلل، وتجعلهم مرة أخرى أكثر قوة وحيوية وصحة وقد ساعدتهم

عقولهم على التحرر والانطلاق وجعلتهم يتمتعون بالسعادة والصحة والخواطر المبهجة. وهناك قوة شفاء خارقة تكمن في عقلك الباطن، تستطيع أن تشفي المزاج المضطرب والقلب المحطم. وتلك القوة لديها القدرة على فتح باب سجن العقل وتستطيع أن تحررك من عبودية الجسد والمادة.

عقلك الباطن والمشاكل الزوجية:

إنَّ عقلك يتزوج بالكثير من الأفكار؛ وأنت تتزوج بالمعتقدات، والآراء؛ والمفاهيم والعقائد. والنظريات، وكل شيء ترتبط به عقلياً وعاطفياً داخل عقلك؛ فهذا هو الزواج وعلى المستوى النفسي فإن شريك الزواج هو فكرتك ومفهومك عن نفسك وتقديرك لنفسك ومخططك المبدئي. إن سبب كل المشاكل الزوجية هو الجهل بوظائف العقل وقدراته. ويمكن حل الخلاف بين الزوج والزوجة باستخدام قانون العقل بصورة صحيحة وبالصلاة معاً سوف تستمر علاقتهما، فالتأمل في المثل المقدسة ودراسة قوانين الحياة والاتفاق المتبادل على الهدف المشترك والخطة المشتركة، والتمتع بالحرية الشخصية يحقق الانسجام للزوجين، ويبارك الزواج عندما يصبح الزوجان شخصاً واحداً وأفضل وقت لمنع الطلاق هو قبل الزواج؛ فليس من الخطأ أن تحاول الخلاص من موقف حرج، ولكن لماذا تورط نفسك في موقف حرج من البداية؟ أليس من الأفضل أن نهتم بالسبب الحقيقي للمشاكل الزوجية أو جذورها الأساسية من البداية؟ وإلى جانب كل مشاكل الرجال والنساء، هناك مشاكل الطلاق والانفصال والدعاوى القضائية التي لانهاية لها وكلها ترجع إلى نقص المعرفة بقوانين العلاقة المتبادلة بين العقل الواعي والعقل الباطن.

معنى الزواج:

لكي يكون الزواج حقيقياً يجب أن يقوم على أساس روحي. يجب أن يكون من القلب لأن القلب هو رأس الحب. يجب أن يكون كل طرف أميناً ومخلصاً تماماً للطرف الآخر فالإخلاص والعطف والاستقامة هي أيضاً من أشكال الحب.

لايكون الزواج حقيقياً إذا تزوج رجل امرأة من أجل أموالها أو مركزها الاجتماعي أو لرفع مستواه وإرضاء غروره. لأنَّ ذلك يشير إلى نقص الإخلاص والأمانة والحب الحقيقي، مثل هذا الزواج يعتبر أكذوبة وزيفاً ويكون بمثابة مسرحية هزلية. عندما

تقول سيدة: «أنا تعبت من العمل. أنا أريد أن أتزوج لأستريح وأشعر بالأمان». فإن قضيتها تكون خاسرة. لأنها لاتستخدم قوانين عقلها بصورة صحيحة. إنَّ شعورها بالأمان يجب أن يعتمد على معرفتها بالتفاعل بين العقل الواعي والعقل الباطن وتطبيقه.

إنَّ أي امرأة (أو رجل) لن تخسر صحتها أو ثروتها إذا قامت بتطبيق الأساليب التي ورد ذكرها في هذا المقال فهي تستطيع أن تكوِّن ثروتها بمفردها من دون الاعتماد على موارد الزوج أو الأب أو أي شخص آخر. إنَّ المرأة لاتعتمد على زوجها من أجل الحصول على الصحة أو السلامة أو البهجة أو الإلهام أو الإرشاد أو الحب. أو الثروة أو الأمان أو أي شيء آخر في العالم إن شعورها بالأمان وراحة البال ينبعان من معرفتها بالقوى الكامنة بداخلها ومن استخدامها المستمر لقوانين عقلها بشكل بنَّاء.

كيف تجذبين الزوج المثالي:

لا شك أنك تعلمين أن أي شيء يتم طبعه في العقل الباطن سوف يظهر في حياتك الواقعية على شكل تجارب، ابدئي الآن في طبع الصفات والمزايا التي ترغبينها في أي رجل داخل عقلك الباطن. وفيمايلي طريقة ممتازة لتحقيق هذا الهدف: اجلسي ليلاً في مقعد وثير، اغلقي عينيك واجعلي جسدك مسترخياً وكوني هادئة تماماً وادخلي في حالة إيجابية لاستقبال أي شيء، تحدثي إلى عقلك الباطن وقولي له مايلي: «أنا الآن أجذب إلى حياتي رجلاً أميناً، مخلصاً، وفياً، مسالماً، وسعيداً وغنياً هذه الخصائص التي أعجب بها قد غاصت الآن في عقلي الباطن. وبينما أُمعن التفكير في تلك الصفات فإنها سوف تصبح جزءاً مني وستتجسد داخل عقلي الباطن». «أنا أعلم بوجود قانون جاذبية لايمكن مقاومته وأنا سوف أَجذِبُ إليَّ الرجل الذي أرغبه والذي يطابق اعتقادي الباطن، وأنا أجذب ما أشعر بأنه حقيقي في عقلي الباطن». «أنا أعلم أنني سوف أساعده لكي ينعم بالسلام والسعادة وهو سيحب مثلي العليا وأنا سوف أحب مثله العليا. وهو لن يرغب في تغييري ولن أرغب أنا أيضاً في ذلك. وسوف يكون بيننا حب متبادل وسننعم بالحرية والاحترام» مارسي هذه الطريقة الخاصة بتخصيب عقلك الباطن وسوف تنعمين باجتذاب الرجل الذي يتمتع بالخصائص والمزايا التي طبعتها في عقلك.

ذكاء عقلك الباطن سيفتح الطريق أمامك لكي تقابلي الزوج المثالي، من خلال القوة الجاذبة المستمرة والثابتة

لعقلــك الباطــن. ولتكن لديــك الرغبة الحقيقيــة في بذل أفضــل ماعندك من الحب والإخلاص والتعاون، كوني ممتنة لتلــك الهبــة الرائعة وهــي الحب الذي قدمته لعقلك الباطن.

كيف تجذب الزوجة المثالية:

لكي تجذب شريكة الحياة التي تتمناها، ردد العبارات التاليــة بحزم وثقة: «أنا الآن أجــذب إليَّ المــرأة التــي تناسبني وتتفق طباعها مع طباعي والرابطة التي ستجمعنا ستكون روحانية لأن الله سيجمعنا وسيجعلنا ننسجم. أنا أعلم أنني أستطيع أن أمنح هذه المرأة الكثير مــن الحب والسعادة والبهجة والسلام إنني أشعر وأؤمن بأنني سأملأ حياة هذه المرأة وأجعلها رائعــة. أنا الآن أطلب أن تتمتع تلك المــرأة بالصفات التالية: أن تكون متدينة ومخلصة ومستقيمة وصادقة. سوف تكون وديعة ومسالمة ومريحة، وسوف ننجــذب إلى بعضنا البعضــ ولن يستطيع أحدنا مقاومة جاذبية الآخر. ولن يدخل أي شــيء سوى الحب والحقيقــة والجمال إلى حياتي. أنــا أتقبل شريكــة حياتي المثالية الآن». وبينمــا تفكــر بهــدوء وباهتمام في الخصائص التي ترغبها في شريكة حياتك، فأنت تبني لذلك مرادفاً في عقلك ثم تقوم التيارات العميقة في عقلك الباطن بجمعها معاً بمشيئة الله.

لاداعي للوقوع في الخطأ للمرة الثالثة:

ذكــرت لــي امــرأة تعمل فــي منصب مديرة مؤخــراً أنها تزوجــت ثلاثة رجال. وكانوا جميعاً سلبيين وخاضعين لها وكانوا يعتمدون عليها فــي اتخاذ القرار والتحكم فــي كل شيء وأخــذت تســأل نفسها هذا الســؤال: «لمــاذا أجــذب هــذا النوع من الرجال؟» سألتها عمَّا إذا كانت تعلم قبل أن تتزوج للمرة الثانية أن هذا الزوج كان نسخة طبــق الأصل مــن زوجهــا الأول. أجابتني قائلــة: «بالطبع لا فلو كنــت أعلم ذلك لما تزوجتــه، والأمر نفســه ينطبق على زوجي الثالــث». إنَّ مشكلة هذه المرأة لم تكن في الرجــال الذين تزوجتهم، وإنما كانت نتاجاً لشخصيتهــا وتركيبة فكرهــا. فقد كانت شخصيتهــا حازمة تتســم برغبة قوية في السيطــرة على كل موقف كان يقابلها. فمن جهــة كانت ترغب فــي زوج سلبي وخاضع يجعلها تمارس دور السيطرة وتكون لها اليد العليا. وفــي الوقت ذاته، كانت لديها رغبة عميقــة للارتباط برجل يكــون نداً لها. إنَّ الصورة المطبوعة في عقلها الباطن جذبت إليها الرجل الذي رغبتــه ظاهرياً، ولكنها

عندما قابلته اكتشفت أنه لايوافق رغبتها الحقيقية واحتياجاتها، وكان عليها أن تكسر هذا النمط من خلال تبني الطريقة الصحيحة للدعاء والصلاة.

كيف تخلصت من النمط السلبي؟:

تعلمت هذه السيدة حقيقة بسيطة وهي أنك عندما تؤمن بأنك تستطيع الحصول على شريك حياتك المثالي، فما تؤمن به سوف يحل بك. وقد استخدمت هذه المرأة الدعاء التالي لكسر النمط السلبي وجذب الزوج المثالي: «أنا أطبع في عقلي صورة الرجل الذي أرغبه من أعماقي، وأريده قوياً ومحباً لي ورجلاً بمعنى الكلمة وناجحاً وأميناً ومخلصاً ومؤمناً. يجد الحب والسعادة معي. وأحب أن أتبعه وهو يقودني أعلم أنه يريدني وأنا أريده، وأنني صادقة وأمينة. لدي الكثير من الهبات الرائعة التي سأمنحه إياها. هذه الهبات هي النية الحسنة، القلب السعيد والصحة. وهو يمنحني الأشياء نفسها. إنها علاقة متبادلة، أخذ وعطاء. إنَّ الله يعلم أين يوجد هذا الرجل، والحكمة الأعمق لعقلي الباطن ستجمعنا معاً بطريقتها الخاصة. وسنتعرف على بعضنا البعض في الحال.

لقد سلمت رغبتي هذه لعقلي الباطن الذي سيساعدني وأنا أشكر الله على استجابته لدعائي». أخذت هذه المرأة تردد هذا الدعاء بتلك الطريقة كل يوم فور استيقاظها وقبل خلودها للنوم مباشرة، وقد كانت تردد تلك العبارات بثقة وحزم وهي تعلم أن ما تفكر فيه بعقلها وتثق في حصولها عليه سوف يهبها الله إياه.

استجابة دعائها:

مرت بضعة شهور وكانت هذه المرأة قد تعرفت على عدد من الرجال الذين حاولوا الارتباط بها ولكن لم توجد في أحدهم الصفات التي تبحث عنها. وبدأت تشك في إمكانية مقابلتها للرجل المناسب ووجدت نفسها قد بدأت في الشك والتذبذب والتردد، وعند هذه النقطة بدأت تذكر نفسها بأنَّ الله سيجعل هذا الأمر يتم في حينه وبتدابيره الخاصة. لذا لم يكن هناك داع للقلق. وعندما استلمت آخر الأوراق الخاصة بإجراءات طلاقها غمرها إحساس طاغ بالحرية والراحة الذهنية.

بعد ذلك بفترة قصيرة ذهبت للعمل في وظيفة جديدة كمديرة مركز طبي كبير. وأول يوم لها في تلك الوظيفة صادف وصول أحد الأطباء الذي كان مسافراً في

مؤتمر خارج البلاد عندما أتت لإجراء مقابلة للحصول على تلك الوظيفة. وقد أتى هو في ذلك اليوم إلى مكتبها ليعرفها بنفسه وفي اللحظة التي دخل فيها هذا الطبيب مكتبها أدركت على الفور أنه رجل أحلامها، ومن الواضح أنه هو الآخر قد رأى فيها الزوجة التي يتمناها. وبالفعل تقدم لخطبتها قبل مرور شهر من تعرفه عليها وقد تزوجها بعد ذلك وعاشا معاً في سعادة. فلم يكن هذا الطبيب ضعيفاً ولاسلبياً مثل أزواجها السابقين، وإنما كان قوياً وواثقاً من نفسه وحازماً وكان محترماً وناجحاً في مجال عمله وكان رياضياً أيام الدراسة الجامعية كما كان رجلاً متديناً جداً.

لقد حصلت تلك المرأة على رجل أحلامها لأنها آمنت بذلك في عقلها حتى تشبعت بتلك الفكرة. بعبارة أخرى، يمكننا أن نقول إنها توحدت عقلياً وعاطفياً مع تلك الفكرة حتى أصبحت جزءاً منها.

هل تحصل على الطلاق:

الطلاق مشكلة فردية، لايمكن تعميمها ولايمكن إيجاد حل عام يفيد كل شخص. في بعض الحالات كان الأفضل عدم الزواج أصلاً حتى لايقع الطلاق. وفي بعض الحالات لايكون الطلاق حلاً قد يكون هناك الطلاق في صالح شخص ولايكون في مصلحة شخص آخر. وقد تكون امرأة مطلّقة أكثر صدقاً ونبلاً من مثيلاتها المتزوجات اللاتي يعشن كذبة.

على سبيل المثال: جاءت لي سيدة تستشيرني كان زوجها يضربها ويسرق منها لكي ينفق أموالها على إدمان المخدرات، وقد تربت تلك السيدة على الاعتقاد بأن الزواج شيء مقدس ويجب أن يدوم للأبد وأن الطلاق شيء غير أخلاقي. وقد شرحت لها أن الزواج الحقيقي يجب أن يكون أساسه القلب، فإذا اندمج قلبان وانسجما بحب وصدق فإن هذا يعد أساساً للزواج المثالي. فالحب هو الوظيفة الأساسية للقلب. بعد ما سمعت تلك المرأة ماشرحته لها أدركت مايجب عليها فعله. فقد علمت من أعماق قلبها أنه ليس هناك قانون مقدس يجبرها على احتمال التعرض للضرب والإهانة والإذلال لمجرد أنها ارتبطت بعقد زواجها مع رجل بمثل هذا النوع. فإن كنت في شك مما تفعله اطلب النصح والمشورة، واعلم أنك ستجد حلاً على الدوام، واتبع مايمليه عليه قلبك وعقلك، فهما يحدثانك ولكن في صمت.

الرغبة في الطلاق:

تحدثت مؤخراً إلى شاب وشابة كانا قد تزوجا منذ شهور قليلة ولكنهما كانا يرغبان في الطلاق. وقد اكتشفت أن الزوج كان لديه خوف دائم من أن تتركه زوجته. توقع أن ترفضه واعتقد أنها لن تكون مخلصة له. هذه الأفكار طاردته وتملكت منه. كانت تملأ عقله أفكار الشك والانفصال. شعرت زوجته بأنها غير منسجمة معه ولكن كان هذا مجرد رد فعل لإحساسه. إنَّ أفكار الانفصال التي غمرت عقله الباطن قامت بجلب حالة أو فعل يتفق مع النمط الذهني الذي يمثلها، وهناك قانون للفعل ورد الفعل، أو السبب والنتيجة، والفكرة هي الفعل واستجابة العقل الباطن هي رد الفعل. تركت زوجته المنزل وطلبت الطلاق. وهو ماكان يخشاه ويخافه ويعتقد بداخله أنها ستفعله.

الطلاق يبدأ في العقل:

يحدث الطلاق أولاً في العقل، وتأتي بعد ذلك الإجراءات القانونية. فهذان الزوجان كان يملؤهما الاستياء. والخوف والشك والغضب. هذه الاتجاهات تجهد كيان الإنسان وتستهلكه. لقد عرفا أن الكراهية تفرق والحب يجمع ويوحِّد، وبدأا يدركان ماكانا يفعلانه بعقليهما. لم يعرف أي منهما قانون الفعل العقلي، وكانا يسيئان استخدام عقليهما ويجلبان لنفسيهما الفوضى والبؤس. وبناء على اقتراحي، عاد هذان الزوجان لبعضهما البعض وقاما بتجربة العلاج بالصلاة. وبدأا يشعان لبعضهما البعض الحب والسلام والنية الطيبة، وجرب كل منهما أن يبث السكينة والحب والسلام والصحة لشريكه وأخذا يتلوان معاً الدعاء كل ليلة قبل النوم. وكنتيجة لذلك الجهد الذي قاما به بإخلاص لإسعاد بعضهما البعض، وبسبب طبع الأفكار الإيجابية في عقلهما الباطن أصبح زواجهما يزدهر وغدا أكثر استقراراً يوماً بعد يوم.

الزوجة المتذمرة:

كثيراً من الأحيان يكون سبب تذمر الزوجة هو عدم اهتمام الزوج بها، إن رغبتها المشروعة في الحصول على الحب والعواطف تدفعها للتصرف بطريقة تنفر منها زوجها. اهتم بزوجتك وأظهر لها تقديرك، وامتدح صفاتها الحسنة. وهناك نوع آخر من التذمر يعكس رغبة الزوجة في دفع شريكها للتصرف بأسلوب معين. يجب على الزوجة والزوج أن يكفا عن مشاكسة بعضهما البعض وعن البحث عن أصغر الهفوات والأخطاء لكليهما. يجب على

كل منهما أن يهتـم بالطرف الآخر ويمتدح الصفات البناءة والجميلة فيه.

الزوج الحانق:

إذا بـدأ الرجل في الشعور بالحنق تجاه زوجتـه وبدأ يحمل الضغائـن بسبب أشياء قالتهـا أو فعلتهـا وإذا كان الرجـل يشعر بالاستيـاء تجاه زوجته ويملؤه شعورٌ بالعداء تجاهها، فإنه يكون غيـر مخلص لزوجته. وأحـد أنواع الخيانة يتمثل في تسليم العقل والفكر لكل ماهو هدام وسلبي. فعندما يكون الرجـل مستاءً من زوجتـه ويحمل تجاهها الكثيـر من مشاعر البغضـ والكراهية من دون أن يظهر لها ذلك فإن هذا يعد نوعاً من الخيانـة وعدم الإخلاص، وهو يخون وعود الـزواج التي تلزمه بحـب ورعاية واحترام زوجته طوال حياتهما معاً.

إنَّ مثل هذا الرجل الذي يمتلىء بالبغض والكراهيـة والمرارة تجـاه زوجته يجب أن يكبح غضبه ويتوقـف عن إبداء ملاحظاته اللاذعـة ويقـوم بالمزيد مـن الجهد لكي يكون طيباً وجذاباً ومراعياً لمشاعر زوجته. وعليـه أن يحيد عن خلافاتـه هو وزوجته بلباقـة. ومن خلال المـدح وبذل المجهود الذهنـي، سـوف يتمكن مـن التخلص من النفور والعداوة. وعندما يجعل عقله الباطن يتشبع بأفكار السلام والحب سوف يجد أنه سيصبـح على وفاق مـع زوجته وكذلك كل الأشخاص المحيطين به. وسيقوده كلُّ ذلك إلى حالٍ من الانسجـام وفي النهاية سوف يجد طريقه إلى السلام والسكينة.

الخطأ الكبير:

الخطـأ الكبير هـو مناقشـة مشاكلك الزوجيـة مع جيرانـك أو أقاربك. افترض مثـلاً أن زوجة تقـول لجارتهـا إن زوجها لايمنحها أي أمـوال ويعاملها بقسوة ودائماً يعتدي عليها. هـذه الزوجة تقلل من قيمة زوجهـا أمام الجيـران والأقـارب. وبذلك لايبدو أمامهـم الزوج المثالي إضافة لذلك عندمـا تقوم هـي بمناقشة عيـوب زوجها والتفكيـر بها كثيراً فإنهـا بذلك تخلق في نفسها حـالات سلبيـة، ومن الـذي يشعر بتلـك الحـالات؟ بالطبع هي، فمـا تفكر وتشعر به يتجسد فـي حياتك. إنَّ الأقرباء دائماً يعطونك النصيحة الخاطئة، وستكون متحيزة ومتحاملة لأنه لايتم تقديمها بشكل محايد وغير شخصي وأي نصيحة تتلقينها ولا تتفق مـع القاعدة الذهنية الكونية التي ذكرتهـا سابقاً فإنها ستكـون دون شك بلا فائدة. تذكري أنـه لايوجد اثنان من البشر يعيشان تحت سقف واحد من دون خلافات

ومصادمات وفترات توتر، لاتظهري أبداً الجانب السيئ من حياتك الزوجية لأصدقائك. احتفظي بخلافاتك لنفسك، وابتعدي عن النقد وإدانة شريك حياتك.

لاتجعل شريك الحياة نسخة منك:

لايجب على أي زوج أو زوجة أن يحاول تغيير شريك حياته ليصبح نسخة منه. إنَّ محاولة تغيير شريك الحياة تعد أمراً مهنياً وتصريحاً بعدم جدارته وانحطاط قيمته. إنَّ تلك المحاولات دائماً ماتتسم بالحماقة غالباً ماتؤدي إلى تدمير الزواج. فمحاولة تغيير شخص ما تؤدي إلى تدمير كبريائه وتقديره لذاته وتبعث فيه الإحساس بالتناقض والسخط الذي يؤدي إلى تدمير رابطة الزواج. إنَّ التعديلات مطلوبة بالطبع، فليس هناك شخص كامل. وهذا ينطبق على المتزوجين أيضاً ولكنك إذا أمعنت التفكير وقمت بدراسة شخصيتك وسلوكك عن كثب، فسوف تجد مايكفي من العيوب والنقائص التي ستبقيك مشغولاً في التفكير بها طوال حياتك. فإذا أصررت على تغيير شريك حياتك فلن نجني شيئاً سوى الطلاق والتجول في ساحات المحاكم. فإنك بذلك تبحث عن البؤس والشقاء. عليك أن تدرك أنك لايجب أن تغير أحداً سوى نفسك.

قم بالصلاة مع شريك حياتك:

الخطوة الأولى: لاتجعلا الخلافات والنزاعات تتراكم ولاتحملا الضغائن من يوم إلى آخر. احرصا على أن يغفر كلاكما للآخر أي خطأ قام به أحدكما قبل أن تناما كل ليلة. وعندما تستيقظان في الصباح اعلما أن الله يرشدكما ويوجهكما في كل خطاكما. اغمر شريك حياتك وكل أفراد عائلتك والعالم كله بمشاعر الحب والسلام والانسجام.

الخطوة الثانية: اشكر الله قبل أن تتناول إفطارك واحمده على الطعام والوفر وكل النعم التي منحك إياها. لا تتحدث عن الخلافات والنزاعات والمشكلات على مائدة الإفطار أو أي وقت آخر تجتمع فيه وأسرتك لتناول الطعام، قل لشريك حياتك: «أنا أقدِّر ماتفعله من أجلي وأنا سوف أغمرك بحبي وحناني ورعايتي طوال اليوم».

الخطوة الثالثة: يجب أن يصلي الزوج والزوجة معاً قبل النوم. ولايجب أن يعتبر أي الطرفين أن وجود رفيقه بجانبه أمر مسلم به. أظهر حبك وتقديرك لشريك حياتك، استبدل النقد والتذمر بالحب والتقدير والنية الحسنة. إنَّ أساس أي زواج سعيد هو إرساء قواعد الحب والسلام والجمال والانسجام والاحترام المتبادل والثقة والإيمان بالله.

راجع أفعالك:

١- الجهـل بالقوانين العقلية والروحية هو سبب كل التعاسة الزوجية وبالصلاة معاً تستمران معاً.

٢- أفضل وقت لتجنب الطلاق هو قبل الزواج وإذا تعلمت الدعاء بالشكل الصحيح سوف تجذب إليك شريك الحياة.

٣- الزواج هو اتحاد رجل وامرأة يربط الحب بينهمـا ويخفق قلباهما كقلب واحد، ويتحـركان في طريق واحد إلى الأمام وفي اتجاه الله.

٤- إنَّ الـزواج لايضمن السعادة. الناس يجدون السعـادة باللجوء إلى الله وإلى قيم الحياة الزوجيـة. ثم بعد ذلك يسهم الرجل والمرأة في إسعاد بعضهما البعض.

٥- تستطيع أن تجذب إليك شريك الحياة المناسـب بإمعان التفكيـر في الخصائص التي تريدها فيه ثم يقوم العقل الباطن بأمر من الله بجمعكما معاً.

٦- يجـب أن تتحلى أنت أولاً بالصفات التـي تريدها في شريك الحياة مثل الأمانة والإخلاص والحب.

٧- لاتكـرر الأخطـاء في الـزواج، عندمـا تؤمن بأنـك سترتبـط بشريك الحيـاة الذي تتمناه فسـوف يتحقق لك هذا بالفعل. وعندمـا تؤمن بشيء فأنت تتقبلـه كحقيقة، فاقبـل شريك حياتك المثالي بعقلك الآن.

٨- لاتكن في حيرة من أمرك بشأن كيفية التعرف على شريك الحياة أو لقائه. ثق في قـدرة الله وحكمته وفي قوة عقلك الباطن، فليس هناك ماعليك أن تفعله سوى ذلك.

٩- الطـلاق يحدث فـي العقل عندما تمتلـئ بالضغائـن والتذمر والنيـة السيئة تجاه شريـك الحياة. التزم بوعـود الزواج من رعاية وحب واحترام الطرف الآخر إلى نهاية عمركما معاً.

١٠- توقـف عـن زرع مشاعـر الخوف لدى الآخـر. ازرع مشاعر الحـب والسلام والانسجام والنية الحسنة وبذلك ينمو الزواج ويصبح أكثر جمالاً وروعة على مر السنين.

١١- تبادل الحب والسلام والنية الحسنة مع شريك حياتـك. هذه الترددات يلتقطها العقل الباطن، وتؤدي إلـى الثقة المتبادلة والحب والاحترام.

١٢- شريك الحياة المتذمر يبحث عادة عـن الاهتمام والتقديـر، ويسعى إلى تلقي الحب والمدح. امدح صفات شريك حياتك الحسنة واظهر له حبك وتقديرك.

١٣- الزوجـان المتحابـان لايفعـلان شيئـاً بلا حب سواء بالكلمات أو السلوك أو الأفعال، الحب يعرف بتأثيره على الأفعال.

١٤- في المشكلات الزوجية استشر دائماً الخبراء، أنت لاتذهب إلى النجار لخلع ضرسك، ولايجب مناقشة المشاكل الزوجية مع الأصدقاء أو الأقارب، اذهب للخبراء للاستشارة والنصيحة.

١٥- حاول ألا تعدل شريك حياتك، فتلك المحاولات ليست ذات فائدة وتميل لجرح الكبرياء وتقدير الذات لدى شريك الحياة علاوة على أنها تتسبب في زرع روح الاستياء التي قد تدمر الحياة الزوجية، توقف عن محاولة جعل شريك حياتك نسخة منك.

١٦- قم بالصلاة مع شريك حياتك لكي تظلا معاً إلى الأبد، الصلاة الصحيحة تحل المشاكل، تخيل زوجتك ذهنياً كما تريد: سعيدة مبتهجة وتتمتع بالصحة والجمال، تخيلي زوجك كما تريدين: قوياً ومحباً ومتزناً عاطفياً، حافظا على تلك الصور الذهنية لكي تنعما بالزواج الذي كتب لكما في السماء والذي يملؤه الانسجام والسلام.

في كل ليلة من حياتكما، صليا معاً: وسوف تبقيان معاً، لاتحملا إلى الغد مضايقات وإحباطات اليوم، احرصا على أن تغفرا لبعضكما البعض أية كلمات حادة تلفظتما بها، وذلك قبل أن تأويا إلى فراشكما، وفي اللحظة التي تستيقظان فيها في الصباح توجها بالدعاء إلى العناية الإلهية لكي ترشدكما في طريق حياتكما، تمنيا العالم المحبة والسلام والتوازن، وتذكرا محبة الله، قائلين: «الحمد لله على كل نعم هذا اليوم وبركاته».

المراجع

١- العقل: تنظيمه وإدارته، هاني عبد الرحمن مكروم، القاهرة، مكتبة وهبة، ١٩٩٧م.
٢- العقل الباطن: نبع الطاقة التي لا حدود لها، إرهارد ف فريتاج، ٢٠٠٩م.
٣- قوة خارقة كامنة في أعماقك: كيف تجعل عقلك الباطن يعمل المعجزات بتوجيهك، أحمد توفيق حجازي، عمان، دار كنوز المعرفة، ٢٠٠٧م.
٤- العقل الباطن يستطيع كل شيء، جون كيهو: ترجمة عمار المير أحمد، دمشق سورية، دار علاء الدين، ٢٠١١م.
٥- العقل الباطني، جون كيهو: ترجمة مصطفى دليلة، اللاذقية، دار الحوار، ٢٠٠١م.
٦- العقل المتفتح، عبد الكريم بكار، حمص، سورية، ٢٠٠٩م.

نشيد المركب الغريق

راتب سكر *



هو مركبٌ!
حارتْ صروفُ الدهر
في تفسيرِ رحلتِهِ
فنامَ على بساطٍ من مكاشفةٍ
بساحاتٍ مهلِّلةٍ
يمدُّ لها شراعَ قلوعِهِ،
هو مركبٌ
كسرتْ عواصفُ دهرِهِ
صاري مباهجِهِ
فأغفى في سريرِ البحرِ
باطرةٌ وسادتُهُ
وما حملتْ رياحُ الموج
من أخبارِ غيبتِهِ

* شاعر ومترجم سوري.

ترتّلُها تلالُ الروح
بعض دموعه...
طالتْ ليالي صمتِهِ
في غيّها
وعَدَتْ بقسوتها
ممزّقةً بساطَ هجوعهِ
ملأتْ نشيدَ كتابهِ
صورُ الأسى
والضارعاتُ على تلال غيابهِ
يحسبن أيّام انكسار شراعِهِ
وشبابهِ
متوسلات نائحات
ينتظرنَ على الرمال علامةً
وشهابَ نور من بريد صحابهِ
دحْرَجْنَ صخرةَ دهْرِهِنّ
رأينَ لمعَ إشارةٍ برجوعه!
هو حالم بجزيرة
كسرتْ عواصفُ حزنها
أغصانَ خضرتها
فتاهتْ خلفَ سور غيابها
وغيابهِ
مدن يسربلها سواد الليل
بالحسرات
يكسر بالمخاوف
رقصة الكلمات في أحلامها...
هي ليلةٌ
عبثتْ عوادي دهرها بنحيبها
ونحيبهِ

أنّتْ بها القدمانِ مثقلتينِ
من زرد ثقيل
في حديد قيودها
تخفي رطانته
فصاحة قولها وكلامها
غطّتْ رمال الصمت
خطوتها
ولفتةَ سحرِها وفتونها
بظلال رقص شموعِهِ
فتعرّتِ الأشجارُ
من سكرات رقصتها
وما أوحى به الخلخال من فتنٍ
وما باحتْ به الأسرار
خافيةً وظاهرةً بكحل عيونها
ونشيدها
لبياض زهر اللوز
مبتهجا بسرّ غيابه
ورجوعه
من لي بصندوق؟
أخبئ في زوايا صمتهِ
حزني على أيّامها
فاض الكتاب بما تخفّى
تحت سطر سطوعه...
أنا لوعةٌ مجنونةٌ
في مركبٍ نشوان
تكسره العواصفُ تارةً
ويعينه هطل المواجع
في هُتون دموعِه!....

الذاهبون إلى الحلم

٭
جمال الجيش



للصفاءِ الحضورِ المزيِّنِ وجه الصباح المساءِ
لآلـئُ من عسجدٍ وحبورٍ، له ما له من نقاءٍ فريدٍ
يصوغُ ضياءً ومسكاً.
هو الصحو في حضرة الفجرِ أخضرَ من أيِّ أخضرَ
ينهض قنديلٌ منتصـراً للسلامِ، لأرجوحةِ العيدِ
يزهو بأحلامِ أطفاله الذاهبين إلى الحلمِ
يمضـي الطريقُ إلى آخرِ الوقتِ وقتي، وأنتِ
حنينُ الحنينِ، صفاءُ الضياءِ، تمسين حلماً جميلاً
يطوِّفُ في الوقتِ، وقتِ الأزاهيرِ فوحاً أريجاً..
وهمساً يراود حلم السماءِ البهيَّ بصبحٍ شهيٍّ
تجيئيـن مسكَ الحكاية والحبِّ، مسكَ النداءِ
التي امتدَّ عمراً وعمري مسافةُ شوقٍ وتوقٍ،
مسافة حزنٍ نبيلٍ تأبَّدَ في الروحِ ذاتَ هُيام

٭ أديب وشاعر وإعلامي.
العمل الفني: الفنان علي الكفري.

تجيئين من أحلامك الصبح والورد والياسمين
صباحك أجمل حين تضوعين بالفرح المستحيل
لماذا أحبك أكثر من أيّ حبٍّ عرفتُ وأكثر من أيّ وقتٍ مضى..
لأنكِ أنت توهجتِ أيقونةً من رحيق الصباحاتِ
أيقونة من نبيذ المساء المحنّى بالعشقِ
أم أنني صرتُ أرحبَ بالحب، أعمق بالعشق،
أضيق بالوقت/ عشقي يحاورني أن أصير وأنتِ
احتفالاً صغيراً على هامش الحربِ:
حربِ ملوكِ الطوائف والقابعين بقتل العصافير
كلُّ العصافيرِ حتى التي بعدُ ما غادرت عُشَّها
يا صباحَ الصباحِ القويَّ الفتيَّ انتصر للطيورِ الصغيرةِ
للأمهاتِ الحزينةِ، للذاهبين إلى الحلمِ، حُلمِ الحياةِ
انتصر للأزاهير نديانةً بالرحيق الإلهيْ
للوقت نشوانَ يمضي إلى غايةٍ لا يُصيبُ السوادُ
مداها ولا يعتريها الأفول المُريعْ
إلى غايةٍ من عصير الفصولِ توالى عليها الزمان
العصيُّ ولكنها أترعت بالصفاء
يا صفاءَ الصفاءِ انتصر للقصيدةِ مثقلةً بالجراحِ
وبالحزنِ، مثقلةً بالحنين المُمضِّ، ومثقلةً
بهتافِ الغائبين الحاضرين.. الحاضرين الغائبين.. الواقفين
على تخومِ العمر بين نهايةٍ وقيامةٍ، والراحلين
على سرير الموجِ نحو غوايةٍ وروايةٍ، الموتُ
أقربُ، يسكنون دقائقَ الزمنِ الثقيل ويقتلون
على رصيف الحلم، أقربُ حين تأخذهم بلادٌ
ثمَّ تنفيهم بلادٌ، الموتُ أقربُ.. أيُّها الموتُ المبجَّلُ
كنْ رؤوفاً لحظةً واتركْ لهم بعضاً من الزفراتِ
والأحلام، بعضاً من رغائبَ متعباتٍ
كنْ رؤوفاً لحظةً واتركْ لهم أن يومئوا
بعيونهم لغدٍ بدونهم يطلُّ على الوجودِ
الموتُ أقربُ.. ربما الموت أبعدُ من نداءٍ
عابرٍ في الموج أو إيماءةٍ لسفينة في البحر
تعبر من بعيد.

كوكبٌ وحيدُ الظلّ

✽
د.هزوان الوز

(١)

ما قبلَ النصّ

من المؤكّد أنّ هذه الحكاية / القصّة ليست واقعية، ولكن من المؤكّد أنّها أكثر من واقعية، بل هي الواقع وقد تطهّر من أقنعته، وجهرَ بنفسه، وتجلّى خالصاً من دنس الزيف، بل التزييف على نحو أدقّ. ومن المؤكّد ثانياً أنّها، أي الحكاية/ القصة، كان من الممكن أن يتم سردها بغير طريقة، وأنّ هذه الأخيرة احتمالٌ من احتمالات مفتوحة، ولذلك قد لا تروق لهذا القارئ أو ذاك، بل لساردها الذي لستُ أنا



✽ كاتب وباحث ووزير التربية في سورية.

بكلّ تأكيد. أنــا، العبد الفقير إلى الحقيقة، اكتفيتُ بإعــادة إنتاجها على هــذا النحو الذي ستأتي عليه، وليس من شرف لي سوى صياغــة الحكاية كما رأيــت، ولذلك، وبناء عليه، واستناداً إليه، كما يُقال، أشكر للكاتب أنّــه أصغى إلى ما هذيت به أمامه ممّا رأيت بعينيّ، بل مما كنت جزءاً منه وشاهداً عليه، وربّما، وهــو الأرجح، أنكم، الســادة القرّاء، شهود عليه أيضاً، وربّما.. ربّما شهداؤه.

(٢)

بين يديّ النصّ

تَتَابَع وصول السيارات الباذخة إلى ساحة المركــز الذي تحيط به مساحات شاسعة من الأراضي الخاليــة، وكلما وصلت سيارة تقدم صوبها رجال لهم قامات طويلة، وتعلوها وجوه بقسمات جامدة، ليفتحوا بابها الخلفي وينزل منها الشخص الذي يمكن وصفه مبدئياً بأنه لــم يكن يقود السيارة بنفسه، وبإشارة رصينة حازمة من أولئك الرجــال مع طأطأة الرأس قليــلاً يتوجه الشخــص إلى بوابــة مهيبة، تنفتــح على مسارات متعــددة كأنها الأنفاق، ولكل مسار شكله، وطابعه، وتوحي كلها بأنها بوابات ترتبط بالزمان لا بالمكان.

في الطــرف الشمالي من المركز كان السيد يــرى القادمين من خــلال شاشة متوسطــة المساحة، تتــوزع على جانبيها شاشات أخرى صغيرة تغطي بعض مناطق المركز، ومنها الأنفــاق التي توحي بأنها بوابــات ترتبــط بالزمــان، وكان السيد يتحكــم بفتح أبواب الأنفاق لمن يريد، ثمّ ما إن يدخل القــادم إليها حتى تنطلق به سيورات كهربائيــة مغطاة بأرضية قاسية من اللدائن الصلبة بالسرعة التي يقررها السيد، يســرع بالقادم حيناً، ويبطئ حيناً آخر، وينعطف يساراً، أو يميناً، ثم يتوقف به حيث يشاء.

القادمــون وصلوا جميعاً في وقت واحد إلــى بــاب قاعــة الاجتماعات الــذي كان مفتوحاً، دخلوا بصمت مهيب، تحلَّقوا حول الطاولة وعيونهم إلى الكرسي الفارغ الفخم فــي رأس الطاولة، لم يطل انتظارهم، دخل السيــد الغرفة، نهضوا جميعــاً لاستقباله، ألقى التحيــة، ثمّ ملأ ذلك الكرسيّ بجسده الذي بدا زائــداً على الحــدّ. أجال بصره بالمتحلِّقين حول الطاولة الخشبية الكبيرة، كان بإمكانه أن يرى الجميع لأنّه يجلس على رأس الطاولة في كرسي فخم دوّار.

بدا الماضي فــي مخيلته قريبــاً فكأنَه الأمســ، الاجتماع الماضي في المكان نفسه مــع الأشخاص أنفسهم منــذ سنوات، يومها لــم يستطع أن يميز أحداً من الآخر بسهولة، فلقد كان كل واحد منهم يبدو مع غيره كما لو أنهمــا حبّة نبات وقد شطرت نصفين. كانوا كمــن يفكر بعقل واحد ويتكلم بصوت واحد،

يومها تمتم مساعده وهو ينظر إليهم بتشاوف كبير: إنّها ولادة متكررة بالاستنساخ.

صوّب السيد نظرات ثاقبة إلى كل من الحاضرين في ذلك الاجتماع وبكلمات حازمة: «ستوزعون على أصقاع الدنيا، أو على بعض أصقاع الدنيا». وبعد أن صمت قليلاً وهو يراقب وجوه الجميع، تابع: «نريد أن نتحكّم بالعالم»، ثمّ استدرك: «أقصد أننا نريد مساعدة شعوب العالم». وعندما بدا له أنه ما من أحد تنبّه إلى استدراكه تابع: «نريد مساعدة الشعوب لتعيش بحرية وأمان، العالم كما تعرفون أصبح قرية كونية واحدة، ويمتلأ الآن بأشرار يريدون تعكير صفو الحياة، ستعيشون في تلك الأصقاع، وبعد عودتكم ستكونون عوناً لنا على مانريد، وما تريده الشعوب».

أجال السيد بصره في الحاضرين وفي ذاكرته بدأ يستعيد الأمس، وفي داخله أمل، بل ثقة، بألاّ تكون السنوات التي مضت في إعداد هؤلاء الحاضرين قبل إرسالهم إلى بلاد العالم زمناً ضائعاً، وفي اجتماع اليوم لم يكن تمييز هؤلاء بعضهم من بعض صعباً من ناحية المظهر على الأقل.

حرّك السيد رأسه واتجه بعينيه إلى أحدهم، ثم أومأ برأسه، فبدأ الرجل الحديث: «أنا إيفان الروسي». ولم يكن اسمه كذلك قبل ذهابه إلى بلاد بطرس الأكبر، وأول كلامه كان على خلو الاجتماع من أي امرأة: «في بلادنا تعمل المرأة في مجالات الحياة كلها، وأنت لا تستطيع أن تفاخر بذكورتك، فهي ترى أنّ أنوثتها لا تقل شأناً عن ذكورتك»، ثم صمت لثوان، ثم تابع: «فالا أول رائدة فضاء في العالم».

في الطرف المقابل لمن سمى نفسه «إيفان» كان «أبو قتادة» يعابث لحيته الطويلة. صغّرَ زاوية عينيه وهو ينظر إلى إيفان. تذكّر أنه حضر سوقاً لبيع النساء في الشرق الأوسط في منطقة تسيطر عليها جماعة مسلحة، وكان الشاري بعد رسو المزاد عليه يقبّض ويستلم. وقال مقاطعاً إيفان: «المرأة موجودة عندنا في مجالات الحياة كلها، والأمور تسير بلا تعقيد. ثم يتابع: سأروي لكم ما رأيته في مخيم للسوريين في إحدى دول الجوار، بحركة خفيفة سُحِبَتْ امرأة كانت تقصد المغاسل لقضاء حاجة، انصاعت أمام فوهة البندقية المصوبة إلى رأسها، وأصبحت ممددة على الأرض كجذع شجرة مقطوع، قضى منها وطراً وتبادل الدور مع رفيقه الذي كان يصوب البندقية، وتمّ الأمر في دقائق. في بلادنا المرأة نفيد منها في المجالات كلها، نكبّر عليها، هي مُلك اليسار، مُلك اليمين، ملك القريب وملك الغريب، هي.........».

قاطعه إيفان: «هل تعمل المرأة عندكم؟». ابتسم أبو قتادة ساخراً: «تعمل إنّ غاب زوجها، وتعمل إن قتل، تموت في أي مكان، على الأرض أو في البحر، وإن نجت تشارك الآخرين في البكاء على موت أحبابهم، وتحكي حكاياتهم، ماذا تريد أكثر من ذلك مشاركة يا أخ إيفان؟!».

«يوهان» القادم من بلاد الغابات والفيلة لم يستطع الانتظار أكثر ليبدي رأيه، قال: «في بلادي نحب المرأة كثيراً، فلا تكاد تشب عن الطوق حتى نزوّجها، وإذا مرضت بسبب حملها في سن مبكرة فإننا نتزوج أخرى، نحن لا نستطيع الحياة من دونها، نحزن إن أخذتها الفيروسات التي تنتجها مخابر الدول الكبيرة، ولكننا نتزوج أخرى، وإن ماتت نتزوج غيرها أيضاً. أما إذا كتب لها البقاء فإنها ستعمل في الأرض تحت شمس الله، لنأكل من تعب يديها، إنّ المرأة فاضلة ولاشك في ذلك».

تدخل «أحمد»: «في الشرق الأوسط كما يحلو لكونداليزا رايس أن تطلق عليه المرأة مالئة الدنيا وشاغلة البشر، الكل يفتي بها ولأجلها، نفتي بها في جهاد النكاح، وفي جواز معاشرتها بعد موتها. نفتي في إرضاع الكبير وإرضاع الصغير وإرضاع الزميل، وبطول الثياب وعرضها، وفي عدد الدورات التي يجب عليها أن تقوم بها حول فراش ابن عمها قبل نومه، فلعلّ به حياءً يحول بينه وبين ما في نفسه.....».

سأل أبو قتادة: «أحمد العربي يشكو؟! ما الذي لا يعجبك مما ذكرته؟ وهل تعترض على ما قال به السلف الصالح؟». «العربيّ» قال: «دعني منك ومن السلف الصالح، أنا غبار... أنا لا شيء، أحلم بالهجرة، أحلم بمرقد أغفو فيه على غير أصوات القذائف والانفجارات، ولا أحلم بغير الرغيف».

ومن دون أن يضطر «باتريك» الأوروبي كما يفاخر، إلى رفع رأسه كما كان يفعل كلما أراد النظر إلى برج إيفل أو يعير اهتماماً لما كانا يقولانه، قال: «الفتيات في بلادي يدخلن المدارس وهن صغيرات، يلعبن الرياضة، ويتعلّمن الموسيقا، وعندما يكبرن فإنّ الجميع يكون في انتظارهن. جارتي منذ سنوات ومبضع الجراح يعيد صياغة جسدها، تصغير هنا وتكبير هناك، نفخ هنا وشفط هناك. دور الأزياء العالمية لا تترك لها مجالاً للتنفس، أنا لا أنكر أنني أميل إليها، وفي كلّ مرة حاولت التقرب إليها ومنها كانت تحكي لي عن آخر ما أنتجته معامل المنظفات التي تستخدمها في بيتها، وأثاثه، وإذا لعبت رياح الرومانسية برأسها، فتحكي لي عن منتجات مختبرات التجميل. الكل في خدمتها لتكون مديرة بيت من الطراز الهائل، ترضي أولادها، وتكون جميلة في عين زوجها، وغير زوجها».

ألجم إيفان تدفقه في الكلام، فقال: «يتعبهم أن تكون كياناً مستقلاً يتعدى وجوده تقديم الخدمات، قلة يريدون لها أن تكون كياناً قائماً بذاته، وهي من غير ذلك لن تكون مفيدة لأحد»، وبعد أن ألقى نظرة على عيني «باتريك» تابع: «المرأة جهاز ببطارية مصنوعة في أمريكا، يعلو صوته أو ينخفض بلمسة زر، تهزّ خصرها وتدندن بأغنيات الإعلانات التجارية، وهي أبداً في سباق مع كلّ ما يستهلك».

أجال السيد بصره مرة أخرى بالمتحلقين حوله، وسأل: «وماذا يفعل الرجال عندكم؟».

قال أبو قتادة: «الرجال عندنا أصحاب رسالات سماوية، أو أرضية، لتحقيق شرع الله أو لتحقيق الديمقراطية، والدفاع عن حقوق الإنسان، والقانون الدولي، والمرأة والطفل و.......»، ثم سكت، وبدا كما لو أن أحمد العربي تذكر شيئاً ما وهو الآن أمام عينيه، كان يرى الجموع الهائجة من أبناء الرسالات وهي تقتل وتحرق وتدمر لتحقيق رسالتها، وهو يعرف أنّ الأمر لايقتصر على زمان أو مكان، فلقد قتلوا في فيتنام وأفغانستان والعراق وسورية وفلسطين وفي أوروبا وأمريكا، والقتل مستمر». قال: «وفي كل مرة يموت الإنسان وتبقى الرسالة، يحملها ويحميها أصحاب الشركات العابرة للقارات. في بلدان العالم كلها الشعب مادة خام لمعامل الكونسروة، وكل مجموعة تسمى باسم تجاري بحسب الموقف الذي تتخذه والصوت الذي تعلو به».

سأل المساعد سيده بصوت منخفض: «وأين يقع أولئك الذين لا يرفعون الصوت؟». أجاب السيد: «لا علامة تجارية لهم، وما إن يعلو صوتهم حتى يُبادَر إلى منحهم علامة تجارية. في العالم كله البشر معلبون، وهذا لا يعني أنهم منتج رديء... لا، وإنما هم جماعة منضبطة».

وبينما الجميع مستغرق في الإصغاء إلى السيد استرعى انتباههم، كما استرعى السيد نفسه، أصوات تعالت من الخارج. نظر السيد إلى مساعده فاقترب الآخر منه، قال السيد: «إنّه خروج عن النص... في الاجتماع هنا وفي الأصوات الآتية من الخارج أيضاً، أخشى أن....».

أظهر المساعد ابتسامة خفيفة كما لو أنه يستأذن السيد في إلقاء نكته، ولما اطمأن قال: «هل ترى سيدي أنهم أصبحوا بحاجة إلى تعليب؟».

علت وجه السيد ابتسامة ذات معنى، وتابع: «ما سبب الأصوات الآتية من الخارج؟». أجاب المساعد: «إنَّها أصوات الدفعة الأخيرة من الأطفال المستنسخين الذين لا يريدون مشاركة أطفال القادمين إلى الاجتماع للعب معهم بكرة القدم».

نقر السيد بإصبعه الوسطى نقرة خفيفة على الطاولة، ولم يكن بحاجة إليها لاستئناف الاجتماع فالكل جاهز، ثم قال: «بقي أن أسألكم عن الأطفال في تلك البلدان».

قال أبو قتادة: «لا ينشغلنّ بالك أبداً، فوالله العزيز القدير الجبّار المهيمن القويّ نعلّمهم ذبح الأشرار وقتّلهم منذ نعومة الأظفار، نغسل أدمغتهم، نحن لا نقصر في هذا المجال، الأطفال أحباب الله».

انفجر «إيفان» في وجه أبي قتادة غاضباً: «ما هذا الهراء؟»، ثم كاد الأمر يتحول إلى مشادّة لولا التدخل الحازم الذي جاء بنظرة من عيني السيد واستفسار: «وكيف يتدبر أهل البلاد التي كنتم فيها أمور معيشتهم؟ وكيف يتصرفون بمواردهم وما يملكون؟»

لم ينتظر أبو قتادة الإذن كعادته وانطلق بلهجة حاسمة: «المال مال الله والإنسان مؤتمن عليه، ولا شيء غير ذلك، الأمر بسيط كما ترى. تاجر واربح، نفّع واستنفع، ولا تخش التعامل مع الأعداء فلقد سخّرهم الله لخدمة عباده المؤمنين وتنمية ثرواتهم».

تدخّل أحمد مؤيّداً وجهة نظره، وقائلاً: «والله يوسّع على عباده ولا يضيّق عليهم ولاسيما المؤمنون منهم. واليد العليا خير من اليد السفلى، وللأيتام والفقراء والسائلين، و.... حق في مال الله».

ابتسم إيفان، ثم علا صوته قليلاً بالضحك، وكذلك فعل باتريك.

- «خير اللهمّ اجعله خيراً، أخبرونا عمّا يضحككما فلعلنا نضحك مثلكما». قال أبو قتادة بلهجة برمة فيها شيء من الغضب.

أجاب إيفان: «خير.. خير. أنا أضحك لأنني أرى من خلال حديثك أننا نفكّر على نحو متقارب، أنت تقول المال مال الله والإنسان مؤتمن عليه، وأنا أقول المال مال الشعب والدولة مؤتمنة عليه، ولعل باتريك يرى ما ترى أيضاً». وبسرعة أجاب باتريك: «لن نختلف عمّن يملك الثروة، المهم أن تكون موجودة وأنتم تعرفون أن ثرواتنا لنا ... لأمتنا، ولا نمانع في تقديم شيء منها للآخرين... بيعاً طبعاً، ولا نمانع في استخراج ثروات الآخرين، نأخذ حقنا منها وما يتبقى نعطيه لأهلها».

اصفرَّ وجه يوهان، واختلط الأصفر بالأسود الذي يميزه، وقال: «نعم قيمة الثروة بمقدار ما تسعد أصحابها وتبيّض وجوههم، تخيلوا بلادنا موائد للضيوف، موائد دائمة للضيوف حتى الذين يطيلون الإقامة، وما يتبقى في الموائد عنهم لنا ولأولادنا».

هزّ أحمد رأسه بيأس: «إنه واقع فريد، نحن بحاجة للدول المتقدمة لنأكل ونشرب ونتعلم، نحن بحاجة إليهم لنحمي أنفسنا وكراماتنا، بحاجة إليهم لتصبح حبة حنطتنا

رغيفاً نسدّ به جوعنا، يتقاتلون على أرضنا وبرجالنا وندفع لهم ثمن موتانا».

أشار السيد إلى مساعده، وقبل أن يتبين المساعد مراده نهض إيفان من كرسيه بحركة بدت وكأنها إشارة برفع جلسة الاجتماع إلى موعد لاحق، ومع أنّ السيد ينوي ذلك، لكن إيفان بتصرفه هذا أوحى للجميع وكأنه ند للسيـــد يستطيع أن يفعل ما يفعل، ثم رفعت الجلسة على أن يعودوا بعد الغداء، وخرجوا من باب قاعة الاجتماعات.

ســـار أمامهم دليل خرج بهــم من البناء إلـــى بناء آخر، صغير وبعيد عن الذي كانوا فيـــه، ولما وصلوا دخلوا مـــن بابٍ عريضٍ، عبروا الردهة إلى باب المطعم وفيه وجدوا أولادهم بانتظارهم.

حـــول طاولة الطعام جلس كل واحد إلى جانب أولاده، وبعد البسملة والصلبنة مدّت الأيدي إلى الزاد، لم يكن السيد أو مساعده في قاعة الطعام.

في القاعـــة أنواع متعددة مـــن الطعام أحضر من كل بقـــاع الأرض، وكذلك عمال الخدمة، أما الطاهي ومساعدوه فكلهم من بلاد العم سام أو من أحفاد داؤود.

وعندما كانوا يتناولـــون الطعام كان السيد يضع قدمـــه على الدرجـــة الأولى مـــن السلم المؤدي إلى الطابق الذي يعلو قاعة الاجتماعات، لحضور اجتماع آخر يكون فيه القرار.

استند على كتف مساعده وكانت تعابير وجهـــه تكشف عن تســـاؤلات محيرة، فلقد وصـــل العالم برأيه إلى حـــال من الفوضى، فكأنـــه سفينة يتجهز المحيـــط لابتلاعها، ومن الواجب وضع حد لإعادة صياغة العالم من جديد. وتمتم: «تباً لهذا الإيفان اعتقدنا أنـــه سيكون على غير ما هـــو الآن، لم يفلح الاستنساخ معه».

وصل باب غرفة الاجتماعات الخاصة، نظـــر إلى مساعـــده، وقـــال: «سأجتمع مع أشكال بشرية لأنها في حقيقة الأمر حقائب أموال، إنها أشكال بشرية تخون معناها».

ابتسم مساعده لأنه تذكـــر أنه سمع شيئاً مشابهاً لهذا القول في اجتماع خطير قبل غزو أمريكا للعراق، عندما شرح أحد الاستراتيجيين مفارقة الأشكال لمعانيها، أو العكس، وضرب مثالاً على ذلك بالنفط السائل، شكل له معنى في طائرة الـــركاب المدنية يختلف عن معناه في الطائرة الحربية.

(٣)

نصُّ النصّ

دخـــل السيـــد ومساعـــده إلـــى غرفة الاجتماعـــات الخاصة، وفـــي داخل الغرفة تبدل الشكل، لم يعد السيد سيداً لكنه نظر إلى الآخرين: «سادتي... الباخرة في عرض المحيط لا تتحرك، والمحيط هادر، ولابد من تغيير الطاقم لتبحر».

سأل أحد الحاضرين: وهل من الضروري أن تبحر تلك السفينة؟

أجاب آخر: لا ليس بالضرورة.

سأل السيد: وماذا نفعل بالمحيط؟

قال أحدهم: لم يكن المحيط مشكلة في أي يوم من الأيام، فهو يرتب دائماً أمور زواره، أمواتاً أو أحياء.

أنصت الجميع لما سيقوله الزعيم، هم أساساً عيونهم عليه دائماً، لأنَّ الكلمة الفصل عنده وسيقولها الآن، وجَّه الزعيم كلامه إلى السيد: لم ندخر وسعاً لنصنع العالم كما نشاء، قمنا بمقدمات جيدة لكن الأمور سارت في النهاية على غير ما نشتهي، ومما يبدو أن رأس إيفان بدأ يكبر، لذلك لابد من وضع حد لهذا الواقع على أن نبدأ جولة أخرى.

انتهى الاجتماع. خرج السيد ومعاونه، تبادلا النظرات المفهومة، لم يقصدا المطعم بل توجّها إلى حديقة المركز حيث الدفعة الجديدة من اليافعين المستنسخين.

في المطعم كان الجميع قد تناولوا طعامهم وشبعوا، رُفعت صحون الطعام الفارغة، ونُظِّفت الطاولة، ثم دخلت القاعة مجموعة من الحسناوات كأنّهن الحوريات، يحملن التفاح الأحمر الجميل.

شكل يخون المعنى يُذَكِّر بجنود الأمريكان في بغداد. وفجأة أصبحت الدنيا جحيماً، تطاير مبنى المطعم وملأ حطامه المكان، ومن الحديقة كان السيد يضع يده على رأس أحد الفتيان اليافعين، ويردد: كان لابد من ذلك، إنه تعليب من نوع آخر. شكل يخون المعنى، كان لا بد من إعادة صياغة العالم، وداعاً إيفان....

ثم أدار رأسه إلى الناحية المقابلة وشعر كما لو أن وعاءً من ماء الثلج انسكب على رأسه، لقد كان إيفان ينظر إليه بخبث ومكر وتحدٍّ، وقال موجِّهاً كلامه للسيد: لاتتسَ... دعنا ندعوا إلى اجتماع آخر في الوقت المناسب.

(٤)

النصّ

في صباح اليوم التالي كانت سفينة أخرى تمخر عباب المحيط، وفي طرفٍ آخر من الأرض وبشكل يتماهى مع المضمون ثلة من الجنود أمام نصب الجندي المجهول تؤدي التحية، على عكس تمثال الحرية في أمريكا الذي يواظب على كونه شكلاً يخون المضمون.

(٥)

ما بعد النصّ

«ها أنتِ يا زرقاءُ، وحيدةٌ.. عمياءُ. وما تزال أغنياتُ الحبّ والأضواءُ، والعرباتُ الفارهاتُ والأزياءُ. فأين أخفي وجهي المشوَّها، كي لا أعكّر الصفاءَ الأبلهَ المموَّها، في أعين الرجال والنساءُ. وأنتِ يازرقاءُ، وحيدة.. عمياءُ.. وحيدةٌ، عمياءُ».

عمل على مدار السنة

عبد الباقي يوسف*



أخذتُ أتقلّب في سعير الأفكار بين أن أسعى إلى ذاك الشكل الصادم من التمرّد، أو أذعن بوجوم لبراثن ما أنا فيه في كنف عمي الذي يبدو لي شديد الغموض، دون أن يفصح لي شيئاً من عالمه المبهم الذي كانت تشاركه فيه زوجته، الأمر الذي كان يلهب في نفسي شعوراً مدمّراً بالعدم حتى إنني في كثير من الأوقات كنتُ أخال أنني غير موجود، لأنّ لاشيء يشير إلى وجودي بالنسبة إليّ، وأن الشيء الذي من شأنه أن يحسسني بحقيقة وجودي هو معرفتي سبب عيشي في بيت عمّي بعيداً عن أبويّ.

* أديب وقاص وناقد سوري.

لذلك لم تكن الأفكار لتكف عن حفر أخاديدها في مخيلتي، فلماذا لا أعيش كسائر أطفال القرية في بيت أبي، وأنعم بأيام طفولتي؟ لماذا لا أتلقى دلال أبوَيّ وأنا بأمسّ الحاجة إلى حنان أبوتهما لي؟ ثم ما سبب بقاء عمّي من دون أولاد؟

بيد أنني لم أكن أتجرّأ حتى على توجيه السؤال إليه، لأن الإجابة التي حفظتها عن ظهر قلب من عمي هي: ستعرف ذلك حينما تكبر وتصبح قادراً على تحمّل المسؤولية.

حتى ترسّخ في عمقي يقين بأنني مهما كبرت، فسألبث صغيراً في نظره دون أن أكون قادراً على تحمّل مسؤولية تلك المعرفة الخفية عن أبوَيّ.

لبثتُ أتقلب في دفقات ذاك الإيقاع الخانق من الحياة حتى بلغتُ خمساً وعشرين سنة دون أن ألمس أي مرحلة من وهج مراحل تلك السنوات العجاف، ولبثتْ مشاعر الغربة تستبدّ بي حتى وأنا أرى مصادفة في درب ذهابي وإيابي إلى الحقل بعض الشبان الذين يجايلونني في العمر من أهالي القرية وهم يبدون غرباء بالنسبة لي، مثلما أبدو غريباً أمام أنظارهم.

❁ ❁ ❁

على شوك ذاك العمر الذي ألفيتُ نفسي فيه، انتابني إحساس مباغت ذات يوم بأنني أكثر حرية مما يجسر عمي أن يحجرها علي؛ لكن حجم اليأس الذي أشعر به يبث إلى نفسي الإذعان، وخطر لي أن عمّي يستند إلى إذعاني هذا في قمع أمنياتي، وما تتوق إليه نفسي من رغبة جامحة في الانطلاق نحو الحياة، فبتُّ أتخيلني طيراً حرّاً في قفص، عليه أن يسعى إلى فعل أي شيء حتى يلمس له منفذاً، فيفرّ بجناحَيه متحرّراً من ذاك القفص نحو رحابة طلاقة الحرية.

في سديم لجة الصباح الباكر، عندما كانت الديكة تستيقظ، وتدفع بنداءاتها المتعالية بقايا خيوط الظلام، كان صوتُ عمّي الأجش يخترق سمعي، ويوقظني حتى أسبقه في الذهاب إلى الحقل، ثم يعقبني عندما تغدو الشمس في خاصرة السماء.

أحياناً يأتي راكباً حماره عندما يحتاج البيت إلى خضار وفاكهة، كي نملأ الخرج عند عودتنا، وأحياناً يأتي سيراً على قدَميه عندما لا يحتاج البيت شيئاً من الحقل، أو يحتاج شيئاً خفيفاً يمكننا حمله بأيدينا.

نمكث في مشقة عنايتنا بالحقل حتى ينال منا الإرهاق أقصى ما يمكنه أن ينال، ويمدّ الغروب خيوطه إلى معولينا، عند

ذاك تستجرّنا خطواتنا المنهكة حتى نبلغ البيت دون أن نجسر على فعل شيء سوى أن نتناول عشاءنا على عجل دون أن نهنأ به، ثم نسلّم بدنينا للفائف نوم عميق تحت سطوة الإنهاك.

أغمض عينَي، ولا أفتحهما إلاّ عندما يخترق صوته أذني في غسق تلك الفسحة المبكرة التي أكثر ما يطيب فيها الاستغراق في النوم عقب كل ذاك الجهد العضلي المضني الذي بذلته: سيمكو.. انهض ياولد.. نوم الصباح يجلب الفقر ولا يطعمنا خبزاً.

وعندما أتماطل في النهوض وأنا أمطط جسدي برغبة جامحة لاستكمال نومي، يسحب الغطاء عني بشدّة وهو يصرخ بصوت محتقن: هل طرشت يا سيمكو.. ناموسز.

ثم يمدّ قبضته إلى كتفي، ويسحبني من الفراش بقوة وصوته المحتقن يتصاعد: قم بسرعة واغسل عن وجهك بول الشيطان.

أتجه إلى إبريق الماء، أملؤه من البئر، تحت وطأة النوم الذي أفسده علي عمّي في ذاك البيت الذي لم يسبق لي قط أن شبعتُ فيه نوماً، ثم أشرع في غسل وجهي تحت شجرة اللوز المرّ المزروعة في الحوش منذ سنوات طويلة، وكلمات عمّي تتداعى إلي بأنني عندما أتكاسل في النهوض من الفراش مبكراً، يكون الشيطان في تلك الليلة قد بال على وجهي حتى أمكث في فراشي متكاسلاً بلا عمل، وكي لا أدعه يغلبني، عليّ أن أسارع في غسل وجهي دون أي لحظة تردد.

آنذاك تكون زوجة عمي قد أعدّت صحناً من لبن الجاموس إلى جانب صحن من الحلاوة مع رغيف من الخبز.

أتناول طعامي مسرعاً، وما ألبث أن أبرح على عجل لأحظى بفرصتي الوحيدة للمشي برفقة صديقي الوحيد الذي يماثلني في العمر.

كان صديقي الوحيد متعلقاً بي منذ سنوات الطفولة يغتنم أي فرصة سانحة كي نلتقي، أحياناً عندما نؤوب من الحقل، أراه بجانب باب بيتنا، فأتلكأ قليلاً ريثما يسبقني عمي في الدخول، وتُتاح لي لحظات للتوقف معه وتبادل بعض الأحاديث السريعة، وأحياناً أختلس وقتاً مما يلي العشاء كي نلتقي ونتحدّث تحت نافذة بيتنا.

أمّا في العيد، فكانت الفرصة متاحة لنا كي نمضي يومين متتاليين معاً، لأنَّ عمّي كان يتوقف عن العمل في العيد، ويعدّ ذلك بمثابة عطلة لنا كي نرتاح فيها، فكنّا نعطل في السنة أربعة أيام، في العيدين الصغير، والكبير.

كان دوماً يقول لي: لقد خُلقنا لنكدّ ونشقى، نرتدي الثياب الفضفاضة الخشنة، وتتدفق قطرات العرق من أبداننا، دوماً تكون ثيابنا مبللة، في الصيف بعرق أبداننا، وفي الشتاء بمياه الأمطار.

نحن أبناء الجبال، اعتادت أسماعنا على قصف الرعود والصواعق، اعتادت عيوننا على رؤية الغيوم الداكنة، وقدحات البروق، اعتدنا أن نغفو على عواء الذئاب، وفحيح الأفاعي، وزمجرة الضباع.

نحن أبناء الجبال، لا نملك سوى الكد والشقاء نطوي بهما صفحات الهموم من حياتنا.

لذلك قسّم الأرض إلى قطعتين، قطعة لزراعة الحنطة والعدس، وقطعة لزراعة الحمّص، والفول، والفاصولياء، والجبس، والبطيخ، تحفها أشجار الرموط، والصنوبر، والكستناء، والبندق.

كان ذلك يجعل من عملنا مستمراً على مدار السنة.

كيف نواجه تداعيات الأزمات التي تنتجها الحرب

د. قحطان السيوفي*

من المفيد بداية أن نوضّح الفارق بين مفهوم الدولـة، ومفهوم الإدارة الحكومية. الدولـة بمفهومها العـام أرض، ووطن، ومؤسسات تشريعية، وتنفيذية وقضائية.. أمـا الحكومة، بهيكليتهـا، وأجهزتها تمثل عملياً، السلطة التنفيذية..

التاريـخ الاقتصـادي المعاصر يشير إلـى أن الغـربَ الرأسمالـي عمـلَ في ثمانينيـات القـرن الماضـي، لإضعاف دور الدولـة وأداتها الحكومية في الحياة الاقتصادية. .وقـال الرئيس الأمريكي



الأسبـق (رونالـد ريغـان): (الحكومـة هـي المشكلة... وليسـت الحل) وجاءت العولمـةُ... وبدا السـوقُ وكأنه أصبحَ مع

* باحث ووزير وسفير سابق.

ضعـف دور الحكومات بمثابـة (كازينو) مقامرة للمؤسسـات المالية والمصرفية. عندما حدثـت الأزمةُ الماليـةُ العالميةُ خريـف (٢٠٠٨م)، بـدأت الحكومـات بالتدخـل الإيجابي لإنقـاذ اقتصاداتها الرأسماليـة المأزومة، بعد إخفاق النمط الاقتصـادي القائم على الحرية المطلقة لأسـواق مال الدولة الوطنيـة في العالم العربي اليـوم، مُستهدفة مـن جماعات تكفيرية لا وطنَ لها تؤمنُ بالإرهاب العابر للحدود وسيلةً لتحقيق أهدافها. استغلت ما سُمي الربيع العربي، لاستهداف الدول ومؤسساتها... ونشر الفوضى... وتفككت بعض الدول مثلاً ليبيـا... هنا يبرز دور الحكومة المُميَّز في مواجهة الأزمات في زمن الحرب على الوطن والدولة.

سوريـة اليوم تتعرضُـ لحرب تدعمها وتقودُها قوى الاستعمار القديم والحديث بتحالفـات إقليمية، هـذه الحرب الكونية الإرهابيـة تستهدف ضرب رمـوزَ الدولة ومن ضمنها الاقتصـاد... صمدت سورية بجيشها وشعبهـا، وبقي المواطن السوري صامداً فـي أرض وطنه... يقدم الشهداء ويعمل لينتـج السلع والخدمـات ويتحمل المعاناة المعيشية... وكل الصعوبات التي فرضتها الحرب على الوطن.

ومـن هـذه الصعوبـات؛ العقوبـات الاقتصاديـة التـي فرضت علـى سورية وخـروج قسـم كبير مـن وسائـل الإنتاج بفعـل التخريـب والسرقـة... وفقـدان مواقع الموارد الطبيعيـة، وتراجع الإنتاج والتصدير، وبالتالـي تراجع حجم الدخل القومي ونقص المـوارد العامة... يضاف إلى ذلك ضعفُ الأداء في بعض من مواقع المسؤولية فـي الإدارة الاقتصادية... كل هذه الصعوبـات انعكست سلباً على القوة الشرائيـة للعملة الوطنيـة، وعلى مستوى معيشـة المواطن، وارتفاعاً حـاداً بأسعار المواد الأساسية. وهنـا تحضر مسؤولية الحكومـة في مواجهـة تداعيات الأزمات الناجمة عن الحرب.

بالمقابل إنني أشارك المواطن العادي شعـوره بالاستيـاء من ظاهـرة الهدر بكل أشكالها.. (توماس أديسون) العالم الأمريكي مخترع المصبـاح الكهربائـي (الاستياء، هـو الضـرورة الأولى للتقـدم). إنَّ الهدر الاقتصادي الذي نعنيه هنا تتعدد أشكاله، وتتنـوع مصادره، ولاسيمـا أثناء الأزمات، وانعكاسات نتائجـه السلبية على المجتمع أفراده، ومؤسساته، وناتجه الوطني... علماً بـأن الظروف العامة للأزمة قد أدت لتآكل دخول المواطنين وجعلت الأغلبية الساحقة

من أفراد المجتمع في أوضاع معيشية غاية في الصعوبة...

الهدر الاقتصادي في الظروف الاقتصادية التي تنتجها أزمات الحرب، يمكن تحديد مصادره بجهتين اثنتين: الأول مصدره أفراد المجتمع، والثاني مصدره الجهات العامة ذات الطابع التنفيذي، والرقابي. مثلاً الهدر في استهلاك الماء، والكهرباء، والاتصالات، والغذاء، والدواء... وأيضاً في تصميم وتنفيذ المنشآت الفردية وتأثيثها مثلاً... يتحمل الأفراد مسؤولية ذلك النوع من الهدر الاقتصادي...

بالمقابل تتحمل الجهات العامة الحكومية التنفيذية منها والرقابية؛ مسؤولية كبيرة في ممارسات الهدر الاقتصادي. مثلاً وزارة التجارة الداخلية، وزارة الصناعة، ووزارات الدولة الأخرى... وهيئة المواصفات والمقاييس، هيئة مكافحة الفساد، هيئة حماية المستهلك إضافة للجهات الرقابية، كل منها حسب اختصاصه، تتحمل مسؤولية الهدر الاقتصادي الذي يدفع ثمنه المواطنون، والاقتصاد الوطني ككل.

على صعيد المواطن الفرد؛ فإنَّ وعي المواطن له دور بمدى تحمله المسؤولية بدرجة كبيرة في مسألة تزايد حدة الهدر، أو تناقصه..من الناحية العملية، ولاسيما في ظروف الأزمة، لا يشعر الفرد بخطورة الهدر إلا عندما يمس دخله (أو جيبه) الخاص المتآكل أصلاً مثلاً استهلاك الماء والكهرباء، أو الإسراف في الطعام والشراب الواقع أن الثقافة غير الاقتصادية التي تطغى على مجتمعنا في الأحوال العادية تجعل الحرص على المال الخاص يغيب تأثيره بنسب متفاوتة حسب الأفراد وثقافاتهم العامة؛ بمعنى آخر تلتقي ظاهرة غياب الثقافة الاقتصادية مع عدم الإحساس بالمسؤولية عن الخدمات ذات الصفة العامة كالماء والكهرباء... التي تتحمل أعباءها الخزينة العامة للدولة من جراء مبالغ الدعم الكبيرة المقدمة لمثل هذه الخدمات العامة... مما يؤدي بشكل أو بآخر، إلى تضخيم مسألة الهدر الاقتصادي الفردي. على الصعيد العام وزارة التجارة الداخلية، على سبيل المثال لا الحصر ،أصبح معروفاً لدى الجميع أنها، عادة، لا تقوم بدورها المطلوب في مواجهة الأزمات التي سببتها الحرب... بعدم ممارستها الرقابة الحازمة على الأسواق من حيث الأسعار، وجودة المواد المعروضة في الأسواق؛ حيث توجد سلع رديئة، ومغشوشة في كل القطاعات سواء مواد غذائية، قطع تبديل، أدوات كهربائية،

أو مواد بناء... ومثل هذا التقصير، بل والتواطؤ أحياناً في ممارسة المهام التي حددها القانون يؤدي إلى نتائج سلبية على أفراد المجتمع، وعلى الاقتصاد الوطني ككل؛ حيث ينفق المستهلكون أموالهم المحدودة على الرديء من السلع وحتى غير الصالحة، أحياناً، للاستهلاك البشري... وانعكاسات ذلك على صحة الإنسان، وسكنه، ومحيطه بشكل عام... سببها التراخي، وضعف الرقابة على المواد المعروضة في الأسواق في ظل الغياب الفاعل لهيئات المواصفات والمقاييس، وحماية المستهلك وغيرها... مع ما يحدثه ذلك من نتائج كارثية على المواطن وعلى الاقتصاد الكلي....

إنَّ مشكلة الهدر الاقتصادي الناجم عن الأفراد أو المؤسسات التنفيذية وحتى الرقابية، قد تكون ظاهرة مقبولة مرافقة للنشاط الاقتصادي بل قد تكون مسألة عادية من خصائص المجتمعات البشرية، إذا بقيت في حدود متدنية، يمكن معالجتها ... والأخطر هو تفاقمها في ظروف الأزمة... مع وجود اقتصاد ظل خفي ناشط... حيث يصعب حصرها، وتحديدها، وضبطها من أجل تحجيمها خاصة في غياب إحصاءات مقبولة يصعب الحصول عليها ... في ظروف الأزمات التي أنتجتها الحرب.

هذا النوع من الهدر الكارثي للمال الخاص والعام؛ يجب التصدي له بكل جدية وحزم بالإمكانات المتوافرة في ظروف الأزمات التي أنتجتها الحرب المطلوب العمل، لضبط كل مسالك الهدر، وأدواته للحد منها ومنع تفاقمها؛ من خلال وعي المواطنين وإحساسهم العالي بالمسؤولية الوطنية، والتعاون، وتضافر الجهود الجماعية... وممارسة الجهات العامة المعنية؛ تنفيذية ورقابية لدورها المحدد في القوانين والأنظمة، إضافة لمحاسبة المقصرين، والمرتكبين، والفاسدين... بهدف المحافظة على أموال الناس والأموال العامة. وتبقى مسألة مكافحة الهدر الاقتصادي، ولاسيما في ظل الأزمات التي أنتجتها الحرب مسؤولية وطنية فردية، وجماعية.

قراءة المشهد الشعبي العام في سورية اليوم تشير إلى أمور تدعو للارتياح منها رؤية المواطنين السوريين الصامدين في أرضهم، المتفانين في أعمالهم، وفي كل القطاعات، وبالإمكانات المحدودة... يتعاملون بواقعية مع مهنهم المختلفة بكل جد، وصدق، وقناعة... رغم

الظروف القاسية، وتداعيات الأزمات التي أنتجتها الحرب على الوطن لهؤلاء المواطنين السوريين الصامدين الذين يقدمون دماء أبنائهم الشهداء... ينظرون بقلق إلى بعض المظاهر الخطرة التي تذكرنا، تجاوزاً، بآليات عمل الرأسمالية المتوحشة التي تزيد الأثرياء غناً، والفقراء فقراً... والتي تدفع بالكثير من أفراد الطبقة المتوسطة لينضموا إلى شرائح المجتمع الفقيرة...

في الأزمات التي تنتجها الحرب تظهر فئة من الفاسدين، مقتنصي الفرص، ممن يمارسون التجارة السوداء يجمعون من خلالها الأموال بأساليب ملتوية، أقرب إلى التوحش، ومن خلال تجاوز الأنظمة والقوانين النافذة..همهم الأساسي تعظيم ثرواتهم وتكديس الأرباح السريعة بطرق غير مشروعة، وعادة يحولون أموالهم إلى خارج الوطن تهريباً في وقت يعاني فيه الأغلبية الساحقة من أفراد المجتمع من الظروف المعاشية القاسية... مقتنصو الفرص السارقون قوة الشعب هؤلاء يشكلون خطراً على المجتمع والوطن... بالمناسبة تحضرني وقائع فيلم أمريكي؛ مضمون الفيلم يدور حول شخص يقوم بسلوكيات إجرامية، يمارس القتل بكل أنواعه من أجل الحصول على الأموال... ولا تستطيع الأجهزة الحكومية رصده، أو ضبطه، أو معاقبته... ويقوم هذا الشخص القاتل، السارق بوضع الأموال المسروقة في حفرة، ويخرج المال القديم ليشمه، ويمتع ناظريه به... ثم يرجعه إلى الحفرة... إلى أن قتل في جريمة كان يحاول تنفيذها. وبقيت الأموال في الحفرة التي لا يعرف أحد غيره مكانها... لاشك أن الرمزية التي تمثلها قصة هذا الفيلم تشير بوضوح إلى مصير الأموال المكتسبة بصورة غير مشروعة والتي يعبّر عنها باللهجة العامية (الأموال الحرام)..

نعرض هنا لبعض القضايا - على سبيل المثال - منها إدارة التجارة الداخلية وحماية المستهلك، توزيع المشتقات النفطية وانعكاساتها، والجدل الدائر حول ترشيد المستوردات... وهذه المسائل وغيرها تدار بشكل غير إيجابي لا ينسجم مع متطلبات مواجهة تداعيات الأزمات التي أنتجتها الحرب...

في الأزمات يبرز، ضعف في أداء بعض الأجهزة الحكومية، والهيئات المنظمة للأسواق من جهة فعاليتها في التنظيم والرقابة... مع ضعف في آليات حماية المستهلك من حيث الجودة

والأسعار، وضبط ومعاقبة المخالفين... وإعـادة الحقـوق للمتضررين، ومنع الممارسات الاحتكارية... مما يزيد من الشعور بالقلـق على المستوى المعيشي للمواطنين؛ من حيـث وفرة الخدمات، وجودتها، ومعقولية أسعارها..

يجـب وضع برامـج وآليـات إلزامية - بالإمكانـات المتوافـرة - لإيصـال المشتقات النفطية إلى المواطنين بالسعر الرسمي، وإقـرار أوجه الدعم للفقراء... وإيصـال المشتقـات النفطيـة المتاحة للمزارعين، والصناعيين، وبموجب آليات واضحة تساهم في دعم الإنتاج الوطني... ومكافحـة الفسـاد الذي خلقتـه السوق السـوداء للمشتقات النفطيـة بأسعارها المرتفعـة جداً ممـا انعكـس سلباً على أسعار النقل، وعلـى الصناعة، والزراعة كما هو معروف...

من ناحيـة أخرى فإن الجـدل الدائر اليوم بين غـرف التجارة ووزارة الاقتصاد والتجارة الخارجية؛ حـول سياسة ترشيد المستـوردات؛ يكشـف بوضـوح الثغرات الكبيـرة حـول هـذه السياسـة... والتي ينفذ منها تجار الأزمات ومقتنصو الفرص لممارسة الفساد وتحقيق أرباح ضخمة غير مشروعة... يكـون المواطنون والاقتصاد الوطنـي ضحيتهـا. المطلـوب التنسيق بيـن غرف التجارة والصناعـة والإدارات الاقتصادية للوصول إلـى برامج واضحة وواقعية للمستـوردات - ضمن الإمكانات المتاحة - تضع حداً للفساد والفاسدين... يمكـن أن تحفظ حقوق جميع المواطنين، والاقتصاد الوطني.

لمـا كان قانـون الضرائـب السوري (مثـل معظم قوانين الضرائب في العالم) يخضع الأرباح غيـر المشروعة لضرائب الدخـل فإنني أرى أنـه يجب على الإدارة الحكوميـة المعنيـة العمل علـى حصر وتحديـد الأرباح غيـر المشروعة لتجار الأزمات، ومقتنصي الفرص في الاقتصاد العادي، وفي اقتصاد الظل... وإخضاعها لضرائب دخـل الأرباح ممـا يساهم في تأمين موارد إضافية للخزينة العامة للدولة وبالتوازي يجب أن يحال أصحاب الأموال المكتسبة بشكل غير مشروع إلى الجهات القضائيـة المختصة لتطبيـق القوانين النافذة... وأعتقـد أن معالجة المواضيع التي عرضت، على سبيل المثال، يُعدّ، في ظل عدم قيام الإدارات الحكومية المعنية بدورهـا المطلوب... جزءاً من المسؤولية الوطنية للدولة التي يتطلع إليها المواطنون كملاذ آمن... لتتدخل بشكل إيجابي وفعال

من أجل ترسيخ سيادة القانون، وتأكيد مصداقية الدولة وتعزيز هيبتها .

ويحتاج ذلك من المسؤولين أن تتوافر لديهم الخبرات، والكفاءات، وأن يتحلوا بالحكمة لاتخاذ القرارات الواقعية، والشجاعة وبالإمكانات المتوافرة لأن الشجاعة، والحكمة، والواقعية، والخبرة؛ تشكل المتطلبات الرئيسية للإدارة الحكومية لمواجهة تداعيات الأزمات.. بالمقابل يجب على الأشخاص الذين تناط بهم المسؤوليات أن يمتلكوا القدرة على التحمل، والانضباط، والإحساس العالي بالمسؤولية في تطبيق القوانين والأنظمة، والتعامل مع المواطنين بصدق وشفافية، وعدم التهرب من المسؤولية.. ومن المسلمات المعروفة أنه، في الأزمات، لاوقت للتعلم والتجريب.. ويجب أن يتمتع المسؤول الحكومي بالقدرة على المبادرة في ظروف الأزمة.. وأن يصار لتعيين الكوادر الخبيرة في مواقع المسؤولية، والاستفادة من الخبرات الوطنية ذات الكفاءات العالية لإشراكهم في معركة حماية الوطن.. في الأزمات، المطلوب من الحكومة التدخل ومواجهة ظواهر مخالفة القانون، والاستهتار والفساد، وتطبيق المحاسبة.. ولا يجوز الاعتماد على عشوائية آليات السوق وتترك تقلبات أداء السوق تعصف هنا وهناك...

أخيراً نأمل أن تساعد هذه الأفكار التي عرضت في تعزيز وتفعيل التدخل الإيجابي للحكومة لتعويض الضعف والتقصير والترهل في بعض مواقع المسؤولية الحكومية... وبالتالي تعزيز دور الحكومة لمواجهة تداعيات الأزمة، وبما ينعكس إيجاباً على المواطن، والوطن.

بين الكاتب والكتاب والقارئ

ساجدة الموسوي *



في آخر تقرير أصدرته مؤسسة الفكر العربي حول التنمية الثقافية في الوطن العربي أشار إلى أن معدل قراءة الطفل العربي/٦/ دقائق في العام مقارنة بـ /١٢/ ألف دقيقة في الغرب، وفي دراسة مماثلة للمجلس الأعلى للثقافة في مصر أشارت إلى أن معدل القراءة للفرد العربي هي ربع صفحة سنوياً مقارنة مع /١١/كتاباً في أميركا و/٧/ كتب في بريطانيا.

قد تكون هذه الظاهرة محبطة وباعثة على القلق خاصة والكل يعرف

* أديبة وشاعرة عراقية مقيمة في الإمارات العربية المتحدة.

وزر السنوات العجاف التي تمرُّ بها أمتنا العربيـــة، فالحروب من جهـــة، والنزوح والهجرة من جهة أخـــرى وازدياد وتائر الفقـــر والبطالة، كل تلك الأسباب تدعو إلـــى التراجع، وما لـــم تتوقف الحروب والنزاعـــات المسلحـــة فـــي المنطقـــة لايمكـــن أن تقول لعجلـــة التقدم سيري إلى الأمام.

من ناحية أخـــرى (وهذا أمر غريب) أن جميـــع المطابـــع في الوطـــن العربي تطبع، وجميع وزارات الثقافة ومؤسسات وشـــركات النشر والتوزيـــع تطبع وتنشر، وكل عام تقام آلاف من معارض الكتب في عمـــوم الوطن العربي وتزدحم بالناشرين والرواد والمتسوقين!

هناك حقيقة لا يغفلها متابع ألا وهي أن العربـــي مجبول على حب القراءة وهو إنسان حضاري يشهـــد له تاريخه العريق وعطاؤه الإنساني على مرّ التاريخ وهو من أوجد الأبجدية الأولى وعلّم سكان الأرض القراءة والكتابة والتقويم والحساب والفلك والطـــب وأبدع الآداب والفنون حتى كتبت المستشرقة الألمانية هونكة عن الحضارة العربية وأسمت كتابها (شمس العرب التي سطعت على الغرب) يذكر أن الجرحى في حروب الـــروم كان القساوسة يعالجونهم بقـــراءة شيءٍ من الإنجيـــل على جراحهم في وقت ذاته كان ابن سينا ببغداد يجري العمليات الجراحية.

لا نقـــرأ إذن ليس لأن العربي لا يحب القـــراءة، بل هو من نزل الوحي على نبيه العربي محمد (صلى الله عليه وسلم) بأول هـــذه الحروف (اِقرأ) مدركاً جل وعلا أن العربي سليل الحضارات الإنسانية سيقرأ ويقرأ ويقرأ، فقـــرأ حتى وصل بحضارته العربيـــة الإسلاميـــة إلى الصيـــن شرقاً وجنوب فرنسا غرباً.

كان الجاحـــظ يقـــول: «إنـــي لا أعلم شجرةً أطـــول عمراً ولا أطيـــب ثمراً ولا أقرب مجتنى من كتاب»

وكان المأمون يـــوزن الكتاب بالذهب ليخرج العالم من دارته مرفوع الرأس غنياً بعلمه وماله.

فـــي بدايات النهضـــة العربية وبعد أن تحـــررت جـــل الأقطـــار العربية من الاستعمـــار الغربـــي منتصـــف القـــرن العشرين وما بعده نشطت حركة التأليف والنشـــر وصـــارت الكتـــب والمجلات العربية تملأ الأسواق والمكتبات وصار الكتاب العربي ينتقـــل من بلد إلى آخر تتلقفه الأيدي والعقـــول، وما من أديب فيما بعد من جيل الستينات وما بعدها

إلا وقرأ لطه حسين وعباس محمود العقاد وإحسان عبد القدوس والسياب ونازك الملائكة والجواهري وغيرهم من الأدباء العرب الكبار.

كان ذلك العهد أيضاً عهد استقرار وثبات اجتماعي وسياسي شجع على نمو الثقافة وازدهارها.

نعود إلى حقبتنا الحالية، حقبة الركود والتراجع (المؤقت إن شاء الله) فبسبب ما أشرنا إليه آنفاً تراجعت القراءة والمطالعة، كذلك تراجع التعليم، ودورة التعليم التي تبدأ من طفل متعلم، أسرة متعلمة، مجتمع متعلم، ينتج عن ذلك حراك ثقافي يؤدي إلى وعي وتحضر بالتالي تزدهر العلوم والآداب والفنون وتبدأ العلوم ترفد المجتمع بصناعة وزراعة وتجارة متطورة كما يحدث في العالم المتقدم، هناك تصبح القراءة جزءاً من حياة الفرد المتعلم، فتزيده إدراكاً بواجباته ومسؤولياته تجاه نفسه وتجاه المجتمع.

لكن عندما نبدأ بطفل لم يتعلم أو كان تعليمه ضعيفاً في مجتمع أهمل التعليم لأسباب لسنا بصددها، تكون المخرجات أفراداً قليلي الوعي بمسؤولياتهم المجتمعية سرعان ما يكونون عرضة للأفكار الهدّامة والخرافات والحركات الغوغائية والعصابات الطفيلية وكل ما يسحب عجلة البلاد إلى الوراء.

نحن الآن نقف عند مفترق الطرق، وما لم نبدأ بثورة في التعليم ونساوي أجور المعلمين بأجور المهندسين والأطباء والقضاة لا نكون قد وقفنا على عتبة التقدم، حين غضب الأطباء والمهندسون والقضاة على أنجيلا ميركل رئيسة وزراء ألمانيا لأنها جعلت أجور المعلمين أعلى من أجورهم، أجابتهم: كيف تريدون أن أساويكم بمن علموكم؟!.

أجل نبدأ من الحلقة الأولى لحلقات البناء الثقافي والعلمي في المجتمع، التعليم، ولا ننسى الحلقات الأخرى، أن يكون الكتاب متوافراً بسعر معقول للقارئ، أن نجعل القطاع الخاص الذي يثرى من دخول المواطنين أن يساهم في تعجيل التعليم ويمد الثقافة بدعم مادي وبشري.

أن لا نسمح للكتاب الضعيف بأن يتصدر المطبوعات لأنه سيحبط القارئ ويسبب عزوفاً عن القراءة، أن ندعم الكتاب الناجح الممتع المفيد ونرفع شأن كاتبه لنحفز الناس على القراءة.

لقد لاحظت وهذه شهادة للتاريخ أن سورية من أوائل الأقطار العربية التي اهتمت بالتعليم والثقافة وأنشأت المراكز الثقافية في جميع المحافظات والمدن وحتى الأرياف.

وقد كان من مخرجات التعليم والثقافة كم كبير من العلماء والأدباء والفنانين حتى كادت أن تكون سورية في العقود الأربعة الأخيرة من أنشط الساحات العربية في الثقافة والعلوم والفنون.

لكن ذلك ما لا يروق لدوائر الغرب وأجنداتهم... لا أريد الخوض بالسياسة، أتركها لأهل السياسة وأدعو الله بالأمن والأمان لسورية وكل بلادنا العربية اللهم آمين.

أَلفاظُ أَلعابِ الصِّبْيةِ في المُعْجَمِ العَرَبيِّ القَديم

د. شوقي المعري*



قد يكون هذا العنوان غريباً، وهو كذلك، وقد يكون جديداً، وهو كذلك، وقد يكون مهماً، بل هو كذلك، ولولا أهميّته لما كان! فأن يخصص بحث لألفاظ الألعاب فهو من الجديد أو ممّا لا يعرفه معظمنا حتى أنا قبل أن أخوض المعجم العربي القديم، ولا أظنّ أنّ أحداً التفت إلى هذا، مقارنة بما أمامنا من ألعاب كثيرة حديثة وجديدة اخترعت في القرن هذا والقرن السابق... وصارت بين أيدي أطفالنا، لكنّ معظمها كان بلفظ أجنبيّ!! وهذا -لعمري- تقصير

* أديب وناقد وأستاذ جامعي.

في قراءة المعجم من كلّ الجهات، ولاسيما ممّن يبحث عن المعجم التاريخي الذي ربّما سنبقى نسمع به، من دون أن يتحقق!!

إنَّ قراءة عنـوان البحث تُظهر ما يمكن أن يتضمّنه:

أ-ألفاظ:

لم تصـل ألفاظ النصّ إلـى مئة لفظ، لايُعرف منهـا إلّا لفظان فقط: الأرجوحة-المسّة! أمَّا بقية الألفاظ فلم تُعرف، بل إنّ كثيراً منها لفظه غريـب مثل: الأنبوثة-البُقّيرى-حَدَبدلى-دَحَنْدح-الدّعَلسة-الضُّريفطيّـة-الطبطابة-عظم وضاح-الفِئال-القجقجة-قَلوبع-مدادقيس-اليرمع...ومامـن شكّ أنَّ هذه الألفـاظ كانت مُستعملـة يعرفها من يستعملهـا علماً بأنّ لفـظ الأرجوحة الذي نعرفُه غير ما ورد في المعجم!

ب-ألعاب الصّبيان:

اللافت للنظر في قراءة ألفاظ الألعاب أنَّ هذه الألعاب كانت مُخصّصة للصّبية أو الصّبيان، أو أنها كانت لا تُذكر، ولكن لم يرد لفـظ منها مخصصاً للبنات! اللهم إلا لفظ الحنبشة الـذي كان مخصصـاً للجواري! والسؤال هل هذا كان ممنوعاً على الفتيات؟ بالتأكيد، نعم، فنحـن مازلنا نذكر أنَّ كثيراً من الألعاب مُنِعَت عن الفتيات والبنات حتى وقت ليس ببعيد، فهو من العيب!

جـ -المعجم العربي القديم:

يوصـف المعجـم العربـي بالقديم، أو يُحدّد بالقديـم، لكل معجم ألّف قبل عصر النهضة العربية، أي أنّ معجم «تاج العروس» للزبيـدي (ت ١٢٠٥هـ) هو آخر معجم يُعتدّ به ضمن هـذا التبويب، وتاج العروس الذي يعدّ الأشمل والأكبر قد ضمّ كل ما سبق من معاجـم بدءاً من معجم «**العيـن**» للخليل بن أحمـد الفراهيدي وانتهـاءً بمعجم «**لسان العـرب**» لابـن منظور مروراً بـكل المعاجم الأخـرى الصحـاح والمقاييـس والأساس والعباب وغيرها.

وقد يكـون مفيداً الاعتمـاد على هذا التقسيم أو التأريخ في تحديد دخول الألفاظ في المعجم العربي، بعبارة أخرى في التأريخ للمعجم العربي...فمـا ورد من ألفاظ بعد «تاج العروس» هو مـن الجديد أو الحديث أو المعاصـر الذي يمكن اعتبـاره امتداداً للمعجم وهذا ينطبق على كثير من الألفاظ في عناويـن ومواضيع وبحـالات مختلفة، ولاسيمـا ما يتصـل بالحيـاة الاجتماعية التـي تتطور طبيعيـاً، ويُلحظ هـذا الأمر فـي كل تلك العناوين، ومنها ألفاظ الألعاب التي لم يبق منهـا إلا كلمتان اثنتان مازالتا تحافظان على وجودهمـا في حياة الناس، وفـي المعجم، وهذه نقطة جدّ مهمة، لأنها

تساعد كثيراً في التعرف على حياة الناس التي كانوا يعيشونها.

٣-قراءة الألفاظ:

لم يهتمّ علماء المعاجم واللغة بهذا النوع من الألفاظ، ربّما لأنهم بعيدون عنها، أو لأنّ عددها قليل جداً، لكنّ هذا لا يمنع، فهي ألفاظ يستعملها الناس، وخاصة الأطفال، ولكنّ السؤال الأهمّ الذي يمكن طرحه: لماذا لم يشرح العلماء نوع اللعبة؟ وممَّ تتألف؟ أهو الإهمال أيضاً؟

إنَّ قراءة الألفاظ التي تدلّ على ألعاب الطفل قديماً ترشدك إلى بعض الأمور أهمّها أن المعجم أو صاحب المعجم اختصر العبارة أو تعريف اللعبة بأن قال: لعبة للأعراب، أو لعبة للصبية، أو لعبة للصبيان، أو لصبيان العرب أو للعجم، أو لهم...المهمّ أنها خصّصت للصبية لا للبنات.

أمَّا المادة التي كانت تصنع منها الألعاب فإنّما هي مواد أولية ممّا يستعمله الناس في حياتهم، وهذا يظهر في بعض الألعاب التي ذكر فيها شيء من هذا؟ لأنّ معظمها لم يذكر فيه إلا أنه نوع من اللعب، وما استعمل كان الخرقة، أي بقايا قماش، يكتّله الطفل ويجعله كالكرة ويلهو بها، وهذا لا يزال مستعملاً في بعض المناطق الفقيرة! أو أن يكون جزء من اللعبة قطعة خشبية صغيرة، أو خيطاً يربط لعبة كالخرّارة، وهذه أيضاً هي من الألعاب التي لا تزال في بعض المناطق، وهو ما يسمّيه العامة البلبل، وهو نفسه الخذروف والدّوارة والدّوامة، وكذلك كانت بعض الألعاب تعتمد التراب الذي على الأرض يرسمون عليه خطوطاً ويشكّلون منها ألعاباً، وهي أيضاً مازالت مستعملة، ولكنّها-غالباً-مخصّصة للبنات!

وثمّة ألعاب تعتمد المسّك والضبط والحمل بين الصبية أنفسهم، وهي لا تزال أيضاً... ومن هذه الألعاب ما كان يعتمد فيه على البَعر، وهو ليس ببعيد عن بعض ألعاب الأطفال في أماكن كثيرة كانت تعتمد كعب العظم، والدحاحل، والأحجار في ألعاب متنوعة، وهذا يعود إلى حسب ما يتيسر للصغار أن يستفيدوا منه!

أي أنَّ بعض الألعاب يعتمد بعض الأشياء الحسية، وبعضها الآخر اللعب فيما بين الصبية، كأن تحفر حُفرة في الأرض ويخبأ فيها شيء ثم يطلب إخراجه ومن يستطع يكن الفائز، أو المسّة التي لاتزال معتمدة حتى الآن.. و كذلك الغُميضاء..

إنَّ لمثل هذه الموضوعات أهميّة كبرى على الرغم من صغر حجمها، فالحجم

ليس مقياساً للأهمية فكم من كلمة واحدة أثّرت في عمل أكثر من صفحات، وما أوردناه في هذا البحث الموجز إنّما حلقة صغيرة من حلقات كثيرة تتصل بالتطور المعجمي، فما ورد من ألفاظ يعطي صورة عن حياة اجتماعية كان يعيشها الصغار قديماً، وصورة عن ألعابهم والأهمّ ألعاب الصبية دون البنات، وما كان يحيط به من أشياء استفاد منها، لكنّ الأهمّ في هذا كلّه إغفال المعجم العربي شرح اللعبة، ماخلا بعض الكلمات القليلة جداً... وقد لا نعرف السبب، ويمكن طرح بعض الأسئلة أهمّها: ألم تستطع اللغة اختراع لفظ مناسب؟ أم أنّ هذا لم يكن من اهتمام أصحاب المعاجم؟ وقد نجيز لأنفسنا التوقّع قليلاً فما ورد من اسم كان يعتمد شكل اللعبة، مثل الأرجوحة، والمسّة، والخرّارة، والدوّامة.. ونختم بالقول كما غابت هذه الألفاظ عن المعجم غابت عن معظم الشعر، ولم يكن لها أثرٌ يُذكر، وهذا هو السبب الرئيسي الذي دفعنا إلى كتابة هذا البحث، وليكن خطوة من خطوات المعجم، وفاصلاً عمّا عرفه القدماء من ألعاب، وعمّا صار بين يدي صغارنا، والفرق لا شك واسع.

معجم ألفاظ الألعاب

الأرجوحة: هي التي يُلعب بها، خشبة تؤخذ فيوضع وسطها على تل عال، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها، وغلام آخر على الطرف الآخر فترجَح الخشبة بهما ويتحركان فيميل أحدهما بصاحبه الآخر.

الأسلوبة: لعبة للأعراب.

الأسْن: لعبة يسمّونها الضبطة والمسّة.

الأنبوثة: لعبة للصبيان وذلك أنهم يدخلون شيئاً في حفير فمن استخرجه غَلب.

البُقَّيرى: لعبة للصبيان وهي كومة من تراب وحولها خطوط.

البَوْصاء: لعبة لصبيان العرب.

التُّوز: الخشبة يُلعب بها بالكُجّة.

التُّون: خِرقة يلعب عليها بالكُجّة.

الجُبّاع: سهم قصير يرمي به الصبيان.

الجَحْفة: اللعب بالكرة.

الجِعريّ: لعبة للصبيان وهو أن يُحمل الصبي بين اثنين على أيديهما.

الجُمّاح: سهم صغير للإنصل مدور الرأس يعلم به الصبي الرمي.

الجِيُص: لعبة بسبع بعرات في لعب أربعة عشر.

الحِرز: الجوز المحكوك.

الحزقّة: ضرب من اللّعب.

الحظوة: سهم صغير يلعب به الصبيان لتعلم الرمي.

الحَنْبشة: لعب الجواري بالبادية.

الحوالس: لعبة لصبيان العرب.

الحُوطة: لعبة تسمَّى الدارة.

الخذروف: شيء يدوره الصبي بخيط في يديه فيُسمع له دويّ.

خَراج: اسم لعبة لهم، وهو أن يمسك أحدهم شيئاً بيده، ويقول لسائرهم: أخرجوا ما في يدي.

الخرارة: لعبة للصبيان = الدوامة.

الخُطّة: لعبة للأعراب.

الدُّباخ: لعبة لهم.

دُبّى حجل: لعبة لهم.

الدَّبُّوق: لعبة للصبيان.

دِحِنْدِح: لعبة للصبيان يجتمعون لها فيقولونها فمن أخطأ قام على رجل وحَجل سبع مرات.

الدُّخَيْلياء: لعبة للعرب.

الدَّرْقلة: لعبة للصبيان.

الدَّركلة: لعبة للعجم= ضرب من الرقص.

الدَّسّة: لعبة لصبيان الأعراب.

الدَّعْكَسة: لعبة.

الدّكر: لعبة للزنج والحبش.

الدّماخ: لعبة لهم غير الدّباخ.

الدّمه: لعبة للصبيان.

الدّوداة: الأرجوحة.

الرَّباب: آلة لهو لها أوتار يضرب بها.

الرُّجّاحة: حبل يُعلّق ويركبه الصبيان، ويقال له: التّواعة والغوّاطة والطّواحة.

الرّفّاصة: لعبة لهم.

الزُّحلوقة= الأرجوحة: اسم لخشبة يضعها الصبيان على موضع مرتفع ويجلس على طرفها الواحد جماعة، وعلى الطرف الآخر جماعة، فإذا كانت إحداهما أثقل ارتفعت الأخرى فتهم بالسقوط فيُنادون ألا خلُّوا ألا خَلُّوا.

الزّمّع: زنبور لا إبرة له يلعب به الصبيان.

السُّحْر= السّحّارة: شيء يلعب به الصبيان إذا مُدّ من جانب خرج على لون وإذا مُدّ من جانب آخر خرج على لون آخر مخالف للأول.

سُدّر: لعبة للصبيان.

الشَّزْن = السُّزُن: الكعب يلعب به.

الشّعارير: لعبة للصبيان.

الضُّرّيفطيّة: لعبة لهم.

الطَّبْطابة: خشبة عريضة يُلعب بها الكرة.

الطّبن:(بالتثليث)لعبة، هي خط مستدير يلعب بها الصبيان يسمّونها الرّحى.

الطّث: لعبة للصبيان يرمون بخشبة مستديرة عريضة يُدقق أحد رأسيها.

الطّريدة: لعبة للصبيان تسمّيها العامة المسَّة والضبطة، فإذا وقعت به اللاعب من آخر على بدنه فهي المسَّة.

الطّيس: لعبة لهم.

العَرعرة: لعبة للصبيان.

العُسْر: لعبة، وهي أن يَنْصبوا خشبة ويرموا من غلوة بأخرى، فمن أصابها قَمَر.

عظم وضاح = عظيم وضّاح: لعبة لهم يطرحون بالليل قطعة عظم، فمن أصابه فقد غلب أصحابه، وكانوا إذا غلب واحد من الفريقين ركب أصحابه الفريق الآخر من الموضع الذي يجدونه فيه إلى الموضع الذي ركبوا به منه.

العَفقة: لعبة يجمع فيها التراب.

العُقّة: لعبة يجمع فيها التراب.

العِياف: لعبة الغُميضاء.

الفئال: لعبة للصبيان.

الفاعوس: لعبة.

الفُرَيْرة: ما يلعب به الصبيان.

الفسفسى: لعبة لهم.

الفَنْزَج = الفنزجة: اللعب= لعبة للعجم = رقصة للمجوس والعجم.

القاصّة: لعُبة لهم.

قاصّة قرفاصة: لعبة لهم.

القَجْقجة: لعبة لهم.

القِرق: لعبة السُّوّر لصبيان الأعراب بالحجاز.

القُزة: لعبة للصبيان.

القفص: القلة لعبة للصبيان.

القُفَّيزة: لعبة للصبيان ينصبون خشبة يتقافزون عليها.

قَلَوّبع: لعبة لهم.

القنين: لعبة لهم.

الكَبكب: لعبة لهم.

الكُبْنة: لعبة للأعراب.

كُتّكت: كُتْكتى: لعبة.

الكُجّة: لعبة لهم يأخذ الصبي خِرقة فيدوّرها ويجعلها كأنها كرة ثم يتقامر بها.

الكجكجة: لعبة.

المِجداء: خشبة مدورة تلعب بها الأعراب وهي سلاح يُقاتل به.

مِداد قيس: لعبة لصبيان العرب.

المِرجوحة: الأرجوحة.

المسّة: لعبة للعرب.

المرصاع: دوّامة للصبيان.

المِقلى= القِلى: عودان يلعب بهما الصبيان.

المِنْجار: لعبة للصبيان.

المنقلة: لعبة.

المِهزام: عود يجعل في رأسه نار يلعبون به.

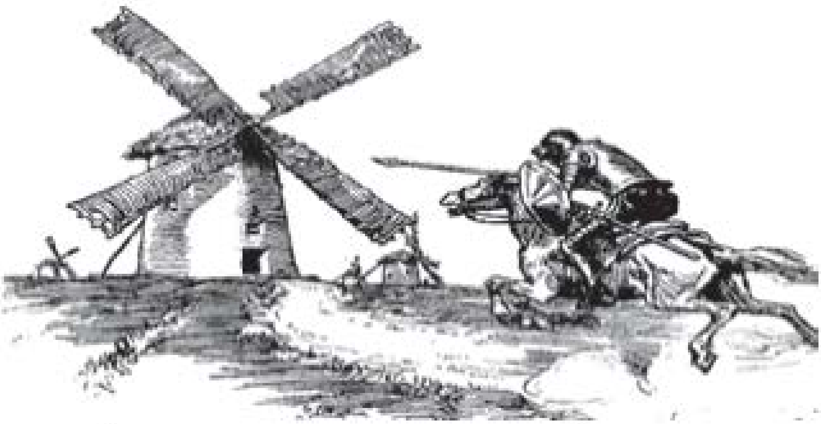
المُواغَدة: لعبة.

النّفَاز= النّفازى: لعبة لهم يتنافرون فيها ويتواثبون.

اليرمع: الخزروني أي الخرّارة التي يلعب بها الصبيان إذا أديرت سمعت لها صوتاً لشدة دورانها.

سيرفانتس فارسُ الحِكمة

د.موريس منصور *



أصبح سيرفانتس فارس الأدب الإسباني بعد عام (١٦٠٥م) حين أطلق روايته الشهيرة «دون كيشوت».

وعرف بعدها الشهرة والمجد ونال العديد من الألقاب مثل: أمير الدهاء والأكتع.

ولكن بعد سنوات وُجِد اسم هذا الكاتب الإسباني الكبير بجانب أسماء مشاهير الحكماء على مرِّ العصور لذلك كان لا بُدَّ من إضافة لقب جديد وهو «فارس الحكمة».

* طبيب وشاعر وباحث.

عاشـــ سيرفانتســـ أو ثيرفانتس (حيث يُلفَظ حرف «C» علـى شكل « ث ») طفولة فاشلـــة صعبة حيــث كان والده مـــن روّاد السجون بسبب الديون المتراكمة على هذا الوالد، وقد حاول سيرفانتس في بداية شبابه أنْ يكتب ولكن الفشل كان له بالمرصاد، ثمَّ كتب الشعر وكان الفشل نصيبه.

ثم انتقل في مرحلـــة من مراحل حياته إلى روما بقصد العمل ولم يُوفَّق، ثمَّ انتسب إلـــى الجيش لسنـــوات ويُقال بأنـــه شارك بمعارك ضدَّ جيش الإمبراطورية العثمانيّة حيث أُصيـــب وفَقَدَ أحد ذراعيه فكان لقب «الأكتع» أحد ألقابه الكثيرة، وبعدها تعرّض للأســـر في الجزائر على يد القراصنة حين كان برفقة الأسطول الإسباني قرب سواحل الجزائـــر، وخلال فتـــرة أســـره ذاق أشكال الغربة والفراق والعذاب كلها ولم يتمكّن من العـــودة إلّا بعد أن دفع لـــه المقربون فدية ماليّة كبيرة، وكان ذلك نحو (١٥٧٥م).

وبعد عودته توظّف في مصلحة الضرائب الإسبانية ولكن السجن كان من نصيبه حيث أمضـــى ثلاث سنـــوات في السجـــن بتهمة الفساد المالي.

وبين عامـــي (١٥٨٧-١٦٠٧م) تنقّل بين إشبيليـــة ومدريد ثمَّ استقرّ في مدريد حتّى وفاته عام (١٦١٦م).

ومـــن أشهر أقوالـــه بعد هـــذه الرحلة الطويلة في دنيا العذاب «يجب عطاء وقت للوقت»، وبعـــد محاولات فاشلة كثيرة أطلق رائعتـــه الشهيرة «دون كيشـــوت» وكان ذلك في عام (١٦٠٥م)، وقـــد نالت هذه الرواية شهرة عالميّة واسعـــة لأنَّ إسبانيا كانت في تلك المرحلة تعيش المرحلة الذهبية، حيث كانت السفن الإسبانية تجول العالم، وكانت اللغـــة الإسبانيـــة معروفة فـــي مستعمرات إسبانيا كلها.

وفي هذه الروايـــة أطلق فارس الحكمة عـــدداً من الحِكـــم التي وجدت لهـــا مكاناً في معجـــم الحِكم والأمثال الصادر عن دار larousse الفرنسية الشهيرة.

ومن حياة هـــذا الفارس ومعاناته سوف ننتقل إلى سرد بعض حِكمه والإضاءة عليها فهـــو القائـــل: «الحياة لمن انتصـــر»، وهنا تكمن حِكمة عميقة جداً في فكر هذا الفارس النبيل حيث تناول فكرة الانتصار.

والانتصـــار بحدّ ذاته هـــو إنجاز يأتي بعـــد معارك بين فريقيـــن يمثّل كل منهما فكـــرة أو طرحـــاً يدافـــع عنـــه ومنذ بدء البشريّة والصراع قائم، والفريق المنتصر هو مـــن يفرض أحكامه علـــى بقية أفراد المجتمع حيث يحظى المنتصر بكلِّ شيء ويقبل المهـــزوم كل الأحكام الصادرة من

المنتصر ســواء كانت هذه الأحكام باطلة أم محقّة.

وأعتقــد هنــا في هــذه الحكمــة بأن سيرفانتــس تنــاول تاريــخ البشرية في كل زمان ومكان.

وعــن القدَر قــال: «**يجـب عـدم وضع عراقيل بوجه القَدَر**».

حيث يعترف سيرفانتس بهذه المقولة بأن قدرنــا لا بُدَّ له أن يأخــذ وقته وأن يفرض أحكامه علــى كل الناس، وعلينا نحن البشر أن نقبــل القَدَر وتقلباته من دون تذمّر.

وهنا تظهــر حقيقة الإيمــان عند هذا الفارس بأبهــى صورها، فهــو عانى كثيراً وتعلّم الصبر وأن يعيش في أقصى الظروف من فقر وسجن وعذاب حتّى عام (١٦٠٥م) حيــن غيّر القَــدَر حياته بعــد رواية «**دون كيشوت**» الشهيرة.

وعن النســاء كان له عــدّة حِكم فقال: «**المـرأة والزجـاج فـي خطـر دائـم**» وهنــا يتعاطــف سيرفانتس مع المرأة بشكل كبير، ويعتقــد أن أرق وأعذب الأشيــاء يمكن أن تحطّم النساء.

فهــل هنــاك أرق وأعــذب وأجمل من الحـــب؟! الــذي يعطي السعــادة وبالوقت نفسه قد يدمّر بعض النساء الجميلات.

فهل يمكن إصلاح الزجاج المكسور؟؟

وفــي مقولة ثانية عن النســاء كان رأي سيرفانتس: «**آراء النساء دون قيمة ولكن من لا يأخذ بها فهو معتوه**».

وهنا يحذّر فارس الحكمة النبيل من قوّة النساء وانتقام النساء وحنكة النساء، ويطلب من كلّ الرّجال الحَذَر من قوّة هذا المخلوق البشري الرقيق الذي يُدعى المرأة.

أمّا قصة هذا الأديب الشهير مع الحب فهي غريبة بعض الشــيء عن أفكار شاعر وأديب ومسرحي مثل سيرفانتس حيث قال: «**الحـب عدوّ كبيـر لا يمكـن الانتصار عليه إلّا عنـد الهـروب منـه**». ولم أجد حتّى الآن قصّة حبٍّ مهما كانت نتائجها في حياة هذا الأديب الكبير.

مــع أنه قــال: «**الشعـور الأوّل ليس بيد الإنسان**».

وأخيراً أثبت أن الحب لا يعنيه حين قال: «**احمـرار الوجـه أفضـل مـن عـذاب القلب**».

وكأنه لا يريد أن يضيف عذاباً آخر في حياته المريرة.

وعــن الــكلام ودور القلــم والفكر فقد أعطى سيرفانتس مكانة كبيرة لكل صاحب قلم صادق فقــال: «**الكلمة الرقيقــة قادرة على إخماد حريق**».

وقـــال أيضاً: «الــكلام دون تفكير يشبه الرماية دون تسديد».

وعن الكلمة أيضـــاً أرسل رسالة إلى كل البشر في كل العصور حين قال:

«**لا يمكـن للسيـف أن يهـزم القلـم، ولايمكن للقلم أن يهزم السيف**».

وهنا دعــوة أبدية للتعاون بين كل أفراد المجتمع، فنحن بحاجة للقوّة والرقّة والفكر بالوقت نفسه.

فالقوّة ضرورية والقلم ضروري وعندما يتعاون القلم والقوّة يمكن بناء الأمم.

فمن واجب كل مفكّــر أن يكتب ويطرح الأفكار العظيمة من أجــل البناء ومن أجل مصلحة الأمة والشعب.

وبمـــا أن فارسنـــا شاعــر فقــد اهتمَّ بالموسيقا أيضاً لأنه كتب للمسرح.

والمسرح يحتاج لشعر ونثر وموسيقا فقال: «**الموسيقـا تطـرد الشياطيـن**» وأيضاً «**الذي يغني بصدق يشعر بأنّ كل كيانه يرقص**».

أمّـــا فلسفته عن المال فهي عميقة جدّاً فقد تحدّث عن المال كثيراً فقال:

«**الطمع يقلب وعاء الذهب بما فيه**».

«**المنفعة الماديّة لا تنام بجانب الشرف في سرير واحد**».

وبما أنــه عاش حياتــه بمجملها فقيراً وشاهد ما يفعله الأثرياء بالفقراء قال:

«**سخافة الأثرياء حكمة**».

«**الهدية تحفر الصخور**».

وفي نهاية حديثه عــن المال قال: «**كل إنسان يساوي ما يملكه من المال**»

«**معك قرش بتسوى قرش**»

أمَّـــا وصيته فقد قال فيهـــا: «**المثابرة والدة الثروة**».

«**الله يمهـل الأشـرار ولكـن ليـس لفتـرة طويلة**».

لقـــد كان سيرفانتس رائـــد الواقعية، وانتقد وبشكل لاذع طبقة كبيرة تعيش في كل مجتمع لا تعــرف إلّا التفاخر والكلام وما أكثر هـــذه الفئة من البشر في أيامنا هذه، وكل فرد من أفراد هذه الفئة شعاره «أنا»، وقد خاطبهم فارس الحكمة بحكمة شهيــرة تقــول: «**بيــن الأقـوال والأفعال مسافة شاسعة**».

وعن كل شخص يدّعي المهارة ولايكترث لأحد حذره سيرفانتس حين قال:

«**طريق الفضيلـة صعب وطريق الرذيلة واسع وسهل**».

أمَّا لقب «أمير الدهاء» فقد أُطلِق عليه بعد قوله الشهير: «**الثعلب ماكر ولكن صائد الثعالب أكثر مكراً**».

رحـل سيرفانتس عن هـــذه الحياة في عام (١٦١٦م) جســداً ولكن أعماله مازالت

مدوّنة بأحرف من ذهب على صفحات الأدب والشعر والحكمة.

أمَّا رواية «**دون كيشوت**» التي كتبها بين عامي (١٦٠٥-١٦١٥م)

حيث جسّد شخصية مغامرة حالمة قراراتها غير عقلانية وخاض بطلها المعارك الخيالية ضدّ شياطين طواحين الهواء وضدّ جيوش الأغنام.

وحاول سيرفانتس دمج الأسلوب البيزنطي مع الأسلوب الإسباني والإنكليزي، وكتب الشعر الملحمي وأكثر من النثر وفرض أسلوبه الواقعيّ ومزجه بالأحلام الخيالية، وكأنه كان الفارس النبيل الذي جسّد شخصية البطل البرجوازي في رواية «**دون كيشوت**».

أمَّا كتابه «**النموذجيّة**» الذي صدر عام (١٦١٣م) فكان عنوان مرحلة الرواية الواقعية.

ومن أعماله الأخيرة: «**رحلة إلى جبل بارناسوس**» وكان ذلك عام (١٦١٤م).

بَشَّرَ سيرفانتس بالعدل ودافع عن المساكين، وأصرَّ على قوّة الخير وانتصاره فقال: «**لا تطلب شيئاً بإمكانك أخذه بالحق والقوّة**».

«**المال الحرام سيذهب مع صاحبه**».

ومن أقواله السّاخرة: «**العسل لم يُصنَع من أجل الحمير**».

كان سيرفانتس ملك الواقعيّة الأدبية الإسبانية وكان أيضاً أمير الدهاء وسيبقى اسمه خالداً في تاريخ الأدب والفكر العالميّ.

ومن مشاهير كتيبة فرسان الحكمة الإسبانية أديب إسبانيّ شهير هو (بالتازار) (١٦٠١-١٦٥٨م)، وأعتقد بأنّه حمل راية سيرفانتس وتابع بأسلوبه المميّز العميق والساخر بالوقت نفسه، فهو صاحب رواية «البطل» التي نُشرَت عام (١٦٣٧م)، ويُعرَف في إسبانيا بأنه كاتب وفيلسوف محترم، ويقال بأنه كتب بأسماء مستعارة.

ومن أقواله الشهيرة التي صُنِّفَت بأنها حِكم وأمثال ما يلي:

«**نحن لا نملك إلّا الوقت**».

«**الرسالة حوار مكتوب**».

«**المختصَر مفيد**».

«**بيع الهواء فنٌّ عظيم**».

ولعلَّ أشهر حِكمة شهيرة هي:

«**إذا جنّ ربعك، عقلك ما بينفع**».

ومن فرسان الأدب الإسباني هناك أديب كبير يُدعى (سيزار أودين) الّذي قال: «يفقد الذئب أسنانه لكنه لا يفقد ذاكرته».

تألّق فرسان الأدب الإسباني في محافل الأدب والشعر والحِكمة والمسرح، وأصبحوا بفضل إبداعهم فلاسفة وشعراء وأدباء لهم مكانة رفيعة في عالم المعرفة والأدب العالمي.

وأختم بحكمة إسبانيّة طريفة تقول: «**اكذبوا حتّى تجدوا الحقيقة**».

المراجع

- معجم الأمثال والحكم بالفرنسية.
- دون كيشوت اسير فانتس».
- موسوعة الأدب العالمي.
- Wikipedia الموسوعة الحرّة.

كيف نستغني عن الطبيب النفسي؟

*
ترجمة: عبير حمود



كثر في هذه الأيام اللجوء إلى الطبيب النفسي للهرب من مواجهة صعوبات الحياة وانعكاسها على النفس الإنسانية، لكن من الملاحظ أنّ هذا الطبيب غالباً ما يفشل في تقديم علاج مخلّص، من هنا يأتي دور هذا المقال في لفت النظر إلى ضرورة أن يغير الإنسان نفسه بنفسه بتغيير أفكاره وتعامله مع ذاته.

* كاتبة ومترجمة.

لماذا لا يستطيع طبيبي النفسي شفائي بشكل تام؟

لا يستطيع أي شخص تغيير شخص آخر أبداً. نقطة، انتهى.

إنَّ الشخص الوحيد الذي أستطيع تغيره هو ذاتي؛ ولا أحد يستطيع أن يغيرني. وإذا ادّعى أحدهم إمكانية تغيري، فهذا يعني أنني أعطيهم (صراحة أو ضمناً) الإذن في ذلك.

لا يتعلق التغيير إلا بي. أنا الذي أختار ما أفعله وما لا أفعله. أنا أقرر أن أنمّي أو أمنع تنمية بعض الأفكار والمشاعر. أنا الذي يقرر التحرك بكل استقلالية وإثبات ذاتي. وإذا تخليت عن كرامتي كلياً، واستسلمت لشخص لا أعرفه، فيمكنني وبشكل مؤقت أن أجعله حاجزاً على نفسي، بل يستطيع أن يأخذ استقلاليتي بأية لحظة.

أنا، أنا، أنا: تكرار هذه الفقرات، التي وردت سابقاً، يشير إلى أن كل فرد يسيطر على حياته.

وحتى لو انتابنا انطباع أن الأشياء تهرب منا، فالمسؤولية عن هذا التنازل مفروض علينا كلياً.

تنتمي اختياراتنا إلينا. نحن في جوهرنا كائنات حرة. لماذا يبدو هذا المفهوم صعب القبول بالنسبة إلى كثير من الناس؟ ربما -لأنه في الأصل- أثناء طفولتنا كنا تابعين وعاجزين عن القيام بخياراتنا، كان لآبائنا سلطة شاملة علينا، كنا نتعلق بهم بشكل كامل من أجل بقائنا أحياء. في بداية حياتنا كنا نشعر بأننا مقيدون كلياً لكن عندما بدأنا بإثبات ذواتنا في حوالى السنتين من عمرنا وجدنا أننا «لا نطاق» نعاقب في أغلب الأحيان لأننا لم نكن عقلاء أو مطيعين. أيضاً تعلمنا أن نخاف من أن نكون «أشراراً» هذا يعني للأسف أن نفعل ما كنا نرغب القيام به.

الحب هو حاجة إنسانية أساسية؛ قد يموت الرضيع المغذى جيداً إذا حُرم من الرابطة الجسدية ودلالات المودة. جلدنا بحاجة للملامسة. جسدنا بحاجة للاحتضان، نفسنا بحاجة للحب. إننا جاهزون لأي شيء لنرضي تلك الحاجات. كما أننا ندفع ثمناً باهظاً حين ينتابنا شعور بالاعتماد على الآخرين كلياً. يقوم تعليمنا على التخلي عن استقلاليتنا، وأن نتبادل الحب مع أولئك الذين يملكون سلطة علينا.

للأسف هذا الحب لن يأتي أبداً.

مفارقة: يحب الناس الشخصيات الكاملة المسؤولة والمستقلة أكثر من حبهم للأشخاص الفقراء.

تعلمنا خلال طفولتنا ومراهقتنا أنه من طبيعة الأشياء أن نكون منزعجين بقوة من آبائنا، معلمينا وأصدقائنا. متى تعلمنا أنه آن

وقت تأكيد ذواتنا؟ إذا كنا محظوظين نكون ضمن إطار علاقات الحب المتفتحة أو خاضعين لتأثير نماذج يحتذى بها؛ وإذا لم نكن محظوظين فإننا نتواصل مع طبيب نفسي فطن.

لكن لا أحد يستطيع تغييرك ولا حتى طبيبك النفسي ولا الشخص الذي قدّم نفسه لك كنموذج ولا شريكك، مع ذلك فإن هذه النماذج الأخيرة تستطيع تزويدك بوسط وبيئة مناسبة لتغيّرك، تستطيع تشجيعك لإثبات ذاتك، لتمارس قدراتك كلياً، لتواجه المخاطر، لترتكب أخطاء وتعرف أنك مقبول ومحترم مهما حصل.

لا أحد يستطيع تغييرك. نتيجة طبيعية لا تستطيع تغيير أحد إذا لم يكن أنت ذاتك، طبيبك النفسي هنا ليساعدك على تركيز تفكيرك حول نفسك. الوقت والطاقة اللذان كرستهما لتغييرك سيقودانك إلى الإحساس بأنك أكثر قوة وبأنك سيد مصيرك؛ ستستفيد مما تفعله وتستحق العودة إليه.

ما هو النجاح؟

يتوجه النموذج (الخطي) الغربي نحو النجاح فيُعرّفه بأنه تراكم المنافع المادية أو الحصول على وضعٍ اجتماعي راقٍ.

إنَّ الصورة التي نصنعها للنجاح هي صورة زوجين في سيارة فخمة بمجوهرات باهظة وثياب على الموضة وأحذية ثمينة مفصّلة. إننا نظن أن النجاح قابل للقياس بشكل كمي، وأننا نستطيع تعريفه والوصول إليه بسهولة. إن الناس الناجحين هم أولئك الذين حققوا طموحاتهم المادية والآخرون هم فاشلون.

إذن سمات النجاح هي: الثقافة والمال والسلطة. وإن نقص الثقافة والمال والسلطة والطموح أيضاً هي من علامات الفشل. من المهم الملاحظة أنه في هذا النموذج كل معايير النجاح هي خارج الذات وكلها مرتبطة بـ «المظهر» تقدير الذات يتعلق بالكامل بأشخاص آخرين أو بأحداث خارجية، وبالواقع بما أنهم أشياء خارجية هم ليسوا دائمين. كم هو غريب أن تكون محترماً في يوم ما لأبعد حد وفي اليوم التالي محتقر بخسة لمجرد حادثة بسيطة كانهيار سوق الأسهم أو حرب أو كارثة طبيعية، وكذلك النموذج النشط يطرح مشكلة أخرى، يوجد أناس عديدون يطبقون بحرارة وصفة النجاح يدرسون بحماسة، يعملون بكل قواهم، يلتقون بأناس من ذوي المكانة الاجتماعية ويقومون بكل ما هو مناسب؛ لكنهم لا ينجحون. هذا ليس خطأهم ألا يصلوا إليه. على الرغم من الفرضية المطبقة في النموذج النشط كل واحد سيد قدره، النجاح الذي قمنا بتعريفه في الأعلى لا يتعلق بنا. يلعب الحظ والصدفة والقدر

دوراً هاماً في نجاح المؤسسات الإنسانية، لكنها لا تظهر بشكل عام في النموذج الخطي؛ لأننا لا نملك أية سيطرة عليهم.

في النموذج الوجودي لا يوجد تعريف للنجاح. النجاح هو الكينونة. أنت على قيد الحياة، فأنت موجود وهذا كافٍ. الطريقة الوحيدة لقياس نجاحك بحسب هذا النموذج سيكون بمعرفة أي رأي تملكه عن ذاتك. إذا أحببت نفسك وحتى إذن تدمر محيطك، فأنت ناجح إذاً. فإن لم تستطع أن تحب نفسك، فأنت لست فاشلاً. ببساطة لم تتعلم بعد أن تحب نفسك. هذا التعريف للنجاح هو داخلي ونحن أسياده.

مفارقة، النموذج الشرقي يقبل ويدمج وجود الحظ، الصدفة والقدر، ولا يبحث عن الهيمنة عليهم. إنهم خارج الذات كلياً، ويهربون من هيمنة الفرد؛ لكن كل العناصر التي تحكّمنا بها هي داخل الشخص. الفرد ككائن منسجم مع هذا النموذج يمتلك القدرة على التحكم أكثر من الناشط في النموذج الغربي، على الرغم من أنه يقدم نفسه كوصفة لاكتساب السلطة والهيمنة، والنجاح.

أستطيع النجاح. أستطيع التحكم بنجاحي، عبر طريقة وحيدة تحسم في النهاية وأمام الشخص الأكثر أهمية في حياتي: هو ذاتي.

ماذا يرى الله في داخلنا؟

إذا كنا مؤمنين فإنه يرى كل شيء.

وإذا لا... فإنه لا يرى شيئاً.

إنَّ الحالتين يمكن تأملهما في سيرورة تعلم تقدير الذات. تذكَّر النموذج الدائري هو نموذج القبول. نحن ما نكون عليه. نؤمن بما نعتقد. ليس لنا أن نؤمن بمعتقدات الآخرين، ولا أن نخضع الآخرين لمعتقداتنا.

اندفعتُ نحو هذه النظرية وكرّست أسلوبي في العلاج النفسي إلى زمن كنت أشك فيه بوجود الله. حالياً لدي إيمان لايتزعزع به. بالنسبة لي ينتمي الله والخير إلى الكل نفسه. إن طبيعتنا الداخلية خيّرة لأنها إلهية، وتطمح جهودنا للدخول في علاقة مع الإله الموجود خارجنا.

أدعو غير المؤمنين بأن يستبدلوا مفهوم الله بالطيبة. بالنسبة إلى أولئك الذين لايؤمنون بالطيبة، هذا الكتاب لا يمكن أن يملك إيحاء، ولا مفهوماً لتقدير الذات.

ما هو السؤال؟

- ما هو الشعور الذي ينتابني عن نفسي في هذه اللحظة؟

منذ أن حُدّد السؤال حول الصعود السريع للنموذج الوجودي، ومنذ أن اخترناه لتطوير تقدير الذات، وأن نحب ذاتنا وأن

نعالــج أنفسنا بطريقة محببــة مهما كانت الظروف، لم يبقَ ســوى سؤال يطرح نفسه، إنه الآتي:

- **ماهو الشعور الذي ينتابني عن نفسي في هذه اللحظة؟**

إنه سؤال يجب تكــراره مراراً، ولاسيما عندما نبدأ به لتعلّم حب الذات، والتصرف بشــكل محبــب تجاهها. يجب طــرح هذا الســؤال مباشرة بعد الأفــكار والتصرفات والأفعــال وانعكاساتها. هــذا السؤال يحلّ محــلّ «كيف ألاحظ؟» و «مــا الذي لا يدور حولي ؟» إنــه السؤال الذي سيمنحنا مفتاح معرفة الــذات والثقة بها؛ وسيسمح لنا بأن نسلّط الضوء بدقة على ما نستطيع السيطرة عليه وتعديله.

ما هو الجواب؟

يملك هــذا السؤال جوابيــن محتملين ويفضيان إلى سلوكين مختلفين، فيما يتعلق بالجــواب المعطــى على الســؤال السابق: **«ماهــو الشعور الــذي ينتابني عن نفسي في هذه اللحظة؟»**

الجواب رقم (١): «أنا جيد. أتقبل ما قمت به من فكرة أو قول، أقوم بأفضل ما عندي».

التصــرف رقم (١): كافئ نفسك، اغمز نفسك أو وجّه ابتسامة لك في المرآة، اشترِ لنفســك قطعة حلوى صغيــرة، قل لنفسك كلمة لطيفة، مثل «أحسنت!».

الجــواب رقم (٢): «أنــا تعس. لم أحب ما قمت به من قول أو فكرة، كنت أفضل لو ذلك الشيء لم يحدث أبداً. لم أتقبله».

التصرف رقــم (٢): لا تعاقب نفسك؛ لاتهن نفســك؛ لا تسأم مــن الذنب. قرر ببساطة التصرف بشكل مختلف في المرة القادمــة، وأن تجرّب تصرفاً آخر أو فكرة أخرى.

تذكر: بالممارسة يصبح الإنسان خبيراً، وكل البشــر يمكن لهــم أن يخطئوا. عندما تتعلم من أخطائك ستوسّع مراجعك وستحسّن مهاراتك فــي استخدام قدراتــك الجديدة. الإنسان خطّاء وسيوصلك أيضاً للقيام بأشياء تضايقك وتزعجك بمــا أنك إنسان، فلديك الحــق بارتكاب أخطــاء. بفضــل تقديرك لذاتــك ستتوصل إلى العفو عــن أخطائك. افتــدِ نفسك؛ قدّم لنفســك اعتذارات وابدأ صفحة جديدة. تابع دروس حياتك.

المصدر

ترجم المقال بتصرف من كتاب: Psyde Poche.

للكاتبة : Susanna Mcmahon.

مركبات فضائية تسبر المنظومة الشمسية

م. فايز فوق العادة ٭

أُطلقت المركبة الفضائية كاسيني نحو كوكب الزهرة في أيلول من العام (١٩٩٧م) لم يكن كوكب الزهرة هو الهدف، دارت المركبة حول الكوكب الذي زودها بدفع إضافي وأخذت طريقها صوب كوكب زحل، بثت المركبة أثناء رحلتها الطويلة صوراً لمختلف الأجسام التي مرّت بقربها، كان العالم غاليليو قد اكتشف بمنظاره البسيط في العام (١٦٠٩م) وجود أربعة أقمار للمشتري دعيت تخليداً لذكراه أقمار غاليليو وهي: أيو وأوروبا وغانيميد وكاليستو، قامت المركبة كاسيني بالتقاط بعض الصور لقمر أيو يومي الثاني والثالث من كانون الثاني من العام (٢٠٠١م) أجرى العلماء مقارنة لهذه الصور مع صور أخرى التقطتها المركبة الفضائية غاليليو يومي (٣٠و٣١) من كانون الأول عام (٢٠٠٠م)، كانت مركبة غاليليو قد خصصت لدراسة كوكب المشتري وتوابعه ووصلت مشارف الكوكب في كانون الأول من العام (١٩٩٥م)، استخدم العلماء مرشحات للأشعة فوق البنفسجية لدى دراسة الصور التي بثها

٭ رئيس الجمعية الكونية السورية.

المركبة كاسينـــي. أظهرت المعالجة كتلتين عملاقتين من الغاز والغبار تدل على انفجار بركانين على القمر آيو. يظهر البركانان في أفق آيو بشـــكل واضح أثنـــاء الفترة الليلية لآيو، قذف البركان الأول حممه حتى ارتفاع /٤٠٠/ كم فوق سطح آيو. أمَّا البركان الثاني فقد وصلت قذائفه حتى ارتفاع /١٥٠/كم. كانـــت المركبة غاليليو علـــى مسافة مليون كيلو متـــر من آيو. التقطت المركبة كاسيني صور القمر آيو من مسافة عشرة ملايين من الكيلو مترات.

ما الذي يلفـــت نظر الراصد الذي يتجول بين أهـــم الأقمار التابعة لكوكـــب المشتري؟ تتوافـــر الإجابة فيما خلصـــ إليه العلماء من دراسة المعلومات التي أرسلتها مركبات الفضاء التي قامـــت بدراسة الكوكـــب وتوابعه. يبعد كاليستو (١٨٧٣٦٠٠) كم عن مركز المشتري. إنَّ دورة كاليستو حول المشتري دورة تزامنية، أي أنـــه لا يُظهـــر إلاَّ وجهـــاً واحـــداً للراصد مـــن المشتري تماماً كما يفعـــل قمر الأرض. يدور كاليستـــو حول نفسه فـــي المدة نفسها التـــي يدور فيها حـــول المشتري وهي تساوي (١٦,٦٩) يومـــاً أرضياً. يلاحظ من يقف على سطح كاليستو في تلك المدة أن الشمس دائرة كاملـــة. بكلمات أخرى، تتحرّك الشمس حركة ظاهريـــة بطيئة في سمـــاء كاليستو بالمقارنة مع حركتها الظاهرية في سماء الأرض؛ تكافئ المـــدة الفاصلة بين شـــروق الشمس وغروبها على سطـــح كاليستو نحو مئتي ساعة. تساوي المدة المناظرة على قمر غانيميد (٨٤) ساعة وعلى القمر أوروبا (٤٢,٧) ساعة وعلى القمر آيو (٢١,٢) ساعة.

لا يزيـــد القطر الظاهـــري للشمس في جـــوار المشتـــري عـــن ست دقائـــق قوسية مقارنة بامتدادها الظاهري في سماء الأرض البالـــغ /٣٢/ دقيقة قوسية. لا تتجاوز كمية الطاقة الضوئيـــة والحراريـــة الواصلة من الشمس إلى المشتري أربعة بالمئة مما تناله الأرض مـــن هذه الطاقة. يظهـــر المشتري فـــي سماء كاليستو أكبر من القمر في سماء الأرض ذلك أنه يمتد (٤,٣) درجة في سماء كاليستو مما يجعلـــه أكبر ظاهرياً من حجم القمر في سماء الأرض بنحو (٨,٣) ضعفاً.

يبدو المشتري من سطح آيو جسماً متغيراً يلاحـــظ الناظر دورانه بشـــكل واضح. يسطع المشتري في سماء كاليستو بما يكافئ (١٢,٥) ضعفاً سطوع القمر البـــدر في سماء الأرض. أمَّـــا في سماء غانيميد فيرتفع هذا الرقم إلى (٣٥) ضعفـــاً ويصل إلى (٨٥) ضعفاً في سماء أوروبا وإلى (٢٢٠) ضعفاً في سماء آيو.

تضـــيء الشمســـ فـــي سمـــاء كاليستو (١٣٦٠) ضعفاً إضاءة المشتري كما يضيء

في سماء آيو بما يعادل (٧٧) ضعفاً إضاءة المشتري. يلاحظ الراصد من على سطح أي تابع من توابع المشتري أن مشهد المشتري في سماء التابع يمر عبر أطوار متباينة تماماً كما يمر مشهد قمر الأرض، بل ومشهد الأرض بالنسبة لراصد من على سطح القمر. نظراً لما يتمتع به المشتري من جذب ثقالي قوي، فإن توابع المشتري تتحرك حوله بسرعات أكبر من سرعة دوران القمر حول الأرض. وبينما ينجز قمر الأرض المرور عبر أطواره المختلفة في (٢٩,٥) يوماً، فإن المشتري يمر بكل أطواره بالنسبة للراصد من سطح تابعه كاليستو في (١٦,٧) يوماً، وبالنسبة للراصد من سطح تابعه غانيميد في (٧,١٦) يوماً، وبالنسبة للراصد من سطح تابعه أوروبا في (٣,٥٥) يوماً، وأخيراً بالنسبة للراصد من سطح تابعه آيو في (١,٧٧) يوماً فقط.

تتكون حلقات زحل من أجسام متجلدة صغيرة تتراوح أقطارها من عدة سنتمترات إلى عدَّة أمتار، هذا إلى أن مركبات الفضاء أكدت وجود حبيبات بالغة الضآلة وصخور كبيرة تتجاوز أقطارها عدَّة كيلو مترات. صنف الفلكيون عدَّة حلقات لكوكب زحل هي الحلقات (C – B – A). أضافت مركبات الفضاء حلقات جديدة مكتشفة هي (G – F – E – D). تتخلل الحلقات قطاعات أقل كثافة بأجسامها منها فاصل كاسيني الذي يفصل منظومتي الحلقات (A و B) وكان كاسيني قد اكتشفه في العام (١٦٧٥م). من هنا كانت تسمية المركبة الفضائية كاسيني. أكد كاسيني في العام (١٧٠٥م) أن حلقات زحل لا يمكن أن تكون كتلاً صلبة متماسكة بل شظايا مبعثرة. أثبت ذلك العالم جيمس كلارك ماكسويل عام (١٨٧٥م) فقد برهن أن الحلقات الصلبة المتماسكة لا شك تكون عرضة لقوى المد الثقالي الهائلة لكوكب زحل بما يؤدي إلى تمزقها وتوزعها في كتل أصغر لعل تيتان هو التابع الأهم من توابع زحل وكان العالم كريستيان هايجنز هو أول من اكتشفه في القرن السابع عشر. إنه ثاني أكبر الأقمار في المجموعة الشمسية والوحيد بين تلك الأقمار الذي يحيط به غلاف جوي.

دخلت المركبة الفضائية كاسيني جوار منظومة كوكب زحل في الأول من تموز عام (٢٠٠٤م) درست المركبة في غضون أربع سنوات كل مكونات المنظومة المذكورة بما في ذلك كوكب زحل نفسه وحلقاته وتوابعه. فصلت المركبة عنها مسبراً خاصاً بدراسة القمر تيتان في الرابع عشر كانون الثاني عام (٢٠٠٥م)، دعي المسبر هايجنز نسبة

للعالم كريستيان هايجنز. دلف المسبر عبر الغلاف الجوي الكثيف للتابع تيتان واستخدم مظلة خاصة في إحدى مراحل هبوطه على التابع للتخفيف من السرعة وإتاحة المجال لتفعيل الأجهزة المحمولة على متنه وإجراء دراسة مفصلة للغلاف الجوي للتابع.

قامت تلك الأجهزة بقياسات متعددة خاصة بتركيب ذلك الغلاف وسرعة الرياح وبنية الغلاف الجوي لتيتان ومختلف التفاصيل الخاصة بسطح التابع.فُصلت المظلة على ارتفاع أربعين كم عن سطح تيتان، وتابع المسبر هبوطه إلى أن استقرّ على سطح تيتان. استغرق هبوط المسبر ساعتين وسبعاً وعشرين دقيقة استقرّ بعدها على سطح تيتان.

تابع المسبر دراساته وأبحاثه لتيتان مدة إضافية بلغت ساعة وعشر دقائق. بلغت سرعة الرياح في الغلاف الجوي لتيتان مئتين وعشرة أمتار في الثانية. أفاد المسبر هايجنز بأن الآزوت يشكل المكون الرئيسي للغلاف الجوي لتيتان وتتراوح نسبته من (٨٧٪) إلى (٩٩٪). يأتي الميثان في المرتبة الثانية ونسبته بين (١٪ و ٦٪) ثم الأرغون ونسبته بين (٠٪ و ٦٪). تتتالى بعد ذلك الغازات الأكثر ندرة في الغلاف الجوي لتيتان ومنها الهيدروجين الجزيئي وأوكسيد الفحم وغاز الفحم وسيانيد الهيدروجين والأسيتيلين والإيثيلين والبروبان وسواها.

يكافئ الضغط الجوي عند سطح تيتان مرة ونصف الضغط الجوي عند سطح الأرض كما تبلغ درجة الحرارة نحو مئة وثمانين درجة تحت الصفر المئوي. يتكاثف الميثان في هذه الاشتراطات ويتحول إلى سائل ثم لا يلبث أن يتبخر. إنه يلعب الدور نفسه على تيتان الذي يلعبه الماء على كوكب الأرض. كان سطح تيتان رطباً في البقعة التي حط عليها المسبر هايجنز وكان الميثان السائل يتخلل السطح حتى عمق عدة سنتمترات.

لا شك أن هطلاً من الميثان كان قد حدث على تلك البقعة قبيل وصول المسبر هايجنز بمدّة وجيزة. ما حدث أن المسبر هايجنز غاص في تربة تيتان حتى عمق عشرة سنتمترات في البقعة التي هبط عليها. درس المسبر حبيبات الماء المتجلدة على سطح تيتان وتبين للعلماء وفق المعلومات التي بثها المسبر أنَّ نوعاً من جريان سائل كان يحدث عبر تلك الحبيبات تماماً كما يجري الماء على الحصى والأحجار في الأنهار المنتشرة على كوكب الأرض. أظهرت الصور التي التقطها المسبر أثناء هبوطه شبكات من أقنية صرف تتجمع وتلتقي في بقع سوداء كبيرة لعلها بحيرات من الميثان

السائل أو لربما كانت بحيرات من الميثان السائل ثم لم تلبث أن جفّت.

إنَّ الغلاف الجوي لتيتان الآن يماثل إلى حد بعيد ما كان عليه الغلاف الجوي لكوكب الأرض منذ أربعة آلاف مليون سنة، لقد تحول الغلاف الجوي للأرض وتطور بفعل العوامل الطبيعية وغدا صالحاً لحياة الإنسان. يأمل العلماء أن يحولوا الغلاف الجوي للتابع تيتان بآليات مشابهة لكن بشكل صنعي كي يصبح قادراً على إيواء أفراد من الجنس البشري. لن يستغرق التحويل الصنعي للغلاف الجوي لتيتان المدة الزمنية الطويلة نفسها التي لزمت للتحويل الطبيعي للغلاف الجوي لكوكب الأرض، إذ يتصور العلماء أن تُنجز العملية في غضون ربما آلاف قليلة من السنوات. شكّل هبوط المسبر هايجنز على تيتان الخطوة الأولى في هذا المشروع تنطوي المرحلة الأهم في مشروع تحويل الغلاف الجوي لتيتان تحويلاً صنعياً على رفع درجة الحرارة هناك بفعل دفيئة زجاجية صنعية بدورها.

نتطرق هنا إلى سلسلة المركبات الفضائية الروسية فينيرا التي خُصصت لاستكشاف كوكب الزهرة، بدأ إطلاق المركبات من هذه السلسة في ستينيات القرن الماضي واستمر إطلاقها حتى الثمانينات من القرن نفسه. استطاعت بعض هذه المركبات أن تحقق هبوطاً هادئاً على سطح كوكب الزهرة على الرغم من الغلاف الجوي الكثيف للكوكب والضغط الجوي الكبير على سطحه.

بنيت المعلومات التي أرسلتها المركبات فينيرا على أن درجة الحرارة على سطح كوكب الزهرة تتجاوز خمسمئة درجة مئوية كما يبلغ الضغط الجوي على سطحه تسعين ضعفاً للضغط الجوي على سطح الأرض.

عندما كانت إحدى المركبات فينيرا ترتطم بالغلاف الجوي لكوكب الزهرة، كان الاحتكاك يرفع درجة حرارة سطحها الخارجي حتى آلاف من الدرجات. على الرغم من ذلك كانت المركبة تفتح مظلة خاصة لتخفيف السرعة وتحقيق الهبوط الناعم على سطح الكوكب. عملت بعض المركبات فينيرا على سطح كوكب الزهرة لمدة ساعتين قبل أن تمسحها درجات الحرارة والضغط الجوي بشكل كامل. إنَّ معظم الغلاف الجوي لكوكب الزهرة هو من غاز الفحم كما يحتوي نسباً من الكبريت. أفادت المركبات فينيرا بحدوث تغيرات في نسب غاز الكبريت في الغلاف الجوي لكوكب الزهرة كما صورت صواعق وبروق فيه، الأمر الذي دعا العلماء إلى صياغة استنتاج مفاده أن النشاط البركاني ما زال مستمراً في كوكب الزهرة.

لعل كوكب الزهرة قد تعرض لسيلان الحمم البركانية على سطحه منذ خمسمئة مليون سنة. درس العلماء المعدل الوسطي للقصف النيزكي للأجسام القريبة من الشمس كعطارد وقمر الأرض واستنتجوا أنَّ المعدل كان مطابقاً في حالة كوكب الزهرة، لكن انتشار الفوهات النيزكية على سطح كوكب الزهرة كان أقل من المتوقع، الأمر الذي دعا العلماء إلى القبول باستمرار النشاط البركاني وسيلان الحمم على سطح الكوكب، ذلك السيلان الذي كان يغطي الفوهات الناجمة عن القصف النيزكي.

يقول العلماء إنَّ كوكب الزهرة هو توءم كوكب الأرض.

ما حدث إبان التاريخ المبكر للمجموعة الشمسية هو تبخُّر كل الماء في كوكب الزهرة نظراً لقربه من الشمس. أثرت الأشعة فوق البنفسجية القادمة من الشمس في ذلك البخار وحللته إلى مركبيه: الأوكسجين والهيدروجين. تطاير الهيدروجين إلى الفضاء الكوني بسبب خفته، بينما اتحد الأوكسجين بالفحم مكوناً غاز الفحم الذي انتشر حول الكوكب ورفع درجات الحرارة عليه. يتصور العلماء إمكانية إصلاح بيئي لكوكب الزهرة باستخدام أصناف من البكتريا تُحلل غاز الفحم بما يؤدي إلى تخفيض درجات الحرارة وإلى توفير كميات متزايدة من الأوكسجين في الغلاف الجوي للزهرة.

قد تستغرق هذه العملية عدَّة آلاف من السنوات، لكنها توفر مجالاً جديداً لهجرات بشرية محتملة من كوكب الأرض إلى جانب تيتان تابع زحل. إنَّ المشاريع الهندسية الأرضية تتحول بشكل بطيء وتدريجي وتتوسع لتشمل المجموعة الشمسية في غضون آلاف قليلة من السنوات.

المراجع

1- Bradey and Ostlie,An Intrduction to Modern Astrophysics, (2007), Addison Wesley.

2- Munch; Mampaso; Sancheg (editors),The Universe at Large, (1997), Cambridge University press.

3- Hartmann, Astronomy The cosmic Journey, (1985), Wadsworth Pubishing Company.

4- Sagan, Pale 13lue Dot, (1994), Random House.

اليمن
بلاد العلم والعسل

❀
د.نبيل العرقاوي



في العلم هي بلاد «المعتمد في الأدوية المفردة» الكتاب التراثي المعتبر كأول دستور عربي للدواء، وفي العسل هي أرض شجيرات السدر والنحل اليماني الذي يُجتنَى من أزهارها أنقى أنواع رحيق الأزهار ويُصنَّع منه أجود أنواع العسل.

كتاب «المعتمد في الأدوية المفردة» قام بتأليفه الطبيب الملك يوسف بن عمر بن علي ابن رسول في القرن السابع الهجري «الثالث عشر الميلادي»، وهو أحد ملوك اليمن بل أشهر ملوكها، وقد حكمت أسرته اليمن نحو

❀ باحث في العلوم والنباتات الطبية.

قرنين من الزمن (٦٢٦-٨٠٣هـ)، وهي امتداد للدولة الأيوبية ودولة المماليك في مصر، ويؤيد هذا القول، الرسالة التي أرسلها الملك يوسف بن عمر إلى الظاهر بيبرس صاحب مصر، حينما افتتح ظفار قال فيها «حسب الخزرجي»: «إنه يحتاج إلى طبيب لمدينة ظفار، لأنها وبيئة وقال في رسالته: ولا يظن المقام العالي أننا نريد الطبيب لأنفسنا، فإننا نعرف بحمد الله من الطب مالا يعرفه غيرنا، وقد اشتغلنا فيه أيام الشبيبة اشتغالاً كثيراً. وولَدنا عمر الأشرف من العلماء بالطب «أيضاً» وله كتاب الجامع، ليس لأحد مثله».

توفي الطبيب يوسف بن عمر سنة (٦٩٤هـ) وعمره (٧٤) سنة، قضى منها في الملك (٤٦) سنة، ويدل تدوين تاريخ الوفاة على فَقْدِ الأمة رجل دولة لُقِّب بالمظفر، وعالِم وطبيب بارع عُرِف بالحكيم بل هو من أشهر ملوك الدولة الرسولية في اليمن «نسبة لبني رسول»، ومن حكماء العرب وأطبائهم البارعين، حيث يعتبر كتابه «المعتمد في الأدوية المفردة» سبباً في شهرته العلمية، لأنه حشد له جمع من العلماء، وفيض من الوثائق والمراجع العلمية التوثيقية، وسكب فيه من خبرته في ممارسة مهنة الطب وهو في سدة الحكم، إضافة إلى أنَّ براعته في إدارة شؤون الدولة كانت سبباً في شهرته الذائعة المتواترة، وأورث أمته كتاباً كان ومازال من أكثر كتب التراث العربي قيمةً وانتشاراً وتجدداً واستدامةً.

لقد وضع له منهج بحث وكتابة يمكن وصفهما «بالأكاديمية» بلغة العصر، واستند في تأليفه إلى أوثق المراجع العلمية العربية في زمنه، حيث جاء في خطبة الكتاب (مقدمته) والقول لابن عمر «واستخرجته من كتاب الحكيم الفاضل عبد الله بن البيطار» الجامع لمفردات الأدوية والأغذية وعلامة اسمه للاختصار «ع»، ومن كتاب ابن جزلة المعروف بالمنهاج، وعلامة اسمه «ج»، ومن كتاب أبي الفضل حسن بن إبراهيم التفليسي وعلامة اسمه «ف»، ومن أبدال الزهراوي وعلامة اسمه «ز»، ومن أبدال أحمد بن خالد المعروف بابن الجزار واسمه مثبت «ابن الجزار» من غير علامة. ورتبته على حروف المعجم ليكون أقرب متناولاً وأفهم، وسميته بكتاب «المعتمد في الأدوية المفردة».

ولتوضيح هذا المنهج أبدأ من العنوان حيث مصطلح «الدواء المفرد» هو عشبة واحدة، أمَّا «الدواء المركب» فيبدأ بعشبتين أو أجزاء منهما (ورقة، زهرة، بذرة، جذر..)، وقد يبلغ تسعاً في حده الأقصى وفق قواعد التركيب، كما يدخل فيه مفردات أخرى من مصدر حيواني (حشرات، طيور، أسماك..)

أو من مصدر معدنـي أو عضوي كالأملاح والأحجـار والتراب..، علمـاً أنَّ المفردات النباتية تشكل نسبة ٨٠٪ تقريباً من إجمالي المفردات المذكورة في هذا الكتاب.

أمَّـا اللغـة العربيـة التي كتبـت فيها نصوصه، فيمكـن وصفها بلغة علمية أدبية أنيقة، حيث الجملة اللغويـة فيها قصيرة، تصـل إلـى المعنـى مباشرة، بـل بأقصر طريـق ممكـن إنَّ صح التعبيـر، وفي هذا عيـن البلاغة وأناقة اللغـة وحسن التعبير وجمال الوصف، ويمكن توضيح ذلك بالنص التالي المقتبس منه (سدر ونبق (ع): السدر لونـان فمنه غبري، وهو الذي لاشوك له إلا مالا يضر، ومنـه ضال وهو ذو شوك حجن حديـد، وللسدر ورقة عريضة مدورة، وقيل الضـال ما ينبت في البر، والغبري ما ينبت على الأنهار وثمره النبق.. وهو نافع للمعدة، عاقـل للطبيعـة، ولاسيمـا إذا كان يابساً، وأكلـه قبل الطعام.. وأمَّـا النبق الحلو فهو يسهل المرة الصفراء المجتمعة في المعدة والأمعاء ويقمع الحرارة.

(ج) السـدر أجوده الأخضـر العريض، وهـو بارد، يابـس، دخانه شديـد القبض، وصمغه يذهب الحرارة، ويحمر الشعر.(ف) هـو ورق شجر النبق بـري، وبستاني أجوده الطـري البستاني، وهو معتـدل فيه قبض ينقّي الأمعاء والبشرة ويقويها ويعقل البطن، وهو مجفف للشعر يمنع من انتثاره وينضج الأورام وفيه تحليل الشربة منه درهم).

فيوضِّح هـذا النص المقتبـس، الذي هو غيضـ من فيض، المنهـج والمرجعية التوثيقيـة واللغة العربيـة العلمية الجميلة التي كُتِبَ بها، لقد كتبـت بهذه اللغة ووفق هـذا المنهج مفردات «المعتمد» كافة الذي لم يدرج فيه إلا ما ثبتـت منفعته الشفائية في ضوء خبرة مؤلفـه، وما أثبتته المراجع العلمية الموثقة (التـي سبق ذكرها) والتي استنـد إليهـا فـي إدراج أي دواء مفرد أو مركب فيه، حيث اكتسب بذلك صفة دستور الدواء، الذي قد صدر بمرسوم ملكي بعنوان «المعتمد»، وتمَّ اعتماده وتعميمه على مستوى الدولـة اليمنية والدول الأخرى ذات الصلة بها كمرجع أساسي للدواء، وذلك قبل ثمانية قرون من دساتير الدواء المعتمدة حالياً في كثير من دول العالم، وخاصة المتقدمة منها في صناعة الدواء وتصديره.

أمَّا ما قاله فـي العسل فقد جاء متناسقاً مع ما ذكره عن نبات السدر، ومع شهرة عسل السـدر ذاته، الـذي منبته ومنبعـه من أرض اليمن، ويوضح ذلك النص التالي (عسل «ع» ما كان فـي غاية الحلاوة، وكان فيه حذو للسان، طيب الرائحة إلى الحمرة ما هو، ليس برقيق

بل متين، وإذا أخذ بالأصبع انجذب المتعلق بها، الناصع اللون الصافي، الذي ينفذ فيه البصر، ومذاقته حريفة حادة لذيذة في غاية اللذاذة إذا رفعت منه بإصبعك سال إلى الأرض ولم ينقطع، وما ظهر فيه طعم الموم (الشمع) أو وسخ الكور (القفر، خلايا النحل) أو سطعت منه رائحة قوية حادة أو كان رقيقاً فليس بمحمود..) (وقد أسهب في منافعه الصحية والاستشفاء به). ثم أورد ما قاله ابن جزلة في المنهاج عنه، وكذلك ما شرحه التفليسي في كتابه عن العسل وقيمته الغذائية والشفائية العظيمة، وفق منهج الكتاب.

لقد صدرت الطبعة الأولى من «المعتمد» في مصر عن دار الكتب العربية الكبرى لآل الحلبي وعن مطبعتهم التي وسمت بالميمنية. ذلك قبل مئة سنة ونيف (١٣٢٧هـ)، منسوخة من إحدى المخطوطتين المحفوظتين في دار الكتب المصرية، وهما النسختان المرقومتان (١٣٠، ٨٩٨ طب).

ونظراً لأهمية هذا الكتاب في التراث العلمي العربي فقد أجريت له عملية تحقيق علمي بعد أن استندت إليه كمرجع علمي أيضا في الدراسات والتأليف في موضوع الأعشاب الطبية ولاسيما «موسوعة النباتات الطبية المصورة» وذلك من أجل تحديثه وتطويره، ولإخراجه من التراثية البحتة إلى أفق العلوم والمعارف المعاصرة، ولمواكبة المنطق العلمي والأدبي المعاصر، وقد تمت عملية التحقيق «بعون الله تعالى» من دون إجراء أي تغيير على نصوصه الأصلية، بل بإضافة الشروح اللازمة في هوامشه وفي الملحقات التي أضيفت بفصول وعناوين متتابعة ومتناسقة مع محتواه الأساسي، مثل معجم المفردات والمصطلحات اللغوية، ومعجم أسماء النباتات وغيرها، وكذلك إضافة صور النباتات والأعشاب في متنه من أجل التعريف الدقيق بها، كونها أدوية مفردة، كما تدخل في تراكيب دوائية متنوعة، علماً بأن عملية التحقيق هذه قد أجريت بمنهج وأسلوب أكاديمي معاصر يسهل عملية الاستفادة من معلوماته الغزيرة، وإدراجها في برامج البحوث والتطبيقات العلمية الحديثة، بحيث يصبح إضافة علمية حقيقية تمتلك كل صفات التجدد والاستدامة، وكذلك قابلية ربطه بسلسلة التقدم والتطور العلمي والتقني المعاصر. ففي اللغة العربية الجميلة التي كتب فيها «المعتمد» وصيغت بها أفكار مؤلفه، وبما اقتبس فيه أيضاً من مراجع علمية تراثية، كثير من الأسماء والكلمات والمصطلحات القديمة غير الشائعة حالياً، مثال ذلك: أنجرة هي اسم نبات القريص، شجرة مريم هي عشبة البابونج، وشجرة

المرخ هي نبات الخطمى، وشاهترج هي بقلة الملك، وشاهسفرم هي الريحان أوالحبق..

أمَّا في الكلمات والمصطلحات ففيه كثير منها يحتاج لمرادفات معاصرة وشرح مختصر لمعرفة مدلولها، ومثال ذلك: كلمة «شجرة» فقد شملت النباتات المذكورة فيه كافة، بدءاً من العشبة الصغيرة الحولية اللاطئة والمفترشة على سطح التربة إلى الشجرة الكبيرة الباسقة المعمرة، ومابينهما من نباتات متباينة في الارتفاع والحجم، وكذلك كلمة «دهن» تعني الزيت النباتي وليس الدهن الحيواني الشائع، فدهن الإنفاق هو زيت الزيتون البكر، ودهن الشونيز هو زيت الحبة السوداء، ودهن الشيرج هو زيت السمسم، ودهن الأنجرة هو زيت القريص..، وفي المصطلحات «دواء مفرد» هو عشبة واحدة أو جزء منها، و«دواء مركب» هو عشبتان أو أجزاء منهما كما سبق بيانه، وكذلك هو الحال في طرق تحضير الدواء وطريقة استعماله، ووحدات الوزن والقياس، التي احتاج معظمها إلى مرادفات وشرح مختصر، كي تصبح ذات مدلول عملي تطبيقي معاصر، كما غابت الصور والرسومات عنه تماماً شأنه في ذلك شأن كتب التراث العلمي العربي كافة، باستثناء كتاب «الأعشاب» لابن البيطار الذي رسم فيه بيده أعشاب بلادنا، بعد أن تعلم هذه الطريقة وأتقنها على طريقة العالِم الإغريقي ديسقوريدس الذي رسم بيده أيضاً أعشاب بلاد الإغريق ووضعها في كتاب «الحشائش» المودع في مكتبة الإسكندرية.

لقد كان في هذه المعطيات حافز قوي لي، لإجراء عملية تحقيق علمي عليه لجعله أكثر وضوحاً وأسهل قراءةً ومعرفةً بالمنطق العلمي المعاصر، ولوصله بقاطرة التقدم العلمي، حيث تم بعون الله تعالى التعريف بنباتاته الطبية كافة وفق قواعد علم تصنيف النبات المعاصر بكتابة الاسم العربي الشائع الآن مع وصف مختصر لكل نبات، وكتابة اسمه العلمي الأكاديمي (اللاتيني) المعروف عالمياً، والذي يتألف من كلمتين تدل الأولى منه على جنس النبات (Genus) والثانية على نوعه (Species))، ثم اسم الفصيلة النباتية (العائلة) التي يصنف فيها Plant family، والاسم الإنكليزي لها، من أجل توسيع نطاق التعريف بها وتوثيقها ووصلها بالمراجع الأجنبية، وترتيبها بمعجم خاص ملحق به، وإضافة الصورة الحقيقية الخاصة بكل نبات منه «كما في الصور المبينة»، إلى جانب اسمه في متن الكتاب وفي مكانها الصحيح، لتوضيح التعريف بها وتجنب الخطأ والخلط بينها، وإعداد معجم بمفرداته

اللغويــة ومصطلحاتــه العلميــة وإضافتها بفصل ملحق به أيضاً، وكذلك طرق تحضير الدواء واستعماله ووحــدات الوزن والقياس، والأعشاب الطبية الغذائية والسامة.. وقرص CD خاص به يحتوي صــور أعشابه الطبية وطيــوره وحشراتــه وحيواناتــه ومفرداتــه الأخرى، إضافة لمعجم الأدواء والدواء الخاص به. وتوضح الصــور التالية طريقة التصنيف العلمي لنباتات «المعتمد» وتوثيقها بالصورة الحقيقيــة التــي تزيل أي لبــس أو خطأ في التعريف بها، ولتداولها بشكل صحيح.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب العلمية باعتباره أول دستــور للدواء العربــي، فإنّه جدير بمزيد من التحقيق والبحث العلمي في علوم الكيمياء والحيوان والصيدلة والطب. وإذا كانت الصورة تغنــي عن ألف كلمــة كما يقال، فــإنَّ الصورة العلمية بــلا كلمة أو اسم، أو فــي غير زمانها ومكانهــا، تبقى بلا عنــوان، ولا قيمة لها سوى الجماليــة منها، وهي في هذا التحقيق العلمي أداة دقيقة للتعريف الصحيح والدقيق بمعطياته ومخرجاته بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

أخيــراً لابد مــن كلمة شكــر أتوجه بها لوزارة الثقافة السورية لاقتنائها هذا الكتاب بحلّته الجديــدة التراثيــة والمعاصرة معاً، ولإهدائهــا «المعتمد» لكل مــن «اليونسكو» و«المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» و«المركز الثقافي العربي في باريس» و«معهد العالــم العربــي في باريس» بعــد أن أصبح أوضح بياناً وأسهل قراءة وتناولاً ليس باللغة العربيــة فقط بل في اللغــات الأجنبية لأن أسماء النباتات التــي كتبت باللغة اللاتينية «العلميــة» وفق تصنيف علم النبات، وباللغة الإنكليزية أيضاً، إضافة لصور هذه الأعشاب تعتبر بمثابة مفتاح يساعد في الوصول إلى أي منها ومعرفة ما كتب عنها وإدراجها في برامج البحوث والتطبيقات الحديثة...

المراجع

١- «المعتمد في الأدوية المفردة» تأليف الطبيب الملك يوسف بن عمر، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة (١٩٥١م).
٢- «المعتمــد في الأعشاب الطبية والأدوية والمفردة» تأليف الطبيــب الملك يوسف بن عمر، تحقيق علمي د.نبيل شاكر عرقاوي، دمشق (٢٠١٠م).
٣- «موسوعة النباتات الطبية المصورة» تأليف د.نبيل شاكر عرقاوي، دمشق، (٢٠٠٩م).
٤- «معجم أسماء النبات» عربي، إنكليزي، فرنسي، لاتيني د.أحمد عيسى، تحقيق: د.نبيل عرقاوي، دمشق (٢٠١٣م).
٥- «معجم مصطلحات العلوم الزراعية» مصطفى الشهابي، بيروت مكتبة لبنان (١٩٨١م).
6- A.Kyrger.«An illustrated to herbs» London, 1992 .
7- «The Macdonald Encyclopedia of plants» London.1974.

نقطة ماء تساوي حياة

❀
محمد علي درويش



كم من معارك وتوترات وحروب نشبت قديماً وحديثاً بين شعوب الأرض سببها الماء! وأبلغ مثال معاصر على قيمة الماء أن موضوع البحث عن الماء كان في مقدمة أهداف الرحلات الفضائية منذ نهاية الخمسينيات، لسبب واحد هو أن الماء يعني حياة، وأن العثور عليه يعني عثوراً على كائنات حية.

وكما أن الماء طريق الحياة فهو أيضاً دليل اضطرابها، كما الحال مثلاً في بقاع معينة من كندا حيث عثر العلماء على ضفادع مشوهة الخلق بسبب تلوث المياه.

❀ باحث سوري.

وبعض الأبحـــاث تشير إلى موت مئات الأشخاصــ يومياً بسبــب شرب ماء ملوث، يترافق ذلك مع تفاقم ظاهرة التصحر التي زحفت إلى أوروبــا محوِّلة نحو (١٠) آلاف كم٢ من أراضيهــا إلى صحارى، فيما يشك بعضــ العلماء بوجود علاقـــة بين أمراض سرطانيـــة ومنشآت تنقيـــة المياه. فما هو هذا العنصر الذي يبدو على هذا المستوى من الأهمية؟

التعريف العلمي للماء:

سائـــل شفاف دون طعـــم أو رائحة أو لـــون، تركيبـــه الجزيئي مكـــون من ذرتي هيدروجيـــن وذرة مـــن الأكسجين، ينتشر على الأرض بأشكال مختلفة، سائل وصلب وغـــازي كما أن (٧٠٪) مـــن سطح الأرض مغطى بالماء، ويعتبر العلماء الماء أساس الحياة على أي كوكب.

حالات الماء:

– **حالـــة صلبـــة:** يكون فيهـــا الماء على شكل جليد أو ثلـــج، يوجد على هذه الحالة عندمـــا تكـــون درجة حرارة المـــاء أقل من الصفر المئوي.

– **حالـــة سائلة:** يكـــون فيها الماء سائلاً شفافـــاً، وهي الحالة الأكثـــر شيوعاً للماء. ويوجـــد المـــاء علـــى صورتـــه السائلة في درجات الحـــرارة ما بين الصفـــر المئوي، ودرجة الغليان، وهي (١٠٠) درجة مئوية.

– **حالـــة غازيـــة:** يكون فيهـــا الماء على شكل بخـــار، ويكون المـــاء بالحالة الغازية بدرجات حرارة مختلفة.

خصائص الماء:

للماء عـــدَّة خصائص جعلـــت له قيمة كبيرة فـــي الحياة، والزراعـــة، وغيرها من مجالات الحياة، ومنها:

– **التعادل الحمضي:** الماء سائل متعادل كيميائياً، إذ إن درجة الحموضة أو القاعدية فيه هي (٧)، وهذا يعني أنه لا يمكن اعتبار الماء مـــادة حمضية أو قاعديـــة لأنه مادة متعادلة كيميائياً.

– **الإذابـــة:** المـــاء مادة معدنيـــة، وهذا يعنـــي أنه مـــن الممكـــن إذابـــة الكثير من الأملاح والمواد في المـــاء، الماء الموجود في الطبيعة لا يوجـــد بشكل نقي (١٠٠٪)، وذلـــك بسبب وجود الأمـــلاح والغازات في الماء الموجود في الطبيعة.

نسبة الماء في الأرض:

بحســـب تقديـــرات العلماء فـــإن حجم المـــاء يبلغ (١,٥) مليـــار كم٢ إلا أن جزيء الماء صغير إلـــى حد أنه يمكن حشر (١٠) مليارات جزيء ماء في رأس دبوس.

ويغطي الماء ثلثي الأرض إلا أن نسبة المياه العذبة قليلة جداً علماً بأن (٧٠٪) من مياه الشرب على المستوى العالمي مستقاة من المياه العذبة والجوفية خصوصاً، وقد تضاعف استهلاك المياه العذبة أربع مرات خلال الخمسين سنة الماضية، ويضيف التطور الصناعي عبئاً على مشكلة المياه لأن منظمة الصحة العالمية تقدر أن (٢٣٪) من المياه المستهلكة عالمياً تستخدم في الصناعة والتنظيف والتسخين والتبريد.

ضرورة الماء النقي للصحة:

يشكل الماء (٩٠٪) من الجهاز المعقد ومصدر التفكير عند الإنسان ألا وهو الدماغ، ويؤلف الماء أيضاً (٧٠٪) من مكونات القلب و (٨٦٪) من الرئتين والكبد، و(٨٣٪) من الكليتين، و(٧٥٪) من عضلات الجسم المختلفة و (٨٣٪) من الدماء.

وإذا كان الماء ضرورياً للحياة فإن الماء النقي ضروري جداً للصحة، لأن الوظائف الجسدية الحيوية كافة تعتمد على الماء النقي في عملها وتواصلها. يعتقد بعضهم أنهم قادرون على تعويض ذلك عن طريق تناول المشروبات الغازية والشاي والقهوة والعصير لكن ذلك لا يتطابق مع الحقيقة تماماً فالإنسان بحاجة يومياً إلى (٢-٣) لترات من الماء الصافي النظيف. ويقدر أن الإنسان يفقد يومياً حوالى (٣) لترات من الماء. ويفترض أن يعوض نصف المفقود على الأقل عن طريق الماء النقي ويحصل على نصف ما يحتاج إليه من خلال المشروبات الأخرى. وللجسم جهاز إنذار مبكر يحذر الإنسان عن طريق الشعور بالعطش، ويكفي فقدان (٠,٨٪) من مياه الجسم لتشغيل هذا الجهاز لإشاعة مظاهر جفاف الشفتين وجفاف الحلق والبلعوم. وهذا يعني أن فقدان (٠,٣) لتر من ماء الجسم عند إنسان يزن (٧٠كغ) يؤدي إلى قرع أجراس الحذر في جسم الإنسان.

بعض الحقائق عن الأنهار والغطاءات الجليدية:

- تغطي الأنهار الجليدية حوالى (١٠-١١) بالمئة من الأراضي كلها.
- إذا ذابت كل الأنهار الجليدية اليوم فسيرتفع منسوب البحار إلى نحو (٧٠) متراً (٢٣٠ قدماً).
- خلال العصر الجليدي الأخير وصل مستوى سطح البحر إلى (١٢٢) متراً (٤٠٠ قدم)، وهو معدل أقل من معدل اليوم وكانت الأنهار الجليدية تغطي تقريباً ثلث الأرض.

نسبة الماء في جسم الإنسان:

- نسبة المياه في الأجسام الحية: تبلغ نسبة المياه في تركيبة جسم الإنسان والحيوانات (٧٠٪) وأكثر من ذلك في النباتات حيث يشكل الماء (٩٠٪) في بعضها.

- تشكل المياه نحو (٦٠٪) من وزن جسم الإنسان، ويفقد الإنسان على الأقل نحو (٤٠ أونس) وحدة وزن تساوي (١٣ غراماً) كل يوم.

- وتخرج المياه من الجسم عن طريق البول، التنفس، التبخر خلال الجلد، العرق، وبالطبع فإذا كان الفرد يعمل، يتدرب، ويعرق فإنه سوف يفقد كماً أكبر من الماء.

- كثير من الأطعمة تحتوي كماً هائلاً من الماء خاصة الفاكهة، وتكمل المياه والسوائل الأخرى الكمية التي يحتاج إليها الجسم.

أنواع الماء:

- **مياه فوَّارة:** وهو الشكل الذي تحتفظ فيه المياه وبمعدلات ثاني أكسيد الكربون نفسها التي كانت عليها قبل المعالجة.

- **مياه غنية بالفيتامينات:** يتم إضافة الفيتامينات لها حتى تصبح صحيَّة أكثر.

- **مياه الينابيع:** تأتي من مياه جوفية لكنها تتدفق على سطح الأرض وتحتوي -على الأقل- (٢٥٠) مليون جزيء من المواد الصلبة القابلة للتحلل.

- **مياه مطهَّرة:** وهي التي يتم تنقيتها.

- **مياه غنية بالأكسجين:** تحتوي على نسبة من الأكسجين أكثر (٤٠) مرة من الماء العادي.

- **مياه معدنية طبيعية:** تأتي من مصادر جوفية وتحوي معادن مثل المغنيسيوم والكالسيوم والصوديوم والحديد.

- **مياه ذات نكهة:** نكهات طبيعية أو صناعية تضاف غالباً للمياه المعدنية.

- **مياه مقطرة:** يتم الحصول عليها بالتقطير، وتستخدم في المعامل الكيميائية من أجل التجارب وليس للشرب.

- **مياه شبه قلوية أيونية:** تستخدم فيها الكهرباء لفصل الجزيئات وشحنها.

التعامل مع أنواع المياه المعبأة:

- إذا تم الشرب منها وفتحها لا تترك فترة طويلة دون استخدام لأن البكتريا ستنشط فيها.

- يجب العناية بزجاجة الماء وغسلها بالماء الساخن والصابون عند إعادة ملئها.

- للتخلص من طعم الكلور يصب الماء في إناء كبير ويترك لمدة ساعة تقريباً.

حقائق عن الماء:

- الماء يشكل (٢/٣) من وزن جسم الإنسان، ويتألف بلازما الدم من حوالى (٩٠٪) ماء بينما تشكل نسبة الماء في العظام (٢٢٪).

- لا يستطيع الإنسان الحياة من دون ماء لأكثر من خمسة أيام كحد أدنى ويشكل عام يتم شرب حوالى لترين من المياه يومياً.

- الماء مذيب طبيعي للعديد من العناصر مثل الفيتامينات والمعادن والبكتريا والفطريات والمعادن الثقيلة والمواد المشعة.

- مياه الأمطار التي تأتي من السحب هي أنقى أنواع المياه الطبيعية، على الرغم من تلوثها بعوادم المصانع المتمثلة في الكبريت من هنا يتكون ما يعرف باسم (المطر الحمضي).

- ينقل الماء جسم الإنسان من السموم والمواد السرطانية، والبول هو شكل من أشكاله إذ يحتوي على المواد الضارة.

- يضاف الكلور غالباً للماء لقتل البكتريا ،وقد تكون رائحته نفاذة كما يضاف الفلورايد لمحاربة تسوس الأسنان، وهيدروكسيد الألومنيوم لتنقية الماء.

قراءة في كتاب قديم:
تل حلف والمنقّب ماكس فرايهر أوبنهايم

إعداد: ناديا كوليديس ولوتس مارتين
عرض وتلخيص: عبد الله حجار*



إنّه كتيّب شبه دليل للتعريف بحفريات تل حلف، أوّل تنقيب أثري نموذجي علمي تمّ في سورية من قبل العالم ماكس فرايهر فون أوبنهايم بدءاً من العام (١٩١١م)، رأيتُ أن أعرّف به رغم صغر حجمه (٧٥ صفحة) بدل عرض كتاب تل حلف الضخم الذي أصدره أوبنهايم في لايبزيغ عام (١٩٣١م) وفيه تفصيل لا يهمّ القارئ العادي. تألّف الكتاب، الذي صدر عام (٢٠٠٢م)، من ستة فصول تتحدّث عن الحفريات في تل حلف واللقى المكتشفة من تماثيل ضخمة وألواح ناظرة (أورتوستات)

* باحث ومؤرخ سوري.

وقطع صغيرة وعن المصادر التاريخية وإنشاء المتحف في برلين وتدميره في الغارات الجوية في تشرين الثاني (١٩٤٣م) ومشروع إعادة ترميم وإحياء تماثيل تل حلف وضمّه إلى جزيرة المتاحف في برلين، والجدير بالذكر أن متحف حلب تأسس ليضمّ اللقى الأثرية التي تمّ اكتشافها في تل حلف قرب رأس العين.

تل حلف: يقع إلى الجنوب الغربي من بلدة رأس العين على نهر الخابور رافد الفرات، مساحة التل نحو (٥٠) هكتاراً وفي داخله وأعلاه مرتفع بمساحة (٠,١) هكتار، تمّ التعرّف على مرحلتي استيطان يفصل بينهما (٢٠٠) عام الأولى من الألف السادس والخامس قبل الميلاد، وعرف فخارها المتميز بالخطوط الهندسية بفخار تل حلف، والثانية من الفترة الآرامية من نهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول ق.م، حيث كان التل يدعى غوزانا وامتدّت حتى الفترات الهلنستية والعربية الإسلامية.





تل حلف
أواني وكسيرات فخارية من الألف السادس قبل الميلاد

ماكس فرايهر فون أوبنهايم:

ولد في كولن في (١٨٦٠/٦/١٥م)، درس القانون في ستراسبورغ وبرلين ونال شهادة الدكتوراه في القانون من غوتنغن عام (١٨٨٣م) وقام برحلتين إلى إسطنبول وشمال أفريقيا عمل في وظائف متعددة (١٨٨٣ - ١٨٩١م) ونجح في الانخراط في السلك الدبلوماسي في كولن، وانتقل إلى القاهرة لدراسة الإسلام وتعلّم اللغة العربية عام (١٩٩٢م).

قام بأول رحلة إلى الشرق وشرقي أفريقيا (١٨٩٣-١٨٩٤م) واستفاد من نتائج الرحلات في برلين (١٨٩٤-١٨٩٦م) حيث عمل ملحقاً في القنصلية العامة الألمانية في القاهرة عام (١٨٩٦م)، وقام عام (١٨٩٩م) برحلته الكبرى الثانية إلى الشرق باتجاه دمشق وحلب ومنها إلى رأس العين، واكتشف تل حلف في (١٨٩٩/١١/١٩م).

سمّي مستشار السفارة عام (١٩٠٠م) وعمل في القاهرة وقام برحلات إلى شمال أفريقيا وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية (١٩٠٠-١٩١٠م)، وودع العمل في الحكومة الألمانية في (١٩١٠/١١/١م)، وقام بالإعداد وأدار الحفريات في تل حلف (١٩١١-١٩١٣م).

عاد إلى السلك الدبلوماسي في الحكومة الألمانية عام (١٩١٤م)، وترأس وكالة أنباء السفارة الألمانية في إسطنبول (١٩١٥-١٩١٧م) وانتقل للسكن في برلين عام (١٩١٩م) وأعدّ العدّة للقيام بحفريات من جديد في تل حلف عام (١٩٢٧م) وأنشأ مؤسسة ماكس فرايهر أوبنهايم عام (١٩٢٩م) مع متابعة الحفريات في تل حلف مع فحص وسبر «جبلة البيضا». قام بافتتاح متحف تل حلف في شارلوتنبورغ في برلين عام (١٩٣٠م)، وقام بآخر رحلة إلى سورية عام (١٩٣٩م) ولم يتمكن من التنقيب في التل.

في خريف (١٩٤٣م) تم تدمير المتحف في برلين وانتقل أوبنهايم للإقامة في دريسدن ثم تحوّل في شباط (١٩٤٥م) إلى أمّيرلاند في البايرن الألماني. توفي في (١٩٤٦/١١/١٥م) في لاندسهوت Landshut ودُفن في مقبرة البلدة. وطلب أن يكتب على قبره: «هنا يرقد بالرب رجلٌ أحبّ العلم والشرق والصحراء واكتشف ونقّب في تل حلف».

الحفريات في تل حلف:

خلال دراسة أوبنهايم القانون اهتم بعلم النبات والجغرافيا وهفا قلبه إلى الشرق من خلال قراءة قصص «ألف ليلة وليلة»، وجذبته رحلته الثانية إلى مهنة التنقيب حيث التقى في محطة بغداد في حلب بشيخ روى له قصة وجود حجر قرب رأس العين في مدفن أحد الموتى قرب قرية يسكنها شراكسة، وأخذه إلى تل حلف. وبدأ الحفر بمساعدة بضعة عمّال، ولم يكن معه ترخيص بذلك، وبعد ثلاثة أيام تكشّف جزء من القصر الغربي وأحجار الأورتوستات في جداره. أعاد أوبنهايم ردم ما كشفه، وعاد إلى إسطنبول وألمانيا ثم إلى القاهرة. في إسطنبول طلب من مدير المتاحف العثماني أن يحفظ له حق التنقيب في التل إلى وقت لاحق. ومرّت سنوات قبل أن يبدأ تنقيباته في تل حلف. وفي (١٣٢٥/٩/٢٩هـ/ ١٩٠٩م) سمح لأوبنهايم بالتنقيب في تل حلف مدّة سنتين.

لذلك ترك أوبنهايم السلك الدبلوماسي وجاء يعدّ لبدء الحفريات عام (١٩١١م) واستعمل قافلة من (١٠٠٠) جمل لنقل المواد والأدوات التي يحتاجها ومن بينها (١٢) عربة نقل أتربة بين حلب وتل حلف مسافة (٥٠٠) كم واستغرق ذلك (٢٠) يوماً. استعان أوبنهايم بالمعمار الخبير فيليكس لانغنغّر Felix Langenegger وكارل مولّر Karl Muller اللذين عملا مع روبيرت كولدويه في حفريات بابل. وقد

تشكّل فريق العمل عام (١٩١٢م) من (٥) مهندسين وطبيب ومصوّر وأميني سرّ.

بدأت الحفريات في (١٥/آب ١٩١١م) مع عشرة عمّال بشكل سرّي لعدم وجود عمّال في الجوار. ركب أوبنهايم إلى ماردين واستقدم (٢٠٠) أرمني ومن أهل المدينة للعمل وقد سهّلت له معرفته بحياة البداوة حسن التعامل مع العمّال، ووفّق بفريق العمل المؤهل الذي ساعده في الحفريات، وانتهى العمل في (آب ١٩١٣م) ونقلت اللقى من تل حلف إلى حلب باستعمال (١٣) عربة قطار.

كان أوبنهايم يرغب العودة للتنقيب في شتاء (١٩١٤/١٩١٥م) لكن اندلاع الحرب العالمية أوقف العمل ليعاوده في ربيع (١٩٢٧م)، وكان بيت البعثة في حالة خراب. واستمر بعمله حتى الأشهر الثلاثة من صيف عام (١٩٢٩م)، وقد وجد كمية كبيرة من الكسيرات الفخارية شمال القصر الغربي من الألف الخامس والسادس ق.م. وقام بعمل سبر في «جبلة البيضا» (٧٠كم جنوب تل حلف) في الأسابيع الأربعة الأخيرة من التنقيب وذلك بحثاً عن تتمة جذع تمثال من الألف الثالث ق.م. سبق أن شاهده هناك في زيارة عام (١٩١٣م). ولم يجد القطع الأخرى من التمثال.

تمّ اقتسام اللقى بين حكومة الانتداب الفرنسي والبعثة. وكان أوبنهايم سبق أن كلّف فناناً هو **النحّات إيغور فون جاكيموف** بعمل قوالب نسخ طبق الأصل للتماثيل المكتشفة في تل حلف عام (١٩١٣م). وقد حُملت حصّة البعثة في (٤٣) صندوقاً وأرسلت إلى برلين هدية من الدولة العثمانية، وكان نصفها تماثيل أصلية ونصفها نسخاً طبق الأصل.

عند إقامة أوبنهايم في برلين عام (١٩١٩م) ركّز على تنظيم نتائج حفرياته وأبحاثه وأنشأ مؤسسة الأبحاث الشرقية Orient- Forschunginstitut وضع فيها مكتبته المؤلّفة من (٤٢٠٠٠) مجلّداً ومجموعة كبيرة من الشرقيّات (سجّاد، ألبسة، آلات موسيقية وأواني خزفية إسلامية) وأقام أوّل معرض لمجموعته مع إقامة علاقات مع الجامعات الألمانية، وخطّط لمتابعة التنقيب في تل حلف عام (١٩٢٢م).

عاد أوبنهايم إلى الشرق في ربيع (١٩٣٩م) وذهب إلى تل حلف رغم نصح سلطات الانتداب الفرنسي له بعدم الذهاب. وصل رأس العين وتل حلف حيث أجبره السكان على الرحيل نهائياً. وقد خلّف توقيعه في الكتاب الذهبي لدار آل

بوخه في خان النحاسين في حلب في تلك الزيـارة الأخيرة. وعاد إلـى برلين وأصدر الجزء الأول من مطبوعات البعثة عن فترة ما قبـل التاريخ وهو حيّ. ثم صدرت ثلاثة أجزاء بعد وفاتـه. وما زالت مؤسسته التي أنشأهـا لدعم الحفريـات والدراسات في الشـرق تؤمّن الباحثيـن للقيام بالحفريات في سورية وطباعة الأبحاث عن ثار وتاريخ وحضارة المنطقة.

أهم مكتشفات تل حلف:



واجهة المعبد- القصر

وجد في القسم العلوي من التل القلعة وفيها قصـران الأكبر هو القصر الشمالي الشرقي والآخر هـو القصر الغربي الذي دعي «القصر المعبد». كما حفر في القسم المحصّن مـن السور عند الباب الجنوبي. ووجـد في القسم الشمالـي الغربي خارج القلعـة القصر-المعبد الآشـوري، وعلى مسافة جنوب القلعـة وجدت ٣ قبور عند حفرها وجد تمثال ضخم كامل لسيدة ذات ضفائر، دعاها العمّال «عروسة أوبنهايم» من كثـرة زيارته لها وتأملهـا بإعجاب شديد. وفي باحة طقـس العبادة وجد تمثال رجل وامرأة يجلسان جنبـاً إلى جنب وأمامهما حوضا تقدمة.



صورة رجل وامرأة جالسان أمام التقدمة

وتألف مدخل واجهة القصر-المعبد من ثلاثة تماثيل ضخمة واقفة على أسد وثور قام في الوسـط تمثال إله الطقس تيشوب فـوق رمـزه الثور وإلـى يساره زوجتـه خِبات وإلى يمينـه ولده شارّوما فـوق أسدين. وكتـب على ثـوب الإلهة خبات ما يلي: «قصر كابارا ابن حدیانو: مـا لـم يتمكّن والـدي وجـدّي المؤلّهان (أي المتوفيـان) مـن عمله قمـتُ بعمله أنا. ومن يمحي اسمي ويضع اسمه، يقدّم سبعـة من أبنائه محرقـة للإله أدد وسبع مـن بناتـه يصبحـن عاهـرات فـي معبد

عشتار كتب عبدي إيلو اسم الملك»، ويقصد هنا بالرقم سبعة الكثرة.



من القصر الغربي في تل حلف: الإلهة

لم يعرف الكثير عن الأمير الآرامي كابارا في الألف الأول ق.م، وهو من قبيلة بيت بحياني التي كان مركزها الرئيسي في غوزانا بحسب المصادر الآشورية، وكان هناك بعض ألواح أسفل الجدران (أورتوستات) تحوي كتابة مثل لوحة إله الطقس يمسك بيديه المرفوعتين هراوة وقطعة خشب منحنية والكتابة «معبد إله الطقس» ولوحة طائر مفرد جناحيه وأمام وجهه إلى اليمين كتابة «قصر كابارا بن حدياتو»، وتذكر المصادر الآشورية أن غوزانا عاصمة بيت لحياني تقع في الطريق إلى الفرات، وأن الحملات الآشورية غزتها مرّات وأمكنها في الأخير إخضاعها إلى سلطتها ودفع فدية من القمح والذهب والخيل.

ووجد لحسن الحظ عام (١٩١٢م) رقم فخارية ومن بينها محفوظات تاجر مكتوبة بالآرامية والآشورية وتعود إلى القرن الثامن ق.م، كما وجد في الباحة أمام القصر الغربي تمثال «الطائر الضخم» وهو معروض حالياً في متاحف الدولة في برلين. ويعود الفضل في تنقيبات تل حلف إلى رأس الثور المجنّح الذي تم اكتشافه عام (١٨٩٩م).



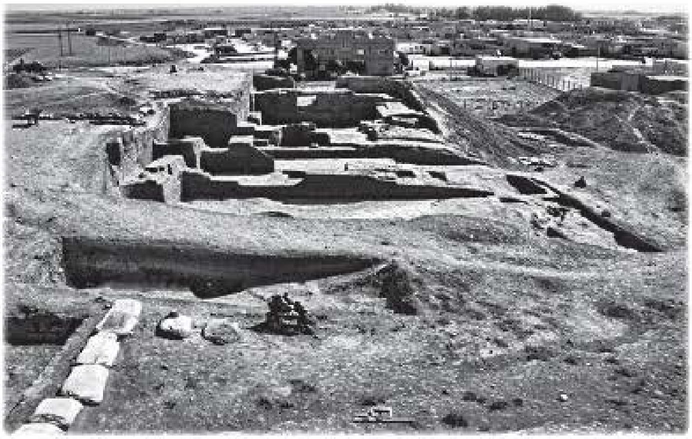
الثور المجنّح المكتشف عام ١٨٩٩م

دمّرت مؤسسة أوبنهايم تدميراً شبه كامل في الغارات الجوية يومي (٢٣ و٢٤ آب ١٩٤٣م) ثم أصيب متحف تل حلف لأول مرّة في الرابع من أيلول ثم في الغارات بين (٢٢-٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٣م) تضرّر

بشكل كبير وتحوّل إلى آلاف القطع وقد ذابت التماثيل الجصّية المنسوخة.

وبعد خمسين عاماً على تحويل متحف تل حلف إلى أنقاض تقرّر ترميم اللقى وإعادة عرضها في قسم الشرق الأوسط من متاحف الدولة في برلين. وهكذا تمّ إحياء التماثيل وهي رميم ونصبت واجهة القصر -المعبد في تل حلف مدخلاً جديداً إلى قسم الآثار القديمة وتمّ تدشين ذلك بتاريخ (٢٠٠٢م).

وكان هذا العمل واجب تكريم متأخّر لأوبنهايم الذي كان شعاره «رأس مرفوع وشجاعة عالية ونفسية سلوكية عالية». أمّا على أرض تل حلف ميدانياً فقد قامت بعثة سورية -ألمانية شارك فيها عدة جامعات ألمانية بمتابعة الحفريات (٢٠٠٦ - ٢٠١٠م) بإدارة د.عبد المسيح بغدو، د.لوتس مارتين ومشاركة اختصاصيين عديدين من بينهم د.فينفريد أورتمان وميركو كوفاك الاختصاصيين بالفترة الآشورية الجديدة وسواهم. وقاموا بنشر نتائج التنقيبات المستجدّة أولاً بأول. وتوقفت الأعمال عام (٢٠١١م) بسبب الأوضاع الراهنة في سورية الحبيبة.



حفريات تل حلف الحديثة (٢٠٠٦-٢٠١٠م)

مع:

المخرج والفنان العراقي محمد وهيب

إعداد: محمد خالد الخضر ❀

المخرج والفنان محمد وهيب شملت مواهبه الإخراج والتمثيل فاستطاع أن يكوّن رؤية إخراجية خاصة به عبر خروجه عن المألوف وعن القواعد ليقدم ما هو أقرب إلى القاعدة الشعبية والمتلقي فأخرج أعمالاً للمسرح وللسينما وللتلفزيون، وحول حياته وبعض مراحلها كان الحوار التالي:



❀ أديب وصحفي سوري.

- الفنـان محمد وهيب لقد اشتغلت في الإخـراج وفـي التمثيـل أيهما أهـم برأيك وأيهما يكون أكثر أثراً على المتلقي؟

• الإخراج هو أكثر أثراً الجمهور وعند المتلقي بشكل عام ومن خلال تجربتي في الإخراج المسرحي والتلفزيوني والإذاعي والسينمائي وجـدت أن الإخراج هو أكثر شمولية والمخرج هو الذي يحرك الممثل وبالتالي الأخير يستمـد حيويته وقدرته على العطاء الذي تتطلبه موهبته بإشارات المخـرج الإبداعية فهو الـذي يرسم له المسارات ويحـدد له الشعاب ومهما كان الممثل صاحب تقنية وثقافة لا بد من أن يلعب المخرج الدور الأكبر.

- برأيـك مـا هـو سبـب أهميـة وجـود المخرج أكثر من باقي مكونات العمل؟

• لا يخفـى علـى أحـد أن المخـرج الماهر هو الذي يحدد كيفية نشوء الحدث فـي العمل الفنـي ويربط بهـذا الحدث حـالات تحولاتـه مـن خـلال الممثلين الذيـن سيقومـون بالحركـة التصاعدية لنجـاح العمل إضافة إلى دور المخرج في ربط كل الأحـداث وانتقالاتها ونجاحاتها بالبيئـة التي هـي أيضاً أسـاس تكويني فـي العمل الفني وبمـا تحتويه البيئة من ديكور وإنارة ومحسنات شكلية تساهم في إدهاش المتلقي عندما يرى الحدث ويتابع حركة العمل. أمَّا الممثل فلابدَّ من أهمية حضوره إلا أن هذا الحضور يقتصر على مسار واحد يرسمه المخرج مطالباً إياه أن يتكيف مع هذا المسـار ليكون في الناتج العمل علـى غاية من النجـاح ومحتفظاً بقدرته على البقاء.

- إذا كان كمـا تقـول المخـرج هـو أكثر أصحـاب العمل حضوراً فلماذا يكرّم أحيانا بعض عناصـر العمل ويكسب انتشـاراً أكثر من المخـرج؟

• قلت في الجـواب السابق إنَّ الممثل أيضا له أهمية وهـو مساهم بشكل ليس بقليل في نجاح العمل الفني سواء كان هذا العمل في المسرح أو السينما أو التلفزيون أو الإذاعة إلا أنَّ الدور المحوري في أهمية النجـاح وحجمـه ومكانته يعـود لمخرج العمل فهو الـذي يحقق المكون الأساسي للعمل المنتج وإن ظهر أحد عناصر العمل ونـال شهرة وتكريماً أكثـر من سواه فهذا يعـود غالبـاً لأسباب شخصيـة وإنَّ أكثر مَنْ يحققـون ذلك هم من النساء وأضرب لـك مثلاً هل تمكـن أحد مـن الممثلين أن يتجـاوز نجدت أنـزور على الرغم من أهميـة جميـع أعماله وجميـع الممثلين الذين شاركوا معه وجميع المواضيع التي

قدمها فهو الذي يتحمل المسؤولية أكثر من كاتب النص وأكثر من الممثلين أمام الجمهور وأمام العالم وهذا لمسناه في أعماله الأخيرة وإن كان المخرج يبقى وراء الكواليس والممثل في الواجهة.

- هل قمت بإخراج فني اختلف إبداعياً عن الطرائق التي استخدمها غيرك من المخرجين؟

• هناك كثير من الأعمال التي قمت بها كسرت فيها القاعدة وقدمت للمتلقي مشاهد مبتكرة جاءت بعد أن خرجت عن المألوف، ومزجت في العمل الإخراجي بين المسرح والسينما والتلفاز وعلى سبيل المثال مسرحية رهين المحابس لأبي العلاء المعري فيها هدمت الجدار الرابع وتركت المتلقي يناقش معي الجملة التي يقولها الممثل ويشاركه بالتمثيل لأصل إلى الهدف المنطقي المقنع الذي أريده في شخصية المعري ولاسيما أنَّه شاعر وفيلسوف جاء بزمان غير زمانه فلو كان في زمننا المعاصر لغيّر كثيراً مما هو سائد في حياتنا الاجتماعية وهذا النوع من الإخراج يعتبر تمرد على تقاليد المسرح وبذلك أكون قد خرجت عن التقليد كما أنني أول من أدخل السينما في المسرح كحدث وليست سينوغرافيا فكنت أعمل على نقل الأخبار إلى حقيقة فكان مثلا ألبير كامو يعمل في منتوجه على الإخبار وأنا أعمل على تحويله إلى حقيقة ومثل هذا ظل قاصراً على الساحة العربية على الرغم من وجود محاولات كثيرة بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية لإنجاز مثل هذا النوع الفني ولاسيما في الدول التي زجت نفسها فيما لا يعنيها ودخلت في عداء مع الآخرين إلا أنها أصيبت بالفشل لأنها لم تتمكن من تقديم حوار سينمائي على المسرح كما فعلت.

- كيف تجمع بين رؤيتك وبين رؤية المؤلف ولا سيما أنك تقول في مجمل حديثك لا بد من تدخل المخرج في كل مكونات العمل الفني؟

• لا بد لي من التدخل في رؤية الكاتب غالبا لأنَّ المخرج هو صاحب توجيه المعنى الأساسي للعمل وتحديد مساره الفني وحيثياته فأنا عندما أخرجت مسرحية عطيل وجدت أنه صاحب مروءة وشجاعة لأنَّه عربي وأسعى من خلال رؤيتي الإخراجية على أخذ العمل إلى الاتجاه الذي يخدم تطلعاتي الإنسانية والوطنية والاجتماعية، وإن كان الكاتب هو صاحب الفكرة وهو صاحب المعنى العام للنص فالمخرج بإمكانه أن يولف

المعانــي والشخوص لاتجاهــات أخرى غيــر الاتجاهــات التي يقدمهــا الكاتب وضمن هذا السيــاق قدمت في مسرحية طه حسين رؤى مخالفة لما كان مطروحاً والــذي يقضي بأن طــه حسين هو رهين المحبسين أيضاً وهــو يشبه المعري ولو لم أقدم رؤيا أخرى خلصت إليها بناء على الوسائــل المعيشية والثقافية التي عاشها طه حسيــن لما نجح العمل فيكشف واقع طه حسين على أنــه يختلف عن المعري فهــو الذي كان يأكل اللحم وهو الذي كان يجعل من زوجته كاتبة له وهو الذي درس بالسوربون خلافاً للمعري الذي كان بريئاً مــن كل هذه الأشياء وظل تلميذاً لتاريخه العربــي الأصيــل وذلــك مــن خلال ما قدمته على خشبة المسرح خلال العملية الإخراجيــة إضافة إلــى أنَّ المعري هو رهين محابس عدة وليس اثنين فقط فلم يقتصر على العكــوف عن اللحم والألبان بــل كان حبيس البيت والــذات والغريزة وكان بسلوكه مختلــف عن سلوك سابقيه وقد يكون عن لاحقيه أيضاً.

- بمن تأثر الفنان محمد وهيب ثقافياً وفنياً؟

• لقد تأثرت ثقافياً بأكثر شعراء وأدباء العراق مثل السياب ونازك الملائكة إضافة إلــى تأثــري الشديد بالمتنبــي والمعري ونــزار قباني وبعض كتّاب الرواية والشعر الحديث. أمَّا علــى الصعيد الفني تأثرت بمخرجين متنوعين فمنهم من كان واقعياً ومنهم مــن كان رومنسيــاً ومنهم من كان يعتمد على الإبــداع والفنتازيا ومن هؤلاء إبراهيم جلال وهــو قامة عربية، وجاسم العبــودي، وجعفــر السعــدي وغيرهــم، وهذا مــا جعلني أتمكن من صناعة حركة موسيقيــة للصــور التشكيليــة التي ظلت مواكبة معظم المسرحيات على الرغم من الفواصــل الزمنية وتغييــر الأزياء والأداء والإنارة وكذلك كانت الأعمال تكتسب قوة الحضور وميزة الدهشة.

وإنَّ ما تأثرت به أحياناً جعلني في ضوء التحولات الفلسفيــة والجمالية والفكرية أعمــل مباشــرة بتجريب الواقــع القومي العربــي بصــورة مستوحــاة مــن التاريخ وهذا ما كان نهايتــه الوصول إلى التراث والمعاصرة في آن واحد.

- مـا رأيك بالدرامـا السوريـة؟ وما هي الأعمال التي تراها أكثر أهمية؟

• إنَّ الفــن فــي سورية بعضــه أصبح عالميــاً وتجاوز مــا تقدمــه كل الأقطار العربيــة بما فيها مصر وهــذا دليل على وجود قدرات هائلة فــي الكتابة والتمثيل

والإخراج وثقافة ناضجة ووعي اجتماعي لا نظير له لأنَّ المخرج السوري مع طاقمه الفني استطاع أن يقـدم الحالة الدرامية المعاصـرة بشكلهـا المتطـور والدراما التاريخيـة بشكلها المعاصـر أو بشكلها ومعناهـا المقنعين وهذا مـا وجدناه في مسلسـل الزيـر سالم مـع تحفظي على النهاية التي وصل إليها المخرج وإن كانت هناك أفـكار ورؤى تذهب إلـى مواجهة الثـأر والاقتتال بين الأقرباء وأبناء الوطن الواحد وكانـت خلافاً لمـا تتطلبه رؤية الشعب السوري أو حقيقة الزير سالم التي عاشت حياتها بالعنفوان وانتهت على غير ذلك إضافـة إلى كثير من أعمال المخرج العالمي نجـدت أنزور التي التزمت البنى النفسية والاجتماعية والتاريخية والوطنية كافة لهذا يجب أن يمتلك المخرج قدرات متنوعة وثقافات مختلفة.

- ما رأيك بالدراما والأعمال الفنية التـي قدمت في سوريـة خلال الحرب عليها؟

• وإن كانت هنـاك بعض الأعمال قد ظلت محافظة على مستوى الفن السوري المتألق إلا أن هناك تراجعاً ملحوظاً سببه هروب بعض الشخصيات الفنية وغيابها عن الساحة لزرع القلق في الوسط الفني والمنازعـات والخلافـات البنيوية وهذا ذنب لا يغفـر وأصبح من الخطأ أن يكون لهؤلاء دور في مستقبل سورية الفني فمن ترك وطنه متسبباً بـأي أذى ليس جديراً أن يعيش فيـه فكيف إذا كان هذا الوطن هو سورية العظيمة بمكوناتها الحضارية والاجتماعية والتاريخية وبمستقبلها الذي لا يمكـن أن يكون إلاَّ جميـلاً ناتجاً عن انتمائها العريق وتاريخها المشرف.

- هل يـؤدي الفـن العربـي دوره علـى الساحة الفنية والثقافية؟

• في أغلب البلدان العربية عكس الفن تحـولات مجتمعه فكان قاصـراً وناقص المعنى لا يقدم إلاَّ ما يشغل المجتمع في صغائر الأمـور ومعانيها وعلينا أن ندرك أن أكثر الدول العربيـة الآن في مواجهة المخططـات التي تحـاك ضدها وبعض الدول تعاني من وطأة حكامها المتعاملين مـع الغريب فالناتـج أن الفن لا يقدم ما يجب أن يكـون في المواجهة أو في شرح وتوضيـح تفاصيـل مستقبل هـذه الأمة وبالتالـي لا بدَّ من نهضـة فنية يستيقظ فيهـا الفنانـون ليكونـوا علـى مستوى المسؤولية التاريخية.

لمحة عن حياة الفنان المخرج

محمد وهيب

هـو محمد وهيب من العراق مخرج مسرحـي وتلفزيوني تخرج من معهد الفنون الجميلة في بغداد عام (١٩٦٤م) شغل العديد من المناصب والأعمال الفنية أهمها نقيباً للفنانين وهو عضو الهيئة التأسيسية لنقابة الفنانين أيضاً ومؤسساً لفرق مسرحية عديدة.

نال عدة جوائز في الإخراج المسرحي واختير رئيساً لرابطة الفنانين العراقيين الرافضين للاحتلال وفاز بأفضل مخرج مسرحي عدة مرات.

كتاب الشهر

الأبعاد الثقافية للحرب على سورية

عرض وتقديم: أماني الذبيان*



الحرب الثقافية هي معركة الصراع في السيطرة على عقول البشر، تلك الحرب الباردة التي تقوم بنشاط سري، هي حرب ناعمة تعمل كالدبيب في صمت قد تكون في أي مكان، تستخدم الثقافة لتغيير أذهان البشر لا تحتاج إلى عتاد حربي، هي حرب على المقدسات والعادات والتقاليد واللغة والتراث، وللحرب الثقافية مجالات عدّة ومتنوعة منها التعليمية والتربوية والإعلامية والفنية وغيرها..

* كاتبة من أسرة تحرير مجلة المعرفة.

يتنـــاول الكاتب مالك صقـــور في كتابه (الأبعـــاد الثقافيـــة للحرب علـــى سورية). فكرتين رئيستين هما:

- **الأبعاد الثقافية للحرب على سورية.**

- **أين الإنسان على هذه الأرض؟**

وكل فكـــرة رئيسة تتضمن مجموعة من الأفـــكار الفرعية إضافة إلى كلمة افتتاحية للكتـــاب التي تحدث فيها عـــن سورية الأم النضـــال المقاومة، يقـــع الكتاب في مئتين وثمانيـــن صفحة، صدر عـــن الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٥م.

استهل المؤلف كتابه بذكر الأبعاد الثقافية البعيدة وهـــي: الاستشراق - نظام التضليل الإعلامي- صدام الحضارات- المتلاعبون بالعقـــول- التلاعـــب بالوعـــي- الخطاب الديني- التفكير في زمن التكفير- الإسلام السياسي- البعد التربوي- المعارضة».

- هـــل تصلـــح الثقافـــة مـــا أفسدتـــه السياسة؟

هنا يؤكـــد الكاتب بسؤالـــه أننا نقصد المثقفيـــن المسؤوليـــن ولكـــن هـــم ليسوا أصحاب الـــدور الفاعـــل الأول في الدولة والمجتمـــع ولكن يجب عليهـــم قول كلمتهم وتحديـــد موقفهـــم لأن هناك مـــن ينتظر كلامهم وآراءهـــم والمثقف هو الذي يطرح السؤال مَنْ الملام؟ مَنْ المذنب؟ ما العمل؟ لكـــن المثقـــف لا يســـاوم ولا يقايضـــ ولا يخون.

يثبت الكاتب قول (هرمز الحكيم) ضمن فكـــرة أسماها «سقط القنـــاع»: (من عرف الجهل كان عاقلاً ومن جهل ذاته كان بذات غيره أجهل).

ويعـــرّج على قول أبي الطيـــب: (يا أمة ضحكت من جهلها الأمم) ص٤٩، هنا يؤكد أن الجامعـــة العربية منذ مؤتمرها الأول لم تفعـــل خيراً لهـــذه الأمة التـــي تضحك من جهلها الأمم التي جرّت الولايات إلى العراق وماذا فعلت في غزة؟ وليبيا ...؟ واليوم نقول سقط القناع...

صَـــوَّر صقور ضمـــن ما أسمـــاه النفق والخامس من حزيران العرب قد دخلوا في نفـــق، وفي نهاية النفـــق مصباح والمصباح بيد سورية، حيث لن تتحقق أحلام الطغاة

وهنا يستشهد بشعر بدوي الجبل ودرويش الـــذي أحسَّ أن الهزيمة فجـــرّت عاصفة كبيرة يقول:

أخذوا باباً.. ليعطوك رياح

فتحوا جرحاً ليعطوك صباح

هدموا بيتاً لكي نبني وطن.

وغيرهم كثـــر ممن تحدثـــوا عن نكسة حزيران مشيراً إلى دور بعض الحكام وحرّاس النفط في دعم العدو.

أمَّا في فكرة الشرق والغرب يؤكد أنَّ هناك عدداً من المثقفين لعبوا دوراً هاماً وخطراً في الحياة السياسية والثقافية منهم (بيدبا الفيلسوف الهندي- ميكافيلليّا لإيطالي) أراد كل منهما أن ينصح الحاكم على طريقته الخاصة حيث تحولا إلى رمزين في الثقافة العالمية يؤكدان ضرورة سلوك وموقف وإبداع المثقف في الحياة.

يتابع مالك صقور ليبحث في كتاب إدوارد سعيد (الثقافة والإمبريالية) فهو يعتبره من الكتب التي تستحق أن توصف بأنها عظيمة حيث يكشف فيه إدوارد خفايا الثقافة الإمبريالية والتشابك المتواطئ بين الإمبريالية والثقافة التي أنتجتها مجتمعاتنا. وباختصار هو تقديم أجوبة عن أسئلة أثارها كتاب (الاستشراق) يركّز على أن الحقيقة تكاد تنطبق على كل مكان في العالم غير الأوروبي، إلاَّ أنّ فرنسا وإنكلترا تمتلكان تراثاً غير منقطع من الكتابة الروائية لا نظير لها. يضم كتاب (الثقافة والإمبريالية) أربعة فصول ويقسم كل فصل إلى عناوين فرعية، يبدأ الفصل الأول بعنوان (أقاليم متقاطعة تواريخ متواشجة) وجعل لهذا الفصل خمسة عناوين فرعية حيث يبدأ إدوارد بالماضي فيقول: (إنّ استثارة الماضي هي بين أكثر الاستخطاطيات شيوعاً في تأويلات الحاضر) ص٧٤.

ليس عبثاً فبرأي إدوارد استثارة الماضي مستمدة بقوة من الحاضر وهو يدعم رأيه بقول الشاعر (تي .إس. إليوت) حول قضية التراث (إنَّ التراث يتضمن في المقام الأول الحس التاريخي).

ويتناول في الفصل الثاني السرد الروائي والفضاء الاجتماعي حيث يشرح وضع الإمبراطوريات وخاصة فرنسا التي اكتسبت الحيوية والطاقة من الموقع الامتيازي أمَّا الفصل الثالث فيخصصه للمقاومة والمعارضة حيث يتناول مقاومة الشعوب للاستعمار ونيلها حريتها واستقلالها كما يركز على ثقافة المقاومة، وأن إحدى مهماتها الأولى هي استعادة الأرض وإعادة تسميتها وإعادة سكانها.

لينتقلبعد ذلك إلى فكرة جديدة يتحدث فيها عن العولمة والثقافة حيث يؤكد أن العولمة هي آخر مراحل الإمبريالية حتى الآن، ويستشهد بقول (الدكتور حسن حنفي) حول ظاهرة العولمة: (مفهومٌ ذاع في العقد الأخير للترويج لظاهرة اقتصاد السوق الحر) ص٩٤.

ثم يستشهد بقول مكسيكو حول تعريف الثقافة: (إنَّ الثقافة هي مجموع السمات

الروحيـــة والماديـــة والفكريـــة والعاطفية الخاصة التي تميّز مجتمعاً أو فئة اجتماعية بعينها، تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة والإنتـــاج الاقتصادي والحقـــوق الأساسية للإنسان ونظم القيـــم والأعراف والتقاليد والمعتقدات) ص٩٥.

ويشير إلـــى عولمة الاقتصاد التي تقود إلى عولمة الثقافة فالعولمة في رأي الدكتور حنفي (هي أحد أشـــكال الهيمنة الأوروبية على الشعوب غير الأوروبية).

ولا توجـــد ثقافـــة عالميـــة واحـــدة إلا ثقافة المسيطر الذي يمتلك أدوات إبداعها ونشرهـــا حيث إنّ الثقافة مهمة للعولمة من حيـــث المعنى الواضح لأنهـــا سمة جوهرية لكل عملية معقـــدة والتفكير فـــي العولمة مـــن حيث بعدها الثقافـــي يكشف طبيعتها الديالكتيكيـــة في الأساس علـــى نحو بالغ الوضوح، ويطرح في النهاية سؤالاً مهماً هل مـــن أمل في انبعاث ثقافـــة عربية جديدة، ووعي ثقافي جديد يحصّن المواطن ويقوي المناعة فيه ضد (ثقافة الإرهاب)؟..

أمّا ضمن ما أسماه بانتظار صحوة ثقافية، يؤكد أنه على المثقفين العرب أن يستيقظوا لرسم خارطة ثقافية جديدة تواجه التحدي الكبير والخطر الذي يجتاح الأرض العربية برمتها، وهذا لن يتحقـــق بمثقف واحد بل نحتاج إلـــى مؤسسات ثقافية رسمية وأهلية من أجل صحوة ثقافية عربية.

هذا ضمـــن المحـــور الأول لينتقل إلى المحور الثاني حول فكرة أين الإنسان على هذه الأرض؟

يبـــدأ الكاتب استشهاده بقـــول أفلاطون: (إذا ذاق المـــرء قطعة من لحم الإنسان تحوّل إلـــى ذئب). ثم نراه يـــورد مقولة لكازانتزاكي الـــذي يثبت ويبرهـــن أنّ الإنسان لم يتخلص بعد من الوحش القابع في أعماقه والدليل هو ما يجري في أنحاء متفرقة من هذا العالم.

ويستشهد بمجموعة من الآيات القرآنية لصـــورة الإنسان على أنـــه خصيم، جاحد، كافـــر، كفور، فتور، يائـــس، بائس، ظالم... ﴿**إنَّ الْإِنسَـانَ لَكَفُـور**﴾ (سورة الحج- الآية: ٦٦). ﴿**وَكَانَ الإنسَـانُ قَتُـوراً**﴾ (ســـورة الإسراء- الآيـــة: ١٠٠). و﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾(سورة العصر- الآية:٢).

ويحثنـــا للاستفادة مـــن موعظة السيد المسيح: (ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفســـه)، على الرغم من أنّ هذا الإنسان هو خليفة الله على الأرض وصورته ومثاله إلا أنه لم يستطع أن يغيِّر ما بداخله من هواجس.

لينتقـــل إلى مـــا أسماه (آفـــة العمى): يتحـــدث هنا عـــن رواية (مدينـــة العميان)

لـ(خوزيه ساراموغو)، فهي رواية رمزية يرمي من خلالها إلى أنه حين تنعدم العلاقات الإنسانية في المجتمع عندها يصاب الإنسان بحال من عمى الألوان ويصاب بالعمى النفسي وسرعان ما يعم العمى المجتمع كله، وكلما ازداد عدد العميان ازداد تفكك الروابط الاجتماعية والعلاقات الأسرية وانتصرت المعايير الأخلاقية السيئة، وهذا ينطبق على مشرقنا العربي وتحديداً على وطننا سورية نؤكد أن حالة العمى قد أصابت أكثرهم.

ثم يَطرح علينا سؤالاً ينقلنا لفكرة أخرى: مَنْ هو بطل هذا الزمان؟

يثبت أنّ لكل عصر من العصور سمة تميزه عن غيره ولكل زمن اسم وتسمية وسمت بها العصور السابقة مثل عصر الظلمات وغيرها، فماذا يمكن أن نطبق على هذا الزمن؟

الزمن الراهن بعد كل هذا الازدهار وهذا التقدم في الميادين كافة ما دام أنّ الهمجية قد أخرجت كل غرائزها دفعة واحدة تحت مسميات عديدة فماذا يمكن أن نطلق على أدب هذه المرحلة؟ ألا يليق بأدب هذه المرحلة تسمية تفوق أدب اللامعقول؟ ليعود ويطرح سؤاله الأول. مَنْ هو أو مَنْ هم أبطال العصر؟

أمَّا ضمن ما أسماه ثقافة المعنى نراه يذكر مما أتى على ذكره الأديب والفيلسوف (غارودي) حول ثقافة اللامعنى التي تعمم التسطح والتشيؤ والتي تهيمن على عقول الشباب فلا تدعهم يتدبرون ولا يفكرون، بل تسيطر على عقولهم وهنا ينشط تغيب العقل ثم احتلاله ثم تتم عملية غسل الدماغ وما يجري في البلاد العربية من ليبيا وتونس ومصر وسورية والعراق خير برهان على ذلك..

ينتقل الكاتب إلى فكرة أخرى حول الحرب والأخلاق والأدب وأشياء أخرى ليستهل بقول محمود درويش: (أنا والغريب على ابن عمي وأنا وابن عمي على أخي وأنا وشيخي عليّ هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة في أقبية الظلام).

لقد كشفت هذه الحرب الظالمة أموراً كثيرة ولكن الموجع هو موقف المثقف العارف الوطني الذي يراقب كيف بدأ وَهْمُ الربيع العربي وكيف تطور مساره إلى النهاية الفاجعة في تونس وليبيا ومصر وسورية وعلينا أن نعترف أننا نواجه أزمة أخلاقية حيث يورد قول أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

في هذه الأيام تتجلى أهمية هذا البيت الذي ينطبق معناه ومضمونه على العرب عامة فالأمة التي تحفظ قيمتها أمة يكتب لها البقاء...

ثم نراه يتحدث عن الحرباء وآفة النفاق، فالحرباء هي التي تستطيع تغيير لون جلدها ويقال عن فلان أنه حرباء أي أنه منافق، لقد كتب الأديب الروسي الشهير (أنطون تشيخوف) قصة (الحرباء) هذه القصة التي جسدت النفاق من خلال أنموذج بشري له مكانته في المجتمع وبدت براعته في القصة على أنه أظهر عملية التلون - النفاق في دقائق معدودة بمشهد قصصي قصير ليحدثنا مالك بعد ذلك عن رواية (أرض النفاق) ليوسف السباعي الذي كشف آفة النفاق في البيت والدائرة والحكومة والجامعة العربية.

يقول الكاتب ضمن ما أسماه (آفة الكذب): إذا كان الصدق هو الفضيلة الأولى فإن الكذب هو الرذيلة الكبرى والديانات كلها رفضت الكذب وعلّمت أتباعها ومريديها تجنب الكذب ويستشهد بكتاب (فلسفة الكذب) للدكتور (محمد مهدي علّام) يضم الكتاب ثمانية فصول يتحدث فيها عن الكذب والحدود الفاصلة بين الصدق والكذب، وصور الكذب، والكذب والصراحة، والكذب المباح ليختم بقوله: (إنَّ الصدق شجاعة والكذب جبن ولؤم).

أمَّا بين الثقافة والسياسة فنراه يؤكد على أن الكتب التي تناولت السياسة والثقافة وعلاقتهما كثيرة جداً منذ أفلاطون وحتى اليوم فقد جاء في كتاب (ستالين حقائق وأكاذيب) لمؤلفه (فلاديمير جواخري) حول لقاء أجري مع ستالين لمناقشة طرق التطوير اللاحق للأدب والفن ليركز ستالين على أنه يجب علينا استيعاب ما يجري وأنّ الأدب يعد مكوناً من أهم مكونات الأيديولوجية المهيمنة في المجتمع يستخدم لحماية مصالح الطبقة المهيمنة، أما في الاتحاد السوفيتي لحماية مصالح الكادحين أي دولة ديكتاتورية البروليتاريا، ثم يدحض ستالين مقولة (الفن للفن) ويؤكد أنه لا يمكن أن يوجد فنانون وكتّاب وشعراء ومسرحيون أحراراً وهم مستقلون عن المجتمع أي لا تعنيهم قضايا المجتمع. وطلب من الذين لا يستطيعون خدمة الشعب بكتاباتهم بوسعهم أن يحصلوا على إذن للخروج والسكن الدائم في الخارج، ثم نراه يتحدث عن خطاب ألقاه جمال عبد الناصر في الخامس والعشرين من

شهر نيسان عام (١٩٦٨م) بدأه بالحديث عن المثقف (المثقف هو الذي يفكر في أحوال المجتمع ككل).

(المثقف ملتزم يجب أن يحدد دور الالتزام ودرجات الالتزام فبالنسبة للمثقف الالتزام الوحيد هو التزام بالارتقاء بالمجتمع وبالحياة عن طريق المشاركة في العمل والتوجيه السياسي والفكري).

ويتابع عبد الناصر: (المثقفون مطالبون بأن يقودوا حوار جماهير الشعب وأن يعطوا المزيد من الوضوح والخصوبة والعمق) ولكن نأسف ونحن نرى المثقفين تركوا دورهم الأساسي ورحلوا وابتعدوا عن عملهم.

أمَّا بالنسبة لفكرة صورة المثقف فيقدم لنا صوراً للمثقف، فحسب أدونيس إنه المثقف الطليعي، ووفق غرامشي المثقف العضوي الحقيقي، ووفق ميشيل فوكو المثقف الشمولي، ووفق إدوارد سعيد المثقف الثوري، وهادي العلوي المثقف الكوني، أمَّا صالح عبد العظيم يفصّل حال المثقف في الماضي والراهن وفي رأيه الأنماط يتم تحديدها من خلال الممارسات الحياتية اليومية للمثقفين فيصنفها على الشكل التالي (التاجر، المؤسسة، الحبُّوب، المطيباتي، الصفيق، الأستاذ الدكتور، الزوجة)، ليختم بقوله: (إن المثقف هو العارف) وهذا المثقف العارف إن لم يوظف ثقافته في خدمة وطنه ومجتمعه، وإن لم يكن هدفه ونبراسه وغايته الإنسان، وإن لم يناضل في سبيل الخير والحق والحرية والمساواة فلا خير فيه ولا خير في ثقافته.

ليعرّج على رواية (جورج أورويل ألف وتسعمئة وأربعة وثمانون والنفاق المزمن وفن الكذب المهيمن) هذه الرواية التي تفضح النفاق والكذب الفجور والشرور والتزييف والتزوير وإنّ وزارة الحقيقة هي وزارة الباطل ومن يقرأ الرواية في هذه الأيام يعرف كيف يتم التزوير وقلب الحقائق ليختم مالك صقور كتابه بفصل تحت عنوان (الثقافة والمثقفون من عصر الانحطاط الأول إلى عصر التفكير الإرهابي الانحطاط الأخطر): فيقول المسافة شاسعة والفرق هائل والمفارقات مرعبة والمفاجآت صاعقة وموجعة بين ما كان وما هو كائن وما يجب أن يكون ليس على صعيد الثقافة والمثقفين فحسب بل يشمل مناحي الحياة كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، فمرحلة التحرير الوطني والنهوض القومي كانت قصيرة لذلك يقترح تشكيل ورشة عمل ثقافية من (وزارة الثقافة،

اتحاد الكتاب العرب، وزارة الإعلام، وزارة التربية، وزارة الأوقاف، دار الإفتاء) وذلك من أجل وضع خطة عمل ومشروع ثقافي لتجديد الخطاب الثقافي والتربوي والديني لمواجهة الفكر الإرهابي التكفيري والتعصب الطائفي.

تبدو أهمية هذا الكتاب الخامسة من كونه يتمثل قيمة معرفية جديدة، لاسيما في ظل ما يجري من أحداث على الأرض السورية وما يلفت الانتباه أن المؤلف كان جريئاً في مخاطبة الواقع في ظله الآني والمستقبلي محذراً من تبعات الفكر المضلل بتعاويذه السوداء والتي تنسيها الحضارة السورية منذ زمن طويل وسيظل هذا الكتاب مرجعاً أميناً وعلامة شاخصة في تحليل أبعاد الحرب الكونية والثقافية على سورية.

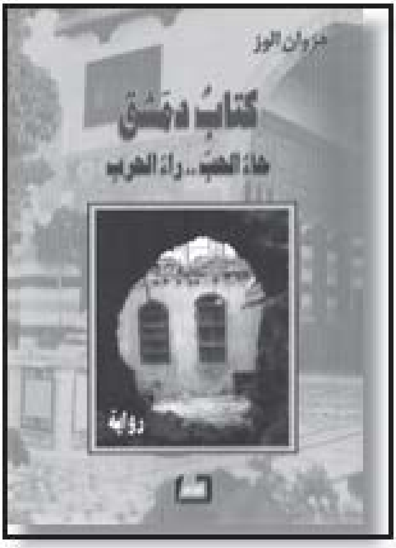
نافــذة على

إصــدارات جـديـدة

إعداد: حسني هلال *

كتاب دمشق

حاء الحب... راء الحرب



سرير القلب.. سائليني يا شآم.. في البدء كان الحب.. في انتظار أمس..

العناوين الخمسة أعلاه، هي عنوانات الأبواب أو الأجزاء التي وضعها الدكتور هزوان الوز، لكتابه «كتاب دمشق» الرواية الصادرة حديثاً عن دار الفارابي اللبنانية.

يقول المؤلف في إهدائه لأحد الأصدقاء على أولى صفحات روايته: «الكتابة شهادة على الواقع، وأحياناً شهيدته..»

---

* أديب دمشقي سوري.

وقد كتب الناشر في شهادة له على غلاف الرواية:

هذه رواية سوريّة بامتياز لا لأن كاتبها سوري، أو لأن «حكيّها» سوري، أو لكليهما معاً، بل لأنها تهجس بسورية الوطن والدولة والمؤسسات والحضارة والتاريخ والمستقبل..

من نافل القول، أن القرّاء على أنواعهم وألوانهم - بمن فيهم النقاد - هم مَنْ ينفون أو يؤكدون... يخالفون أو يوالفون شهادة الناشر بهذه النسبة أو بتلك.. بيد أن ما أفصح عنه قلم المؤلف في إهدائه، إضافة إلى ما نوّه به الناشر في شهادته يدفعان بنا نحو التساؤل، عن الأسباب الكامنة، خلف طباعة رواية «كتاب دمشق» خارج دمشق؟

كواليس المبدعين

بإحساس المبدع وحرفية الإعلامي، يطل علينا الكاتب الصحافي المخضرم «هاني الخيّر» عبر جديده «كواليس المبدعين» رقم (١٢٩) من سلسلة آفاق ثقافية التي تصدرها الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق.

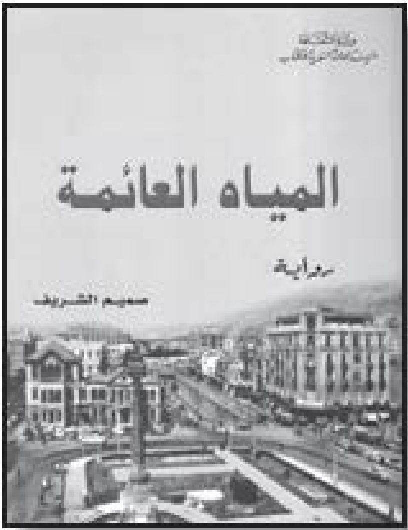
لا يضير «الخيّر» الذي عوّدنا، عبر ما سبق من كتبه، أن يأخذ بيدنا إلى المتذوق توّاً من أخبار سوالف الساسة والسياسيين، لاسيما الحار منها بطرافته أو تطرّفه، لا بل يوسّع من خياراته وتخيّره، بما ينعكس تخصيباً على مخزون المتلقي «إجلاءً للمكتوم وإغناءً للمعلوم».



يعرض زميلنا الخيّر، في جديده آنف الذكر، الذي يُشتمّ منه شيء من ملاحقة الزمن للكاتب وعودته إلى متناثر الأوراق - على أهميتها - يعرض لمناسبات ولحظات خاصة «نادرة وحساسة» من حيوات أدباء وكتّاب، لئن نوافقه ونشكره على نشرها، فقد لا نجاريه الرأي فيما ذهب إليه من ترجيح وتحليل وتحليل.

من هؤلاء الأدباء والكتّاب: ميّ زيادة، نزار قباني، جبران خليل جبران، محمد مهدي الجواهري، غادة السمان، عزيزة مريدن، وغيرهم وغيرهن.

المياه العائمة



كثيرها من مراحل التحوّل في تاريخ الشعوب، بما هي اصطفاء لما قبلها من نتائج، ومخاض لما بعدها من ولادات، تجترح مرحلة «قُبيل الجلاء» في تاريخنا، أهميتها الخاصة، في سورية وسائر بلاد الشام، ما جعلها محطّ أنظار المفكرين والمبدعين، ومائدة غنية، توافرت عليها بنات وأبناء الفن والأدب، من كل حدب وصوب.

رواية «المياه العائمة» للمبدع الراحل «صميم الشريف» الصادرة مؤخراً عن الهيئة العامة السورية للكتاب في دمشق، هي من الأعمال الجادة والجديدة، التي تتخذ من الأعوام القليلة، في دمشق ما قبل الجلاء (بمائها ودمائها وأحداثها وأرضها وسمائها) بطلاً أولاً لها.

لئن كانت كتابة المؤرخ عن فترة معينة، هي توثيق إخباري لأحداثها.. كتابة الأديب، توثيق أدبي لأصداء دوافع تلك الأحداث ونتائجها، على شرائح المجتمع.. فلا غرو إن تآزرت لمؤلف الرواية مثار كلامنا هنا - أديباً وموسيقياً - أسباب للتوثيق، تأثراً وتأثيراً، ما بين حيثيات الأحداث وترجيعاتها، ليس على الإنسان فحسب، وإنما على المكان والزمان والأحياء والأشياء.

ربما عامت على مياه السرد في الموضوعات الرئيسة للرواية، بعض النقاط الخفيفة، كأن تتسع جادة أو حارة صغيرة في وجدان الروائي، لتطغى على مساحة ما حولها في الواقع.. ويتضخّم منعكس مشكلة امرأة ما في الواقع المروي، فتبدو كظاهرة اجتماعية في الواقع الروائي، بيد أن لا هذا ولا ذاك من شأنه أن يشوّش على الهارموني الفني للرواية ولا أن يخلخل درجات السُّلّم الإبداعي للمؤلف.

مائدة الوقت



قد تذهب الكراهية بالكاره، بينما تأتي المحبة بالحب والمحبين..

قد يودي الشرّ - عدا صاحبه - بالأشرار والأخيار، في حين يمكث الخير في حامله، ويطال الآخرين حتى الشرّيرين منهم.

ويذهب اللغو وعادي الكلام هباءً وأدراج الهواء، بيد أن الشعر يمكث طيّ الأفئدة، فتنبش جذوته كلما استدعته الحاجة.

يقتصر الشاعر سامر كحل، في أشعاره الراهنة «مائدة الوقت» الصادرة حديثاً عن الهيئة العامة السورية للكتاب، على الوجدانيات الحميمة، وهي على أحاديّتها ليست قليلة، كما لم تكن يوماً:

جلستُ../
وكان لانتظارِكِ مائدة الوقتِ../
أفردتُ شراشفَ ليلٍ/
وأقداحٍ من أنجمٍ/
وتقاسمتُ والصمتُ/
أرغفةً، من سكون. ص٥٨.

كي تتسع الجمل لرهافة حُشاشة الروح.. كي ترتفع سخونة الكلمات، إلى مستوى حرارة الجسد.. وكي تستحق الحياةُ الحياةَ، كان لا بد من ضرورة الحب في الحياة.

لانتظارِكِ خمسين ألف قصيدة../
وكنتِ الضرورة/
في كل شيء. ص٢٨.

❁ ❁ ❁